

تاريخ آسيا الوسطى

الدكتور
إسماعيل محمود



الفهرس

- 9 المقدمة
- الفصل الأول:**
- 19 تاريخ أسيا
- الفصل الثاني:**
- 31 أسيا الوسطي التنافس الدولي في منطقة مغلقة
- الفصل الثالث:**
- 53 أسيا الوسطي التاريخ ومسألة الهويات القومية
- الفصل الرابع:**
- 59 العرب وانتشار الإسلام في أسيا الوسطي
- الفصل الخامس:**
- 67 دول أسيا الوسطي
- الفصل السادس:**
- 81 دول أسيا الوسطي أو الستانات الخمسة
- الفصل السابع:**
- 91 أسيا الوسطي بين الماضي والحاضر والمستقبل

الفصل الثامن:

الإسلام والأترك الوافدون من آسيا الوسطى إلى الأناضول 103

الفصل التاسع:

الظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطى 131

الفصل العاشر:

المستقبل الإسلامي لشعوب دول آسيا الوسطى 145

الفصل الحادي عشر:

مستقبل الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى 207

الفصل الثاني عشر:

الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى 219

الفصل الثالث عشر:

التغلغل الإسرائيلي في دول آسيا الوسطى 253

الفصل الرابع عشر:

التطرف الإسلامي في آسيا الوسطى 329

الفصل الخامس عشر:

التأثير الأيديولوجي للروس على مسلمي وسط آسيا والقوقاز 329

الفصل السادس عشر:

245 آسيا الوسطى والقوقاز تحت الاستعمار الروسي

الفصل السابع عشر:

357 آسيا الوسطى والاستعمار الروسي

الفصل الثامن عشر:

365 المرأة ومظاهر الحياة العامة في آسيا الوسطى

الفصل التاسع عشر:

371 "إسرائيل" ودول آسيا الوسطى مصالح متبادلة أم استغلال صهيوني

الفصل العشرون:

381 الحكايات الملحمية في آسيا الوسطى

385 المرجع

المقدمة

آسيا الوسطى أو وسط آسيا منطقة جغرافية تقع في قارة آسيا تضم كل من أوزبكستان وتركمانستان وكازاخستان وطاجيكستان وقرغيزستان. تبلغ مساحة المنطقة نحو 4،003،400 كم² ويسكنها 61 مليون نسمة.

بالرغم من أن تعريف هذه المنطقة موجود، إلا أنه لا يوجد تعريف متفق يقبل عالمياً لوصف هذه المنطقة. مع أن تحديد حدود المنطقة بشكل دقيق لم يحسم، تشترك المنطقة في الكثير من الخصائص العامة الهامة. أحدها أن آسيا الوسطى كانت من الناحية التاريخية مترابطة بشكل وثيق. ونتيجة لذلك كانت منطقة تقاطع الطرق لحركة الناس، والسلع، والأفكار بين أوروبا، والشرق الأوسط، وجنوب آسيا، وشرق آسيا على طول أحد فروع طريق الحرير. تعرف أحياناً باسم آسيا الداخلية، فهي تقع ضمن مجال القارة الأورآسيوية الأوسع. ولغتهم (الفارسية وتركية واوزبكية وكزاخية ومغولية).

عربية آسيا الوسطى وهي مجموعة من تنوعات اللغة العربية المحكية في أوزبكستان وطاجيكستان وهي حالياً تواجه الانقراض. كانت هذه اللهجات محكية بين مجتمعات عربية كثيرة من البدو والحضر الذين سكنوا مناطق سمرقند وبخارى وقشقدرية وسرخندرية (في أوزبكستان المعاصرة) وختلون (في طاجيكستان المعاصرة) وكذلك في أفغانستان.

كانت الموجة الأولى من المهاجرين العرب قد هاجرت إلى تلك المناطق في القرن الثامن الميلادي أثناء الفتوحات الإسلامية ولحقت بهم مجموعات من عرب بلخ وأندخوي (في أفغانستان المعاصرة)، وبسبب تأثير الإسلام أصبحت العربية لغة العلوم والآداب في تلك الحقبة، وقد عاش معظم عرب آسيا الوسطى في مجتمعات منعزلة ولم يؤثر الزيجات المختلطة (لكنها وجدت) مع الجماعات المحلية، وقد ساعد هذا اللغة على البقاء في مجتمعات متعددة اللغات حتى القرن العشرين.

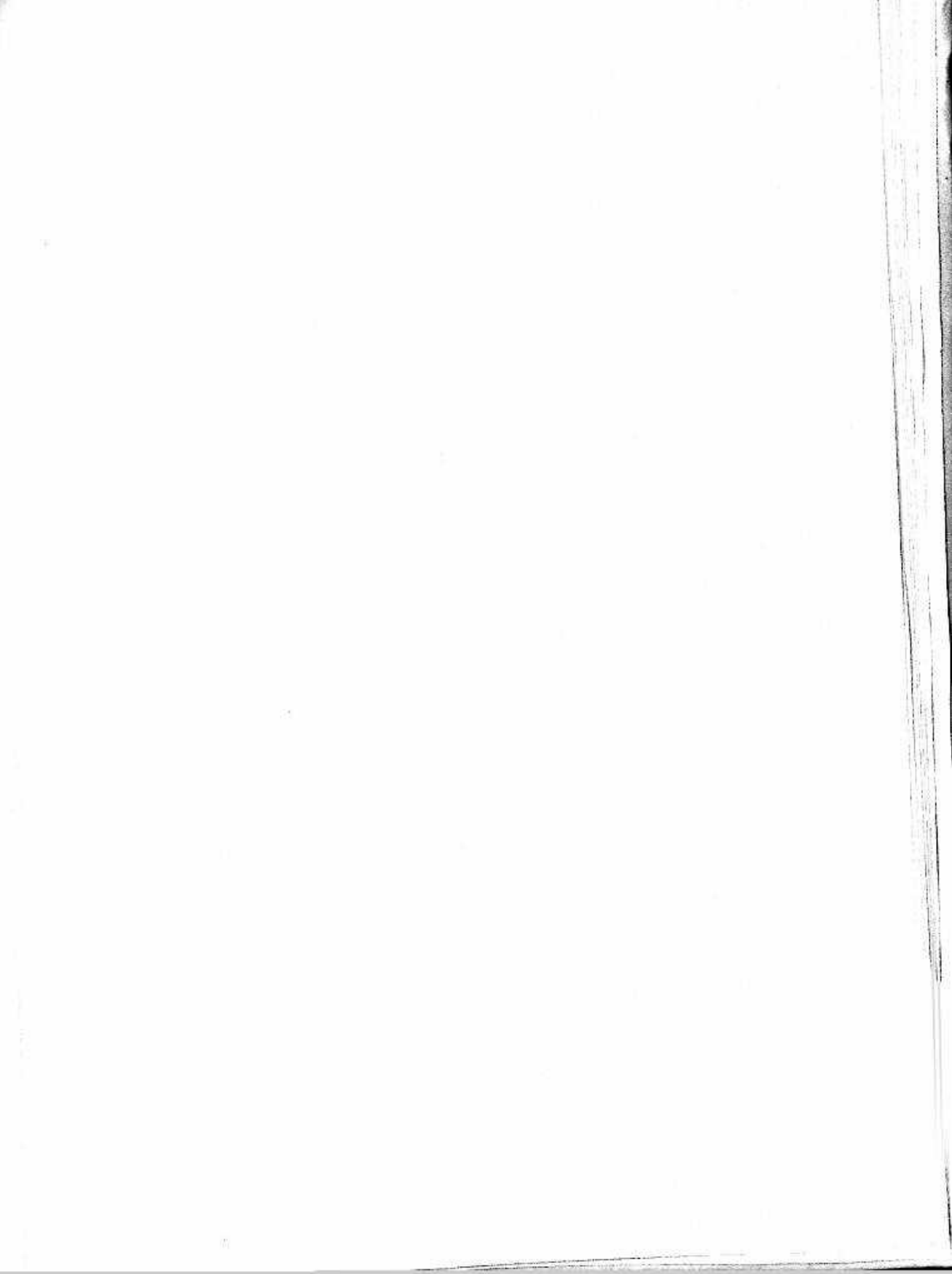
بجول ثمانينيات القرن التاسع عشر هاجر كثير من العرب الرُّحَّل إلى شمال أفغانستان نزوحاً مما أصبح الآن أوزبكستان وطاجيكستان فراراً من الاجتياح السوفيتي لآسيا الوسطى. معظم هؤلاء الآن لا يتحدثون العربية التي استبدلوها بلغة داريوالأوزبكية، وبتأسيس الحكم السوفيتي في أوزبكستان وطاجيكستان واجهت المجتمعات العربية فيهما تغيرات جذرية في اللغة والهوية باضطرارهم إلى هجر أسلوب حياة الارنحال والاستقرار في المدن التي يختلطون فيها بالأوزبك والطاجيك والتركمان.

طبقاً لإحصاء أجري في 1959 فإن 34٪ من العرب، أغلبهم من المسنين، كانوا يتحدثون العربية بطلاقة اللغة الأم، بينما أوضح الباقون أن لغتهم الأم كانت الأوزبكية أو الطاجيكية. حالياً بقيت العربية الآسيوية الوسطى محكية في خمس قرى في سرخندرية وقشقدرية وبخارى (متأثرة بشدة بصوتيات ونحو ومفردات اللغات الأخرى)

توجد في أوزبكستان لهجتان عربيتان محكيتان على الأقل: البخارية (متأثرة بالطاجيكية) والقشقدرية (متأثرة باللغات التركية). كل من هتين اللهجتين غير مفهومة للمتحدثي اللهجة الأخرى؛ وفي طاجيكستان فإن لهجة عربية لا تزال محكية بين 35.7٪ من السكان العرب وقد حلت محلها الطاجيكية على السنة الباقيين.

الفصل الأول

تاريخ آسيا



الفصل الأول

تاريخ آسيا

إذا كانت أفريقيا مهد للأجناس البشرية تعتبر قارة آسيا مبعث الحضارات القديمة حيث شهدت عدة حضارات عبر تاريخها الموهل في القدم، وكلها مستقلة عن بعضها.

فلقد أظهرت الحفريات أن الإنسان عاش بأسيا منذ آلاف السنين. وهذا ما تشير إليه حفرة جمجمة إنسان بكين التي وجدت قرب منطقة بيجنج بالصين وحفرة جمجمة إنسان جاوة بجزيرة جاوة بإندونيسيا وعمرهما يرجع إلي 500 ألف سنة. وهما من نوع الإنسان المنتصب الذي عاش في آسيا منذ مليون سنة. وهو سلف الإنسان العاقل. وقد إختفي الإنسان المنتصب من آسيا منذ 150 ألف سنة.

أقدم حضارة عرفت قامت في الوديان الكبرى حول أنهار في جنوب غرب آسيا وشمال غرب الهند وشمال الصين. ورغم تعدد هذه الحضارات لكن سماتها الحضارية واحدة. فكلها كانت مجتمعات زراعية قامت بتنظيم نظم الري وترويض الفيضانات. وغارات البدو جعلت هذه المجتمعات تعيش في مدن مسورة للدفاع وتوفر الحماية للقواد الإورستقراطيين. وكان لاختراع المحراث سنة 3000ق.م. ضاعف محصولية الزراعة وقلل الحاجة للأيدي العاملة وجعلت العمال إلي عمال مهنيين. ولوفرة الإنتاج في الزراعة والصناعة جعلت هذه المجتمعات تلجأ لتبادل السلع مع الثقافات الأخرى.

ففي بلاد ما بين النهرين (نهريدجلة والفرات) بالعراق وشرق سوريا يطلق عليها مهد الحضارة بأسيا حيث كانت سومر لها ثقافتها منذ 3000ق.م.

فلقد قام السومريون بالري عن طريق القنوات وإستعملوا البرونز وصنعوا آلاتهم من الحجر المصقول والفخار المشوي المصنوع بالعجلة والمنسوجات وبنوا المعابد والقصور ورحلوا علي عربات لها عجل وأجروا بالمراكب. وكان لهم تقويمهم الدقيق حيث عرفوا

من خلاله الفصول واخترعوا الكتابة المسمارية (مادة) التي أصبحت كتابة (مادة) عالمية. وعبدوا الشمس وكان لهم قانونهم المكتوب. وظلت بلاد ما بين النهرين موثلا للحضارة حتي القرن السادس ق.م. وهناك كانت بابل التي حكمها الكلدان من القرن السابع ق.م، وحتى القرن السادس ق.م. وقد إستولي عليها الآشوريون الذين كانوا جيران بالشمال، منذ القرن التاسع حتي القرن السابع ق.م. وفي القرن السادس أصبحت هذه البلدان تخضع للفرس.

ظهرت حضارة أخرى متطورة بالهند منذ 2300 ق.م. بوادي الهندوس (السند) في شمال غرب الهند وجنوب باكستان. فكما حدث في بلاد ما بين النهرين شق الهنود القنوات للري وتضاعفت المحاصيل وتكونت النظم السياسية والاجتماعية. وظهرت المدن وأهمها مديتا موهنجو دالرو وهرابا وكانتا شوارعها مستقيمة وبها مياه للشرب بالصنابير. وكان شعب وادي السند يستخدمون العربات المزودة بالعجلات ويتجولون بالمجوهرات والدمي وكان لهم لغتهم المكتوبة. وكانت الهند تتبادل القطن والمنسوجات مع بلاد ما بين النهرين. وخلال عامي 1500 ق.م. و1200 ق.م. داهتموجات من وسط آسيا منطقة السند ومعهم عرباتهم التي كان يجرها الخيول وخربوا المدن هناك واستقروا أخيرا بوادي نهر الجالنجيز بشمال شرق الهند. وكانوا يتكلمون لغات هندية آرية قديمة وهي أقدم لغاتهم الموجودة (كالسسكريتية). ومنذ 900 ق.م. وحتى 500 ق.م. قام هؤلاء المستوطنون بإنشاء المدن المستقلة (انظر دولة مدينة) وكانت كل ولاية تحكم حكما مطلقا. وكانت القنوات للري للزراعة قد شقوها وزرعوا الأرز الذي جلبوه من جنوب شرق آسيا.

في الصين قامت حضارة حوض نهر (هوانج هي) الذي يعرف بالنهر الأصفر ما بين سنتي 3000 ق.م. و1600 ق.م. وكان يضم مجتمعات زراعية كبيرة وكان أهلها يربون دود القز (الحرير) ويغزلون خيوطه وينسجونها. وكانوا يتاجرون في الحرير بواسطة قوافل الجمال عبر وسط آسيا. ورغم أن المجتمع الصيني كان متقدما ام يترك الصينيون سجلات مكتوبة حتي القرن 16 ق.م. وفي عهد أسرة زو الإقطاعي بالقرن 11 ق.م. بسطت نفوذها

علي مناطق بشمال شرق الصين حاليا وعلي حوض نهر يانغتسي والذي به أكبر كثافة سكانية بالعالم حاليا. وكانت زوهو تستعمل الأسلحة الحديدية وشقا لبطرق وتوسعت في نظم الري. وظهرت القوانين والفلسفة الكنفوشوسية في هذا العهد. وبدأت الحضارات المبكرة تنمو وتتفاعل لمدة 11 قرنت ما بين عامي 500ق.مز وحتى 600م. حيث اخذت الدول تتوسع لبسط نفوذها وتوسيع دائرتها كما فعل الفرس والإغريق. وخلال هذه الحقبة للاتصال والهجرة بين الشعوب إنتشرت الديانات الكبرى والفلسفات خارج منابتها.

في سنة 300ق.م. هزم الإسكندر الأكبر الفرس وكون إمبراطورية إغريقية إمتدت من اليونان حتي الهند وبعد وفاته بالخميسام 323ق.م. قسمت إمبراطوريته لثلاث ممالك وقام ملوكها الإغريق بإدخال الثقافة الإغريقية. وكانت المملكة الآسيوية الإغريقية قد إنقسمت لعدة ولايات. من بينها ولاية بكتريا التي سيطرت علي التجارة وطرقها من الشرق للغرب ومن الشمال للجنوب حيث كان تبادل السلع بينهم. فكان الحرير الصيني والقطن الهندي يرسل لليونان وروما ومنهما كان يرسل لآسيا الزجاج والذهب والمصنوعات الأخرى. وكانت الثقافة الإغريقية قد وصلت لبكتريا أولاورغم غزو البدو الكوشيين لها لكن الثقافة الهيلينية ظلت باقية. وكانت اللغة الهيلينية في القرن الأول م. لغة المال والتجارة والديبلوماسية. بعد ذلك دخلت الثقافة الإغريقية والرومانية غرب آسيا ولاسيما في القرن الرابع م. حيث قامت الإمبراطورية البيزنطية.

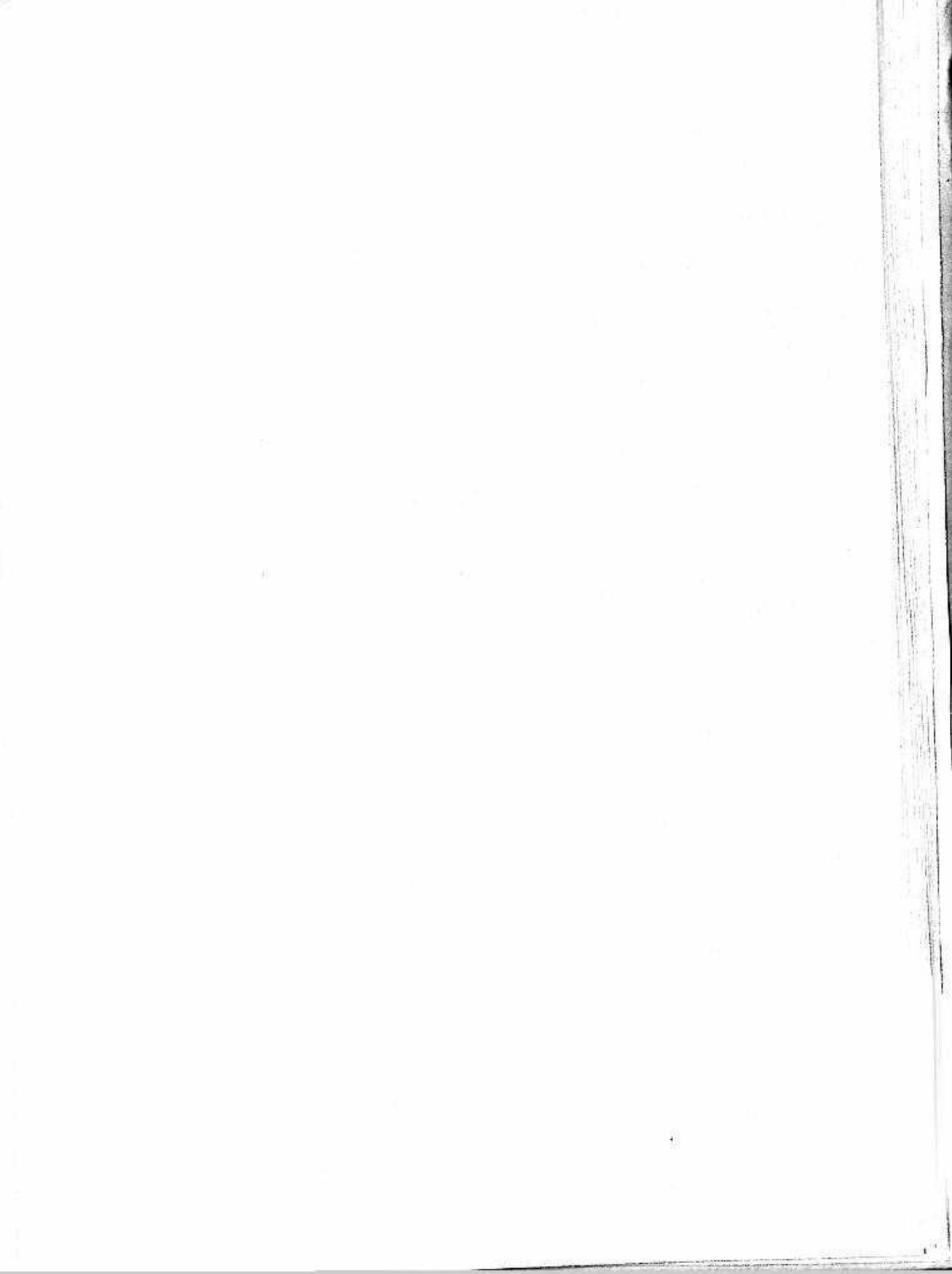
كان شمال الهند غزاه الفرس والإسكندر وهاجمه الرعاة من آسيا الوسطى تاثرت الثقافة الهندية بثقافات الغزاة. ونجد أن البوذية والهندوسية قد أثرتا في الفلسفة الإغريقية. وفي شمال غرب الهند ظهر نموذج النحت الإغريقي البوذي. وكان شائعا في القرن الثاني الميلادي. ولتبنى شمال الهند للبوذية استطاعت نشرها في آسيا الوسطى والصين. وفي سنة 320م ظهرت العمارة الهندية أيام حكم إمبراطورية جوبتا في وادي الجنجيز ورمم

سقوطها في القرن الرابع م. إلا أنها خلفت حضارتها حيث بلغت أوجها في العمارة والفن.

منذ سنة 206 ق.م. وحتى 200م، كان أباطرة عهد هان بالصين لديهم طموحاتهم. فقد بنوا نقاط مراقبة حصينة بالشمال فوق سور الصين العظيم وحواف الصحراء لحماية طرق القوافل التجارية الطويلة من غارات البدو. كان التجار العرب والفرس والهنود انوا يزورون عاصمة الهان بالصين. وفي عام 195 ق.م. إحتلت دولة هان أجزاء من شمال كوريا وأدخلت بها الثقافة الصينية. وبالجنوب دخلت ثقافة الصين فيتنام التي كان قد إحتلها الصينيون لمدة 1000 عام. وكانت حضارة هان قد شهدت تطورا في صناعة الفخار والتماثيل والرسم والموسيقى والأدب الصيني ولاسيما بعد اختراع الصينيين للورق. وخلال القرنين الرابع والسابع الميلاديين أصبح الكوريون بوذيين واتبعوا الكتابة الصينية. ومن كوريا دخلت الثقافة الصينية جزر اليابان. ومنذ القرن السابع وحتى القرن 18م، شهدت آسيا قوتين اثرتا في أحداث آسيا وهما ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي وانتشاره واكتساح المغول لمعظم آسيا وتهديد أوروبا بالغزو المغولي الكاسح. لكنهم دانوا بالإسلام وكانوا مصدر قوة له في آسيا ولاسيما بعد إقامتهم للإمبراطورية الإسلامية بالهند.

الفصل الثاني

آسيا الوسطى. التنافس الدولى فى منطقة مغلقة



الفصل الثاني

آسيا الوسطى. التنافس الدولي فى منطقة مغلقة

لمجحت آسيا الوسطى خلال الأعوام الخمسة عشر الماضية فى لفت الانتباه إليها بشدة فهذه المنطقة وإن كانت أكبر سجن جغرافى فى العالم، فإنه سجن انفتح بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، لتندفع إليه قوى آسيوية كبرى، أهمها إيران وتركيا والصين والهند، وقوى أخرى دولية، على رأسها الولايات المتحدة ومنذ ذلك الانهيار الكبير، تجرى فى تلك المنطقة الحبيسة حروب صامتة، تحاول فيها كل دولة وراثة ما أمكنها من روسيا التى احتكرت السياسة، والاقتصاد، والفكر، وكل شئ فيها طيلة 126 عاما منذ أن سقطت طشقند فى يد القيصر الكسندر الثانى عام 1865، إلى أن سقطت مرة أخرى هى وعواصم بقية الجمهوريات الخمس من يد سكرتير عام الحزب الشيوعى السوفيتى ميخائيل جورباتشوف فى 1991 وروسيا بدورها وإن استسلمت لخسارة المنطقة جغرافيا، فإنها لا تزال مصرة على الاستحواذ عليها استراتيجيا، فترقب ما يجرى فيها عن كسب وتحفظ لنفسها بأوراق مؤثرة، أهمها عشرة ملايين روسى لا يزالون يعيشون فيها، كما أنها تدخل مع قوى كبرى أخرى مهتمة كثيرا بالمنطقة، وتحديدًا مع الصين، فى ترتيبات أمنية من أجل احتواء الاندفاع الأمريكى الذى بدأ عقب نهاية الحرب الباردة، وازداد بشكل خاص بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، حينما احتاجت واشنطن إلى آسيا الوسطى كواحدة من منصات انطلاق حملتها العسكرية على أفغانستان الخريطة الجيوبوليتيكية لآسيا الوسطى:- فى إطار التنافس الدولى على المنطقة، كان من الطبيعى أن تدفع توازنات القوى إلى ظهور محاور، هدفها تعزيز فرص المتدخلين فى كسب السباق فالدول التى تبحث عن أعلى العوائد وجدت أن عليها التنسيق مع فاعلين آخرين، وهو ما نشأت بسببه تحالفات وتحالفات مضادة، أبرزها محور روسى - صينى تعبر عنه منظمة شنغهاى للتعاون، والذى تنسق معه إيران بانتظام، مقابل محور آخر أمريكى ينسق مع

عدد من دول الاتحاد الأوروبي والناو، وأحيانا مع تركيا، وكثيرا مع إسرائيل وهذا لا ينفي بطبيعة الحال أن التنافس يحدث أيضا داخل كل محور ومن هنا، يأتي تعبير - المباراة الكبرى - الذى يشيع لوصف التنافس الدولى الجارى على المنطقة فهى بالفعل مباراة مركبة تتنافس فيها الدول نفسها التى تتعاون مع بعضها، مثل روسيا والصين، وتتعاون فى ظلها الدول نفسها التى تتنافس ضد بعضها، كما هو الحال بالنسبة لتركيا وإيران وهى تقلبات تحتمها المصالح وتفرضها تقديرات اللاعبين للاستراتيجية المثلى لنجاح محاولاتهم للسيطرة على المنطقة وهى محاولات ليست سهلة أو مضمونة، لأن المنطقة وإن كانت حيصة جغرافيا، فإن السيطرة عليها منذ نهاية الحرب الباردة أقرب إلى محاولة الإمساك بالزئبق فآسيا الوسطى اليوم - كما كانت دوما عبر التاريخ - تمثل - ثقب العالم - وذلك وفقا لتشبيه الباحث الشهير فى شئون التنمية أندريه جوندرو فرانك (1) فهى تشد إليها بموقعها ومواردها إمبراطوريات وقوى كبرى، تحملها على التزاحم عليها والتنافس من أجلها، ثم بعد ذلك تدفعها بقسوتها بعيدا عبر هذا الثقب الجغرافى الكبير لتدخل قوى أخرى جديدة وهكذا وآسيا الوسطى - كما يغطيها هذا القسم من الملف - تشمل خمس دول فقط، هى: - أوزبكستان، وتركمنستان، وطاجيكستان وقرغيزستان، وكازاخستان، والتى يصل مجموع مساحتها إلى نحو أربعة ملايين كم² (3.994.400 بالتحديد) أى ما يساوى 29.5% من مجموع مساحة الدول العربية وتحديد دول المنطقة بالاسم هنا مقصود، لأن لها تعريفات مختلفة تضيف إلى ما سبق دولا وأراضى أخرى فآسيا الوسطى ليست مساحة جغرافية جامدة، وإنما نظام إقليمى يتسع أو يضيق، وفقا للمعيار الذى يأخذ به الباحثون فم المنظمة الدولية - مثل اليونسكو - أنتجت مؤلفا عن تاريخ المنطقة قبيل تفكك الاتحاد السوفيتى، اعتمدت فيه على معيار المناخ ووفقا له، فإن آسيا الوسطى تضم - إلى جانب الجمهوريات الخمس سالفة الذكر - منغوليا، وإقليم غرب الصين، وشمال شرق إيران، وأفغانستان وغرب باكستان (2) أما المعيار الذى يأخذ به هذا التقرير، وتعتمده كثير من وزارات الخارجية عبر العالم، فسياسى خالص يعتبر أن هذه الدول الخمس بالتحديد تشكل منطقة قائمة بذاتها، لأن علاقات القوة السياسية التى ربطتها بروسيا

تغيرت 180 درجة بحلول عام 1991 فروسيا وإن كانت قد آلفت التدخل في مناطق قريبة من تلك الجمهوريات، مثل أفغانستان، فإن الدول الخمس وحدها هي التي قبعت لأكثر من قرن خلف الستار الحديدي، إلى أن سقط لتجد نفسها فجأة وقد خرجت من جرة إلى بحرة وبقدر ما سعت الدول الخمس إلى الخروج من القمقم الإقليمي الذي كانت تعيش فيه لترى ما يحدث من حولها في العالم، كان العالم بدوره شغوفاً بالدخول إلى هذا القمقم بعد أن رفع عنه الغطاء، ليكشف من جهة عما كان يحدث فيه، والأهم لبحث لنفسه عن نصيب من الفرص فيما تمتلكه المنطقة من ثروات مؤكدة من النفط والغاز الطبيعي والأهم أكثر ليمنع عن نفسه شرورا يمكن أن تخرج من هذا الصندوق لتعبر الحدود، وتطول أمن واستقرار دول عديدة واقعة في الجوار القريب والبعيد للمنطقة على السواء، من بينها التطرف الإسلامي، والإرهاب، وتجارة المخدرات، والصراعات العرقية وبانفتاح الصندوق، تمكنت دول المنطقة من التخلص من الاحتكار الإقليمي والتبعية المطلقة لروسيا، لتبدأ مرحلة جديدة تتصف بالسيولة الإقليمية Regional Fluidity التي أتاحت لعدد من القوى الإقليمية والدولية اختراق المنطقة والنفوذ إليها وهي حالة فرضتها الجغرافيا الحبيسة للمنطقة، وحاجتها إلى شركاء خارجيين جدد إلى جانب روسيا، شركاء يمكنونها من النفاذ إلى العالم عبر أراضيهم، ويقدمون لها سندا يستطيع موازنة النفوذ الروسي الذي لا تزال جمهوريات المنطقة تحمل تجاهه شكوكا تاريخية عميقة ومع تنوع الشركاء الخارجيين، تراجعت العلاقات بين الجمهوريات الخمس لتتحول آسيا الوسطى، شأنها في ذلك شأن المنطقة العربية، من فاعل بإمكانه التأثير في العلاقات الدولية، إلى مسرح كبير تلعب عليه الدول الكبرى القادمة بسرعة من الخارج ومع أن آسيا الوسطى تختلف عن المنطقة العربية في عدد من النواحي، إلا أن التحليل الإقليمي المقارن يكشف أيضا عن وجود أوجه أخرى للشبه بينهما وتختلف المنطقتان في أمرين وتفتقان في أمرين آخرين أما الاختلاف فيظهر في الجغرافيا وفي التاريخ فالمنطقة العربية ليست حبيسة جغرافيا كآسيا الوسطى، كما أن الدول العربية سبقت تاريخيا دول آسيا الوسطى إلى الاستقلال، فنالت في خمسينيات وستينيات القرن الماضي وبدأت عملية بناء الدولة وسط

موجة التحرر من الاستعمار، بينما تأخرت دول آسيا الوسطى ثلاثين عاما، فنالت استقلالها في عصر العولمة، مما يؤكد بالفعل أنه قد قذف بها من جرة، إلى بحيرة وأن التنافس الدولي عليها لم يأتيها بالتدريج، وإنما هبط عليها فجأة هذا عن أوجه الاختلاف أما أوجه الاتفاق، فتبين في الأهمية الاستراتيجية للمنطقتين وفي الميول السياسية لدى النخب الحاكمة فيهما فاستراتيجيا، تعد الاثنتان منطقتي معابر وموارد، إذ تتحكم كل واحدة منهما بطرق مرور دولية رئيسية تزيد من حدة التنافس الدولي عليهما فآسيا الوسطى هي صرة طريق الحرير الرابط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، والعالم العربي، من جهته، يمتلك نقاطا مفصلية تربط قارات العالم القديم بعضها ببعض علاوة على ذلك، تتمتع المنطقتان بمخزون هائل من موارد الطاقة، يسيل له لعاب القوى الصناعية الكبرى أما بالنسبة للميول السياسية لنخب الحكم، فتشابه في بعدين، الأول:- هو عدم أولوية المسألة الديمقراطية لديها، مما يجعل السياسات الخارجية لدول المنطقتين حكرا على قلة مسيطرة والثاني:- أن هذه القلة المسيطرة غالبا ما تبحث في الخارج وليس في الداخل أو في الجوار الإقليمي القريب عن مظلة حماية سواء كانت لأمن النظام أو لأمن الوطن، كما تبحث في الخارج أيضا عن منافذ لتصرف منتجاتها، الأمر الذي يفتح الباب في المنطقتين على مصراعيه أمام الاختراق الخارجي والإشارة إلى العالم العربي هنا ليست مقحمة على الموضوع، وإنما هدفها وضع علامة توضيحية أمام القارئ العربي، تقرب له صورة ما يجري في آسيا الوسطى، وتبين أمامه أن هذه المنطقة - شأن المنطقة العربية - لا تحكم تفاعلاتها الإقليمية بنفسها، وإنما تقررها منافسات عالمية كبيرة تتجاوز قدراتها، كما أنها تعج بمخترقين يتفاوتون في مستوى القوة، وتجري بينهم داخل هذا الصندوق صور متنوعة من التنافس صورة من داخل الصندوق:- الفراغ دائما يستدعي من يشغله، والفراغ الذي خلفه سقوط الاتحاد السوفيتي في آسيا الوسطى حرك قوى إقليمية ودولية عديدة وشجعها على دخول الصندوق ولم يكن أمام - دول الصندوق - إلا الترحيب بالقادمين الجدد، ماداموا سيفكون عنها جسها المزدوج:- السياسي لروسيا، والجغرافي للطبيعة التي حرمتها منفا إلى البحار وهذان العاملان فقط:- الخوف من

روسيا، والانحباس الجغرافى يفرضان على الجمهوريات الخمس القبول باللعبة الدولية الكبرى المستمرة فى المنطقة منذ 1991 ومع إدراكها خطورة استضافة لعبة الأمم على أراضيها، فإن دول آسيا الوسطى لم يكن أمامها خيار آخر، فهى تقف ضمن مجموعة من اثنتين وأربعين دولة حبيسة فى العالم، وهو ما تفقد بسببه نحو 15% فى المتوسط من عوائد صادراتها، مقابل نفقات النقل وحدها (3) ولهذا، لم تكن هذه الدول لتعترض على القادمين الجدد إلى ساحتها، ماداموا سيوفرون لها - فى إطار المباراة الكبرى - المنافذ التى تستطيع من خلالها تصدير ثرواتها إلى المرافئ النهائية للحصول على عوائد تدعم استقلالها، وتحافظ على سيادتها أمام روسيا غير أن الجمهوريات الخمس لم تدخل اللعبة الكبرى كلاعبين، لأن ذلك يزيد بكثير على إمكاناتها، كما أنها لم تكن لتكتفى بالمشاهدة من موقع المتفرجين، لأن ذلك يقل بكثير عن مقوماتها، وإنما دخلوا اللعبة على أساس أنهم أصحاب الساحة، وأن من حقهم أن يسعوا للحصول على أعظم عائد ممكن، مقابل فتحها أمام اللعبة الدولية الكبرى، بحيث يرسو العطاء، أن جاز التشبيه، على من يدفع أعلى الأسعار ولأن لمحج الحكم فى تلك الجمهوريات هجرت، منذ الاستقلال، التفكير بالأيديولوجيا، وتتصرف بمنطق عملى محض فإنها تدير الساحة التى تمتلكها بأسلوب يوفق بين فنون الإثاحة وفنون الإزاحة فهى تعقد صفقات طويلة الأجل مع القوى الكبرى متى كانت مأمونة الجانب، لتيح بموجبها لتلك القوى فرصة الوجود فى مواقع مؤثرة فى المنطقة وعادة ما تكون هذه الصفقات ذات طابع اقتصادى يركز على استثمار ثروة تقدر بنحو 40.792 مليار برميل من النفط، و204.6999 مليار قدم مكعبة من الغاز (4) وإلى جانب ذلك، تستغل تلك النخب السياسية الطلب المرتفع على ساحتها الإقليمية، فتبطل صفقة لتستبدلها بأخرى، مما يتسبب فى إزاحة قوى وإثاحة الطريق أمام أخرى وعادة ما يكون ذلك مرتبطا بأسباب سياسية تتصل مباشرة بأمن نظم الحكم، وشعورها بأنها ستكون فى درجة أمان أكبر، لو أن المباراة الكبرى مالت لمصلحة طرف على حساب آخر وقد وضع ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - فى المباراة الدائرة بين روسيا والولايات المتحدة على من منهما يمتلك المفاتيح الأساسية للأمن فى المنطقة فقبل

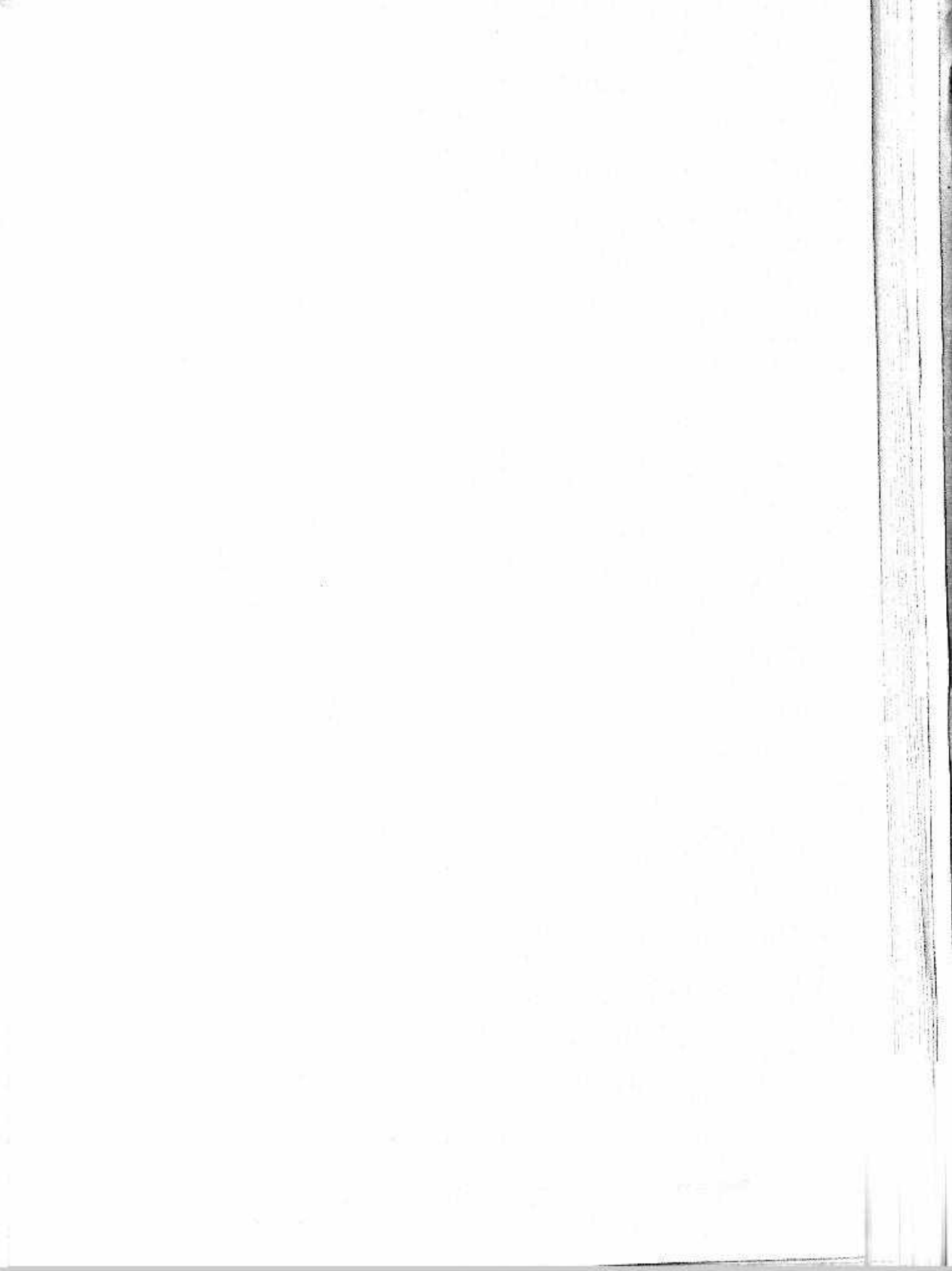
أحداث الحادى عشر من سبتمبر، كانت أوزبكستان، وهى أكبر دول المنطقة سكانا، تبعث بإشارات إلى واشنطن، تعلن من خلالها عن استعدادها للتقارب معها وفتح الساحة الإقليمية أمامها لتتقدم على حساب موسكو وقد تأكد ذلك حينما أعلنت عن انسحابها عام 1999 من معاهدة الأمن الجماعى المنبثقة عن كومنولث الدول المستقلة، التى تمنح روسيا غطاء قانونيا يبرر وجودها العسكرى فى المنطقة ثم أتت أحداث الحادى من عشر من سبتمبر 2001 ليتحول ذلك الغزول الاستراتيجى إلى واقع، حينما فتحت أوزبكستان أبوابها، وسمحت للولايات المتحدة باستعمال قواعد ومنشآت عسكرية على أراضيها، أبرزها قاعدة خنا أباد إلا أن روسيا - التى لم ترتح لوجود القوات الأمريكية فى جوارها القريب فى آسيا الوسطى - انتهزت أول فرصة للتوتر بين الجانبين الأوزبكى والأمريكى فراحت تدفع مع الصين، التى تساورها الشكوك أيضا فى الوجود الأمريكى، من أجل إزاحة واشنطن بعيدا وقد أتت تلك الفرصة فى مايو 2005، حينما وقعت أعمال عنف فى مدينة أنديجان الأوزبكية، وجهت واشنطن بسببها انتقادات علنية لسجل حقوق الإنسان فى أوزبكستان، مما أزعج السلطات الأوزبكية، ودفعها لمراجعة الطريقة التى تؤجر بها ساحتها الإقليمية فموضوع الديمقراطية وحقوق الإنسان غير مستحب الخوض فيه عند قادة المنطقة ولهذا، بدأت أوزبكستان بعد أحداث أنديجان فى فتح ساحتها من جديد أمام روسيا، فطلبت من واشنطن سحب قواتها من قاعدة خنا أباد، ثم انضمت فى يناير 2006 إلى الجماعة الاقتصادية الأورو - آسيوية Eurasec، مما قربها أكثر من موسكو والأهم أنها عادت فى 2006 إلى العمل مع منظمة معاهدة الأمن الجماعى التى سبق أن انسحبت منها فى 1999 وقد شجع التغير فى موقف صاحب الساحة كلا من الصين وروسيا، فأصدرتا فى يوليو 2005 بيانا عن منظمة شنغهاى للتعاون، التى تجمعهما مع دول آسيا الوسطى باستثناء تركمنستان، يطالب الولايات المتحدة بتحديد جدول زمنى لسحب قواتها من المنطقة ولتأكيد عملية الإزاحة أكثر، قررت الدول الأعضاء فى منظمة شنغهاى للتعاون ودول منظمة معاهدة الأمن الجماعى، فى نوفمبر 2006، إجراء مناورات عسكرية مشتركة فى جبال الأرال الروسية خلال 2007 ومن جانبها، سعت

واشنطن إلى معالجة ما تعرضت له من إزاحة، فبدأت تظهر حرصا أكبر على عدم الخوض في قضية الإصلاح الديمقراطي في المنطقة، من ناحية، بعد أن تأكد لها أن ذلك يفسد عليها مصالحها، وعلى البحث من ناحية أخرى عن بدائل تعوض خسارتها في أوزبكستان، يسعى جون أبى زيد، قائد المنطقة المركزية الأمريكية، لإيجادها في تركمنستان، وبالتحديد في قاعدة ماري، وذلك مقابل تعهد قدمه، خلال زيارته لعشق آباد في أغسطس 2005، بأن واشنطن في مقابل الحصول على تسهيلات عسكرية، ستضمن عدم الإطاحة بنظام الحكم في تركمنستان (5) وإذا كانت روسيا والولايات المتحدة والصين أبرز القوى المتنافسة في المنطقة، فإنها ليست الوحيدة، وإنما هي دول المستوى الأول فقط من بين ثلاثة مستويات تنقسم إليها الدول الداخلة في المباراة الكبرى وتستطيع هذه الدول الثلاث، بحكم قدراتها، أن تدير معاركها إما مباشرة أو بالوكالة والملمح الأهم للمنافسة على هذا المستوى هو ميل بكين وموسكو إلى تعزيز التنسيق بينهما لاسيما وأن الاتجاه الأحادي الذي تتبناه الإدارة الأمريكية الحالية في العلاقات الدولية يشجع الطرفين على ذلك، حتى لا يختل توازن القوى في منطقة عازلة Buffer Region تمنع وصول كثير من الشرور إليهما أما المستوى الثاني، فيضم القوى المتوسطة، سواء بالنظر إلى حجمها في النظام الدولي مثل تركيا وإيران، أو قياسا إلى درجة تغلغلها في المنطقة مثل دول الاتحاد الأوروبي، وعلى رأسها فرنسا، وبريطانيا، وألمانيا، أو الهند، وباكستان القادمتان من جنوب آسيا وباستثناء دول الاتحاد الأوروبي، فإن الدول الأخرى على هذا المستوى جاءت حاملة معها من مناطقها منافسات قديمة وثارا تاريخيا تحاول أن تصفيه بعيدا، وأن تصنع لنفسها امتدادا إقليميا في آسيا الوسطى يقوى مكانتها في مناطقها الأصلية أما المستوى الثالث، فيشمل مجموعة من الدول القمامة - Scavenging States التي تنافس على ما تبقى من كعكة الموارد والفرص في المنطقة، وتكتفى عادة بالمشروعات قصيرة الأجل محدودة العائد، كما يتصف وجودها بأنه رمزي أكثر منه فعليا ولو اهتم بعض من هذه الدول بلعب دور أكبر، فيتم ذلك عبر التحاقها بقائمة الوكلاء عن إحدى القوى الكبرى المتنافسة ومن دول هذا المستوى، تأتي الدول

العربية، وبعض دول أمريكا اللاتينية، وجنوب شرق آسيا ويؤكد التنافس الدولى على المستويات الثلاثة أن آسيا الوسطى ولدت ضعيفة، تعاني حالة هشاشة بنيوية تجعلها غير مهيأة لبلوغ الكفاية الأمنية بنفسها، وتدفعها بشكل دائم للبحث عن كفيل لها فى الخارج فالمنطقة، منذ أن انفتح صندوقها، وهى نموذج للمناطق الرخوة Soft Regions التى تحفل بتحديات الأمن التقليدية، إلى جانب ما يعرف بمشكلات الأمن الرخو على الجانب التقليدى، تقف دول المنطقة أمام جبايرة عسكريين لا قبل لها بهم فالموازنات الدفاعية للدول الخمس مجتمعة لا تزيد على 0.15٪ من ميزانية الدفاع الباكستانية، و0.03٪ من الميزانية الصينية، و0.016٪ من الميزانية الروسية (6)، وهى فجوة قوة تغرى دول الجوار القريب قبل البعيد على دخول المنطقة، والتشبث بالبقاء فيها كذلك، فإن التهديدات العسكرية المتبادلة بين جمهوريات المنطقة الخمس، والمرتبطة عادة بمخلافات الحدود، تزيد من ضعفها أمام الخارج، وتدفع بها دائما إلى البحث عن غطاء خارجى للمساعدة أما على الجانب غير التقليدى، فتغص المنطقة بالتحديات البيئية، والصحية، ومشكلات تهريب المخدرات، واللاجئين والصراعات العرقية، ومظاهر التطرف الإسلامى، وجميعها مشاكل عابرة للحدود تجعل أمن المنطقة إزاء تلك المشاكل مرهونا بقرارات تتخذ فى عواصم خارجها وبسبب مشكلات الأمن التقليدى وتحديات الأمن الرخو معا، وفى ظل الطبيعة الجغرافية المغلقة للمنطقة، فإن القوى التى تنفذ إليها لا تستطيع الخروج منها إلا بشق الأنفس فالمنطقة - كما سبقت الإشارة - تعتبر ثقب العالم، وهى صندوق، ضيق من دخل فيه عليه أن يمر عبر هذا الثقب متى حان وقت الخروج ونتيجة للمزاحمة على دخول الصندوق، نشأت فى آسيا الوسطى حالة - احتباس استراتيجى - تجذب المنطقة بمقتضاها، ثم تمتص، ثم تحتزن أدق وأصغر المشكلات الإقليمية والدولية لتحوّلها إلى مواجهات كبرى تغلى دون أن يسمع لها بالضرورة صوت فطابع آسيا الوسطى المغلق لا يتيح للأصوات المدوية أن تمر بسهولة إلى الخارج.

الهوامش

- ((1 Andre Gunder Frank, 'The Centrality of Central Asia', Comparative Asian Studies, vol8 Amsterdam, VU Press 1, 1992 - '
- ((2 Dani, AH and VM Masson, eds, UNESCO History of Civilizations of Central Asia, Paris Jonas Hagen UNESCO, 1992
- (3)- 'Trade Routes for Landlocked Countries - 'UN Chronicle', Dec, 2003, http://www.findarticles.com/p/articles/es/mi_m139/is_4_40/ai_114007078
- (4) بيانات إدارة الطاقة الأمريكية - <http://www.eia.doe.gov/emeu/international/reserves.html>
- ((5 Central Asia - :The Great Game Heats Up, Stratfor Strategic Report, <http://www.Stratforbiz/products/premium/printsphp?StoryID=255960>
- (6) The International Institute for Strategic Studies, The Military Balance 2006, New York -:Routledge, 2006



الفصل الثالث

آسيا الوسطى التاريخ ومسألة الهويات القومية

الفصل الثالث

آسيا الوسطى التاريخ ومسألة الهويات القومية

{ منذ قرابة العقدين والمعطيات والمتغيرات تشير إلى أن كلتا منطقتي آسيا الوسطى (المركزية) والقفقاس ستكون من المناطق الساخنة جداً بعد أفغانستان والعراق؛ لأهميتها الجيوستراتيجية والإقتصادية عالمياً. فهي بمساحتها البالغة (3/994/400 كم²) وعدد نفوسها المناهز ستين مليون نسمة، وثرواتها الهائلة: المعدنية، الزراعية والحيوانية؛ قد عاد حضورها والتطلع إليها والاهتمام بها عالمياً، عقب إنهيار الإتحاد السوفياتي، حيث ظفرت دولها الخمس باستقلالها، وهي جمهوريات: كازاخستان، قيرغيزستان، تاجيكستان، أوزبكستان وتركمانستان، وراحت شتى دول العالم تسعى إلى ودّها، وإقامة العلاقات معها، وتمويل العديد من المشاريع الإستثمارية فيها، ومن ثم تحقيق ماتروم من مصالح إقتصادية وسياسية؛ بشتى الطرق والوسائل المتاحة. ولا بد من الإشارة إلى السعي المستميت للولايات المتحدة الأمريكية لبقاء قواتها في العراق تمهيداً للعبور وبسط هيمنتها على بحر قزوين لموقعها المهم جداً جيوستراتيجياً واقتصادياً (بترولياً بالأخص) .

وهنا نتغيّاً إلقاء الضوء على إحدى أهم مسائل هذه المنطقة، ألا وهي مسألة إعادة صياغة الهوية القومية والوطنية في هذه البلدان؛ بتقديم ترجمة القسم الأهم من الفصل الأول من كتاب (جايكاه ايران در آسيای مركزى) للباحث المختص مهدي سنابي نهاوندي (ط1/ طهران/ 1998) علماً أن هذا الفصل يتطرق إلى العلاقات الثقافية، التاريخ المشترك، العادات والتقاليد المشتركة، الإسلام، التصوف واللغة الفارسية بين إيران وهذه البلدان. ولا يخفى على المطلع الحضيف مايشوب طرح المؤلف من مسحة (بان إيرانيومية) بادية، أو مغلفة بغلالة إسلاموية، وكذلك مجافاته للموضوعية عند تقديمه المشاهد التاريخية للمهدين القيصري والسوفياتي؛ لاسيما تجاهله لحقيقة تاريخية جلية، ألا وهي أن العهد السوفياتي، رغم سلبياته، كان بالمقارنة مع سابقه نقلة إيجابية في تاريخ آسيا

الوسطى على شتى الصُّعد: السياسية، الإقتصادية، الإجتماعية والثقافية، ولا مجال في هذه الفسحة لنطرح وجهة النظر الموضوعية، التي تتطلب بطبيعتها وقفة أطول ومناقشة مستفيضة...

إن شتى الروابط والأواصر بين إيران وآسيا المركزية مبنية على العلائق الثقافية بصورة ملفتة للنظر. وبعد إستقلال جمهوريات آسيا المركزية، إبتداءً وقبل كل شيء، ثمة سوابق مشتركة لوشائج إيران معها، تسترعي الإلتباه، حيث يُشار في المقالات والتصريحات وكثير من الكتابات إلى الأرضيات المتعددة كالتقاليد المشتركة والدين المشترك والعلاقة مع اللغة الفارسية، في المنطقة ذاتها؛ فهناك مبدئياً قبول شعبي لجمهورية إيران الإسلامية في أوساط مواطني آسيا المركزية، وإن الإستقبال هذا مرتبط بالإحساس النابع من التاريخ المشترك لشعوب إيران وآسيا المركزية؛ إذ أن للقسم الأعظم من بقاع آسيا المركزية الراهنة خلفية تاريخية مشتركة مع إيران، كما أن لعلاقة شعوب آسيا المركزية وإيران جذوراً في العادات والتقاليد والأعراف المشتركة.

تعود علاقة آسيا المركزية مع إيران إلى ما قبل ظهور المسيحية، حيث كانت أمحاء كبيرة من آسيا المركزية الحالية أجزاء من إيران في الماضي الغابر⁽¹⁾ فقد هيمن (الماساجتيون) إبان (القرنين 4 و3 ق.م تقريباً) على جميع الأقوام البدوية الرحالة في آسيا المركزية من الشمال إلى الشرق حتى جبال (تيان شان) ومن المحتمل أنهم كانوا قد أخضعوا معظم أقوام سهوب كازاخستان؛ مما أدى ذلك إلى إنتشار ثقافتهم، التي كانت مقبسة إلى حد كبير من ثقافة إيران الهخامنشية (الأخمينية) كما طال تأثير الفن الإيراني بعض الحرف اليدوية بصورة جلية حقبتهذ. ولقد عاش قبلهم السكا والسارمات (وهما من الأقوام الإيرانية اللغة) إبان (القرنين 6 و5 ما قبل الميلاد) في سهوب آسيا الوسطى، وخاصة كازاخستان الحالية. ولئن نشر الماساجتيون ثقافتهم الموسومة بـ (البروخورفكائية) فإن الثقافة الإيرانية- كما أسلفنا- كانت داخلة في تكوينها، ناقلة معها الكثير من عناصر الثقافة السارماتية القديمة⁽²⁾

إن القسم الأعظم من آسيا المركزية هو (ماوراء النهر) القديم نفسه، حيث كان موطن الآريين ولغة (الإيرانية) الوارد ذكرها في (الآفيستا) وكان يضم أيضاً أقساماً من آسيا الوسطى. ولقد أصبحت منطقة آسيا المركزية المسماة قديماً بـ (ماوراء النهر) أو (خراسان الكبرى) بعد ظهور الإسلام وانتشاره أحد مراكز التحولات العلمية والثقافية، وكانت للإيرانيين مساهمة كبيرة في نشر الإسلام هناك، حيث تأسست مدارس إكتسبت رونقها الخاص من النظم والأصول التعليمية والتربوية لأيران الغابرة؛ حتى أضحت مركزاً لإنجاب وتنشئة العديد من العلماء الكبار⁽³⁾ ثم خضعت بقاع ماوراء النهر وفرغانة إبان القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين لسيطرة القراخانيين، ثم المغول، ثم الجغتائيين، ثم التيموريين، ومن ثم دخلت الدولة الخوارزمية إلى الساحة خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري (12م) وبلغت أوج قوتها في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه.

مع أن الحكام الترك كانوا ذوي علائق مع الخلافة العباسية، ويعملون للحيلولة دون تقدم وشيوع التشيع ونفوذ الإيرانيين، إلا أن العناصر الإيرانية قد تمكن من بسط نفوذها السياسي والثقافي، وفي سائر مجالات التمدن الإسلامي: العلوم، الفنون، المعارف، الحكمة والآداب؛ فحدث تقدم شامل. وهذا الأمر يبيّن دون ريب وجود نظام تربوي وتعليمي مرتبط بالثقافة الإيرانية، لاسيما وإن الثقافة والتعليم عموماً قد حققا ميزات بارزة في هذه الحقبة، في سائر أرجاء إيران، وبالأخص في خراسان وماوراء النهر.

وخلال الفترة (القرن التاسع حتى الثاني عشر الميلادي/ 3-6هـ) نزح التركمان والأوزبك إلى أنحاء آسيا الوسطى، مشكلين فيها قوة كبيرة، ثم احتل الأوزبك أجزاء من آسيا الوسطى، في أواخر القرن السادس عشر الميلادي (9 و10هـ) وقد أفلح محمد خان شيباني في (1500-1501م/ 905-906هـ) في بسط سلطته على مدينة سمرقند، وتأسيس الدولة الشيبانية، بعد خوض حرب ضد حفدة تيمورلنك (1336-1405م) وبعد بسط سيطرتهم على ماوراء النهر وخراسان؛ شن الشيبانيون غزوة على كازاخستان،

وشكلوا قوة عظيمة في المنطقة. وفي سنة (1610م/915هـ) شن الشاه عباس الصفوي (1571-1629م) حرباً على الشيبانيين؛ لتحرير خراسان وماوراء النهر، ولقد إندحر فيها الأوزبك. وظل الشيبانيون يحكمون أرجاء آسيا الوسطى حتى سنة (1599م/1007هـ) إذ إنتقلت السلطة إلى أيدي الهشترخانين في تلك السنة. وفي أربعينات القرن (18م) شن نادرشاه حملة عسكرية على هذه المنطقة، وكان نادرشاه (1688-1747م) يتغياً إعادة الوحدة السياسية بين إيران وماوراء النهر، والتي مزقها الشيبانيون من قبل، وقد أفلح في الإستيلاء على بخارى.

ومن جانبها بدأت الإمبراطورية الروسية فعاليتها في القرن (18م) وقد إستطاعت حتى نهليته أن تستولي على بقاع واسعة من آسيا الوسطى، وفي هذا السياق خضعت مدينة بخارى التاريخية لها في سنة (1834م/1242هـ) ثم ضم الروس تركمانستان في (1862م/1270هـ) إلى أراضي روسيا القيصرية. وبعد إندلاع الثورة البلشفية في (1917م/1325هـ) تغير إسم الإمبراطورية الروسية إلى (الإتحاد السوفياتي) الذي شرع في إيجاد نوع من الهوية الثقافية الموحدة لسائر سكان أراضيه.

كان (طريق الحرير) طوال التاريخ حلقة إتصال بين إيران وآسيا الوسطى، وعبر دراسته؛ يمكن العثور على معلومات كثيرة عن تاريخ وثقافات المجتمعات، التي كانت تعيش حوالبه، رافق الحرفيون والفنانون والمعماريون القوافل المارة على الطريق المذكور، حاملين ثقافتهم وآدابهم وعاداتهم وتقاليدهم إلى أقصى البقاع. وجلي أن طريق الحرير يتصل من أحد طرفيه بالحضارة اليونانية واللاتينية، ومن الطرف الآخر بحضارة آسيا الشرقية والصين؛ وعليه يمكننا تلمس التأثير الثقافي المتبادل بين الحضارتين، فمثلاً نجد تماثيل لبوذا مصنوعة أو منحوتة بالإسلوب اليوناني والروماني.

ولقد كانت للمدنية والثقافة الإيرانية والإسلامية مكانتهما على امتداد هذا الطريق، حيث وصلت العلوم والمعارف واللغة الفارسية والثقافة الإيرانية إلى المجتمعات الأخرى. ويرقى أوج حقب الإرتباط الثقافي على (طريق الحرير) إلى حقبة تأسيس

وازدهار الدول والدويلات حواليا؛ فقد تأسست حقبتهذ مكبتات كبيرة في المدن الواقعة على الطريق الأنف الذكر، وزادت وتيرة تبادل المعلومات والمعارف بين المجتمعات الإسلامية واليونان والصين؛ وهكذا استحال (طريق الحرير) على مدى التاريخ وسيلة حضور مشهود للغة والثقافة الإيرانيتين، في المدن الواقعة عليه وحواليه من بخارى حتى كاشغر.

نما أسلفناه؛ ندرك أن الثقافة والتقاليد والفنون الإيرانية، سواء في الحقبته، التي كان فيها ماوراء النهر جزءاً محسوباً ضمن الأراضي الإيرانية، أو مابعدھا، فقد كانت مشهودة في كافة مناحي حياة شعوب آسيا الوسطى. ومن هنا فإن لغات أقوام آسيا الوسطى مليئة بالكلمات والإصطلاحات الفارسية:

نان:

خبز/ داروخانه: صيدلية/ آشخانه: مطبخ/ كوجه: زقاق/ بيغامبر: نبي، رسول/ فرشته: ملاك) والعشرات من المفردات الأخرى الفارسية، التي مازالت أقوام آسيا الوسطى تتداولها، ثم إن الآثار الأدبية والفنية الكلاسيكية المعروضة في متاحف هذه المنطقة مدونة على العموم باللغة الفارسية، باستثناء البقاع الشمالية من كازاخستان، والتي لم تكن مأهولة حقبتهذ. وكذلك يتجلى الفن والمعمار الإيرانيان في أكثر العمائر الأثرية، المشيدة في تلك الحقب التاريخية السابقة، في سائر مناطق آسيا الوسطى، حيث يمكن تلمس أسلوب المعمار الإيراني في مدارس ومساجد بخارى، والمدارس العلمية في سمرقند، والمساجد والأبنية القديمة في جنوب كازاخستان ومنها ضريح المتصوف الكبير الخواجه احمد يسوي (1113-1167م) والعشرات من الأبنية الأخرى، التي تشاهد على جدران أكثرها أسماء بناتها ومشيدتها الإيرانيين، ويمكن تلمس الشبه الكبير بين الأسلوب المعماري لمدرسة (شيردار) في سمرقند ومدرسة (مير عرب) في بخارى، حتى ضريح اليسوي في مدينة تركستان بجنوب كازاخستان، وأسلوب مدرسة (جهار باغ) ومسجد إمام أصفهان والأبنية التاريخية الأخرى، في سائر المدن الإيرانية، حيث يتشابه

المظهران الخارجي والداخلي لسائر هذه العمائر مع نظيراتها الإيرانية تشابهاً دقيقاً. وحتى عقب خروج هذه المناطق عن سلطة وسيطرة إيران المباشرة، ومع شيوع الثقافة الإسلامية في آسيا الوسطى؛ ظل حضور ثقافة الإيرانيين مصاحباً لنشر وترويج الإسلام، بشكل يمكن يمكن مشاهدة معالم التمدن الإسلامي في عموم المنطقة، حيث كان للإيرانيين دورهم المؤثر في نشر الإسلام وترويج اللغة والثقافة الإيرانيين في عين الوقت؛ فقد تعلم الشعب الأوزبكي الكثير من الفروض والأحكام الإسلامية باللغة الفارسية، حيث مازالت (صلاة الجنازة) مثلاً تؤدي باللغة الفارسية.

يرى راقم هذه السطور أنه يمكن فهم كل ما هو موجود من ثقافة ومدنية في آسيا الوسطى، ويتعلق بالقرون الأولى لظهور الإسلام وما بعدها، في إطار (تبادل الخدمات بين الإسلام وإيران) وتتضح الوحدة الموجودة بين فن ومعمار الأبنية في إيران وآسيا الوسطى الراهنة داخل الإطار نفسه. وهناك الآلاف من الآثار الباقية لأسلافنا، والتي نقشت على صفحات التاريخ باسم العديد من الأقوام وبعنوانها المشترك (الإيراني-الإسلامي) ومنها: طريق الحرير، خان الشاه عباس، مرصد ألغ بك (1393-1449م)، برج طغرل (ت1063م)، مسجد كاشغر، ميدان ريكستان في سمرقند، مقبرة الأمير نصر الساماني، مقبرة الشيخ صفى الدين الأردبيلي (ت1334م) والكيزان الفخارية لتل آفراسياب... وإن ما استلقت النظر هو شيوع الكثير من الكلمات الفارسية في لغات شعوب آسيا، كما أسلفنا، والذي يبين التأثير المتبادل، ويوضح ما مفاده أن الإيرانيين قد لعبوا دوراً مؤثراً في نشر الدين الإسلامي في سائر أصقاع آسيا الوسطى.

يعتقد الكثير من الباحثين أن أولى الثقافات التي تلقتها واستقبلتها أقوام آسيا الوسطى هي الثقافة الإيرانية، ويشهد على ذلك الكاتب الكازاخي مختار عوضوف، القائل أن ملحمتي (الشاهنامه) و (ليلي والمجنون) كانتا رائجتين في أوساط القبائل الكازاخية، حين كان الكازاخ أميين⁽⁴⁾ بل ودون تاريخ مناطق آسيا الوسطى وشعوبها باللغة الفارسية؛ وتدلل هذه الحقيقة على هيمنة الثقافة الإيرانية على عموم المنطقة، كما

تدل على أن مشاهير المؤرخين خلال القرون (9-11هـ/15-17م) كانوا يؤلفون كتبهم باللغة الفارسية، ومنها: (شيباني نامه) لكامل الدين بياتي، (زبدة الآثار) لمولانا عبدالله بن محمد بن علي نصراللهي، (تاريخ أبي خيرخاني) لمسعود ابن عثمان كوهستاني و (بدایع الوقائع) لزيدالدين محمود واصفي، وقد تناولت تاريخ هاتيك المناطق بالتحقيق والتدوين⁽⁵⁾.

ومن الممكن دراسة الماضي والموروث الثقافي المشتركين لآسيا الوسطى وإيران من خلال أعمال الشعراء والعلماء والمآثورات والمظاهر الشعبية في دول آسيا الوسطى، فقد تلقى أكثر شعرائها وعلمائها ثقافتهم من المراكز العلمية والتربوية الإيرانية-الإسلامية⁽⁶⁾ فأمثال: عليشيرنوائي، محتومقلي فراغي، أباي كوننبايف وصدراالدين عيني، الذين يعدون من الشعراء المشاهير المبعجلين في جمهوريات آسيا الوسطى، كانوا قد نشأوا بدراسة التراث الشعري الإيراني، وانتهجوا سبل الشعراء الإيرانيين، ويؤكد جميعهم هذا الأمر بصراحة. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الشعراء المشاهير أمثال: الفردوسي (932-1020م)، الخيام (1040-1133م)، سعدي (1193-1294م) و حافظ (1320-1389م) معروفون في أوساط عوام المنطقة، وتتناقل الألسنة بعض أشعارهم. ويشير دعلي أكبر ولايتي إلى هذه الحقيقة قائلاً: الناس يعرفون مدينة سمرقند من خلال رودكي (ت940م) وسوزني وألغ بك، ومدينة بخارى من خلال محمد بن اسماعيل البخاري (ت780م) وأبي علي سينا (980-1037م) وعمق وأبي الفضل محمد بن عبدالله بلعمي، ومدينة خوارزم من خلال محمد بن موسى الخوارزمي (ت849م) وأبي بكر الخوارزمي (928-993م) وجارالله الزمخشري (1075-1144م) وأبي الريحان البيروني (973-1048م) ومدينة ترمذ من خلال الترمذي (ت1152م) ومدينة ايور من خلال الأنوري (ت1191م) ومدينة بُست من خلال أبي سليمان المقدسي، ومدينة بلخ من خلال مولانا جلال الدين (1207-1273م) وناصر خسرو (1003-1088م) وعنصري (ت1039م) وأبي محشر وأبي شكور البلخي، ومدينة خيوه بالشيخ نجم الدين كبرى (ت1226م)

ومدينة خجند بكمال الدين محمد (ت1390م) (7) وكان لكل هؤلاء العلماء المسلمين دور مهم في نشوء وتطوير وتقديم الثقافة والمدنية الإسلامية والإيرانية، وقد تبوأ أكثرهم منزلة عظيمة في رفع شأن لغة وثقافة وتاريخ إيران؛ بحيث يطالعنا هذا السؤال: -الأيمن أن يُحسب هؤلاء علماء إيرانيين على إيران الراهنة؟ فمع أن مساقط رؤوس أكثرهم في آسيا الوسطى، فهم ربيبو الثقافة والتربية الإيرانية والإسلامية، كما عُرفوا عالمياً كعلماء إيرانيين، وقد كانت إيران بالنسبة لبعضهم كالزنجشيري ولجم الدين كبرى والفرابي (ت950م) حلقة الإتصال مع العالم الإسلامي والثقافة والمدنية الإسلاميتين. ولقد بلغت الثقافة الإيرانية شأواً وانتشاراً لم يشبهما ما حدث من نزاعات وصدامات بين حكومات أتراك آسيا الوسطى والحكومات الإيرانية المتعاقبة. بل وغدت المنافسة بين هاتيك الحكومات أحياناً سبباً إضافياً لترويج ثقافة إيران وفنها، وهو ما تجلّى في قيام حكومات آسيا الوسطى بتشيد العمائر الضخمة على طراز المعمار الإيراني، بل واستعانوا بالبنايين الإيرانيين لبناء أكثرها، وهو الأمر الذي يشهد عليه ويؤكدده البعثات المعاصرون في آسيا الوسطى، فمثلاً إستعان أمير تيمور بالبنايين الإيرانيين في تشيد العديد من المباني، منها ضريح الشاعر والمتصوف الكازاخي يسوي في جنوب كازاخستان (8)

وبالتزامن مع زيادة نفوذ روسيا القيصرية خلال القرنين (18 و19م)، ثم قيام الإتحاد السوفياتي في الخمس الأول من القرن العشرين، نلاحظ ركوداً نسبياً في العلائق الثقافية بين إيران وآسيا الوسطى، ومع ذلك كان حضور الثقافة الإيرانية هناك بمستوى من القوة، في نظر بعض الباحثين؛ بحيث كان يعيق ترويج الثقافة الروسية إلى حد ملحوظ (9).

الحكومة البلشفية والسعي إلى محو الماضي

بعد تسلّم البلاشفة للسلطة وتشكيل الإتحاد السوفياتي، قامت الحكومة الروسية المركزية بسلسلة من الإجراءات الهادفة إلى إيجاد نوع من الهوية الجديدة؛ بغية توحيد الجمهوريات السوفياتية؛ وعليه فقد استهدفت هويات كل المسلمين باختلاف إثنياتهم وثقافتهم القومية في آسيا الوسطى، حيث اتخذت سياسة الإتحاد السوفياتي (البائد) ثلاثة إجراءات:

أ- بدأت منذ (1925م/ 1304هـ) بحركة واسعة لغلق وتدمير المساجد، بحيث لم يبق أكثر من (1000 مسجد) تحت السلطة الروسية في عقد الأربعينات، من أصل (27 ألف مسجد) ولم تلتزم الماركسية بأية ديانة، في حين حاربت جميع الديانات، واستحالت نفسها ديانة! ومع ذلك فقد تساهلت الدولة السوفياتية مع الكنيسة الأرثوذكسية المسيحية إلى حد ما⁽¹⁰⁾

ب- الاستعاضة عن اللغتين الفارسية والعربية والخط العربي باللغة الروسية وخطها. حيث كان الخط العربي رائجاً قبلئذ، وكانت اللغة الفارسية هي لغة الإدارة، واللغة الجفتائية لغة المحادثة في معظم مناطق آسيا الوسطى. ورغم شيوع الخط العربي في سائر أنحاء آسيا الوسطى، ورواج اللغة الفارسية، فضلاً عن تدوين تاريخ أقوام المنطقة بهذا الخط وهذه اللغة؛ فقد أحلّوا الألفباء اللاتينية محل الألفباء الفارسية/ العربية في (1307ش/ 1928م) ثم أحلّوا الألفباء الروسية (والصواب: الأبجدية الكيريلية- المترجم) محلها رسمياً في سنة (1319ش/ 1940م)

ج- إستقدام عدد كبير من الروس والأوكرانيين والألمان إلى بلدان آسيا الوسطى كإجراء محسوب ومنظم للحكومة السوفياتية؛ سعياً لترسيخ وتعزيز هيمنتها في سائر تلك المناطق، وإضعاف الثقافات والتقاليد والأعراف القومية والإسلامية فيها، علماً أن إسكان الروس كان قد ابتدأ في العهد القيصري، ثم تصاعدت وتيرته منذ

(1306ش/ 1927م) بحيث بلغ عدد الروس المستقدمين هنالك

(8/490/000 ملايين نسمة) خلال الفترة (1929-1959م)

لقد استهدفت البرامج التربوية، التعليمية والثقافية، خلال القرن العشرين، إضعاف الثقافات القومية، ونشر وترويج الثقافة الروسية، وقد بسطت الماركسية، بصفتها المنطلق الأساس، ظلها الأيديولوجي على كل الشؤون العلمية والثقافية؛ حيث تقرررت كقاعدة أصلية للإستدلال في جميع العلوم الإنسانية، ناهيكم عن أن الأخبار والمعلومات في العهد السوفياتي كانت تصل إلى الناس مقننة، وعن طريق القنوات الخاصة بالسلطات السوفياتية، كما كانت المناهج والكتب كافة تقدم على أساس الفكر الماركسي وفي إطار خاص ومحدد. وانطلاقاً من الوضع الخاص للإتحاد السوفياتي؛ فقد كُرست المناحي الثقافية كافة بكل امكانياتها لتكوين شعب سوفياتي واحد. ولم يُترجم عهدئذ ولو كتاب واحد عن لغته الأصلية مباشرة إلى إحدى اللغات المحلية: الأوزبكية، الكازاخية، القرغيزية وغيرها.. وإنما عن اللغة الروسية.. ثم إن الأخبار المذاعة عن طريق محطات الإذاعة والتلفزيون السوفياتية كانت توازر هذا السياق بأحادية ومحدودية طرحها بتقديم المعلومات عن المصادر الخارجية.. ولقد طرح كاتب هذه السطور خلال السنوات (1373-1375ش) أسئلة بخصوص رسالة الإمام الخميني إلى كورباجوف زعيم الإتحاد السوفياتي آنذاك، كتاب وجامعين في جمهوريتي كازاخستان وقرغيزستان، وتملّكني العجب من أنهم لم يطلعوا البتة على خبرها! وتكشف هذه الواقعة كيفية تقديم الأخبار والمعلومات من قبل الحكومة السوفياتية للجماهير عبر قنوات محددة وبالصورة التي تريدها، في إطار منظورها السياسي الخاص. لقد كان الخبر السالف ذا مساس بالوضع الداخلي السوفياتي، وقد تناقلته وكالات الأنباء آنذاك في سائر أرجاء المعمورة.

برغم طرح وتنفيذ العديد من البرامج الشاملة من قبل زعماء الإتحاد السوفياتي خلال عقود طويلة؛ لمحو الهوية الشرقية لشعوب آسيا الوسطى المسلمة؛ بينت لنا الإجراءات المتعددة التي إتخذتها جمهوريات آسيا الوسطى عقب الإنهيار السوفياتي ونيل إستقلالها،

أن شعوبها ظلت متمسكة بثقافتها وتقاليدها الخاصة، في حين كان هدف النظام السوفياتي بعيد المدى هو خلق أناس من طراز جديد إشتراكي، وكان مفهوم الإنسان الجديد الإشتراكي مطروحاً ضمن البناء الفكري والتربوي الجديد بتكريس الثقافة والفنون والمبادئ النظرية، التي تفرز السلوك الإجتماعي المأمول في نهاية المطاف. وطالما سعوا بكل هذه الأفكار والإجراءات الثقافية إلى توليد نمط منشود من البشر، لكن برآجهم الخديثة الرامية إلى صياغة هوية جديدة قد فشلت؛ لكون شتى مناطق آسيا الوسطى ذات تاريخ مديد وعريق من حيث التقاليد والأعراف القومية القوية الراسخة، وذات المساهمات المشهودة في تشييد صروح العلم والفلسفة والحضارة في الشرق.. وهكذا فإن تلك البرامج والإجراءات الرامية إلى محو الكثير من التقاليد القومية وصياغة هوية واحدة في الإتحاد السوفياتي قاطبة لم تتكلل بالنجاح المرجو، بل صار العامل القومي من أهم العلل الأساسية المقوّضة للصرح السوفياتي، وكانت لهذه البرامج في الوقت نفسه تأثيرات جلية جداً بهد الإنهيار السوفياتي، بل برزت قضية تحديد الهوية القومية وسبل إحيائها من بين أهم القضايا المتعلقة بمحاضر ومستقبل جمهوريات آسيا الوسطى. وهكذا فقد قاومت شعوب آسيا الوسطى ضد برامج البلاشفة المفروضة عليها، وتكلفت مقاومتها بالظفر، في الذود عن كياناتها القومية وتقاليدها القومية والدينية الأصيلة. ومع ذلك، لاريب في أن حكم سبعين سنة للنظام التربوي السوفياتي والتأثير العميق لسلطة الشيوعيين في البنى الإجتماعية قد ترك جمهوريات آسيا الوسطى تواجه أزمة هوياتها القومية.

السعي لإعادة صياغة الهويات القومية

بعد نيل إستقلالها عام 1991 شرعت جمهوريات آسيا الوسطى في إحياء وصياغة هوياتها القومية، بصورة جديدة، وتوسّلت بفعاليتها لإحلال هوياتها القومية والوطنية محل الهوية العامة السابقة في الإتحاد السوفياتي. ولم يواجه بعضها في مسعاها العديد من المشكلات كجمهورية تركمانستان؛ لبعدها عن روسيا المركزية وقلة عدد الروس فيها،

بينما واجهت المشكلات بعضها الآخر مثل كازاخستان، لجيرتها مع روسيا، ووجود عدد كبير من الروس فيها، فضلاً عن تواجد قرابة المائة قومية وأقلية فيها؛ مما يعرقل ذلك مسيرتها الرامية إلى صياغة هويتها القومية والوطنية، ويبيّن هذا الأمر المسألة الأساسية في تحديد الهويات الوطنية في آسيا الوسطى، والمرهونة بكيفية النأي عن روسيا، وصياغة هوية قومية مغايرة للروس، وقد اتخذت الجمهوريات المعنية إجراءات بهذا الخصوص⁽¹¹⁾:

أ- طرح هوية إقليمية واحدة، و (ظاهرة إعادة الصيرورة الإقليمية) تجسد الميل إلى هذا المسعى، بمعنى أن الهوية الجمعية لآسيا الوسطى تستوجب تكريس العودة والاستناد إلى الماضي، بكل ما ينطوي عليه من ثقافة وتقاليد مشتركة، رغم أن ذلك لا يعني الإجماع على هوية واحدة موحدة للجميع، بل الركون إلى بعض ما يجتمع حوله أهالي المنطقة ويجمع ما بينهم. وبالطبع أن هذه الهوية الإقليمية لآسيا الوسطى ذات علاقة بإيران وأفغانستان وولاية سين كيانك الصينية (تركستان الصينية- المترجم)

تسعى جمهوريات آسيا الوسطى إلى المضي بهذا الاتجاه، وتخضع هذه الهوية الإقليمية للدراسة والبحث بصورة جدية، حيث بدأت مراكزها العلمية بإجراء العديد من الدراسات والأبحاث، وثمة تكمن طبعاً الأزمة الناشئة عن الإزدواجية في ثقافات هذه الشعوب، والتي تكونت خلال العقود الطويلة الماضية، منذ أن سعت الدولة السوفياتية لإيجاد هوية مشتركة لأكثر من مائتي قومية وأقلية إثنية، بفرضها الأيديولوجيا الماركسية-اللينينية عقيدة واحدة لكل القوميات والشعوب، مع إستخدام الخط الكيريلي وحده في سائر الجمهوريات، ناهيك عن إحلال اللغة الروسية محل اللغات القومية؛ كلما تسنى لها ذلك. لقد أقر الزعماء السوفيات تلك البرامج، لاسيما ستالين المعروف بمخططاته المؤثرة. وكانت برامجهم ترمي إلى بناء نمط جديد من البشر في سائر الإتحاد السوفياتي موسوم بـ (الإنسان الجديد الاشتراكي)⁽¹²⁾ ولقد أدى فشل الإتحاد السوفياتي في خلق هوية سياسية واحدة موحدة، ومن ثم إنهيار هذه القوة العظمى؛ أدى إلى الإنقطاع والخلخلة في هويات الجمهوريات السوفياتية، إذ إنهارت أبعاد الهوية الواحدة

القائمة على الأيديولوجيا الماركسية؛ تاركة وراءها أزمات شديدة في هويات الجمهوريات المختلفة. إن أزمة الهوية كانت أصلاً أحد الأسباب الرئيسة للإنهيار السوفياتي، كما إن أزمة الهوية الناتجة عن الإنهيار قد طالت أيضاً روسيا المركزية نفسها، حيث تتواجد فيها أقوام وشعوب وأقليات كثيرة، لا يمكن أن تتسجم سوية في إطار هوية واحدة موحدة.

إن إحدى المسائل الرئيسة في جمهوريات آسيا الوسطى بعد الإستقلال هي مسألة تحديد الهوية القومية؛ لأن الصلة المبتورة بالماضي وعواقب برنامج تكوين شعب واحد سوفياتي، قد تركت آثاراً عديدة في بنى وثقافات هذه المجتمعات، فقد دون الروس أقساماً من توارينجها، وتربت نخب عديدة من حكامها ومثقفها في كنف النظام الشيوعي؛ بحيث أدى كل ذلك إلى الإنقطاعات في ديمومة وتحديد الهويات الوطنية لجمهوريات آسيا الوسطى⁽¹³⁾

ب- يتمثل الإجراء الأساسي الآخر لهذه الجمهوريات في سعيها الحثيث إلى طرح وتعظيم المظاهر الوطنية والقومية، ومن جعلتها تقوية اللغات القومية والمحلية؛ حيث أعلنت بعد إستقلالها بصورة رسمية إعتبار.

لغاتها: التركمانية، القرغيزية، الكازاخية، التاجيكية والأوزبكية لغات أساسية رسمية. ورغم أنها الآن عاجزة عن الإيفاء بدورها المنشود لأسباب شتى، لكنها ستحظى بصفتها لغات رسمية بالعديد من البرامج لتقويتها وترويجها.

وهناك إقدام آخر مؤثر لجمهوريات آسيا الوسطى، وهو الإحتفاء بأعلامها الكبار والمشاهير، حيث تبذل الجهود للتذكير والإشادة بشخصياتها التاريخية باعتبارها وجوهاً وطنية، وهي تصبو بهذا المسعى إلى إحياء وإعادة صياغة هوياتها القومية والوطنية، ومنهم: مختومقلي فراغي، أبي كونبايف، مناس، عليشير نوائي، الفردوسي وصدرالدين عيني، وهم يعدون من الشخصيات الأدبية البارزة في توارينج الجمهوريات: التركمانستانية، الكازاخية، القرغيزستانية، الأوزبكيستانية والتاجيكية. ودأبت هذه الجمهوريات بعد إستقلالها تعنى بهم أكثر مما مضى؛ سواء بنشر أعمالهم، أو الإحتفالات

والندوات، وتبجيلهم بصفاتهم وجوهاً للتجلي الوطني وقدوات لتعزيز الوحدة القومية هنا وهناك. والتمعن في شخصية أيّ منهم؛ يستجلي مدى إرتباط هذه الجمهوريات بثقافتها وتقاليدها الموروثة، ومدى تماس وعلاقة مواطنيها بأعلام الأدب الفارسي شعراءً وكتاباً.

مختومقلي فراغي

(1730-1780م) وجه شعبي ووطني تركمانستاني. كان شاعراً وعالمًا مبدعاً جداً عند التركمان، وتتناقل الألسنة أشعاره في مختلف أوساط الشعب التركماني. يقع مشواه في منطقة (تركمان صحرا) في شمال شرقي إيران. وهناك الآن عدة شوارع ومعاهد وجامعات ومراكز ثقافية مسماة باسمه. وكان مختومقلي قد إستلهم من أعلام الأدب الفارسي أشعاره المنطوية على المقاصد التربوية والأخلاقية.

آبای کوننبایف

(1845-1904م) شاعر ومفكر كازاخني، ذائع الصيت بصفته أبرز وأكبر وجه شعبي ووطني كازاخني. وقد كان ذا إطلاع واسع على العلوم الدينية والأدب الشرقية، وخاصة الأدب الإيراني الكلاسيكي كأثار الشعراء الكبار أمثال الفردوسي، سعدي، حافظ، مولوي، نظامي (1141-1209م) وغيرهم، إذ قرأ المتون الأصلية (الفارسية) للأشعار الملحمية وغزليات كبار شعراء الشرق، فضلاً عن ترجماتها باللغة الجغتائية. ويعد أول من أدخل العروض إلى الشعر الكازاخني، عن طريق إطلاعه على الشعر الفارسي. ولقد عرف بشغفه بقصص (الف ليلة وليلة)⁽¹⁴⁾

إن آبای کوننبایف الذي يعد مؤسساً للأدب الكازاخني الحديث، والذي سلطت عليه الأضواء كشخصية بارزة بعد إستقلال كازاخستان، كان قد إستوحى الكثير من أشعاره من أرواح كبار شعراء إيران⁽¹⁵⁾ ولقد خصصت منظمة اليونسكو عام 1995 للإحتفاء بالذكرى المائة والخمسين لميلاده، حيث جرى الإحتفال بمؤازرتها على

نطاق واسع في كازاخستان، وكذلك أقيم إحتفال أسبوعي بالمناسبة نفسها في إيران، في شهر آبان ماه 1374 ش.

لقد كان تأثير الثقافة الإيرانية كبيراً في تكوين آباي الشخصية الوطنية الكازاخية إلى حد تصريح السيد طلعت ماماشف وزير الثقافة الكازاخية بأن آباي قد تخرج في مدرسة كبار الشعراء الإيرانيين⁽¹⁶⁾

ميناس

بطل أسطوري قرغيزي وطني، ووجه شرقي ملحمي، قيلت عنه أشعار كثيرة شبيهة بأشعار الفردوسي الملحمية، وقد حازت الأشعار المتغنية به على أهمية فائقة في أوساط الشعب القرغيزي، خلال القرون الخوالي، بل وبجّل القرغيز رواتها كثيراً. والجدير ذكره هو أن المؤرخين القرغيز يقولون أن أمه كانت تاجيكية وتكلم بالفارسية. وقد ألف بالفارسية أهم كتاب عن سيرته النضالية. ولقد إحتفل الشعب القرغيزي في (1374 ش / 1995 م) بالذكرى الألفية لميناس إحتفالاً كبيراً حضره كبار المسؤولين والشخصيات من دول عديدة.

عليشير نوائي

(1441-1501 م) شاعر أوزبكستان القدير، بل أكبر شعراء اللغة الجغتائية. وهو وجه محبوب وشهير في أوساط الشعب الأوزبكي. وقد إنخذ (فاني) له لقباً شعرياً، وكان قديراً أيضاً في نظم الشعر والتأليف باللغة الفارسية، ويقع ديوانه الفارسي في (6000 بيت من الشعر). كان شيرنوائي معروفاً بـ (نظام الدين ابن أمير) تعلم ودرس في الكتاتيب والمدارس الدينية، وتولى الوزارة في كهولته. كان شغوفاً بآثار الشعراء والكتاب الإيرانيين، لاسيما عبدالرحمن جامي (1414-1492 م) الذي أشاد بنبوغه في أشعاره، وألف كتابه (نفحات الأنس) باقتراح منه.

لقد بلغ تبجيل نوائي إلى حد وجوب زيارة كل زوجين جديدين لضريحه بطاشقند، كتقليد موروث ضمن مراسم القران والزفاف. ولئن تأثر نوائي جداً بالشعراء الإيرانيين؛ فقد جعله ذلك شاعراً كبيراً في آسيا الوسطى.

صدرالدين عيني

لا حاجة لنا بالإستطراد عن التاجيك، بل تكفي الإشارة إلى المكانة المرموقة للفردوسي في تاجيكستان في أوساط المثقفين والجماهير بدرجة لا يتصورها الإيرانيون؛ لكون الفردوسي قد صاغ هوية ثقافية للأقوام الإيرانية، وبحسب التاجيك أنفسهم أحد تلك الأقوام. وتتناقل ألسنة الناس هناك أشعار الفردوسي والخيام وسعدي وحافظ؛ مما يزيد ذلك مشاعر الحب للغة الفارسية وإيران. أما صدرالدين عيني (1878-1954م) فهو رائد الأدب التاجيكي الحديث، ومن أبرز مشاهير تاجيكستان الموقرين، واشتهر كتابه (نماذج من الأدب التاجيكي) المطبوع عدة مرات في موسكو والجمهوريات الأخرى، وهو محط إحترام المثقفين والمواطنين التاجيك؛ لدفاعه المشهود عن الأدب الأصيل التاجيكي والفارسي.

إن إختيار الشخصيات سالفة الذكر بصفتها وجوهاً شعبية ووطنية في جمهوريات آسيا الوسطى؛ يبين بوضوح كيف ان شعوب تلك البلدان، برغم العقود الطويلة لتسلط الروس؛ مازالت تبحث عن هويتها الوطنية في مجال الثقافة والتقاليد والدين الإسلامي.

إن تحليل المظاهر الوطنية والقومية في جمهوريات آسيا الوسطى، في إطار الإنقطاع عن هوية (الإنسان الجديد الإشتراكي) وإحياء الهوية القومية الأصيلة، قابل للتحليل. ثم إن كتاب هذه الجمهوريات ماضون الآن برعاية رؤساء دولهم، في تدوين تواريخ شعوبهم، وهذا الأمر ينطوي على أهمية فائقة؛ إذ دأب الكتاب الروس على كتابة تاريخ المنطقة خلال القرون الثلاثة الماضية، مما يستوجب الآن إعادة النظر في سبل إعادة صياغة الهوية الوطنية والقومية لكل شعب من شعوب المنطقة. ولقد بلغت العودة إلى الأصالة إلى

حد المبالغة والتطرف في بعض مناحيها؛ بحيث تنفي كل ما كان إيجابياً في علائق هذه الشعوب بالشعب الروسي، كما أضفي التبجيل والتجليل على بعض المظاهر القومية إعتباطاً، وبدون التحقيق والتدقيق في ذاكرة التاريخ؛ فمثلاً ما يستلفت الإنتباه هو وضع تمثال تيمورلنك محل تمثال لينين في ساحة الإستقلال (الساحة الحمراء سابقاً) في طاشقند وكذلك إنخذ تعظيم بعض الشخصيات الوطنية في هذه الجمهوريات (في أوزبكستان بالأخص) منحى عنصرياً متطرفاً (بان تركيزم) (17).

وفي مضمار إحياء الهويات الوطنية؛ شرعت هذه الجمهوريات بتعظيم مدنها التاريخية، ويتجلى ذلك أكثر في جمهوريتي قرغيزستان وكازاخستان، حيث لم تكن منطقتيها الوسطى والشمالية مأهولة حتى القرون الأخيرة، وثمة يرد ذكر إسمي مدينتي (اش) و (تركستان) في قرغيزستان وكازاخستان كعاصمتين معنويتين (رمزيتين) لتينك الجمهوريتين؛ ولذا فقد حظيتا بعد إستقلالهما بعناية ملحوظة، وحالياً تستعد الجمهوريتان للإحتفال في سنة (1377ش / 1999م) بذكرى تأسيسهما، إذ تنوي كازاخستان الإحتفال بالذكرى الـ (1500) لتأسيس (تركستان) وتنوي قرغيزستان الإحتفال بالذكرى الـ (3000) لتأسيس (اش)، ولئن كانت تينك الجمهوريتان واقعتين من جهة الشمال تحت تأثير الثقافة واللغة الروسية؛ فإن عنايتهما بتينك المدينتين تعد نوعاً من العودة إلى الجنوب، أي إلى حضارة ماوراء النهر.

من كل ماورد في مبحثنا هذا؛ يمكن إستنتاج حقيقة مفادها ان إنهيار الإتحاد السوفياتي قد حض جمهوريات آسيا الوسطى على الإلتفات إلى هوياتها القومية والوطنية، وقد تمثل ذلك في إحياء توارينجها وثقافاتها؛ في سبيل تشخيص وإعادة صياغة هوياتها الأصيلة الخاصة بها. كما ان أي تناول للتاريخ المشترك والتقاليد الثقافية المشتركة بين إيران وهذه البلدان؛ يستوجب العودة إلى معطيات الماضي، ولاندحة من ذكر إيران. وقد بانَت السوابق المشتركة بوضوح من خلال الشخصيات المعظمة في هاتيك الجمهوريات، بعد إستقلالها؛ بصفتها رموزاً وطنية. وثمة عامل آخر من العوامل المهمة

المستوجبة للإرتباط بين إيران وآسيا الوسطى، وهو ناشيء عن الروابط التاريخية بين الطرفين، ألا وهو تواجد أقليات من الطرفين، في كل طرف، أي خارج حدوده. ولهذا الواقعة جذور تاريخية تعود إلى الأزمنة التي كانت فيها التنقلات والانتقالات جارية بين الإيرانيين وسكان آسيا المركزية على (طريق الحرير) فقد هاجر الكثير من الإيرانيين على مدى القرون إلى مناطق من آسيا الوسطى وسكنوها، كما هاجر الكثيرون من تلك المناطق إلى إيران واستوطنوها، وإن دراسة ظاهرة هذه الهجرة المتبادلة تتطلب أبحاثاً وتفصيلاً موسعة أكثر. ففي إيران ثمة جمع غفير من الشعب التركماني يعيش في أنحاء محافظة مازندران والمناطق الحدودية المحاذية لتركمانستان، وقد حافظ هؤلاء التركمان على أصالتهم وتقاليدهم القومية، ويعدون عاملاً مهماً من عوامل الإرتباط بين إيران وتركمانستان. وثمة أيضاً أقلية كازاخية (قراة عشرة آلاف نسمة) قد نزحت في ثلاثينات هذا القرن إلى إيران واستقرت في منطقة (كركان) إثر تزايد ضغوط ستالين الرامية إلى السيطرة على القبائل الكازاخية؛ فاضطر عدد كبير من الكازاخ إلى الهجرة من كازاخستان طلباً للجوء إلى تركيا والصين وأفغانستان وإيران. ولقد سعت الحكومة الكازاخية خلال السنوات الأخيرة إلى إعادة هذه الأقلية إلى موطنها الأصلي؛ بغية زيادة نفوس الكازاخ، وقد عرقلت بعض المشكلات الاقتصادية مسعاها..

لعل أحد التقاليد المشتركة المهمة بين الإيرانيين وسكان آسيا الوسطى يتجلى في الإحتفال بعيد نوروز ومراسم الإحتفاء بجمال الطبيعة، حيث تجرى المراسم بصورة موسعة في هاتيك الجمهوريات؛ ناشدة العودة إلى (الأصالة البارسية) وقد رافق عيد نوروز، في السنوات الأخيرة، العديد من المراسم الشعبية، ومنها إتتاح الأسواق النوروزية والبرامج المتنوعة الأخرى، والتي تضيء على بهاء وبهجة أكثر على الإحتفالات. ومن مظاهر الإهتمام الواسع بهذا العيد؛ هو حضور رؤساء الجمهوريات وكبار مسؤوليها في تلك الإحتفالات، التي غالباً ما تقام في الجامعات والمدارس والمراكز الثقافية المتعددة هنا وهناك، ودعوة الفرق الموسيقية والغنائية من سائر البلدان لإحيائها. والجدير ذكره هنا ان

مدة الإحتفال بعيد نوروز، في التقاليد التاريخية الكازاخية تستغرق شهراً كاملاً ولقد حصل هذا بعد الإستقلال؛ بحيث إستلقت أنظار العديد من الكتاب الإيرانيين.

كما ورد في مبحثنا هذا رغم إقتضابه؛ يتبين كيف ان الأواصر والوشائج كانت قائمة بين الإيرانيين وشعوب آسيا الوسطى، على مدى الحقب التاريخية، لاسيما في مضامير الثقافة والتقاليد والأعراف والموروثات الروحية والمعنوية، وقد إستتجنا بأن الثقافة المشتركة سيكون لها شأن كبير في بعث وإحياء تلكم الأواصر والوشلج التاريخية بين هذه الشعوب.

الإشارات:

تصرف المترجم بالعنوان الأصلي (التاريخ والتقاليد المشتركة) وغالبية التواريخ المتعلقة بالأعلام مضافة من قبله.

1- شيرين آكينر/ اقوام مسلمان اتحاد شوروي/ ترجمه: محمد حسين آريا/ تهران 1367ش / ص 340.

- اكبر تقوى/ جمهورى هاى آسياى ميانه/ تهران 1373ش / ص 19.

2-Dvornik.F، The making of Central & Eastern Europe، London 1949□

3- دكتور ميرالدين احمد/ نهاد آموزش اسلامى/ ترجمه: محمد حسين ساكت/ مشهد 1368ش / صص 110 و 111.

4- صفر عبدالله/ فرهنگ ايرانى در فزاىستان/ الما آتى 1374ش.

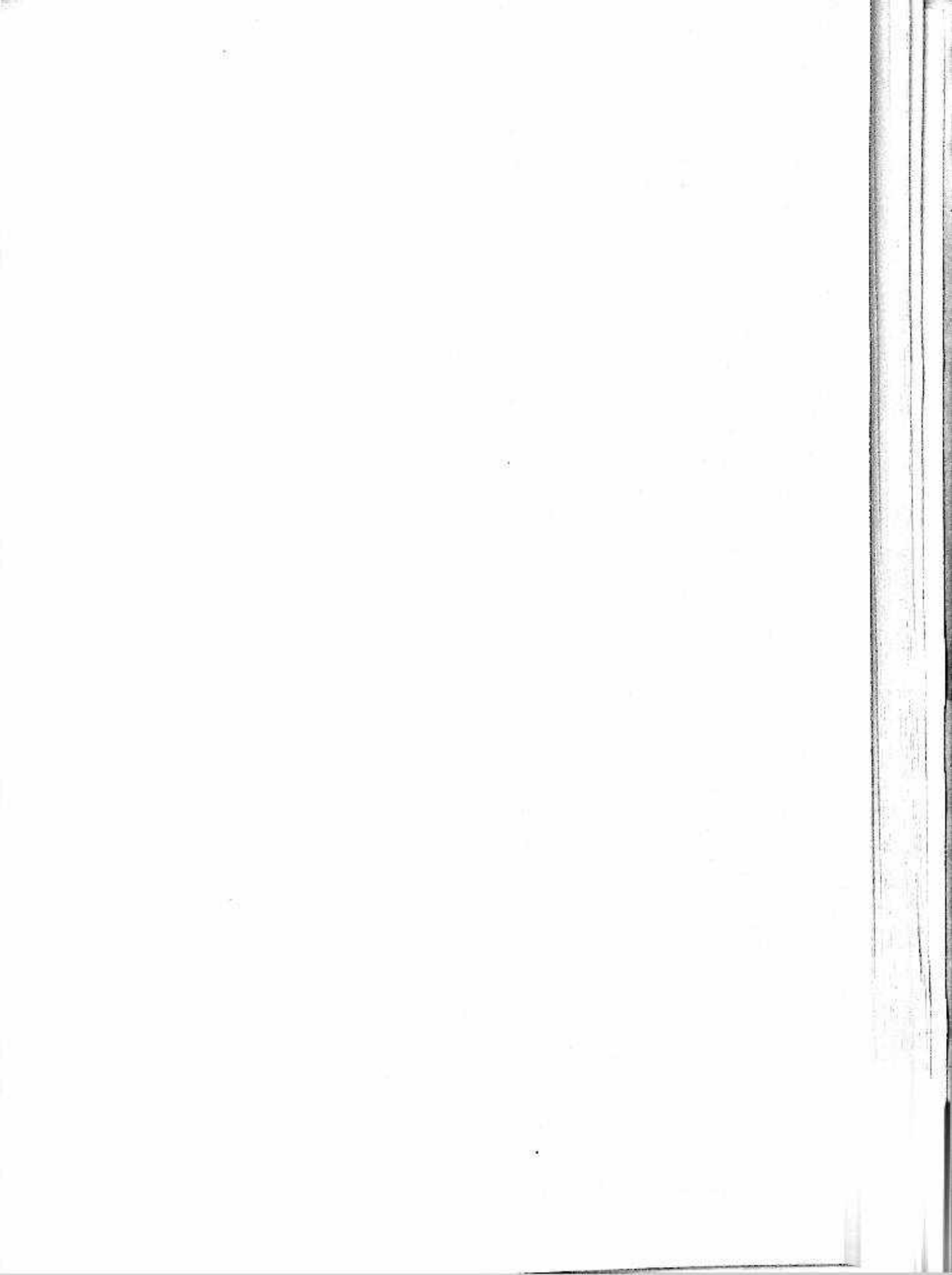
5- المصدر السابق نفسه.

6- جرجى زيدان/ تاريخ تمدن اسلام/ ترجمه: على جواهر كلام/ تهران 1356ش / صص 5 و 27

- 7- علی اکبر ولایتی/نگاهی دوباره به تاریخ آسیای مرکزی/ مجله مطالعات آسیای مرکزی و قفقاز/ تابستان 1371ش/ سال اول/ ش اول/ ص 1
- 8- گزارش وزیر فرهنگ قزاقستان در افتتاحیه نمایشگاه فرهنگی جمهوری اسلامی ایران در قزاقستان/ دی ماه 13274ش/ الما آتی
- 9- مصطفی رحیمی/ جرا شوروی متلاشی شد؟/ تهران 1373ش
- 10- نور احمد بابا/ اضطراهای به ارث رسیده و چشم اندازهای ثبات و توسعه در آسیای مرکزی/ 1373ش
- 11-Robert Conquest. The last Empire Nationality & the Soviet future Stanford, 1986□
- 12-Richard Little Governing, The Soviet Union, New York, 1989, PP:237-239□
- 13- سید محمد کاظم سجادیبور/ کسستگی هویت در جمهوری های / مجله مطالعات آسیای مرکزی و قفقاز/ سال چهارم/ ش 9/ بهار 1374ش
- 14- عوض اف/ بزوهشهای جاب نشده راجع به آبای شناسی/ الما آتی 1988/ ص 238 (به زبان روسی)
- 15- نگاهی به زندگی و آثار آبای/ دکتر صفر عبدالله و فرزانه خجندی/ تهران 1374ش
- 16- مصدر سابق (رقم 8)
- 17- مناس/ نامعلوم/ تهران 1374ش
- شریف شکرروف/ مسائل اور آسیایی در برتو اندیشه های کومیلیوف/ نشریه چراغ روز/ ش 1/ سال 1996 موسکو.

الفصل الرابع

العرب وانتشار الإسلام في آسيا الوسطى



الفصل الرابع

العرب وانتشار الإسلام في آسيا الوسطى

خرج العرب المسلمون منذ عهد أول الخلفاء الراشدين فلم يتصف القرن الأول الهجري إلا وكانت كتابهم المظفرة تطرق أبواب بلاد ما وراء النهر بعد أن فتحت فارس، وقد سلكت إلى مناطق سيحون وجيحون، نفس الطريق التي سلكها الإسكندر المقدوني من قبل، وما لبث أن سقطت مدينة بلخ بأيديهم بعد أن قضوا القضاء المبرم على آخر ملوك الساسانيين، لينطلقوا بعد ذلك إلى مناطق الصغد ذات الثراء العريض، ويعودون من هناك بكنوز وفيرة حملوها إلى دار الخلافة في حاضرة الأمويين، أي في دمشق، فإذا بمعاوية يبعث من جديد منتصف القرن بجيش عليه عبيد الله بن زياد وجهته بخارى، وإذا بعبيد الله يفتح في طريقه مدينة ييقند ذات المركز التجاري الممتاز، والتي كان منها تدار ما حولها من بلدان، ثم يصل إلى بخارى ومعه غنائمه فيبلغها أواخر عام 53هـ / 672م.

ولقد تغلب عبيد الله على أعدائه، ولكنه لم يلبث هناك طويلاً حتى يتم له إخضاع بخارى فرجع إلى مرو ومعه كنوز وأسلحة من بينها نعال الملكة، وقد صالحته تلك الملكة على جزية مقدارها ألف درهم، وعاد العرب المسلمون من جديد إلى بخارى بعد سنوات ثلاث فأقروا الأمور بها، ثم اتجهوا إلى الصغد وسمرقند، وكان على سمرقند إذ ذاك ترخان يعرف باسم ترخان الصغد فتغلبوا عليه ثم عادوا إلى بلادهم، فإذا بخارى تعود في تلك الفترة إلى العصيان من جديد، وقد شجعها على ذلك قدوم جموع كثيفة من الترك الشمالية لعونها، وقد انتهى القتال بهزيمة هؤلاء الترك، وبلغ من كثرة الغنائم أن خص كل جندي منها ما يقوم بعشرة آلاف درهم.

دور قتيبة بن مسلم في حروب المسلمين:

الأمر لم يستقر في تلك المناطق إلا بظهور القائد قتيبة بن مسلم، ذلك القائد الشجاع الذي يرد إليه الفضل في القضاء على الوثنية الإيرانية في تلك المناطق، وغرس تعاليم النبي العربي في وديان تيان شان المترامية الأطراف، فقد أمر الحجاج قتيبة بن مسلم بفتح بلاد ما وراء النهر فولج تلك المناطق، ومن أعظم أهدافه نشر الإسلام فيها، ويشهد له في ذلك المؤرخون بمنعه لجنده دوامًا عن ارتكاب السلب والنهب.

ولقد سار قتيبة من مرو إلى بلخ، ثم اتجه إلى بيقند فسقطت في يده بعد قتال عنيف، ففتح بذلك الباب الجنوبي الغربي لبلاد ما وراء النهر، وأخذ من بعد ذلك يتقدم بحذر وهدوء وبرغم انتصاراته المعروفة وقت ذاك نراه لا يعمد إلى مهاجمة بخارى رأسًا قبل أن يعزلها عن خلفائها، وبرغم تكاتف شيوخ الترك حتى حدود الصين، وبرغم ما كان من كثافة جندهم، فقد استطاع قتيبة أن يثير بعيونه الشحنة والخلاف بين أمراء الترك هؤلاء، فضلاً عما ألقى هؤلاء الجواسيس في روعهم من قدوم الإمدادات الكبيرة إلى قتيبة، فلم ينته الأمر إلى انسحاب أغلب هؤلاء الترك بقواتهم فحسب، بل كان منهم من صالح العرب سرًا على جزية سنوية يدفعها لهم، وبفضل هذه الخطة لحج قتيبة وجنده من خطر جسيم ظل يتهددهم أشهر أربعة، وقضى قتيبة الشتاء في مرو، وانتهى الأمر مع قتيبة إلى أن رسخ أقدامه ببخارى ليقبل الناس من بعد ذلك هناك ليس على الدخول في دين الله وحسب، بل وعلى الذود كذلك عن تلك العقيدة الجديدة عليهم في غيرة شديدة، وظلوا على ذلك قرون طويلة من بعد.

قتيبة وفرغانة وتركستان الشرقية:

انطلق قتيبة من بعد ذلك فغزا فرغانة عام 95 هجرية، ثم توغل في التركستان الشرقية، فهاجم أمراء الأويغود، وبلغ ولاية قانسو الصينية، ورجع قتيبة إلى مرو عن طريق فرغانة، وكان موت الخليفة الوليد هو الذي دعا، كما أن خوفه من خلفه سليمان

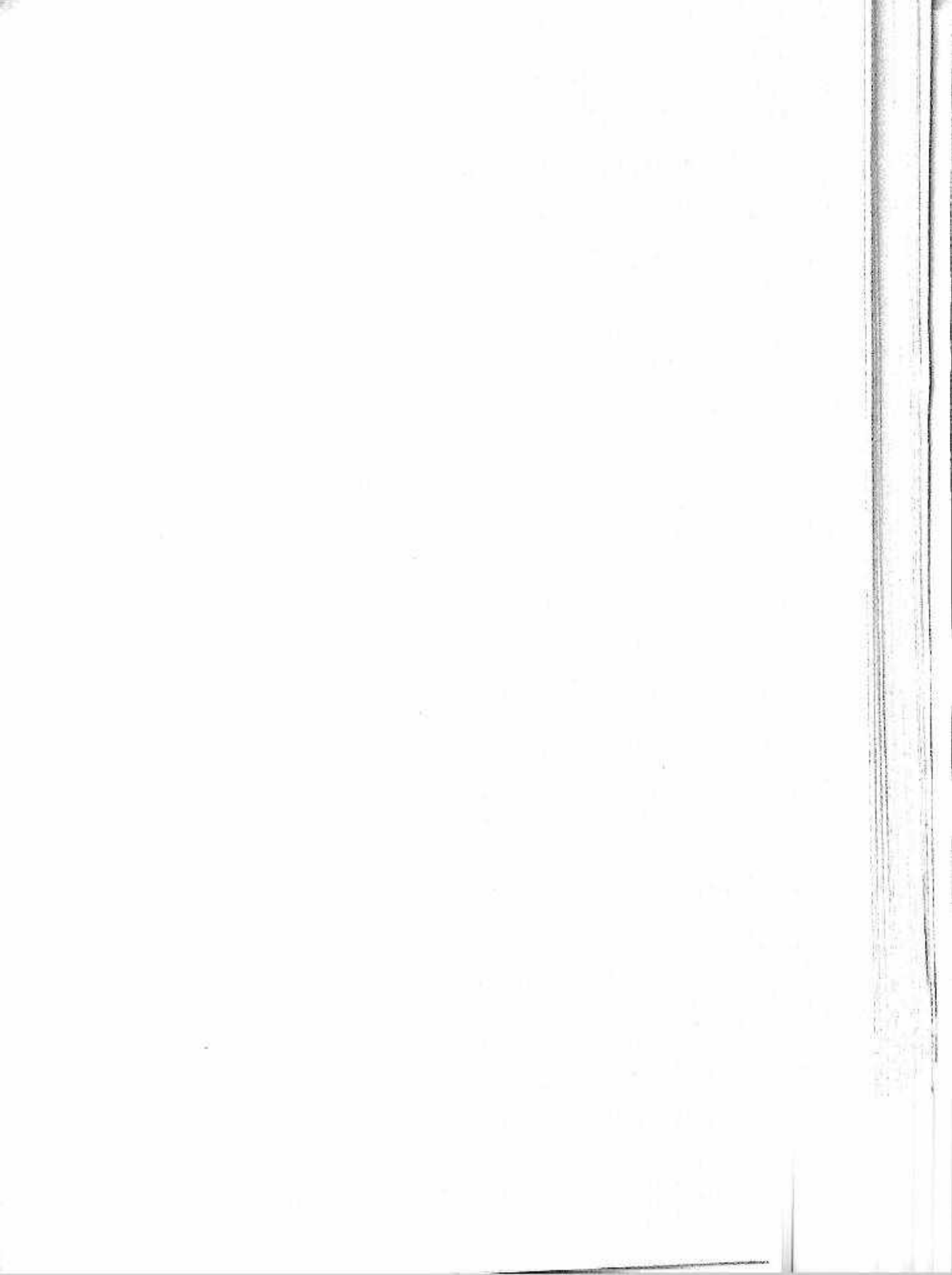
بن عبد الملك إذ كان سليمان هذا يكره الحجاج وشيعته كراهية شديدة، وما لبث قتيبة أن أعلن خروجه على الخليفة الجديد، وإن سلك طريق الحذر في ذلك، وسلك بعد ذلك طريقة الاتصال بالخارج لطلب الولاء والحماية، ويعلمه بأنه قد خرج من الخليفة الخالي.

ومن هذه الأنظمة الخارجية أن قام قتيبة بإرسال رسول له إلى دمشق ومعه ثلاث

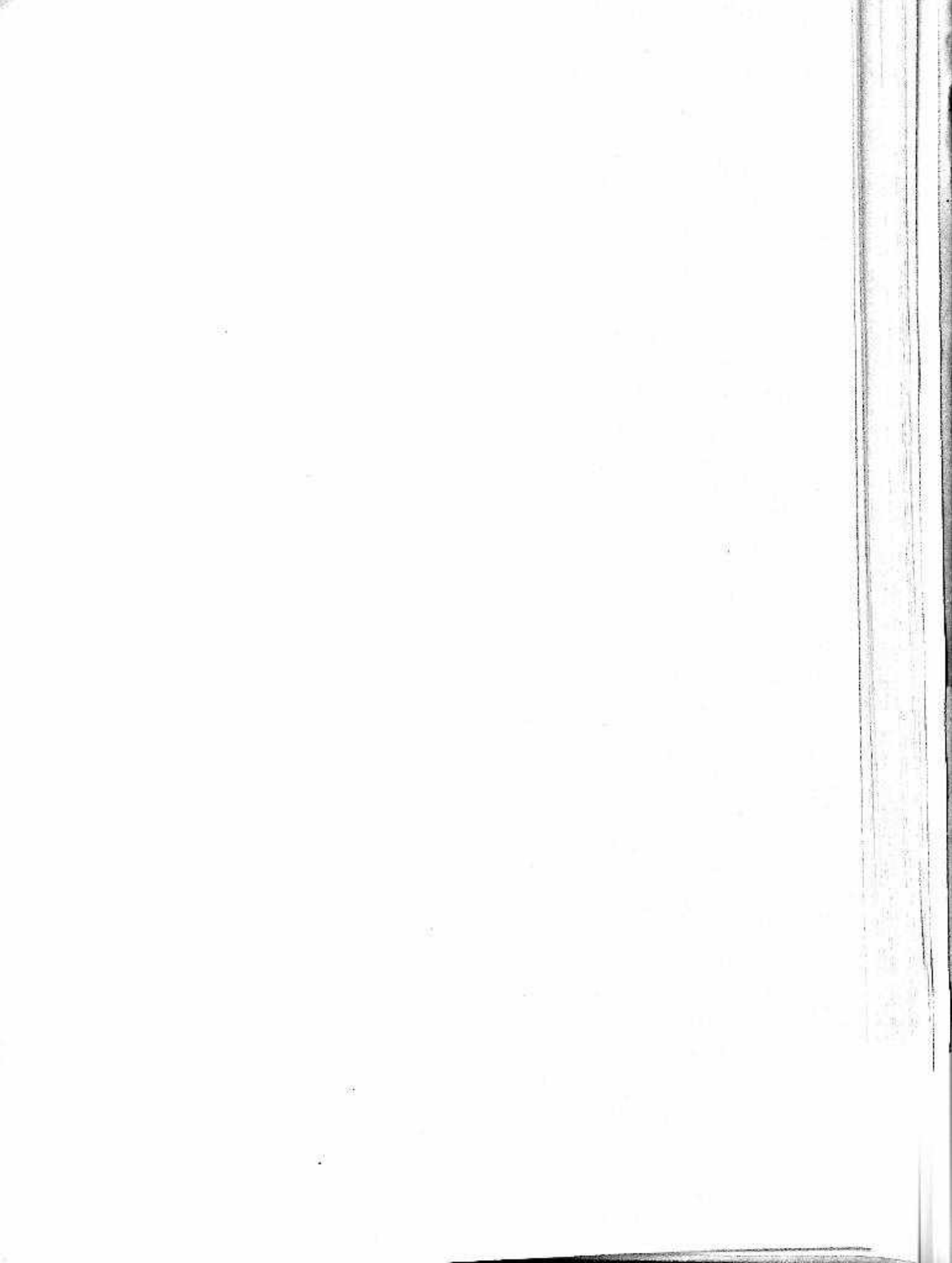
رسائل: جاءت كالآتي:

الأولى: يعرض فيها ولاء، والثانية يسخر فيها من منافسه القوي يزيد بن المهلب ربيب الخليفة، وفي الثالثة يعلن أنه لن يتردد في الجهر بالخروج على الخليفة إذا ما بعث بيزيد مكانه، ووقع ما كان يخافه قتيبة، هناك أعلن عصيانه وفي خاطره أن ما معه من الجند لن يخونه، وهو الذي سار بهم فأحرزوا أعظم الانتصارات، واستحوذ على الأموال الطائلة التي فرق أغلبها فيهم، ولو كان قتيبة قد استمع إلى نصيح أخيه عبد الرحمن بالمسير إلى بلاد ما وراء النهر، وإقامة ملك مستقل له هناك لأفاد من روح التمرد وحب المغامرة التي كانت تسود سكان تلك البقاع. وما لبث فريق من قواده أن تأمروا عليه وقتلوه مع أغلب إخوانه.

وهكذا سقط في شهر ذي الحجة من عام 96هـ وهو في الرابعة والسبعين من عمره، ذلك القائد الفذ الذي أقام للإسلام دولة عظيمة في أقصى الشرق وأجهز الإجهاز على دين زرادشت، ذلك الدين الذي أنختته الجراح في القادسية والنهروان، والذي غرس تعاليم الإسلام في أرض صارت لقرون طويلة أخصب البقاع حمية لدين الله وتحمساً لنصرته.



الفصل الخامس
دول اسيا الوسطي



الفصل الخامس

دول اسيا الوسطي

ما وراء النهر في القديم أو ما يسمى اليوم بآسيا الوسطى منطقة شاسعة في قلب قارة آسيا وكانت إلى بدايات التسعينيات من القرن الميلادي المنصرم تحت سيطرة الاستعمار الأحمر أو ما كان يسمى بالإتحاد السوفيتي.

بالإضافة إلى موقعها الإستراتيجي الذي جعلها جسرا ذو اتجاهات متعددة يربط بين مناطق مختلفة من العالم، تتمتع بلاد آسيا الوسطى بمخيرات و ذخائر طبيعية وأراضي زراعية وتعدد المناخ ومنابع كبيرة وغزيرة للمياه.

نهر جيحون (أمودريا باللغة الفارسية) ونهر سيحون (سير دريا باللغة الفارسية) هما من أكبر الأنهار وأشهرها تاريخيا يجريان في هذه المنطقة، والأول يشكل الحدود الطبيعية بين أفغانستان في الجنوب وأجزاء مهمة من ما وراء النهر في الشمال الذي تم تقسيمها من قبل الاستعمار السوفيتي على أسس عرقية واتخذ أسماء بلدان مستقلة وهي جمهوريات تاجيكستان (وليس طاجكستان كما يكتبها البعض)، وجمهورية أوزبكستان وجمهورية تركمنستان وأما الجمهوريات الأخرى في آسيا الوسطى فهي قيرغيزستان، وقازاخستان، وأذربيجان.

هذه الجمهوريات كلها بلدان إسلامية بمعنى أن الغالبية العظمى من سكانها مسلمون منذ سطوع نور الإسلام فيها في القرن الأول الهجري على أيدي الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. يتبع غالبية مسلمي آسيا الوسطى في الفروع والفقهية مذهب الإمام الجليل أبي حنيفة - رحمه الله تعالى - وهناك أتباع لمذهب الإمام الجليل الشافعي - رحمه الله - في بعض المناطق.

وأما اللغات السائدة فأهمها الفارسية، والأزبكية، والكازاخية، والتركمانية، والقرغيزية، والأذرية، والأيفورية، وتعود هذه اللغات الست الأخيرة إلى الأصول التركية التي جعلتها قريبة من البعض ومتشابهة في كثير من المفردات والألفاظ والتعبيرات.

الماضي المجيد:

بلاد ماوراء النهر تحتل مكانة بارزة ومهمة في الحضارية الإنسانية بشكل عام وفي الحضارة الإسلامية بشكل خاص، فقد كانت مدن ومناطق مثل بخارى، وسمرقند، وترمد، وسغد، وخوارزم، ومرو، وسرخس، وشاش، ودبوسية، وفرغانة، وأوزجند، وختلان وغيرها مهذا لآلاف العلماء في شتى فروع العلم والمعرفة على مر التاريخ الإسلامي، كما أن مدارس ومكتبات ماوراء النهر كانت منارات للعلم والمعرفة ولا يمكن الحديث عن الحضارة الإسلامية بدون التطرق إلى أسهام أهل هذه البلدان فيها، وما زالت الكتب والآثار الإسلامية الباقية في بلاد ما وراء النهر تشهد بالدور الكبير لعلماء ما وراء النهر في تقدم عجلة الحضارة والعلم.

فترة الإستعمار الشيوعي:

مع بروز عوامل الضعف والانهيار الحضاري في العالم الإسلامي تمكن الاستعمار الروسي القيصري ومن بعده الاستعمار الروسي الشيوعي، وكذلك الاستعمار الصيني الشيوعي في مناطق التركستان الشرقية، من السيطرة على جميع بلدان ماوراء النهر وآسيا الوسطى وقد دامت هذه الفترة المظلمة قرابة قرن كامل من الزمن تخللتها فترات النهوض والجهاد لدحر المحتل الأجنبي في صورة كر وفر.

وقد ارتكب الإستعمار الروسي في آسيا الوسطى والصين في التركستان الشرقية من مظالم ومجازر ومآسي ما لا عد لها ولا حصر، كما أنه قام بنهب خيرات هذه البلدان

وإذلال شعوبها وقطعها عن الأمة الإسلامية وبتر صلاتها بماضيها المجيد ومحاربة دينها ومعتقداتها وستبقى تلك المظالم والجرائم وصمة عار في جبين المستعمرين أبد الدهر.

مرحلة ما بعد الاستقلال :

ومع انهيار الإتحاد السوفيتي وسقوط الشيوعية العالمية في أوائل التسعينيات من القرن العشرين (أي قبل عشرين سنة من اليوم تقريبا) أعلنت دول آسيا الوسطى استقلالها واحدة تلو الأخرى وبالفعل صارت دولا مستقلة ذات السيادة السياسية ولكنها لم تتمكن من الخروج كاملا من تحت أنقاض الحكم الشيوعي و تبعاته ومخلفاته في مجالات الحياة المختلفة مثل نوعية أنظمة الحكم، والإدارة، والاقتصاد، خاصة طريقة تعامل السلطات الحكومية في تلك الدول مع الدين وثقافة الشعوب والتي اتسمت في أكثر هذه الدول تقريبا بالسير على نهج الإتحاد السوفيتي، وذلك لأسباب من أهمها بقاء كوادر الحزب الشيوعي على رأس السلطة والمناصب الحكومية المهمة بعد الاستقلال حيث تولى أمناء الحزب الشيوعي رئاسة الدولة في هذه الجمهوريات وحاولوا حكم البلد بعقلية العهد السوفيتي، واليوم وبالرغم من مرور عقدين من الزمن تقريبا على استقلال دول آسيا الوسطى الذين يحكمون دولا مثل أوزبكستان وكازاخستان هم رؤوس الحزب الشيوعي السابق.

البحث عن الهوية :

وإذا كانت دول آسيا الوسطى وجدت نفسها أمام واقع جديد بعد الاستقلال وبدأت تواجه مشاكل واستحقاقات جديدة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لأجل الخروج من ثقل تراكمات عهد الاستعمار ومواجهة الأوضاع والظروف الجديدة، فإن البحث عن الهوية والذات يأتي على رأس قائمة هذه الاستحقاقات. ولاشك أن الدين والانتماء الديني، واللغة والقومية من صميم عناصر الهوية والبحث عن الذات في دول آسيا الوسطى اليوم.

ومع وجود نقاط مشتركة بين الجميع يختلف تعامل كل دولة مع هذه العناصر سلبا وإيجابا حسب ظروف البلد وخلفيات الحكام وأذواق المسؤولين ومراعاة رد الفعل الشعبي قوة وضعفا.

ففي دولة مثل أوزبكستان ترفض الحكومة الاعتراف بالدين الإسلامي كعنصر أساس لهوية الشعب الأوزبكي المسلم وتذهب بعيدا في محاولة إقصاء الدين من حياة الشعب ومحاربة جميع مظاهر الانتماء الديني مهما كان بسيطا وبعيدا عن الاصطدام مع توجهات الحكومة العلمانية وفي اتجاه آخر معاكس تماما تحاول الحكومة جعل القومية الأوزبكية واللغة أساسا لهوية الشعب في هذا البلد وفي هذا السبيل تبحث في التاريخ عن رموز وأثار يمكن الاستفادة منه لدعم هذا التوجه وإذا لم يوجد شيء قد يذهب المسؤولون في بعض الأحيان إلى حد اختراع الرموز والتكلف الواضح في تفسير الأحداث التاريخية لتصنيع أمجاد ومفاخر قومية وهمية. هذا عن التوجه الحكومي الرسمي، أما الشعب فيعتبر الإسلام أساسا لهويته ولا يرضى عنه بديلا ولا يضيع فرصة للتعبير عن هذا التوجه بالرغم من التضيق الأمني الشديد والملاحقات التي تولد في بعض الأحيان رد فعل شعبي معاكس ينتج عنه اصطدامات واشتباكات تسعى الحكومة وصم رد الفعل الشعبي بالإرهاب وتبرير ما ترتكبه القوات الأمنية من مجازر واعتقالات بما يسمى بمحاربة التطرف الديني والإرهاب تمشيا مع السوق الرائج والموضة العالمية!

وأما دولة تركمنستان التي أغلقت أبوابها أمام الخارج وفرضت على شعبها شبه عزلة عن العالم على غرار أيام الاستعمار السوفيتي وإن كانت تشترك مع أوزبكستان في إقصاء الدين عن الحياة والعزف على وتر القومية واختراع أمجاد قومية ومفاخر تاريخية - مهما اقتضى الأمر من تكلف وتعسف - للبحث عن الهوية لكن لا يعرف عنها شن الحرب الشعواء على الدين والمتدينين لذلك قد تكون هي أحسن حالا من جارتها أوزبكستان.

وأما جمهورية قيرغيزستان وإن كانت الحكومة فيها لا تعترف بالإسلام - وهودين الغالبية العظمى للشعب القيرغيزي - مكونا أساسا لهوية الشعب، ولاتشجع التوجهات والمظاهر الإسلامية ولا تجبدها لكنها في الوقت نفسه لا تشتهر بالشدة والقسوة في مواجهة مظاهر التدين الشخصي في البلاد.

كازاخستان وهي أكبر وأقوى الدول المستقلة في آسيا الوسطى وإن كانت تتخذ من مظاهر التدين والانتماء الديني الشخصي - وليس الاجتماعي - موقفا يتسم أحيانا بالمرونة لكنها لا تعترف بالإسلام أساسا لمكونات هوية الشعب الكازاخني الذي يشكل بلده أكبر البلاد الإسلامية مساحة.

وأما أذربيجان فقد بلغ الأمر بحكومتها إلى إغلاق كثير من المساجد ومنع كل من درس خارج البلد من ممارسة الإمامة في المساجد والتدريس الديني ناهيك عن التضييق الشديد والملاحقات الأمنية للمتدينين.

خطوة في الاتجاه الصحيح:

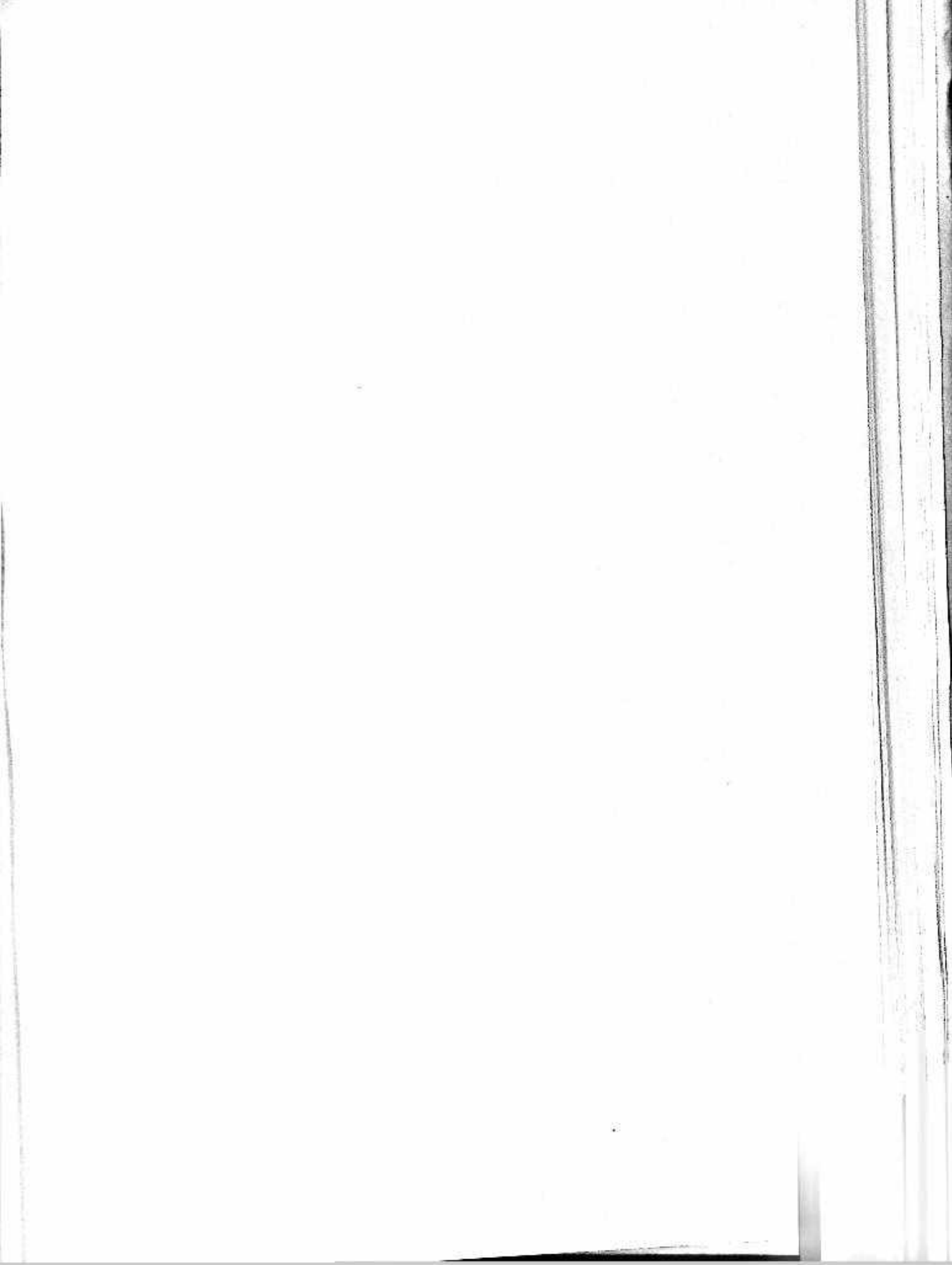
ويرى المراقبون أن جمهورية تاجيكستان هي البلد الوحيد في آسيا الوسطى الذي يشهد نوعا من الانفتاح الديني والسياسي المتحفظ مقارنة مع بقية الدول في المنطقة حيث تعترف الحكومة وعلى لسان رئيس الجمهورية بكون الدين الإسلامي عنصرا رئيسا لهوية الشعب التاجيكي وثقافته. وقد اتخذت الدولة في تاجيكستان في الآونة الأخيرة بعض الخطوات التي يمكن اعتبارها مؤشرا إيجابيا نحو مزيد من الانفتاح الديني، ومن ذلك إدخال مادة التربية الدينية في مناهج التعليم، وإنشاء الجامعة الإسلامية وإعلان العام 2009 م عام الإمام أبي حنيفة تكريما لهذا الإمام الذي يتبع شعب تاجيكستان مذهب الفقهي.

وفي هذه المناسبة دعت حكومة تاجيكستان برعاية مباشرة من رئيس الجمهورية
إمام علي رحمانوف إلى عقد مؤتمر عالمي في العاصمة "دوشنبه" في الشهر الماضي حضره
حشد كبير يتجاوز أربعمائة عالم وداعية وباحث من مختلف الدول الإسلامية.

وإذا كانت مثل هذه المبادرات تعتبر خطوة صحيحة وفي الاتجاه السليم نحو حسم
سؤال الهوية وعودة الشعب التاجيكي إلى مكانه الطبيعي في منظومة بقية شعوب الأمة
الإسلامية، فإنه ينبغي تكميل هذه الخطوات بمبادرات أخرى في نفس الاتجاه، تليها
مبادرات مماثلة في بقية دول آسيا الوسطى تلبية لرغبة الشعوب المسلمة في هذه البلدان
والتي تشوق للعودة إلى دينها وأمتها بعد الاستقلال من سيطرة الاستعمار الأحمر.

الفصل السادس

دول آسيا الوسطى أو الستانات الخمسة



الفصل السادس

دول آسيا الوسطى أو الستانات الخمسة

آسيا الوسطى، أو آسيا الداخلية، أو بلاد ما وراء النهر، كما كانت تعرف في فترة الخلافة الإسلامية، هي منطقة جغرافية مغلقة تقع في قلب قارة آسيا، أو قلب العالم. وهي تضم كلاً من أوزبكستان وتركمانستان وكازاخستان وطاجيكستان وقرغيزستان، وهي لا تطل على أي من البحار المفتوحة لكن موقعها الجغرافي يجعلها ذات أهمية كبرى.

تقدر مساحة المنطقة بحوالى 4 ملايين كم²، وتمتد من غرب الصين (مقاطعة سينكيانغ أو تركستان الشرقية) شرقاً وحتى بحر قزوين وإيران غرباً، ويسكنها أكثر من 60 مليون نسمة يتكلمون عدة لغات هي الطاجيكية (الفارسية) والقرغيزية والاوزبكية والكازاكية، والتركمانية والمغولية وهذه اللغات ذات أصول تركية. أهمية المنطقة

تمتاز هذه المنطقة بأهمية جيوسراتيجية من خلال موقعها الجغرافي ومواردها المهمة. فهي تشاطء بحر قزوين الغني بالموارد من جهة، وتشكل من جهة أخرى عقدة طرق برية وعمديدات انابيب الغاز والنفط من الشرق الأوسط وقزوين باتجاه الصين أو منها باتجاه البحر الاسود وتركيا والبحر المتوسط، ومن الأخيرة باتجاه الخليج العربي الفارسي عبر إيران، وأفغانستان وباكستان باتجاه المحيط الهندي.

يضاف إلى ذلك غنى هذه المنطقة بالنفط والماء والمعادن الثمينة.

تعيش دول آسيا الوسطى اليوم تملأً داخلياً، إذ تتعارض توجهات السلطة مع توجهات المكونات الاجتماعية والإتنية والدينية في ظل تدخل خارجي جعل من المنطقة بعد استقلالها عن الإتحاد السوفياتي السابق العام 1991، ساحة صراع وتنافس وتجاذب دولي أطرافه هي القوى الكبرى مثل روسيا والصين والولايات المتحدة الاميركية

(وبخاصة بعد احتلال أفغانستان من قبل تحالف دول الناتو)، أو بعض القوى الإقليمية الصاعدة كتركيا وإيران والهند، وبعض دول الخليج، وذلك بسبب مواردها وأسواقها من جهة وموقعها الإستراتيجي من جهة أخرى، الأمر الذي أدى إلى إقامة القواعد العسكرية فيها.

فقد أقيمت في ثلاث من هذه الدول ثماني قواعد عسكرية أجنبية:

- في طاجيكستان 4 قواعد: اثنتان روسيتان، واحدة هندية، وواحدة فرنسية.

- في أوزبكستان قاعدتان: واحدة أميركية وواحدة ألمانية.

- في قيرغزستان قاعدتان: واحدة روسية، وأخرى أميركية (قاعدة ماناس الجوية)،

التي افتتحت نهاية العام 2001، وهي مهمة جداً من حيث الامكانيات والتسهيلات العسكرية المتوافرة فيها وقربها من الحدود الروسية والصينية والأفغانية والإيرانية معاً، ما يمنحها أهمية إستراتيجية عسكرية فيما لو قررت الولايات المتحدة مهاجمة إيران. ويدور صراع خفي حول هذه القاعدة إذ تسعى الصين وروسيا مع حكومة قرغيزستان إلى إقفالها، الأمر الذي يتعارض مع مصالح الولايات المتحدة.

- تشترك هذه المنطقة في الكثير من الخصائص المهمة. منها أن آسيا الوسطى كانت من الناحية التاريخية مترابطة حضارياً (أصول تركية وفارسية)، ودينياً (غالبية إسلامية) بشكل وثيق، فقد كانت منطقة تقاطع الطرق لحركة الناس، والسلع، والأفكار بين أوروبا، والشرق الأوسط، وجنوب آسيا، وشرقها ومن خلالها يمر ويتقاطع عدد من فروع طريق الحرير البرية القديمة، التي تسعى بعض الدول الإقليمية إلى إحيائها من جديد من خلال شق الطرق ومد السكك الحديدية، ونايب النفط والغاز.

- يطلق اسم دول آسيا الوسطى على الدول الآتية: أوزبكستان - طاجيكستان - قرغيزستان - كازاكستان - تركمانستان. تشترك هذه الدول في كونها اعضاء في منظمة شنغهاي للتعاون وكومنولث الدول المستقلة عن الاتحاد السوفياتي السابق، وما بين رغبتها في أن تكون سيدة نفسها، وبفعل التدخلات والضغطات الدولية التي تمارس عليها من هنا وهناك، يعيش بعضها اليوم حالة من الإرباك الداخلي والحراك الشعبي الذي ربما يشي بـ «ربيع عربي» آخر يراوح ما بين العلمانية والاسلاموية، أو الفوضى؟!

اوزبكستان :

- جمهورية أوزبكستان أرض حيصة، ولها شاطئ على بحر أورال (بحر مغلق) بطول 420 كلم وهي تقع في منتصف قارة آسيا، ويحدها من الشمال والغرب كازاخستان ومن الجنوب أفغانستان وتركمانستان ومن الشرق قرغيزستان وطاجيكستان، وتبلغ مساحتها الإجمالية حوالي 447400 كلم²، أما عاصمتها فهي طشقند، وأهم مدنها سمرقند وبخارى وخوارزم وفرغانة.

- تعتبر أوزبكستان أكبر دول آسيا الوسطى بعدد السكان، (حوالي 27 مليون نسمة وفق تقديرات 2006)، وهي تضم عدة عرقيات حوالي 80% منها من الاوزبك يتكلمون الاوزبكية، وكذلك عدة لغات اخرى أهمها الروسية، ويدين حوالي 88% من السكان بالإسلام.

حصلت أوزبكستان على استقلالها كما سائر دول آسيا الوسطى عقب انهيار الاتحاد السوفياتي العام 1991.

وينص دستورها (1992) على أن نظام الدولة علماني ديمقراطي، وأن حرية التعبير والعبادة مكفولة بحكم القانون.

الناتج المحلي الإجمالي وفق التقديرات يقارب 54.81 مليار دولار، وتملك أوزبكستان سادس أكبر احتياطي من الذهب، وهي الثامنة على مستوى العالم من حيث الإنتاج المقدر سنويًا بنحو 85 طنًا. يضاف إلى ذلك الفحم واليورانيوم والفضة والتنجستن والنحاس والرصاص والزنك. ويقدر الاحتياطي المؤكد من النفط في هذا البلد بـ 594 مليون برميل (تقديرات 2007) ينتج منه فقط نحو 150 ألفًا يوميًا. أما الاحتياطي المؤكد من الغاز الطبيعي فيقدر بنحو 1.875 تريليون قدم مكعب (المرتبة 9 عالميًا)، يصدر منه نحو 12.5 مليارًا سنويًا.

وتذهب صادرات الغاز إلى الدول المجاورة في الدرجة الأولى مما يخفف عبء مد أنابيب لمسافات طويلة.

إلى ذلك تسهم الزراعة والصناعات الناتجة عنها بأكثر من 40٪ من الناتج المحلي الإجمالي لأوزبكستان، وهي خامس أكبر منتج للقطن في العالم وثاني مصدر له، وهو يمثل نحو 45٪ من صادرات البلاد.

أما الصناعة فتسهم بنحو 20٪ من إجمالي الناتج المحلي، وتعتبر صناعة الآلات والمنسوجات ومنتجات الطاقة أهم صناعاتها.

مع مطلع الألفية الثالثة كانت أكبر أسواق التصدير المفتوحة أمام أوزبكستان هي بريطانيا وكوريا الجنوبية وسويسرا، والعام 2005 دخلت الصين بقوة على خط الاقتصاد بعد توقيع اتفاقية مد أنابيب للغاز معها بتكلفة تقدر بـ 600 مليون دولار. • طاجيكستان أو طاجكستان:

هي أرض حبيسة أيضًا، تقع على الطرف الجنوبي لمجموعة دول آسيا الوسطى، وهي أصغر هذه الدول إذ تبلغ مساحتها حوالي 143.100 كلم²، ولكنها أغناها بالثروة المائية (الثامنة في العالم). تحدها من الشمال قرغيزستان، ومن الجنوب أفغانستان، ومن

الشرق الصين، ومن الغرب أوزبكستان، ويبلغ طول حدودها حوالي 3651 كلم، وعاصمتها دوشنبه.

يقدر عدد سكان طاجيكستان (تقديرات 2006) بحوالي 7 ملايين نسمة، 58٪ منهم ينتمون إلى العرق الطاجيكي الفارسي والبقية من عرقيات مختلفة كالأوزبك (23٪) والروس والإيرانيين (15٪) وغيرهم.

وقد عمل الزواج المختلط، لا سيما في وادي فرغانا، بين الطاجيك والأوزبك على دمج هذين العرقين.

الطاجيكية (قرية من الفارسية)، هي اللغة الرسمية للدولة، والروسية هي لغة التخاطب في التعاملات الحكومية والتجارية، ويدين أكثر من 90 ٪ من السكان بالإسلام.

يقدر الناتج المحلي الإجمالي (2006) بـ 904.5 مليارات دولار، أما أهم الموارد فهي الذهب والفضة والإثمد (حجر الكحل) ولكنها لم تستغل بطريقة اقتصادية حتى الآن.

وتمثل الزراعة 22.7٪ من إجمالي الدخل المحلي (القطن هو المحصول الرئيس)، كما تمثل الصناعة 28.5٪ من إجمالي هذا الدخل (صناعة الألومنيوم والنسيج من أهم الصناعات). يوجه نحو 75٪ من إجمالي صادرات طاجيكستان إلى خارج كومنولث الدول المستقلة. وأهم الصادرات: الألومنيوم الذي يشكل أكثر من 50٪ من قيمة الصادرات يليه القطن. وأهم الواردات: الكهرباء والبتروكيماويات والآليات. وقد وصل الدين الخارجي للبلاد العام 2006 إلى نحو 829 مليون دولار.

•تركمانستان:

تقع تركمانستان في أقصى الطرف الجنوبي الغربي لجمهوريات آسيا الوسطى، ويحدها من الشمال أوزبكستان وكزاخستان، ومن الجنوب إيران، ومن الجنوب الشرقي أفغانستان، ومن الغرب بحر قزوين، وتبلغ مساحتها 488.100 كلم²، تغطي صحراء

كراكوم حوالى 90٪ منها، طول حدودها البرية حوالى 3666 كلم. أما حدودها على بحر قزوين فتبلغ حوالى 1768 كلم ما يسمح لها بصيد سمك البالوغا واستخراج الكافيار منه. عاصمتها عشق آباد.

يقدر عدد السكان بحوالى خمسة ملايين نسمة (2006)، 85٪ منهم من التركمان، يتحدث حوالى 72٪ منهم اللغة التركمانية، و12٪ الروسية، والباقي لغات اخرى. ويدين حوالى 90٪ من السكان بالإسلام.

يعتمد الإقتصاد التركماني على التخطيط المركزي وتحكم الدولة. وتمثل صناعة النفط والغاز الطبيعي والحديد والنسيج أهم الصناعات في البلاد، التي بلغ الناتج المحلي فيها (2006) 45.11 مليار دولار.

الذهب والفضة واليورانيوم والتنجستن والملح البتونايت والجبس، هي أبرز موارد هذا البلد من المعادن، أما في ما خص الطاقة فهي السادسة بإنتاج الغاز عالمياً وضمن الدول الـ12 الأغنى باحتياطه، كما أنها تملك احتياطياً من النفط بنحو 600 مليون برميل.

الزراعة تمثل 24.4٪ من إجمالي الدخل المحلي، ومن أهم محاصيلها القطن، كما تضاعفت المساحات المزروعة بالحبوب والقمح بصفة أساسية إلى ثلاثة أضعاف بعد الحقبة السوفياتية. في المقابل تمثل الصناعة 33.9٪ من إجمالي الدخل المحلي، وأهم الصناعات معالجة الوقود والنسيج المعتمد على القطن والأغذية والآلات وتشكيل المعادن. وقد أدى اكتمال مصنع للحديد والصلب - ولته تركيا - إلى زيادة إنتاج الصلب الخام.

تمثل الخدمات 41.7٪ من إجمالي الدخل المحلي، ويخضع النظام المالي لسيطرة الدولة الكاملة.

معظم العلاقات الاقتصادية الخارجية بين تركمانستان والعالم الخارجي متعلقة بالنفط والغاز الطبيعي والقطن والمنسوجات. وتعتبر الولايات المتحدة أهم شريك في هذا المجال، تليها روسيا والصين واليابان.

• كازاخستان أو كزاخستان:

تحدّها من الشمال روسيا، ومن الجنوب كل من الصين وقرغيزستان وأوزبكستان وتركمانيستان، ومن الشرق الصين، ومن الغرب روسيا. عاصمتها الجديدة مدينة آستانا، وأكبر مدنها آلماتا (العاصمة القديمة) هي أكبر دولة مسلمة في العالم مساحة (حوالي 2.717.300 مليون كلم² منها 47.500 ألف كلم² من المياه). وتشتهر كزاخستان عالميًا لوجود المركز الفضائي السوفييتي بايكونور فيها، وكذلك مركز التجارب النووية في سيميالاتنسك.

يبلغ طول الحدود البرية لكزاخستان مع الدول المجاورة 12 ألف كلم، منها 1894 كلم على بحر قزوين الذي تشكل موارده سببًا للخلافات مع تركمانستان. عدد السكان (تقديرات 2010) يقدر بحوالي 16 مليون ومائتي ألف نسمة، 70٪ مسلمون، 54٪ من الكازاك، و30٪ منهم من الروس، والباقي أعراق مختلفة.

وما بين العامين 1989 و1999 غادر كزاخستان نحو 1.5 مليون روسي و500 ألف ألماني مما أفقد البلاد جزءًا كبيرًا من الخبرات والمهارات الفنية التي كانت توفرها تلك المجموعات.

الكزاخية والروسية من أهم اللغات. ويتحدث الكزاخية نحو 64.4٪ من السكان وهي لغة الدولة الرسمية، أما الروسية فهي لغة التواصل بين العرقيات المختلفة. والعام 2006 اقترح الرئيس نور سلطان نزار باييف تحوّل كزاخستان إلى الأبجدية اللاتينية.

كزاخستان دولة علمانية، اقتصاديًا يشكل النفط والغاز أهم موردين لها، ويمثلان أكثر من نصف الإنتاج الصناعي.

النتاج المحلي الإجمالي (تقديرات 2006) فيها هو 138.7 مليار دولار تقريبًا. وكازاكوستان غنية بالمعادن وأهمها الكروم والفحم والنحاس والذهب والفضة وخام الحديد والتنجست واليورانيوم (ثاني احتياط في العالم بعد أستراليا) والزنك والنيكل والرصاص... كما أنها من الدول الغنية بالنفط والغاز، ويقدر الاحتياطي المؤكد من النفط بحوالي 30 مليار برميل (المرتبة 9)، بينما يقدر احتياطي الغاز بما بين 3.3 و3.7 تريليون متر مكعب.

وتمثل الزراعة نحو 60٪ من إجمالي الإنتاج المحلي، في حين كانت تمثل حتى العام 1990 نحو 35٪. ومن أهم المحاصيل القطن والحبوب (السادسة عالميًا بإنتاج الشعير)، كما تربي المواشي لأجل لحومها.

تمثل الصناعة جزءًا مهمًا من إجمالي الإنتاج المحلي، وفضلًا عن الصناعات المتعلقة بالنفط والغاز، هناك صناعة الآلات ومواد البناء وتشكيل المعادن.

وتنتج البلاد حاليًا 1.3 مليون برميل يوميًا من النفط، تصدر منه قرابة المليون يوميًا.

العام 2005 بلغ إجمالي قيمة الصادرات 28.3 مليار دولار والواردات 18 مليارًا. وأهم الصادرات النفط والغاز الطبيعي والمعادن والكيماويات واللحوم، وتصدر في الغالب إلى سويسرا وفرنسا وإيطاليا. أما أهم الواردات فهي الآلات والمعدات وتستورد من ألمانيا والولايات المتحدة والصين.

• قرغيزستان:

تقع قرغيزستان على امتداد الحدود الشرقية لمنطقة آسيا الوسطى، ويحدها من الشمال كزاخستان، ومن الجنوب الصين وطاجيكستان، ومن الشرق الصين، ومن الغرب أوزبكستان، وعاصمتها بشكيك.

هي ثاني أصغر دول آسيا الوسطى الخمس. وتبلغ مساحتها 198.500 ألف كلم² منها 7100 كلم² من المياه.

عدد السكان 5.5 ملايين نسمة (تقديرات 2009)، 75٪ منهم من القرغيز، والباقي من الاوزبك والروس، وبعض الاعراق الاخرى. 80٪ منهم يدينون بالاسلام، 16٪ مسيحيون ارتوذكس والباقي من ديانات أخرى.

بعد حملة حكومية لتوسيع استخدام اللغة القرغيزية في التسعينيات، أقر قانون 2001 يجعل الروسية اللغة الرسمية الثانية للبلاد الى جانب القرغيزية، والروسية هي لغة التخاطب الأساسية في الشؤون التجارية والدراسات العليا. وينص دستور قرغيزستان الذي أقر في أيار 1993 على أنها دولة علمانية، وعلى الفصل بين سلطات الدولة الثلاث.

يعتمد اقتصاد قرغيزستان بنسبة كبيرة على الزراعة وتربية المواشي والخدمات، وبلغ الناتج المحلي الاجمالي العام 2009 حوالي 11.66 مليار دولار. من ثرواتها الذهب (بكميات اقتصادية)، والإثمند (حجر الكحل) والفحم والزئبق والتنجستن واليورانيوم والزنك.

الاحتياطي المؤكد من النفط لا يتعدى 40 مليون برميل وفق تقديرات 2007، ومن الغاز الطبيعي حوالي 200 مليار قدم مكعب. ولا يكفي ما تنتجه من النفط والغاز الاستهلاك المحلي، وتضطر الحكومة إلى الاستيراد من الخارج. الزراعة تمثل 34.5٪ من إجمالي الناتج المحلي، وأبرز قطاعاتها إنتاج القطن وزراعة الحبوب في الوديان المنخفضة، وتربية المواشي (10 ملايين رأس). أما الصناعة فتتمثل 19.5٪ من إجمالي الإنتاج المحلي، وأهم الصناعات: الملابس والمنسوجات والصناعات الغذائية.

قطاع الخدمات يمثل 46.1٪ من إجمالي الناتج المحلي، وهو ينمو بصورة طرّدة وذلك لظهور المؤسسات الخاصة الصغيرة، كما ينمو قطاع البنوك التجارية الذي يشرف عليه البنك المركزي.

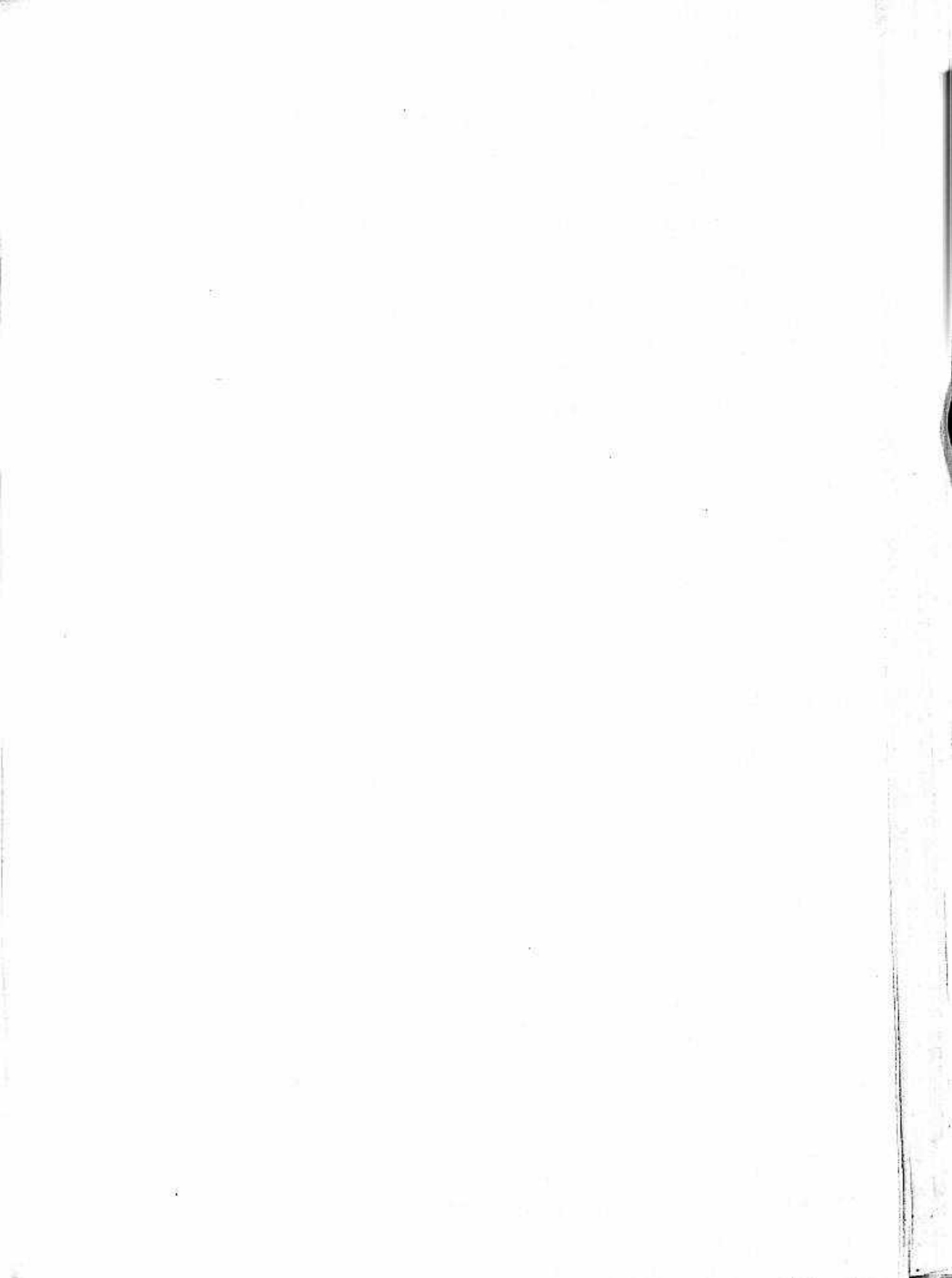
أصبحت قرغيزستان العام 1998 أول دولة في كومنولث الدول المستقلة تنال عضوية منظمة التجارة العالمية. ومعظم تجارتها الخارجية تتمثل في بعض المشغولات الذهبية والأحجار الكريمة والمنسوجات والقطن والملابس واللحوم، وتذهب إلى الإمارات العربية المتحدة وكزاخستان وروسيا، في حين تستورد الآلات والمعدات الكهربائية والمنتجات الكيماوية من الصين وألمانيا وإيطاليا.

الهوامش

• إستان: كلمة فارسية تسمى حرف موضع، ومعناها «مكان» أو «أرض»، مشتقة من كلمة «شتانا» في اللغات الهندية الآرية والتي تعادلها في المعنى، تضاف إلى كثير من الأسماء لتخصيصها بأسماء الأماكن من الدول والمدن والمواضع، خصوصاً في منطقتي آسيا الوسطى وجنوب آسيا.

• طريق الحرير: هي مجموعة من الطرق البحرية والبرية المترابطة كانت تسلكها القوافل والسفن قديماً وتمرّ عبر جنوب آسيا بجزء، ووسطها برّاً رابطة الصين بموانئ البحر المتوسط ومنها إلى أوروبا.

:



الفصل السابع

آسيا الوسطي بين الماضي والحاضر والمستقبل



الفصل السابع

آسيا الوسطى بين الماضي والحاضر والمستقبل

عاشت منطقة آسيا الوسطى فترات هامة في التاريخ البشري، بداية من الفتح الإسلامي الذي نشر الإسلام في ربوع المنطقة، ومروراً بالحقبة السوفيتية التي حاولت خلالها القوى الاستعمارية ممثلة في الاتحاد السوفيتي طمس الهوية الإسلامية في البلاد، وصولاً إلى الفترة الحالية التي تشهد صراعاً حامياً بين الدول العظمى على ثروات المنطقة، في مقابل مساعي دول وحكومات المنطقة لتأكيد استقلالهم الذاتي، وحرصهم على الاستفادة من المنافسة الشرسة على ثرواتهم في تطوير وتحسين الأحوال المعيشية لمواطنيها، خاصة وأن شعوب المنطقة قد عانت الأمرين في الفترات السابقة، خاصة أيام الحقبة السوفيتية التي حرموا خلالها من أبسط حقوقهم الإنسانية في ممارسة شعائرهم، والتمتع بحريات بلادهم، وهو ما يعكس مدى أهمية المنطقة وقدرتها على لعب دور حيوي في الصراع الدولي الدائر حالياً بين القوى العظمى في العالم، بل وقدرة قادتها على الاستفادة الكبيرة من ذلك الصراع بما يعود بالنفع على شعوب المنطقة مثلما كان يحدث أيام الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي.

بداية المد الإسلامي:

لعب العرب والعثمانيون دوراً كبيراً في نشر الإسلام في منطقة آسيا الوسطى، حيث تؤكد الدراسات أن الإسلام انتشر في منطقة آسيا الوسطى عن طريق الفتوحات والعمل الدبلوماسي، بالإضافة إلى نشاط التجار المسلمين، ونشاط الطرق الصوفية التي تحولت إلى حركات شعبية، ففي سنة (522-642م)، أرسل المغيرة بن شعبه والي الكوفة قوات من عرب الكوفة لغزو أذربيجان بقيادة حذيفة بن اليمان، والذي سار إلى العاصمة

أردبيل، مروراً بإقليم طبرستان وجيلان وقومس، والتي تم عقد اتفاقيات سلام مع حكامها.

إلا أنه وبالرغم من تلك الحملات لم تشهد المنطقة استقراراً للوجود الإسلامي فيها، حيث كانت الفتوحات الإسلامية في ذلك الوقت عبارة عن غارات خاطفة، مما دفع القادة المسلمون لمعاودة فتح تلك المدن مرة بعد أخرى.

بعد قيام حذيفة بن اليمان بفتح أوزبكستان عاود عتبة بن فرقد السلمي فتحها مرة ثانية، وذلك بعد أن انتفضت على المسلمين، ثم قام الوليد بن عتبة بغزو أذربيجان سنة (25هـ-646م)، وفي ولاية سعيد بن العاص على الكوفة غزا أذربيجان، وأوقع بأهل موقان وجيلان، وهزّم أحد قواده- وهو جرير بن عبد الله البجلي- أهل أذربيجان عند أرم.

ثم ولّى علي بن أبي طالب الأشعث بن قيس أذربيجان، فوجد أكثر أهلها قد أسلموا، فأنزل أردبيل جماعة من أهل العطاء من العرب، ووحدتها وبني مسجدها.

ومع بداية العصر الأموي أعيد فتح المنطقة مرة ثانية، حيث تواصلت الغارات الإسلامية على المنطقة حتى عام (585)، الذي شهدت فيه البلاد فتحاً مستقرًا، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الإسلام يشق طريقه بثبات بين الناس.

وخلال بقية العصر الأموي حتى سقوط الدولة كانت جهود الأمويين منصرفة إلى تثبيت السيادة العربية والتمكين للنفوذ الإسلامي من الانتشار بالطرق السلمية، ومن أهمها: توظيف المسجد في المهام الدعوية والتعليمية، وتوطين القبائل العربية في المدن الكبرى.

وأصبحت بلاد ما وراء النهر بدورها مدافعة بحماس عن الإسلام، وعاملة على نشره بين الأتراك الشرقيين، ولم تكن تلك المهمة سهلة، بل كانت أصعب من مهمة الفتح ذاتها، وكانت بعيدة الأثر في تاريخ الإسلام بصفة عامة، وتاريخ أواسط آسيا بصفة خاصة، ولقد أخلصت بلاد ما وراء النهر للإسلام كل الإخلاص، وغدت جزءاً من أهم أجزائه غيرة عليه، وتمسكاً به.

ويكفي أنه لولا تلك البلاد وإخلاصها للإسلام لاستطاع المغول- بتحريض القوى الصليبية التي كانت تدفعهم- القضاء على الإسلام في تلك المناطق، بعد أن قضوا على كل أثر للحضارة الإسلامية هناك.

وخلال تلك الفترة ازدهرت في آسيا الوسطى العديد من المدن، والتي منها مدينة طراز التي تقع الآن في جنوب كازاخستان، ومنها منظومة المدن الموجودة حالياً في جمهورية أوزبكستان، وهي المعروفة عند العرب بأسماء بخارى وطشقند وسمرقند.

كما بدأت فيها حركة علمية جديدة، من سماتها الأساسية ذلك الاهتمام الكبير بعلوم الدين وعلوم اللغة وبالفلسفة والطب.

وقد كان أكثر الراغبين في العلم يتقلون إلى البلاد العربية ويتقنونها ويؤلفون بها، وبعضهم عاد إلى موطنه، وهنا نجد أسماء عدد كبير من العلماء ينتمون إلى المنطقة الجنوبية من آسيا الوسطى التي تقع فيها اليوم جمهورية أوزبكستان، منهم الإمام البخاري، وابن سينا، والترمذي، وبعضهم من المنطقة الوسطى التي تقع فيها اليوم جمهورية كازاخستان.

الهجمة السوفييتية:

واعتباراً من القرن التاسع عشر الميلادي تعرض العالم الإسلامي عمومًا، والدولة العثمانية على وجه الخصوص وروسيا وأوروبا وإيران لمتغيرات هائلة، كان لها أثرها المباشر على مناطق آسيا الوسطى، خاصة بعد سقوط القرم وقفقاسيا حتى بحر قزوين في يد الروس.

وبمجرد أن ضعفت الدولة العثمانية بدأ الروس يعدون العدة لتثبيت دولتهم، ويسيطر سلطنتهم، فتوجهت جيوشهم بوحشية بربرية زاحفة نحو الشرق؛ لإخضاع تلك البلاد الإسلامية الشاسعة، القضاء على سكانها الأمنيين المطمئنين، وفعلاً وصلت الجيوش حتى أقصى حدود تركستان الكبيرة بعد أن استولوا على كل مدن هذه المملكة التي تفسى فيها التفكك والانشقاق.

وكانت تركستان إذ ذاك مقسمة إلى ست دول: دولة بني أوزبك في بلاد ما وراء النهر، ودولة بني بادكار في خوارزم، ودولة بني قوندي في الشمال الغربي لسيبيريا، ودولة أمراء مانفيت (نوغاي) في غربي ولاية قازاقستان، ودولة سلاطين قازان في الشمال الشرقي لقازاقستان، ودولة بني جفتاي (روغلات) في تركستان الشرقية.

ثم تجزأت تركستان فيما بعد إلى ثلاث إمارات: إمارة فرغانة، وإمارة خيوة، وإمارة بخارى، استولى عليها الروس القيصريون على التوالي عام (1875م)، و عام (1885م)، و عام (1886م)، وجعلوها تحت الانتداب، ولم تفد مقاومة التركستانيين ضد هذا الغزو الذي دام قرابة أربعين عامًا.

وفي هذا الوقت الذي أدرك قياصرة روسيا خطر الإسلام عليهم، حيث اعتبروا أنفسهم الورثة الحقيقيين للإمبراطورية البيزنطية، وأنهم حماة المذهب الأرثوذكسي، وأن عليهم العمل على نشره بزعة العقيدة الإسلامية من نفوس المسلمين، وهذا ما حدث فعلاً بعد إتمام التوسع في منطقة آسيا الوسطى.

وقد شهدت فترة حكم ستالين، التي دامت حتى عام (1953م) ألواناً من القهر والسخره في العمل، حيث تعرض المسلمون خلال تلك الفترة إلى صنوف القهر والتعذيب، والتشريد، والتهجير الإجباري، وإلى تقسيم أراضيهم والاقطاع منها، وتهجير الروس والأوكرانيين إليها، بهدف تغيير التكوين الديموغرافي والعرقى والديني لهذه الأقاليم.

ومن ناحية أخرى فرضت على المسلمين اللغة الروسية كلغة رسمية، وكلغة للتعامل في كل نواحي الحياة، فأنفصل معظم المسلمين عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وعن كتب الفقه التي لم تكن مكتوبة باللغة الروسية، وصار من بقي من علماء المسلمين يعلمون الإسلام لمن يتيسر له ذلك سرّاً!!

ولم يكتف الروس بذلك بل عملوا - أيضاً - على نشر الأيديولوجية الإلحادية بين صفوف المسلمين، مع تجذير الثقافة الشيوعية، بالإضافة إلى تحطيم نظام الأسرة القوي لدى المسلمين، وإطالة وقت عمل المرأة بين الرفاق، ومنع الدراسة الدينية وتدرّس اللغة العربية منعاُ باثًا، ومنع الكتابة بالحرف العربي، وقد حول الحرف أولاً إلى اللاتيني، ثم حول بعد ذلك إلى الحرف الروسي.

وقد أوجد الروس الثغرة القوية بين مسلمي روسيا، مع أن الفكر الشيوعي يصطدم أساساً مع القوميات، ولهذا قسم الروس المناطق الإسلامية إلى ست جمهوريات، وجميعها محكومة بالمستعمر الروسي المتمثل في سكرتير الحزب الشيوعي في كل منطقة من هذه المناطق.

إلا أنه وبعد أن حاصر الألمان الروس في الحرب العالمية الثانية ووصلوا إلى (150) كم قرب موسكو، وحاصروا لنتجراد (بترسبورغ الحالية)، وقطعوا طريق الوصول إلى جمهوريات القوقاز، نقل الروس مصانعهم الضخمة التي تنتج الصناعات الثقيلة والحربية إلى أراضي جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية، وبما أنهم كانوا في حاجة إلى مزيد من الجنود للدفاع عن الاتحاد السوفيتي المهدد بالألمان، فقد منحوا نوعاً من الحرية الدينية لمسلمي آسيا الوسطى، وسمحوا بفتح مسجد في كل مدينة كبيرة كثيفة السكان.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي في العام 1991م، حصلت كل جمهوريات آسيا الوسطى على الاستقلال، إلا أنها قد خرجت من الاحتلال في حالة اقتصادية متردية، مما أوجد صراعاً داخلياً بين دول المنطقة من أجل الحصول على أي مكاسب أو ثروات تسهم في بناء تلك الدول المتهاجرة.

وهكذا لم يكن انهيار الاتحاد السوفيتي في هدوء، وإنما صاحبه انفجار كبير في المنطقة أشعل فيها حريقاً مهلكاً من الحروب التي قوضت ما بقي قائماً من أعمدة الاقتصاد، ومن هنا، نظرت الدول المتشاطئة على بحر قزوين إلى نفط قزوين باهتمام بالغ، وسارعت إلى اقتناص أي كمية من ثروته النفطية علّها ترمم اقتصادها المتهاجر، وتحاول أن

تقيم أوده من جديد، دون انتظار لتحديد الوضع القانوني للبحر، وقد كان لكل دولة وجهتها وحساباتها الداخلية والخارجية وخططها في عملية استثمار نפט قزوين، وهو ما خلق تضاربًا في المصالح، وصراعًا وصل إلى حد التهديد باستخدام القوة العسكرية.

وبينما أصبح الوضع هكذا، امتلأت المنطقة بالثقوب التي نفذت منها قوى دولية طامحة في السيطرة على البحر بثرواته، بل والمنطقة بأسرها، وتبلورت خريطة الصراع عند بحر قزوين في طرفين: طرف إقليمي يمثل الدول المتشاطئة الخمس، وطرف خارجي يتمثل في الغرب بقيادة الولايات المتحدة وتركيا.

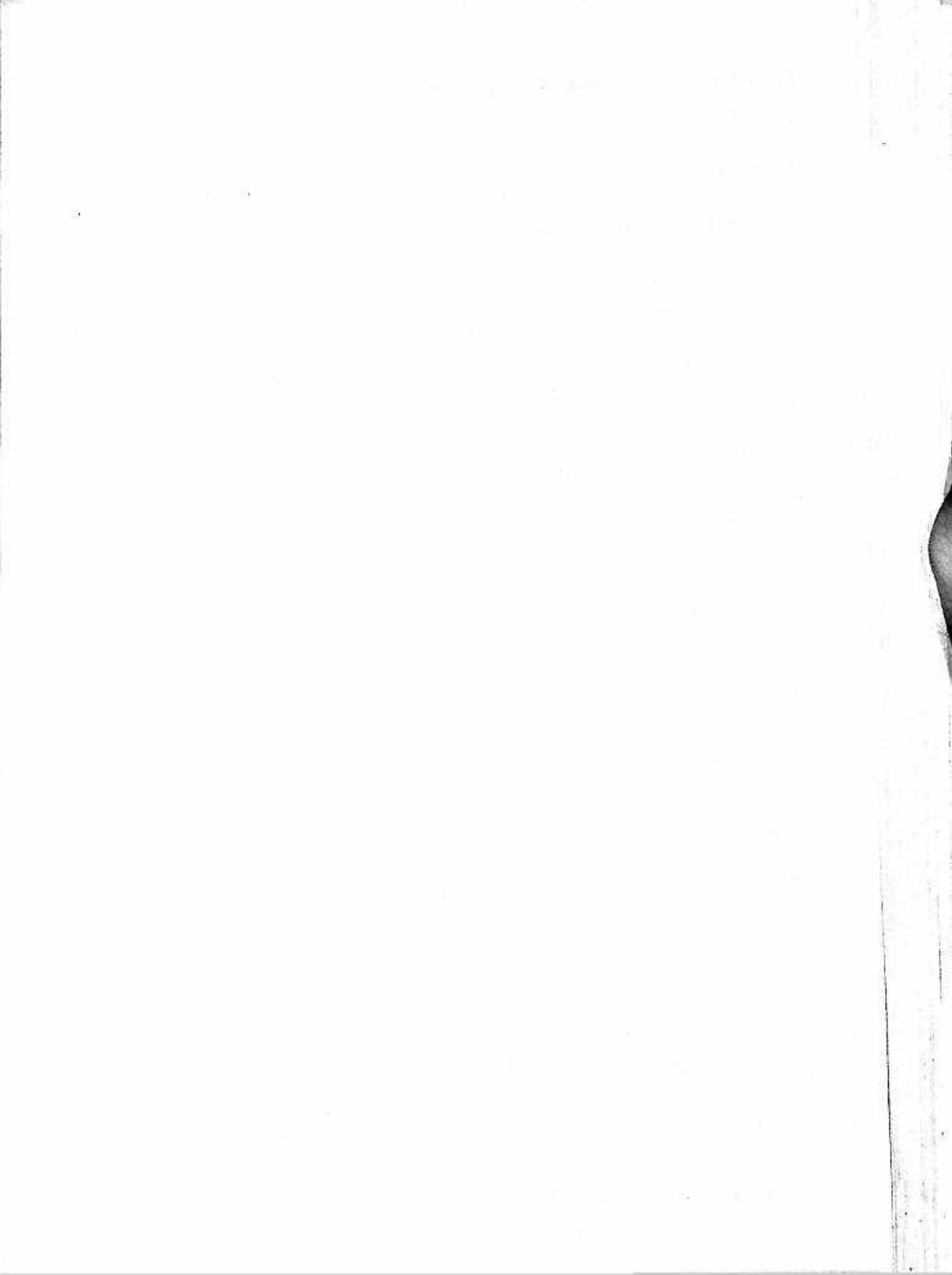
ولا شك أن العلاقات تشابكت بين الطرف الإقليمي والخارجي وفق تبادل المصالح المتبادلة. وبمعنى آخر، فإن الصراع يدور بين أربع مجموعات سياسية وثقافية هي: الروسية، والإيرانية والتركية، بالإضافة إلى باكستان التي تشكل آسيا الوسطى بالنسبة لها حلمًا طالما انتظرت تحقيقه، ويقف في المقدمة من هذا الصراع الغرب بمصالحه الاستراتيجية في المنطقة.

مرحلة المنافسة والبناء:

تمر منطقة آسيا الوسطى ودولها التي أعلنت استقلالها عن الاتحاد السوفيتي السابق عام 1991م بمرحلة البناء الجديد، وتكوين العلاقات الخارجية مع دول العالم. وبالفعل نجحت المنطقة في إقامة شبكة من العلاقات القوية مع العديد من دول العالم، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية والصين وروسيا وإيران وغيرها من البلدان الأوربية، هذا بالإضافة إلى تطوير علاقاتها بالعديد من الدول العربية، وعلى رأسها المملكة العربية السعودية ومصر وعمان والإمارات والكويت وليبيا، وذلك في محاولة منها للاستفادة من تلك العلاقات في تطوير اقتصاد البلاد، والاستفادة من الثروات الطبيعية التي تتمتع بها في جذب الاستثمارات الخارجية.

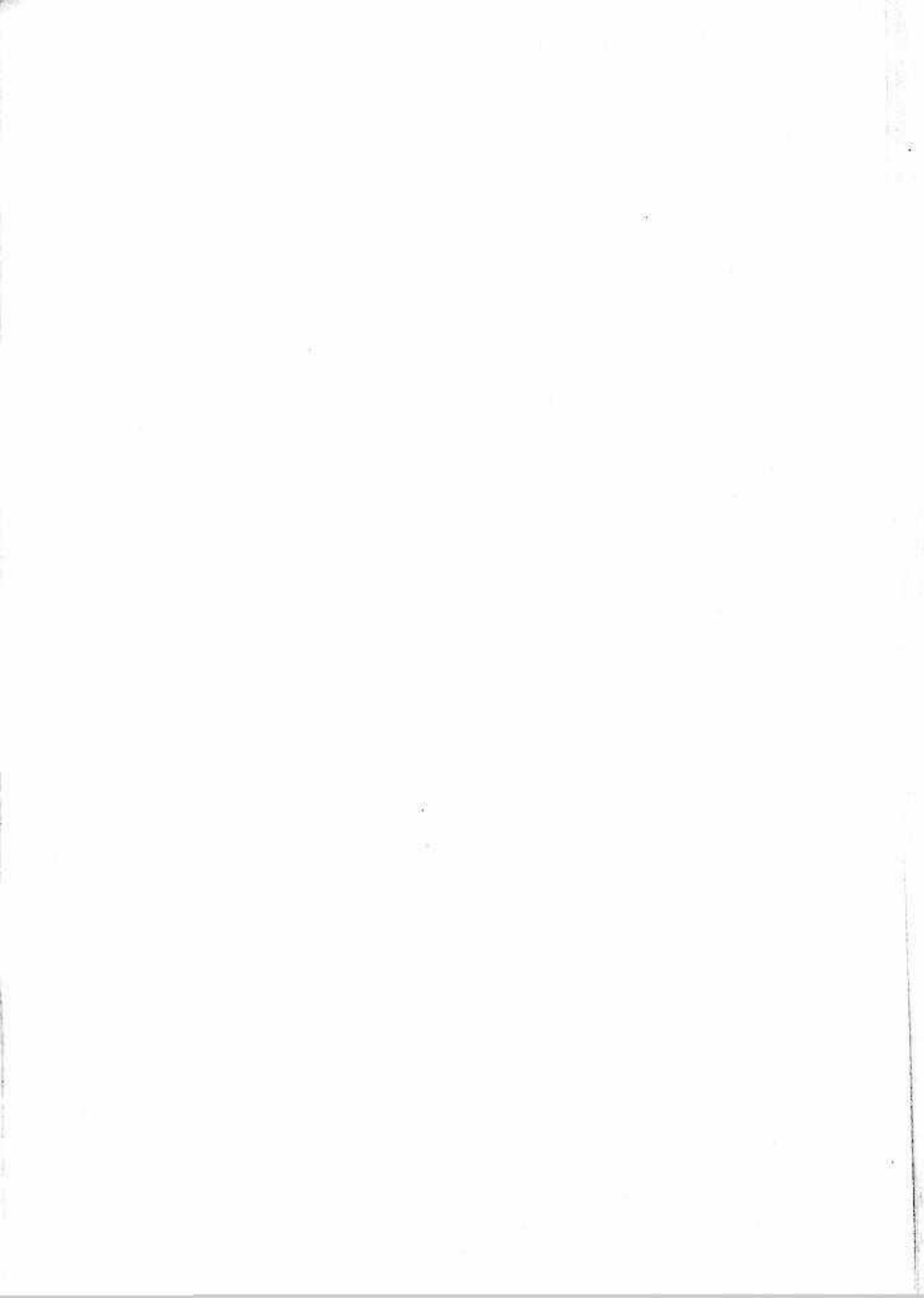
إلا أنه ورغم ذلك لا تزال المنطقة تواجه العديد من التحديات على الصعيدين الداخلي والخارجي، حيث لا تزال تفتقد معظم تلك الدول للاستقرار والأمن، بالإضافة إلى أنها لا تزال في بداية عملية التحول الديمقراطي، فضلاً عن المحاولات الخارجية الهادفة للهيمنة والسيطرة على المنطقة، واستنزاف ثرواتها، واستخدامها كدرع في مواجهة بعضهما البعض (القوى العظمى).

وفي العموم تعتبر منطقة آسيا الوسطى من المناطق الحساسة في العالم، والمرشحة للعب دور هام على الصعيد العالمي في المستقبل القريب، خاصة بعد انتقال مركز الصراع العالمي من الغرب إلى الشرق، وتحول المنافسة والصراع من الاتحاد السوفيتي إلى الصين تارة، وإيران والمنطقة العربية تارة أخرى، الأمر الذي يعني أن منطقة آسيا الوسطى قد تواجه في المستقبل تحديات جمة تتطلب منها أن تعد لها العدة من الآن، وذلك من أجل ألا تكون لقمة سائغة في فم القوى العظمى التي تسعى للحصول عليها مهما كانت التضحيات.



الفصل الثامن

الإسلام والأتراك الوافدون من آسيا الوسطى إلى الأناضول



الفصل الثامن

الإسلام والأتراك الوافدون من آسيا الوسطى إلى الأناضول

حتى نستطيع أن نتبين سر هذه النجاحات التي حققها العثمانيون، وذلك الاتساع الذي حقته الدولة العثمانية باتجاه البلقان في البداية، ثم الأناضول بعد ذلك، والذي يمكن أن يوصف بأنه يمثل انفجاراً هائلاً في تلك البقاع، فإنه ينبغي علينا أن نتعرف على أحوال البيزنطيين والأناضول في بداية القرن الرابع عشر.

لقد كانت وطأة المغول في الأناضول وظلمهم قد بلغ مبلغاً كبيراً، وكذلك الضرائب المتزايدة سنة بعد أخرى قد وصلت إلى حالة لا يمكن أن يتحملها سكان تلك المناطق. لقد أنهموا بالكامل وجود سلطنة قوية، وكانت تمثل دولة مستقلة. وبينما كانت الإمارات التركمانية تسعى للاستقلال باعتبارها سليلة القرمانيين من ناحية، فإنها من ناحية أخرى كانت تسعى للاستيلاء على عرش قونية.

وكان شعب الأناضول يرزح ويشن تحت وطأة الضرائب من جهة، ويعاني من جهة أخرى - وإلى درجة كبيرة - من الحروب التي كانت تبدو وكأنها بلا نهاية. أضف إلى ذلك. فقد كان قد بدأ - فيما يتعلق بالأراضي - نظام أشبه بالنظام الإقطاعي.

هذا؛ ولم يكن الموقف في البلقان وبيزنطة أفضل منه في الأناضول؛ فلقد كان اللاتين (latinler) قد تركوا بيزنطة، إلا أن التي تركوها لم تكن هي بيزنطة، وإنما هو ظلها، بمعنى أن الحياة التجارية والاقتصادية كانت في أسوأ حالاتها، وحمل الشعب بأعباء ضرائب أعيت كاهله.

وهكذا، وفي هذه البيئة بظروفها تلك، كانت قد أسست الإمارة العثمانية، وبدلاً من الحروب التي كانت وكأنها بلا نهاية بسبب عرش قونية؛ كان دخول العثمانيين واتساعهم في البلقان وفي الروملي يتسم بما نصطلح عليه اليوم بالفعل الشديد؛ ففي مكان

كانت تدخله الدولة العثمانية كانت تدخله بمفهوم ونظام اقتصادي جديد تماماً. ولقد تناول هذا الأمر بالتفصيل كل المؤرخين الذين تعرضوا لهذا الموضوع، إلا أن قسماً من المؤرخين الأوروبيين الذين تعرضوا لهذا الأمر تعرضوا له من خلال مواقف متعصبة لا تعكس لنا حقيقة الأمر، حتى إن كثيراً من المؤرخين الأوروبيين عارضوا هذه الرؤية، وكانوا أكثر إنصافاً، وكانت أهم المسائل في موضوع النظام الاقتصادي التي توقف عندها العثمانيون في مرحلة التأسيس تتمثل في صراع طويل وحاسم، باعتبار نتائجه في مواجهة الفوضى التي كانت سائدة، إنه صراع مرير خاضته الدولة العثمانية ضد طبقات ملاك الأراضي.

لقد تعرف العثمانيون في الأراضي التي قاموا بفتحها على الإنسان المقهور، والذي كان يُنظر إليه دائماً بعدم اكتراث، فوضعوا حداً لما لحق به من مظالم، وألغوا نظام السخرة والضرائب المجحف. وباختصار؛ فقد أقاموا جسوراً من التقارب بينهم وبين الشعب. لقد أعطى عثمان بك تعليماته لقائد الحصار في أثناء فتح بورصة و«بالأبالحقيق» قائلاً: «حبيوا الناس في الإسلام بتطيب خاطرهم، وعدم الاعتداء عليهم، وبحسن رعايتهم».

وكان هذا المناخ الإيجابي الذي نتج عن هذا النوع من التفكير سبباً رئيسياً في لجوء كثير من البيزنطيين إلى العثمانيين. إن الذين فروا من الإدارة البيزنطية ولجئوا إلى العثمانيين تم إعفاؤهم من الضرائب، وعندما أجبروا على دفع (الخراج) في فترة تالية؛ كان ما يدفعونه قليلاً للغاية بالنسبة لما كانوا يؤديونه من ضرائب للبيزنطيين. إن الفوضى التي سادت شعوب البلقان بعد أن اهتزت قدرة بيزنطة على التأثير قد تلاشت على يد العثمانيين. لقد حصل مسيحيو البلقان في عهد العثمانيين على السلام والنظام (كما كان الحال في عهد قوة بيزنطة).

وكما يوضح ذلك المؤرخ الروماني (ن، إيجورا) فيقول: «إن دول البلقان المسيحية بصفة عامة تركت مكانها للإمبراطورية العثمانية خلال قرن من الزمان، ولم تكن قد غابت عن المسرح بسبب غطسة دينية لعدو متعصب أراد أن يقضي على الدين المسيحي

كما يظن.. فوحدة السلطنة العثمانية قد حققت السكون والسلام المطلق، وأنت بحكم متحضر.. لقد امتزجت النظم العثمانية والسلافية والبيزنطية بعضها ببعض داخل كل واحد.

إن السادات الإقطاعية المحلية قد اختفت بسرعة، واحدة تلو الأخرى، أمام العثمانيين الذين كانوا يمثلون اتجاهًا تاريخيًا عامًا لذلك العصر، وذهبوا داخل الجامعة العثمانية.

ولقد كانت إمارات الحدود مهياة- بحكم موقعها- للترايد المطرد في السكان، فقد كانت تتدفق عليها عناصر تركية إسلامية. ولسنا في حاجة- إذا أردنا تفسير زيادة السكان فيها- إلى أن نقحم عامل الدخول في الإسلام كما فعل جيبونز.

ولا يعني هذا الإنكار النهائي لوجود قسم من النصاري قد دخل الإسلام في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وذلك أن موقف الكنيسة الأرثوذكسية التي فقدت سلطانها على الجماهير منذ القرن الثاني عشر خلق حالة وجدانية تبرر- مع المصالح الاقتصادية- الدخول في الإسلام.

وبهذا الاعتبار يمكننا أن نقرر أن الدخول في الإسلام بالأناضول قد تم في ذلك العهد تدريجيًا، ونسبة محدودة، ولم ترتفع هذه النسبة في عهد الإمبراطورية العثمانية إلا بعد أن رسخت أقدامها في البلقان: أي في القرن الخامس عشر على الأكثر.

ويذكر المفكر التركي، محمد فؤاد كوبريلي «أن كثيرًا من الباحثين الجدد في هذا الموضوع، ومعهم قسم كبير من المؤرخين الأوروبيين متفقون على أن العثمانيين لم يبذلوا كبير جهد في موضوع تغيير تلك الأقوام لدينها، حتى إن المؤرخين الغربيين في القرنين: التاسع عشر والعشرين يقفون عند تلك النقطة، ويؤكدون هذا الرأي. ومن هؤلاء مثلاً: ريتشارد بينترن الذي يكتب في هذا الموضوع فيذكر «أن الأتراك على امتداد العصور

حكما الكثير من الشعوب، إلا أنهم لم يحاولوا قط إجبارهم على تقليدهم أو تتركهم، وإنما أعطوهم حرياتهم، وتركوا لهم حرية الإبقاء على دينهم وثقافتهم».

وكذلك يفعل (DAVID URGUARTH)، وهو أحد البرلمانيين الأسكتلنديين، وذلك في كتابه الذي كتبه في القرن التاسع عشر، حيث يصف تركيا وإنجلترا باعتبارهما دولتين تتمتعان بحريات دينية ومدنية، كما يقول جيونز في كتابه «تأسيس الإمبراطورية العثمانية» ما نصه:

«إن تسامح العثمانيين، سواء كان نتيجة لدوافع إنسانية خالصة، أو كان نتيجة عدم اكتراث، فإنه لا اعتراض، ولا اختلاف على الإطلاق على أن العثمانيين وهم يؤسسون قوميتهم في عصر جديد يعتبرون الأمة الأولى التي جعلت الحرية الدينية بمثابة حجر الأساس في بناء هذه الدولة.

لقد كان المسلمون والمسيحيون واليهود يعيشون في وفاق وتناغم تحت الإدارة العثمانية».

وكذلك يقول جورج يانج عن الدولة العثمانية في مرحلة التأسيس ما نصه: «إنه عند النظرة الأولى يمكن أن نرى الأتراك وكأنهم شنوا حرباً دينية متعصبة في ظل إقطاعي، إلا أننا نتساءل أيضاً: لماذا لم ينجح التعصب المسيحي والنظام الإقطاعي في إقامة إمبراطورية لاتينية؟ وإيضاح هذا باختصار نسوقه على النحو التالي: لقد قامت الإمبراطورية العثمانية على أسس ديمقراطية في البداية، وكان المزاج التركي أكثر حبا للعدل من اليوناني، وذلك باعتبار التراث والتربية.

لقد كان دخول السلطان الفاتح مدينة إستطنبول يُرى بالنسبة لأخلاقيات ذلك الزمان على أنه انتصار للإسلام على المسيحية، ونصر للخير على الشر.

أما بالنسبة لأخلاقيات العصور التالية، فقد كان يُرى كأنه انتصار للتحرر والعدالة على الاستبداد والفساد، إلا أنه بالنسبة لنا، فليس أي من هذه الأمور صحيحاً. لقد كان

هذا انتصاراً للبناء الاجتماعي السليم للأتراك العثمانيين على المصالح والأفكار البالية للإمبريالية اليونانية.

هذا؛ ورغم أن هذه الرؤية ثرى منطقية من حيث الشكل، إلا أنها رؤية ناقصة باعتبار أن صاحبها يكتفي بأن يجعل النظام القائم هو سبب هذه السيادة التي حققها العثمانيون، دون أن يضع في اعتباره العامل الاقتصادي، لقد كانت نظم الضرائب والأراضي وغيرها، وعدم مركزيتها وتطبيقها في الأقاليم التابعة للدولة وفقاً لشروط كل منطقة على حدة، كان ذلك يمثل واحداً من العناصر الرئيسية للسلطة العثمانية العاقلة.

وللحق نقول: إنه إذا كان الكثير من الأوروبيين قد قدموا لنا صفحات من تاريخ الترك تنطق بالافتراء والبعد عن الحقيقة، يملؤها التعصب وكرهية الأتراك لمسائل تاريخية ونفسية خالصة، فإن الكثير منهم أيضاً وقف موقف الحياد والموضوعية وهو يدافع عن الأتراك، ونحن هنا لسنا في موقف الدفاع أو الهجوم، ولكننا نحاول استخلاص الحقيقة من واقع التاريخ، ومن أقوال المنصفين من الأوروبيين أنفسهم، وأعتقد أننا لا زلنا في القلب من الموضوع الذي نتحدث فيه، وهو: كيف اتسم العثمانيون بالعقلانية؟ وكيف كان حبه للعدل عاملاً من عوامل اتساع رقعة دولتهم، وانتشار دينهم على تلك الرقعة التي كانت تمثل معقلاً من معازل المسيحية في العالم، بل إحدى قلعتين: إحداهما في الغرب ومقرها روما، والأخرى في الشرق وعاصمتها بيزنطة؟

ولحن هنا نأخذ من أقوال الأوروبيين أنفسهم للتدليل على النهج غير العلمي والمتعصب للبعض منهم، فهذا هو الأوروبي تشارلز ويلز في كتابه «أدب الأتراك» المنشور في لندن سنة 1891م، يقول: (لقد دأب الأوروبيون على اتهام الترك - بغير روية - بأنهم قوم من الهمج لا حظ لهم من العلم. وذلك بطبيعة الحال منافع للواقع تماماً؛ فللترك أدب حتى قبل أن يفتحوا القسطنطينية سنة 1453م.

فقد كانوا يتمتعون دائماً بميزة احترام العلم، والانبهار بروائع الأدب، حتى إن سلاطينهم كان يشرفهم دوماً الانتساب إلى زمرة الأدباء والمفكرين، والشعراء منهم على

وجه الخصوص، فقد كان محمد الثاني (1451 - 1481م) شاعرًا، ولم يقصر رعايته للأدب والأدباء على النابيين من مواطنيه، بل امتدت رعايته إلى الأقطار الأخرى، وما عرف عنه أنه كان يرسل الآلاف من العملات الذهبية لخدمة جهان الهندي، ونور الدين عبد الرحمن الجامي الفارسي، وكثير من وزراءه كانوا شعراء.

ويستطرد تشارلز ويلز إلى أن يقول: لقد كان الترك - ولا يزالون - عاكفين على كتابة الشعر، وبلغ كلفهم به حد الوله والهيام.

ومما هو معروف أن معظم سلاطينهم كانوا شعراء. ومن الطريف أن السلاطين العثمانيين ابتداءً من مراد الثاني (1431 - 1451م) حتى مراد الرابع (1623 - 1640) في توالٍ غير متتور، شعراء.

ومن الإنصاف أن نقول: إن أسرة السلاطين العثمانيين هي أشهر الأسر المالكة في العالم.

الإسلام والعثمانيون

نريد في هذا المبحث أن نلقي الضوء على العلاقات الدينية للمجتمع العثماني في فترة التأسيس.

يقول الأستاذ/ حلمي أولكن، في كتابه (تاريخ الفكر المعاصر) Dusvnce Tacih، ما نصه: لقد أخذ القدر الثقافي والسياسي للعثمانيين الذين حلوا محل البيزنطيين، والذين وقع عليهم عبء إدارة كل هذه الأقوام ذات الأجناس المتباينة، أخذ اتجاهين رئيسيين:

أولاً - إدارة روما الشرقية بأسلوب يتفق مع تراثها وقانونها القديم.

ثانياً - محاولة أن تكون لهم السيادة على العالم الإسلامي الذي أصبح يعيش فراغاً بسقوط الخلافة العباسية.

وبداية، فإنه ليس من الصواب إلى حد كبير انتظار سيطرة دينية قوية في فترات التأسيس للإمبراطورية العثمانية التي هي عبارة عن مؤسسات تركية إسلامية تعتبر امتدادًا لنظم العصور الوسطى.

وحول هذه النقطة يقول المفكر التركي، محمد فؤاد كوبريلي: (... ولأن الملوك العثمانيين الأوائل الذين وضعوا النظم لعصر التأسيس تحركوا في الغالب الأعم بواقعية شديدة، ولأنهم قاموا بالفتوح في البلدان المسيحية.. فإنهم - رغم أنهم اقتنعوا بأيدولوجية الجهاد الإسلامي المقدس - لم يكونوا مضطرين إلى اعتناق فكر متعصب يجعلهم - وبمقياس كبير - تحت تأثير رأي الدين وملاحظاته حول أمور الدنيا.

هذا؛ ويتفق مع هذا المفهوم، ويعتق ذلك الرأي غالبية الذين أرخوا للدولة العثمانية في فترة التأسيس. ومع أنه يلاحظ أن عصر السلطان محمد الفاتح يعتبر بداية للتخلي عن المتوارث القبلي، فإن مبادئ وأسس الإسلام لم تأخذ مكانها على الفور كبديل لهذا المورث القبلي. وكانت الأعراف والعادات توضع في الاعتبار عند اتخاذ القرارات الرئيسية. فاستقرار المبادئ الإسلامية وترسيخها احتاج لفترة طويلة.

وبعد قرنين من تأسيس الدولة العثمانية بدأت سيادة الشرعية في مختلف شؤون الدولة، ولم يصدر أي نوع من الفرمانات دون الرجوع إلى شيخ الإسلام، واستصدار الفتوى اللازمة لذلك.

إلا أنه - وفي المقابل - يرى المؤرخون أن السلاطين العثمانيين كانت لهم الحرية في إبداء آرائهم في القوانين وتطبيقها من الناحية العملية، فقد كانت القوانين ترسل إلى شيخ الإسلام، وبعد أخذ الرأي فيها، وعند التطبيق يقال: إنها لا تتفق مع مبدأ أو قانون متوارث.

هذا، ويقدم أحد مؤرخي التاريخ العثماني، وهو الدكتور باركان، دليلاً آخر على أن وضع الدستور قد أصبح حقاً شخصياً للسلطان، ويشير إلى أي درجة تم تطبيق ذلك،

فيقول: إن السلطان كانت له المقدرة على سن قوانين تتفق وعصره الذي يعيش فيه، فإذا مات يكون لمن ولي الحكم بعده الحق تمامًا في أن يقترح أو يغير أو يضع قوانين جديدة. ويرى الحقوقيون العثمانيون أن القوانين العرفية كانت ملزمة بأن تستند إلى المبادئ والأسس التالية:

أولاً: من الضروري أن تكون هذه القوانين العرفية تتناول أموراً لم ترد بالشرعية الإسلامية (لم يرد فيه نص).

ثانياً: لا بد أن يكون هذا الأمر شائعاً وذائعاً بين المسلمين.

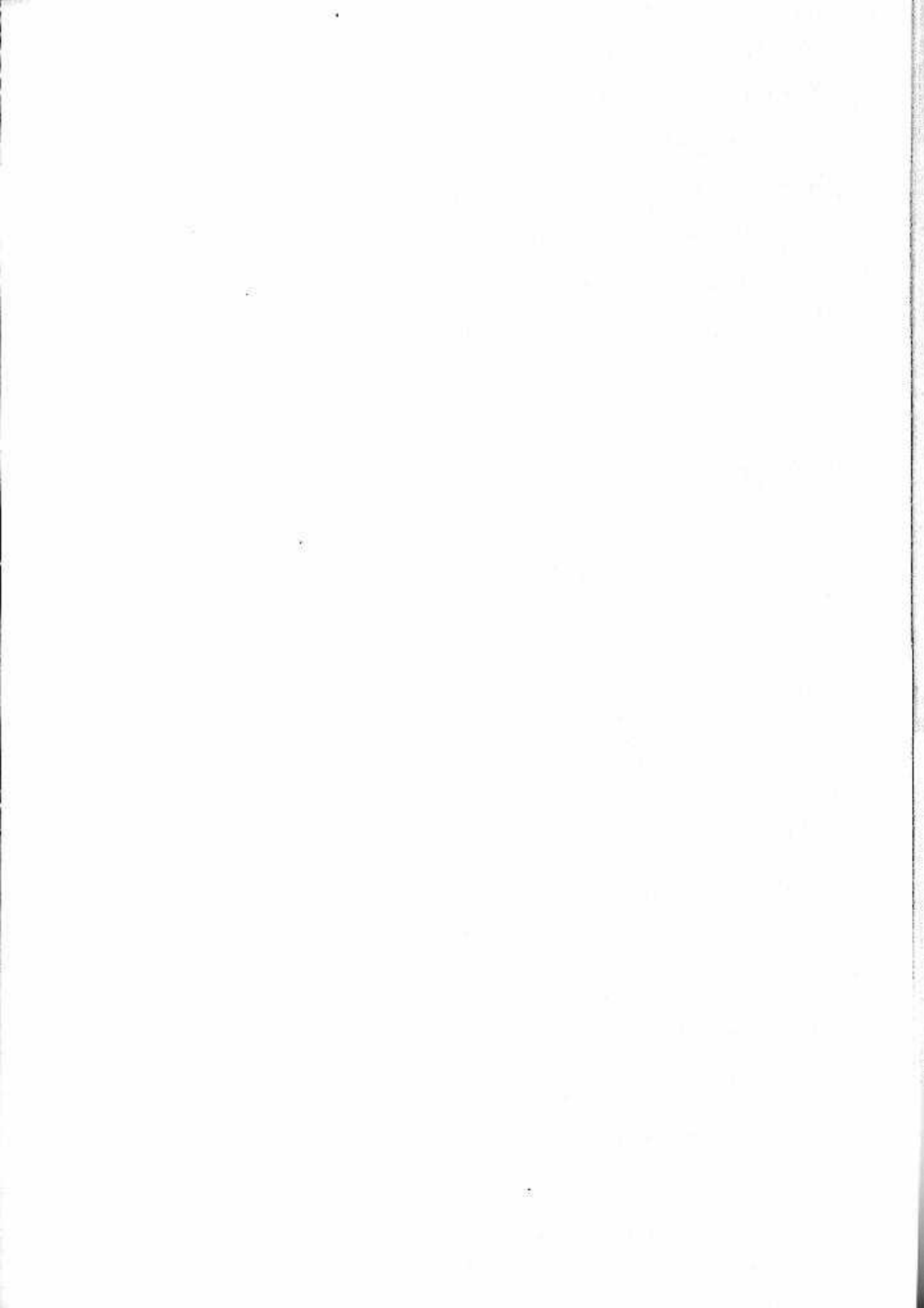
ثالثاً: من الضروري أن يتفق هذا الأمر مع إرادة الحاكم أو يكون قريباً من ذلك.

رابعاً: لا بد أن يكون هذا الحكم متفقاً مع العدالة وخيراً للمجتمع الإسلامي.

ومخلص من هذا القول بأن دخول الترك في الإسلام لم يمحُ تمامًا معتقداتهم القديمة، وظل الترك يعتقدون في الآلهة (أوماي) المذكورة في نقوش أرخون، فقد كانت - كما يروي محمود الكاشغري - روحاً يحفظ الأجنة في بطون أمهاتها، بل كان عند الترك مثل معناه: (من يخدم أوماي يرزق ولدًا).

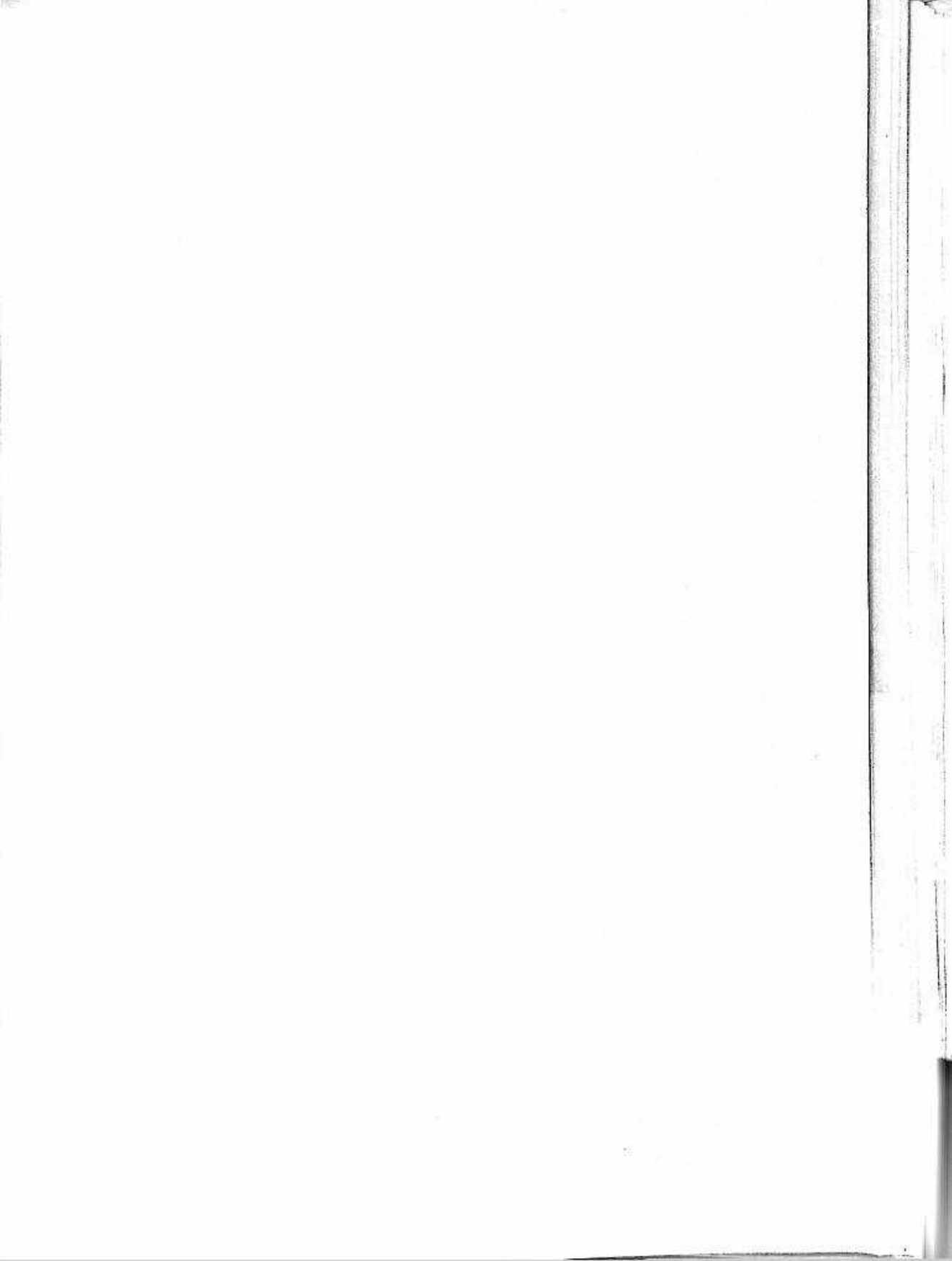
وفي نفس الكتاب ترد كلمة (يدغ)، وهي اصطلاح قديم، ومعناه (ذكرى الموتى)، وكانت هذه الكلمة تطلق كذلك على المآذب التي تقدم للأهالي لمدة ثلاثة أيام أو سبعة بعد دفن الميت، وكانوا يعتقدون أنه إذا كانت الحرب بين فريقين؛ فإن الجن الذين يسكنون في مواضع أحد الفريقين يحاربون الجن المقيمين في مواضع الفريق الآخر، وذلك قبل أن يشتبك الفريقان بيوم. ومن هنا فقد كان المحاربون لا يفادرون خيامهم ليلة القتال خوفاً من أن تصيبهم سهام الجن، وكان عساكر الجن هؤلاء يسمون (حاوي)، وكان يُعتقد أن نتيجة معركة الجن هي التي تحدد نتيجة القتال. وكانوا إذا ولد طفل سألوا (بورمي، شيليمي؟ أي: هل هو ذئب أم لقب؟ أي: ولد أم بنت؟)

وعن اصطلاح (طغران) المعروف، فقد استعمل عند المغول، ولكنه لم يكن معروفًا عند الغزو، ومن جهة أخرى كان عند الغزو اصطلاح (طغراج)، ومعناه: الختم وطابع الختم. وقد قال الكاشغري، في هذه الكلمة: لا يعرفها الترك، وأنا أيضًا لا أعرف أصلها، ومع أن ابن الهنا ذكر اصطلاحه: طغرا وبارليت في صحيفة واحدة، فمن المعروف أن اصطلاح طغرا لم يستعمله مؤخرًا إلا السلاجقة، وأخذه عنهم العثمانيون، ولكنه لم يكن معروفًا عند أتراك آسيا الوسطى، وأن مشكلة منشأ هذا الاصطلاح الحضاري الذي جاء به الغزو من غرب آسيا، والذي لا يعرفه غيرهم من الترك تشكل أهمية كبرى عند المؤرخين.



الفصل التاسع

الظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطى



الفصل التاسع

الظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطى

إشكالية السياسة ومرجعية الثقافة

إن إحدى المفارقات الكبرى للتاريخ والثقافة هي أن يجري الحديث عن ظاهرة إسلامية في عالم إسلامي! لكنها حالما تظهر إلي الوجود، فإن ذلك مؤشر علي فاعلية قضية تحوي بقدر واحد علي إشكالية المعني المضطرب وتنوع الاحتمال المستقبلي. لهذا سوف أركز في هذا البحث علي هذين الجانبين دون الخوض بإسهاب في القضايا المتعلقة بتاريخ وحيثيات العامل الإسلامي، وألتيسيس الإسلامي، والإسلام السياسي ومختلف أشكال ومظاهر الأحزاب والحركات السياسية الإسلامية في روسيا وجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، وذلك لما في إشكالية الإسلام وأبعاده الثقافية والمرجعية من قيمة كبرى بالنسبة لفهم مقدمات ومستقبل الإسلام في روسيا وآسيا الوسطى. وليس مصادفة أن تندفع إلي مقدمة المواجهات والصراعات الفكرية والسياسية قضايا أخطر الإسلام، وصراع الحضارات، وما شابه ذلك بعد انتهاء مرحلة الحرب الباردة⁽¹⁾. وهي ظاهرة ليست مفتعلة، بقدر ما أنها تكمن في كيفية ونوعية التحسس المشوه لما يمكن دعوته بأفانق البدائل الكامنة في العالم الإسلامي⁽²⁾. ومن ثم غياب الحدس القادر علي فهم وإدراك العلاقة الجديدة بين الإسلام والسياسة بمعايير البدائل المحتملة، أي فهم علاقة المصالح السياسية والبدائل الممكنة بمعايير انتمائها الطبيعي للإرث التاريخي الثقافي الذاتي.

إن المقدمة المنهجية التي عادة ما تضعف أو تسحق الحدس الضروري بالنسبة لفهم خصوصية الثقافات الكبرى تقوم في البقاء ضمن حيز الرؤية التاريخية الثقافية الذاتية، بمعني البقاء ضمن إصار الرؤية المستبطنة للمواقف القيمية تجاه النفس والآخرين. من هنا سيادة الرؤية التاريخية الأوروبية المحكومة بتقاليد العلاقة المتوترة والخشنة بين الكنيسة

والدولة عبر نقلها إلي مستوي علاقة الدين بالسياسة في حال النظر إلي الظاهرة الإسلامية الحديثة. بعبارة أخرى، إن إشكالية الإسلام والسياسة السائدة في البحوث والدراسات الحديثة هي أولا وقبل كل شيء إشكالية الرؤية الأوروبية، التي انعكست فيها حصيلة التصورات التاريخية المتراكمة في مجري تجارب شعوب القارة عن علاقة الدين بالدنيا. فقد تحول فصل الدين عن الدنيا، والكنيسة عن الدولة إلي إحدي المرجعيات السياسية والثقافية في الوعي الأوروبي، وعليها جري بناء صرح القومية والمجتمع المدني والديمقراطيات الرأسمالية. ومن هذه المرجعية وعليها أيضا جري تأسيس وتفعيل كليشاهات الرؤية الأيديولوجية عما لا يتشابه أو يتطابق معها في تجارب الآخرين.

وقد جري غرس إشكالية الدين والسياسة الأوروبية بطرق شتى ومستويات عديدة في الوعي السياسي للعالم الإسلامي المعاصر، بما في ذلك تجاه الظاهرة الإسلامية المعاصرة. وتجدد الإشارة هنا إلي أن لهذا الغرس مقدماته الواقعية في تاريخ العالم الإسلامي نفسه، التي تراكمت مع مجري المحلل الدول الإسلامية، وعدم قدرة الثقافة الإسلامية حينذاك علي تقديم إجابات تمثل تجارب الأسلاف العلمية والعملية وتستجيب لتحديات المعاصرة.

وحالما أخذت ظاهرة التحدي تبرز إلي الوجود، بعد أن تحسس العالم الإسلامي للمرة الأولي انهياره شبه التام أمام الغزو الأوروبي، بدأت تطفو إلي سطح وجوده الاجتماعي والسياسي ردود الفعل المتنوعة، التي جري تصويرها بعبارات التحدي واليقظة والنهضة والانبعث والشورة وغيرها، وهي أوصاف تعكس لحد ما جوانب الظاهرة الإسلامية لا حقيقتها. غير أنه جري تفسير وتأويل هذه الظاهرة بمعايير الرؤية السياسية بشكل عام وتقاليد أوروبا الأوروبية بشكل خاص. وليس مصادفة أن نري، وحتى الآن، غلبة المواقف المنهجية المحكومة بشائبة الدين والسياسة، وبالأخص في جانبها السلمي، القائل باستمرار خلل علاقة الإسلام بالسياسة. ومن جمعها جري توليف مختلف أنواع ونماذج الرؤية المنهجية والتاريخية والثقافية عن آفاق العلاقة الممكنة بين الإسلام

والسياسة في مواجهة وتحدي الغرب، بمعنى أنها لم تنظر إلي هذه الظاهرة بمعايير تلقائية طورها الذاتي ومحدداتها الداخلية بوصفها عملية تاريخية طبيعية، بل جعلت منها جزءاً سائبا علي أطراف الفلك الأوربي (سابقا) والأمريكي (حاليا). مما حدد بدوره تعامش وتصارع اتجاهين كبيرين فيما يتعلق بمستقبل الإسلام وتأثيره السياسي: الأول هو اتجاه 'مفتاءل' والثاني اتجاه 'مثنائم'، ولكل منهما تقاليده وشخصياته الفكرية والسياسية المحترفة. ومن الممكن هنا الاكتفاء باستعراض مكثف لنماذج كبري أولية لم تتغير مضامين أطروحتها مع مرور الزمن بغير إضافات كمية.

وقد مثل الاتجاه الأول (المفتاءل) شخصيات علمية كبيرة مثل المستشرق الانجليزي جيب ومونتجومري واط وأمالم. فقد انطلق جيب في تقييمه هذا من أن العالم الإسلامي قد تعرض إلي تحولات في مجري توكيد الذات ضد الضغوط الداخلية والخارجية التي واجهها، واعتقد بأن العالم الإسلامي سوف يسير ضمن نفس تقاليده الكبري التضامنية والسياسية. ومع أن الضغط الخارجي يشكل تحديا جديا له، إلا انه لم يكن التحدي الأول والأكبر، بل اعتبر التحدي الأول والأكبر يأتي من أعماق المجتمع الإسلامي مقارنة بما يسببه تأثير الغرب (الخارجي) ⁽³⁾. بينما تكلم واط ومونتجومري عن التحدي وقدرة الإسلام علي مواجهة مختلف أشكاله في مجري بناء قوته الذاتية ⁽⁴⁾، وهي الفكرة التي وجدت تعبيرها في عدد كبير من الأبحاث الاستشراقية ذات البعد السياسي. فقد انتشرت منذ ثمانينيات القرن العشرين مصطلحات الإسلام المجاهد، والإسلام المقاتل، وما شابه ذلك بوصفه التعبير غير المباشر عن الرؤية المتأثرة بقوة الاستعداد والتحدي الكامنة في الإسلام وتراثه الذاتي. فقد وضع جانسن كتابا عن (الإسلام المجاهد)، وانطلق من أن الإسلام لا يزال حتي يومنا هذا يعمل بجهود كبيرة من أجل إضفاء الشرعية علي جميع جوانب الحياة والأنشطة البشرية، وأرجع سبب قوته المعاصرة إلي جملة أسباب وبساطته وطابعه العملي ومرونته، واحتفاظه بقوة وتقاليد الأخوة الإسلامية، إضافة إلي كونه دين العالم الثالث أي دين الدول غير الصناعية ⁽⁵⁾.

وبالضد من هذا الاتجاه تراكم التيار الأكثر سعة وانتشارا وتأثيرا والقائل بعقم القدرة الإسلامية في مواجهة تحديات العالم الحديث، وهو تيار يحتوي في أعماقه علي توجهات مختلفة من نقدية علمية إلي أيديولوجية صرف. فقد انطلق الباحث المتخصص بالشئون الإسلامية جويتن من أن الاتجاهات الوطنية والأيدولوجية مثل الاشتراكية القومية والحياد العربي، والنهضة الأفريقية وغيرها يتنافس كل بطريقته الخاصة مع الإسلام للاستعاضة عن فكرة ومفهوم الأمة الإسلامية. ومع أنه لا يستبعد احتمال تأثير الإسلام في المستقبل، إلا أنه لم يعد، حسب نظره، قوة سياسية قابلة للحياة⁽⁶⁾.

وضمن هذا السياق كانت تسير كتابات مستشرقين كبار مثل كلود كوهين وفكرته عن سقوط الحضارة الختمي⁽⁷⁾. ووجد سبب ذلك في عالم الإسلام مرتبطا بعدم حله لإشكالية الديني والديني. أما جرونه باوم، فقد انطلق من المقدمات المنهجية القائلة باحتواء الثقافة منذ البدء علي بذور رقيها أو انحطاطها، وأن الإسلام كان يحتوي منذ البدء علي تلك البذور التي أدت في نهاية المطاف إلي انغلاقه وضموره، وذلك بسبب انغلاق منظومته الذاتية. وضمن هذا السياق أيضا كانت تجري رؤية كوك وكرون، عما يسمي بانعدام الإمكانية الذاتية الداخلية للإسلام من أجل التأقلم مع المعاصرة، الأمر الذي أدى به إلي الوقوع في مأزق، الذي هو بدوره نتاج للإسلام نفسه والحضارة التي أنتجها⁽¹⁰⁾.

ولا تختلف أغلب الدراسات التي تتناول هذه الظاهرة عن الخروج من هذه الثنائية المتصارعة والمكملة إحداهما للأخري. والشئ الوحيد الذي يندرج ضمن سياق توسع المدى المتعلق بأبعاد هذه الظاهرة يقوم في إدراج أسباب ومسببات أخري اجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها، وهي جوانب تعمق منحي البحث، وتكشف عما في الظاهرة من تعقيد أكثر مما تفسرها بصورة نوعية.

وبهذا المنحي أيضا سارت أغلب الاجتهادات في العالم العربي والإسلامي المعاصر في محاولاتها تفسير الظاهرة الإسلامية الجديدة. فالتفسيرات الاقتصادية حاولت البرهنة

علي أن الأسباب الأساسية القائمة وراء صعود الإسلام السياسي ترتبط إما بأزمة التطور الرأسمالي في العالم الإسلامي أو بسبب فشل التنمية علي النمط الغربي، أو بسبب ضعف الطبقات والفئات الاجتماعية الحاكمة وطبيعة صيرورتها التاريخية المرتبطة بالغرب الكولونيالي، ومن ثم عجزها البنيوي في تطوير الاقتصاد والعلم بالطريقة التي تحفظ للدولة والأمة استقلالهما الناجز. أما التفسيرات الفكرية السياسية، فأنها عادة ما تربط ظهور الإسلام السياسي بأسباب منها هزيمة الفكرة القومية علي الصعيد الوحدوي، والنظام الاجتماعي العادل، والديمقراطية السياسية والأمن القومي، أو لعجز الأيديولوجيات الأخرى من ليبرالية واشتراكية وشيوعية وغيرها عن تحقيق بدائلها الاجتماعية السياسية والثقافية. أما التفسيرات الثقافية الروحية فتمحور حول البرهنة علي فشل أسلوب التحديث والعصرنة الغربي بسبب افتقاده إلي مقومات الأصالة الذاتية.

تعاني أغلب هذه التفسيرات والاجتهادات من نقص جوهري يقوم فيما يمكن دعوته بمشاطرة نفسية البحث عن الخلل والأفاق من خلال بناء عناصر التحدي. إلا أن الخلاف بينهم يقوم علي أن التفسيرات الأوروبية تبني عناصر البحث عن الخلل والتكهن حول الأفاق من خلال فكرة تحدي الغرب، بينما تبني الاجتهادات العربية والإسلامية تصوراتها ومبجوثها عن البدائل من خلال تحدي النفس أيضا.

أما الرؤية التقليدية (العربية والإسلامية)، فإنها تُتعالى علي جدل البحث عن العلل، وتقرر وجود الأشياء كدليل بحد ذاته. من هنا سيادة الدعوي القائلة بأن الإسلام بحد ذاته سياسة، أو أن الدين والدنيا لا انفكاك لهما في الإسلام، أو أن الدين والسلطان في الإسلام توأمان، وهي دعاوي لها معناها في الماضي وإشكالاتها في الحاضر. إن الاجتهادات النظرية المتنوعة في مساعيها كشفت علاقة الإسلام بالسياسة انطلاقا من واقع هذه العلاقة أو من ضرورتها تهدف في نهاية المطاف إلي بناء صرح تأويلي يؤيد أو

يعارض هذه العلاقة، لا إلهي تأسيسها العلمي والعملية بمعايير الحاجة التاريخية والانتماء الثقافي.

حقيقة أن هذا التأسيس هو الإشكالية الأعقد من الناحية النظرية والعملية، لأنه يفترض في آن واحد البقاء في حيز الانتماء الثقافي لعالم الإسلام وتقاليده المتنوعة، ومجاراة العالم المعاصر في إبداعات العقل والوجدان. ومن الصعب بلوغ ذلك دون إدراك الحاجة التاريخية لهذا التمثيل بمعايير الانتماء الثقافي للتاريخ الذاتي (الإسلامي). حيث تدور حول علاقة الإسلام بالسياسة إلهي إشكالية يصبح تأسيسها النظري وتحقيقها العملي جزءاً من المرجعيات الثقافية للوجود والوعي الاجتماعي والقومي والإسلامي. ذلك يعني أن الظاهرة الإسلامية ليست فرضية أيديولوجية مجردة، كما أنها ليست مجرد تأسيس للإسلام. فالجدل الدائر حول ما يسمى بتأسيس الإسلام هو من بقايا التحزب الأيديولوجي التابع من انعدام أو ضعف إدراكه للحقيقة القائلة بأن الظاهرة الإسلامية هي أولاً وقبل كل شيء الإشكالية الثقافية السياسية الأعقد والأكبر للعالم الإسلامي. من هنا تنوعها وخصوصيتها، والتي ينبغي البحث عنها في كيفية الانقطاع الذي حدث تاريخياً بين المرجعيات الثقافية والواقع المعاصر للإسلام في هذه المنطقة أو تلك، وهو السبب الذي جعل ويجعل منها مع مرور الزمن بحثاً عن المرجعيات الثقافية الذاتية، أي محاولة لإعادة إرساء أسس جديدة لما ادعوه بالمركزية الإسلامية الجديدة⁽¹¹⁾.

إشكالية ومفارقة الظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطى الإسلامية. إن للظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطى خصوصيتها. ولعل ظهورها المفاجئ أو بصورة أدق خروجها المباشر إلهي الوجود والعلن ضمن مسار الخروج من الدولة السوفيتية، وصيرورة الدولة القومية هو مجد ذاته أحد الأسباب الذي أثار وما زال يثير البحث عن طبيعة هذه الظاهرة وخصوصيتها وأفاقها. وليس مصادفة أن تسود بصورة شبه مطلقة الرؤية السياسية والمتحيزة تجاهها، وذلك لأنها تبدو في الظاهر كما لو أنها التاج المباشر للفعل السياسي الذي وافق ظهور الدولة المستقلة في آسيا الوسطى. أما في الواقع، فإن

الظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطى أشد تعقيدا وأوسع وأعمق وأكبر من أن يجري حصرها بمقدمات وأفاق سياسية صرف.

وفيما لو جري جمع الحصيلة النموذجية للدراسات والأبحاث المتعلقة بالظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطى، فإنه عادة ما تمجري الإشارة إلي حالة تعاضم الدور والأثر الأيديولوجي المتزايد للإسلام وتوسع طابعه الراديكالي⁽¹³⁾. وهنا تختلف الآراء فيما يتعلق بإبراز أولوية الأسباب. فمنهم من يعتقد، بأن سر الظاهرة يكمن في اصطدام الحدائة (في إحدي مراحل تطوها) بفكرة الإسلام الأول مع ما ترتب عليه من ظهور يوتوبيا البديل الإسلامي. بينما اعتبرها البعض الآخر جزءاً من العملية السياسية للإسلامة، في حين ربطها قسم آخر بالبيرسترويكا مدلا علي توسع انتشارها بعد تسعينيات القرن العشرين. بينما ربطها البعض الآخر بالحالة الاجتماعية الاقتصادية المتردية بأثر المحلال الدولة السوفيتية. واستكمل آخرون هذه الرؤية بما يسمي بعدم وضوح الأهداف في الإصلاحات التي قامت بها الدول الجديدة، الأمر الذي جعل من الإسلام السياسي رد فعل سيى علي إصلاح سيى، في حين وجد قسم آخر سبب ظهور الإسلام السياسي باغتراب رجال الدين الرسميين عن المجتمع وارتباطهم بالسلطة.

إن الصيغ المشار إليها أعلاه لا تستفد الأبحاث والدراسات بهذا الصدد، إلا أنها تشترك جميعا بإبراز العلاقة الواقعية والوهمية بين الإسلام ومختلف مظاهر الغلو والتطرف والإرهاب والراديكالية. من هنا ربط أغلبها للظاهرة الإسلامية بالتيار الوهابي أو السلفية الجديدة⁽¹⁴⁾، وبظاهرة الغلو والتطرف⁽¹⁵⁾، مع ما ترتب عليه من أبحاث عن أسبابها. فمنهم من حاول النظر إلي هذا الارتباط بين الإسلام والتطرف باعتباره ظاهرة ذاتية⁽¹⁶⁾، أو بوصفها ظاهرة تركستانية⁽¹⁷⁾ أو أنها رد فعل علي تأثير خارجي مثل القضية الفلسطينية (18) أو الكشميرية⁽¹⁹⁾ أو الأفغانية⁽²⁰⁾. في حين حاول البعض البحث عنها في بعض المدارس الإسلامية (الحنبلية بشكل خاص) عبر إعادة تأويل

تراثها، في حين وجدها قسم آخر في تقاليد السيطرة الروسية واستكمالها اللاحق في سيادة تقاليد التوتاليتارية الشيوعية، والسيطرة السوفيتية، وتقاليد الحزب الواحد.

وفي الوقت نفسه تتفق هذه المواقف علي ما يسمى بضعف العامل الإسلامي. وعادة ما يجري إرجاع ذلك إلي أسباب عديدة من بينها تأثير الجهوية والفتوية والقومية والمذهبية وأولويتها في نشاط الحرمات والتيارات والشخصيات الإسلامية، وان الإسلام لم يرتق إلي مصاف تذليل هذه المكونات علي مستوي النظرية والتطبيق، وضعف فعاليته بالنسبة لإرساء أسس الاستقرار في الدولة، وضعف عمله باتجاه توحيد القوي الاجتماعية من أجل القضايا المدنية (بدائل عقلانية وإنسانية)، وشبه غياب جهوده النظرية والعملية بالنسبة لجعل الإسلام عاملاً موحداً بين دول آسيا الوسطي، وضعف النخبة بشكل عام والسياسة بشكل خاص، وتأثير التقاليد الروسية والسوفيتية التي عملت وتعمل من الناحية الموضوعية علي إبقاء عناصر الاغتراب الثقافي والقومي والسياسي فاعلة في المجتمع والدولة، وعدم مرور الإسلام الحديث والمعاصر بمرحلة الإصلاحية الإسلامية، والانتشار السريع والمفاجئ للوهابية، وارتباط أغلب هذه الحركات بتوجه واختيار شخصياتها القائدة⁽²¹⁾.

إننا نقف هنا أمام التأثير المباشر وغير المباشر للرؤية السياسية والأيدولوجية في تفسير أو تأويل الظاهرة الإسلامية عبر إرجاعها إلي مختلف مظاهر فكرة الإسلام السياسي، وهو الأمر الجلي في الصيغ العديدة التي حاولت أن تؤرخ لصعود وهبوط الإسلام السياسي في جمهوريات آسيا الوسطي الإسلامية الجديدة بوصفه مؤشراً علي الظاهرة الإسلامية ككل. فهناك شبه إجماع علي أن الإسلام السياسي قد مر بثلاث مراحل كبرى وهي المرحلة الأولى منذ عام 1990 حتي عام 1992، التي اخذ فيها الرؤساء يحلفون بالقرآن قبل استلامهم السلطة، وكذلك بناء المساجد وزيارة الأماكن المقدسة (مكة)، وسن قوانين تخفف من وطأة المرحلة السوفيتية تجاه الدين. أما المرحلة الثانية فتتمتد من عام 1993 حتي عام 1997. وهي المرحلة التي تأثرت بمسار ونتائج الحرب

الأهلية في طاجيكستان. مع ما ترتب عليها من إثارة مختلف أشكال ومستويات الخوف من ظاهرة الأصولية الإسلامية بشكل عام، وظاهرة انتصار طالبان في أفغانستان، أي كل ما حصل علي أطره الأيديولوجية فيما يسمي بالخاطر الإسلامي، أما المرحلة الثالثة فتمتد ما بعد 1997 حتى الآن، وتتميز بالخفوت النسبي للإسلام السياسي، وهي نتيجة لم تكن بمعزل عن محددات أساسية عادة ما يجري إجمالها فيما يلي: استعمال مختلف أشكال القمع السياسي من جانب السلطة ضد الحركات الإسلامية، وتقوية مواقع رجال الدين الرسميين والمؤسسات المرتبطة بهم من أجل إرساء أسس إسلام معتدل، وتطور وتعمق محتوى الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي بما في ذلك صعود واستتباب الفكرة القومية، وآثار ونتائج التجربة الطاجيكية، وضعف فاعلية وتأثير المواجهة المباشرة والعنيفة مع السلطة زمن الاستقرار، وتجزد السلطة وتكامل الدولة. بعبارة أخرى، إن صعود وهبوط الإسلام السياسي يعكس مرحلة المراهقة السياسية التي بإمكانها الفعل والتأثير زمن الانتقال لكنها تفقد قيمتها وفعاليتها زمن الاستقرار وتكامل الدولة والأمة.

فالإسلام السياسي بوصفه أحد أشكال ومستويات الظاهرة الإسلامية يعكس احد مساراتها ومستوياتها من حيث محدداته الداخلية والخارجية وحوافزه ومؤثراته ونياته وغاياته، الأمر الذي يجعل من الضروري الحديث أيضا عن مرحلتين في تاريخ صيرورته الحالية: الأولى ما قبل ظهور الدولة المستقلة، والثانية ما بعدها. فهي الصيغة التي تتمثل مضمون الظاهرة الإسلامية بوصفها إشكالية المرجعية الثقافية وليس إشكالية الحالة السياسية. بعبارة أخرى، إن فهم حقيقة الظاهرة الإسلامية يفترض إرجاع التسييس والأصولية والإسلام السياسي وما شابه ذلك إلي ما ادعوه بالظاهرة الإسلامية بوصفها ظاهرة المرجعية الثقافية (كأحد مظاهر المركزية الإسلامية الجديدة) وليس بالعكس، أي إرجاع الجزء إلي الكل وليس بالعكس. فوراء هذه الصيغة عوالم متعددة ومتصارعة

ومتناقضة، شأن أية ظاهرة تاريخية ثقافية كبرى، أي أنها تعكس ما يمكن دعوته بمنطق تاريخها الواقعي والمستقبلي.

فالظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطي هي أولا وقبل كل شيء إشكالية مرتبطة بالحلل الوحدة الجوهرية بين التاريخ السياسي والثقافي للأمم الإسلامية في المنطقة.⁽²³⁾

فقد أدى افتقاد المنطقة لتاريخها السياسي المستقل إلي أن تتحول تجاربها السياسية والاجتماعية والقومية إما إلي جزء من النضال ضد السيطرة الروسية، وإما إلي تقليد أو محاكاة باهتة للتجارب الروسية أو إلي مساع لتوليدها بطرق ومستويات متنوعة (24). وفي الحصيلة ليست هذه التجارب غير اجترار للزمن الميت، لأنها تكشف في نهاية المطاف عن خواتمها الروحي وعدم صلاحيتها بالنسبة لبناء وحدة الدولة والمجتمع وتطورهما الفعال. فالتطور الفعال يفترض وجود نظام ثقافي متكامل يتخلل جميع مسامات الأنظمة الضرورية لتفعيل الدولة والمجتمع. بهذا المعني كان استقلال دول آسيا الوسطي الإسلامية هو المقدمة الضرورية الأولى لاستعادة كيان الإسلام الثقافي فيها. وهي عملية سوف تستثير بالضرورة اشتراكه الفعال في الحياة السياسية⁽²⁵⁾.

ذلك يعني أن للظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطي خصوصيتها المرتبطة بتاريخها الذاتي بشكل عام والمتعرج في مسار السيطرة الروسية والدولة السوفيتية وظهورها الأخير⁽²⁶⁾. ولا يمكن فهم حقيقة وأعماق صعود الظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطي المعاصرة، وآفاق الإسلام السياسي فيها بمعزل عما يمكن دعوته بتاريخ العقدة التركستانية وتحللها في المرحلة السوفيتية وصعود النخب السياسية الجديدة فيها، إذ يمكننا العثور فيها علي المقدمات التاريخية والشروط السياسية والاجتماعية الجديدة لنشاط الحركات الإسلامية المعاصرة في آسيا الوسطي.

إن إشكاليات ضعف البنية الداخلية للدولة الآسيوية الوسطي هي إشكاليات صيرورتها التاريخية الجديدة. وإذا كان اتجاهها العام يسير صوب تحقيق الحد الأدنى الضروري لبناء وحدة الدولة والأمة، والاقتصاد والسياسة، الذي أخذت ترتسم بعض

ملاحظه الحالفة، فإن دمج التقاليد والثقافة في بناء الكلل الدولتي القومي السياسي مازال يحتوي في أعماقه علي تنوع البدائل لا علي سياسة الاعتدال العقلانية، وهي ظاهرة لها مقدماتها الموضوعية في تاريخ الدول الآسيوية الوسطي وانقطاعها الطويل عن مقدمات وعيها الذاتي واستقلالها الفعلي⁽²⁷⁾.

إن إشكالية تنوع البدائل هي إشكالية الوسط العقلاني، وأن إشكالية الوسط العقلاني هي إشكالية الاختيار المناسب للأيدولوجية الاجتماعية السياسية القومية. أي كيفية دمج الثقافة والتقاليد في صرح الدولة الجديدة والتوفيق بين الحدائة والاستقرار⁽²⁸⁾ وإذا كان بالإمكان القول، بأن الدولة الآسيوية الوسطي المعاصرة استطاعت في المستوي السياسي وضع المقدمات الأساسية للاستقلال، فإن مستواها الاجتماعي لازال يعاني من تعقيدات طبيعية ملازمة لمراحل الانتقال التاريخي الكبرى، كما هو واضح في صيرورة النظام المركزي الرئاسي القوي، وضعف الديمقراطية البرلمانية، ونمو العناصر الاجتماعية في السياسة الاقتصادية، والتي نعثر عليها في تركمانستان وأوزابكستان وكازاخستان ودرجة اقل في قرغيزيا.

وإذا كانت تركمانستان وأوزبكستان أبعد شوطا في هذا المجال فلأن وحدتها الاجتماعية (ضعف الصراع القومي والاثني)⁽²⁹⁾ توافق نسبيا مع سلوك نخبها السياسية في اعتدال برامجها ووضوح مبادئها وواقعية سياستها⁽³⁰⁾. أما بالنسبة لقرغيزيا فلإن السلوك الديمقراطي المتهور لنخبتها السياسية حال دون ترسيخ المقدمات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية بالشكل الذي يمكنها من حل إشكالية الحدائة والاستقرار بصورة متجانسة، لاسيما أنها لا تعاني من مشاكل إثنية حادة بفعل غلبة العنصر القرغيزي فيها⁽³¹⁾. بينما تعاني كازاخستان تعقيدات جدية بهذا الصدد. إذ يشكل الكازاخيون فيها أقلية (43٪ من عدد السكان)⁽³²⁾. إضافة إلي تمركزهم في المناطق الجنوبية والريفية. أما أغليتهم الوحيدة ففي مقاطعتين من المقاطعات الثماني عشرة، وهي مقاطعة غورييف (في الغرب) وقزل اورطه (في الجنوب). بينما يشكل الروس الأغلبية الساحقة في المناطق الشمالية المصنعة.

لكن كازاخستان استطاعت تجاوز في مجري العقدين الأخيرين ما يمكن دعوته بمرحلة الانتقال صوب مركزية الدولة والتنسيق القومي، ومن ثم إرساء أسس الوحدة المتينة للدولة والقومية، وبالتالي إرساء أسس التطور الذاتي المستقل.

كل ذلك أدى إلي إرساء أسس ما يمكن دعوته بتقاليد استمرار السلطة وشرعيتها⁽³³⁾. أي الإدراك السياسي لقيمة الاستمرار في مواقفها من الحداثة (التحديث) باعتبارها المقدمة الضرورية لبناء الدولة العصرية. أما الاستثناء الوحيد هنا فقد كانت طاجيكستان. إذ سارت في تجربيتها الخاصة من خلال وضعها إشكالية الثقافة والتقاليد في أولوية فعلها السياسي بعد الاستقلال. ولم تدرك بهذا المعنى، قيمة الأولويات رغم أن مقدمات وحدتها الاجتماعية السياسية الوطنية ليست أقل تماسكا عما هو عليه الأمر في الجمهوريات الأخرى، فهي لم تعان، شأن تركمانستان وأوزبكستان وقرغيزيا، من مشكلة قومية. إذ يمثل الطاجيك ما يقارب نحو 80٪ من عدد السكان⁽³⁴⁾

فقد وضعت القوي السياسية في طاجيكستان مشكلة التقاليد والموقف من التراث في أولويات فعلها السياسي. وبمحت في إسلامها الجزأ والجهوي والمذهبي عن بديل فكري عقائدي شامل، مما أدى إلي إثارة حوافز التجزئة والمواجهة عوضا عن أن يجري تحويلها إلي فاعل يلزم الكينونة الجديدة للأمة الطاجيكية ودولتها الموحدة. وقد شارك الجميع في صنع هذه النتيجة. مما أدى إلي إثارة الانقسامات واستهلاكها السريع من جانب الجميع.

وجد ذلك انعكاسه العنيف في عنف الحرب الأهلية.

فالسطة السياسية في طاجيكستان لم تكن قادرة علي توظيف العامل الإسلامي في سياستها الداخلية من أجل صنع الوحدة الاجتماعية الضرورية للاستقرار، وذلك لأنها كانت تمتلك منذ زمن طويل قبل الاستقلال، حركة إسلامية سياسية مجزأة بين تيار رسمي مؤيد للسلطة، وآخر عوامي في الأوساط الريفية، وثالث راديكالي مختمر بتقاليد الثورة الإيرانية وجهادها العسكري في أفغانستان، أي كل أولئك الذين ظهروا في نهاية السبعينيات من بين رجال الدين الشباب. فهي القوة التي استطاعت أن تملأ الفراغ الناجم

عن انهيار الشيوعية والنظام السوفيتي، وأن تحصل في شخصية حزب النهضة الإسلامي علي ممثلها الأكثر قوة وتأثيراً، وبهذا تكون قد اختطت لنفسها طريقاً مخالفاً لما هو عليه الأمر في تركمانستان وأوزبكستان وكازاخستان وقرغيزيا.

ففي تركمانستان جري تحويل المؤسسة الدينية إلي تابع لصنع الوحدة الاجتماعية السياسية. وبغض النظر عن صعوبة القول بوجود أحزاب دينية فيها، بما في ذلك بعد انهيار النظام السوفيتي والأيدولوجية الشيوعية، فإن النخبة السياسية شددت مع ذلك علي أن تركمانستان لا شيوعية ولا إسلامية.

واتبعت النخبة السياسية القائدة في أوزبكستان ذات المواقف، حيث قام إسلام كريموف بالحج إلي مكة والقسم بالقرآن في صعوده للرئاسة، ومنع الأحزاب الدينية من العمل رغم تسجيل بعضها كما هو الحال بالنسبة لحزب النهضة الإسلامي الداعي إلي إقامة دولة إسلامية والتميز بعدائه للأمريكان والغرب.

أما قرغيزيا فإنها لم تعان أساساً من إشكاليات جدية في هذا المجال بسبب ضعف العامل الإسلامي. فقد كانت قرغيزيا ولا تزال أكثر الشعوب التركية ضعفاً في إسلامها. ولم يكن ذلك نتاجاً لدخولها المتأخر في الإسلام فقط، بل ولأن إسلامها في أغلبه هو إسلام العادات والتقاليد لا إسلام التوحيد العقائدي والثقافي. أما صعوده النسبي في جلال آباد (الجنوب) فهي الصيغة الجينية لإدراك قيمة الانتماء الثقافي في معارضته للشمال المتأورب (العاصمة بشكيك).

أما كازاخستان فإنها تشبه لحد ما قرغيزيا. بمعنى تميز جنوبها المسلم التقليدي وشمالها الأوروبي العصري⁽³⁸⁾، إلا أن هذا التعارض لم يحصل علي أطره السياسية والقومية بفعل خضوعه المبكر لإرادة النخبة السياسية في توظيفه بما يخدم وحدة الدولة.

الإسلام السياسي المعاصر في آسيا الوسطى.

غير أن هذه الصورة المليئة بأشجار متنوعة لا تمنع رؤية الغابة المتراكمة وراءها، بمعنى أن هذه الحالة المتنوعة والمتناقضة من نمو مختلف مظاهر الظاهرة الإسلامية لا تمنع من رؤية المسار الديناميكي فيها، بما في ذلك خفوتها المعاصر، فهو خفوت يعكس أولاً وقبل كل شيء تحول الظاهرة الإسلامية من الظاهر إلى الباطن، وهو تحول طبيعي، وتاريخي لحد ما، الأمر الذي يمكن رؤية نموذج ومثاله علي حالة وآفاق الإسلام السياسي بوصفه أحد الأشكال المتميزة والفعالة للظاهرة الإسلامية نفسها، أي لظاهرة المركزية الإسلامية وأشكالها وتجسيدها في آسيا الوسطى.

فالظهور الأولي لها كان يتجسد في محاولات الخروج من السيطرة الروسية وتوسيع هوة الابتعاد عنها. بمعنى التحرر من سيكولوجية الأخ الأكبر، ودعاية الدخول الطوعي في الإمبراطورية الروسية، وأيديولوجية الوحدة الأممية السوفيتية. وعضواً عنها أخذت تبرز ملامح الخطر الروسي⁽³⁹⁾ أي ملامح الوعي الباطني بوصفه الصيغة الأولية غير الناضجة والضرورية في الوقت نفسه للاستقلال والتكامل الذاتي، أي الفاعل بمعايير التجربة الذاتية والتطور التلقائي، وهي العملية التي تستثير بالضرورة المخزون القومي الكامن في الإرث التاريخي والثقافي. وهذا بدوره ليس إلا الوجه القومي للإرث الإسلامي، أو تزاوجهما. من هنا ضعف وعدم دقة التصورات والأحكام التي حاولت وما تزال تحاول البحث في إسلام آسيا الوسطى نسخة مشوهة أو بدائية أو عادية أو محاكاة لإسلام تركي أو فارسي أو عربي أو غيره.

فعند ظهور الدولة الآسيوية الوسطى و بروز النزعة التركية الجديدة، أخذت بالانتشار آنذاك جملة من التصورات الدعائية القائلة، بان الظاهرة الإسلامية هي نتاج أو محاكاة لما يسمى بالنموذج التركي الذي يستجيب ويتطابق مع مهمات التحديث والعصرنة، وأنه دين القواعد الثقافية،⁽⁴⁰⁾ بينما وجد البعض في هذا التأثير دعاية لا تصمد أمام النقد العلمي، انطلاقاً من أن تأثيره، في حال افتراضه فهو جزئي وفي المناطق

ذات الأصول التركية الثقافية المشتركة، بمعنى أنه لا علاقة له بطاجيكستان، الأمر الذي دفع البعض للحدّث عن تأثير النموذج الإيراني، كما هو جلي في الحالة الطاجيكية. وبالقدر ذاته جري ويجري الحدّث عن تأثير الإسلام العربي من خلال استفحال دور ألوهية في كل مناطق آسيا الوسطى والقوقاز.

أما في الواقع، فإن هذا التأثير، رغم طابعه الطبيعي، أي بوصفه جزءاً مما ادعوه بالمركزية الإسلامية المعاصرة، لكنه يسيء فهم هذه الظاهرة من خلال إرجاع نشوتها وفعاليتها إلى عوامل قومية خارجية. أما في الواقع فإنها جزء من عملية قومية ودولية وثقافية داخلية صرف. وليس مصادفة أن يضمحل ويتلاشي التأثير التركي بحيث يحصل علي صيغة المعارضة الشديدة لفكرة استبدال الأخ الروسي الأكبر بأخر تركي. بل ويصل الأمر في حالة أوزبكستان أن تعارض التدخل التركي بصورة علنية، بحيث وصل الأمر برئيس الدولة إسلام كريموف أن اعتبر محاولة اغتياله الأولى مؤامرة تركية. والشيء نفسه يمكن قوله عن التأثير الإيراني أو العربي.

كما سبق يمكن القول، بأن المسار الطبيعي والتاريخي للظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطى هو جزء من سياق التطور التلقائي للدولة والأمة والثقافة والدين ونماذجه المحتملة بوصفها جزءاً من حل الإشكاليات التي تواجههم بهذا الصدد. فقد كان تأثير العالم الإسلامي الخارجي جزئياً رغم قوته النسبية الأولية. وهي ظاهرة يمكن رؤية مثيلها أو نموذجها حال المقارنة السريعة بين الماضي والحاضر. فإذا كانت تقاليد الحنفية والأشعرية قد تراكمت في آسيا الوسطى بأثر تقاليد حركة الإرجاء والثورة التي قادها آنذاك الحارث بن سريج، فإن وحدة نسبها وإبداعها الفكري اللاحق، أي توليف تقاليد المرجئة والحنفية والمعتزلة والأشعرية قد جري ضمن سياق الصراع الداخلي للمنطقة، رغم كونها كانت جزءاً من كل إسلامي ثقافي موحد بمعايير العقيدة الكونية للإسلام ومراكز الدولة المتنقلة للخلافة. بعبارة أخرى، إذا كان انتشار الحنفية في شرق خراسان وما وراء النهر مرتبطاً بنشاط المرجئة، فإن هزيمة الحارث بن سريج قد دفعت بهما إلي

الانتشار في مدن بلخ ونسف ونيسابور وبخاري وسمرقند وغيرها، واستطاعت هذه العملية المعقدة أن تنتج شخصيات فكرية عظيمة مثل البخاري والبزدوي والسرخسي والصدر الشهيد والماتريدي والزرخشمي⁽⁴²⁾. إضافة إلى كوكبة الفلاسفة العظام أمثال الفارابي وابن سينا وعشرات غيرهم. وحالما ننقل هذه الظاهرة إلى العالم المعاصر، فإننا نقف من الناحية المجردة أمام نفس المقدمات فيما يتعلق بالتطور التلقائي. رغم اختلافها عما كان عليه الأمر في الماضي. غير أن لكل مرحلة تاريخية خصوصيتها. وخصوصية الظاهرة الإسلامية الحالية في آسيا الوسطى تقوم في أن الحركات الإسلامية السياسية فيها هي مكون جوهري في تكون الدولة وبناء المجتمع، إذ تعكس في نشاطها وحمولها، عقلانيتها ولاعقلانيتها، عمقها وسطحيتها، تاريخ وواقع الحركة الاجتماعية والسياسية في آسيا الوسطى نفسها.

فمن المعلوم أن آسيا الوسطى الإسلامية ودولها المعاصرة المتكونة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، افتقدت لأكثر من مائتي عام تاريخها السياسي والدولي المستقل. أما المرحلة السوفيتية فلم تصنع غير نظم إدارية بيروقراطية لا تعرف معنى وقيمة الحركات السياسية المستقلة والمعارضة السياسية القوية، إذ لا تشبه دول آسيا الوسطى المعاصرة بعد خروجها من تحت ركام الاتحاد السوفيتي، علي سبيل المثال، باكستان بعد خروجها من الهند. إذ لا توجد فيها حركات سياسية واجتماعية كبرى ومؤثرة (مثل الجمعية الوطنية الإسلامية، التجمع الثقافي الإسلامي، الجمعية الإسلامية المركزية الإسلامية في البنغال، التجمع الثقافي الإسلامي في كلكتوتا) ولا شخصيات سياسية وفكرية متميزة (مثل سعيد أحمد خان، وحمد علي جنة، وأبو الكلام آزاد وأغاخان ومحمد إقبال وأبو الأعلى المودودي وعشرات غيرهم). إضافة لذلك أدي انهيار الاتحاد السوفيتي إلى قطع الروابط الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية التامة في كيان الدولة المركزية السابقة. وفي نفس الوقت أبقى هذا الانهيار علي النخب السياسية السابقة للمرحلة السوفيتية بعد أن جري إحداث تغيير في أولوياتها الأيديولوجية، وهو تحول لم يجد أمامه خيارا غير اقتصاد

السوق القومي، فالنخب السياسية القديمة هي نخب بيروقراطية لم تتقن أسلوب النشاط السياسي الديمقراطي وتقاليد الحقوق السياسية. لهذا تراكم في رؤيتها عن الدولة القومية واقتصاد السوق الليبرالي خليط غير متجانس من القيم والمفاهيم والممارسات أدت إلي بناء نظم فردية في الحكم.

فإذا كان الانبعث القومي هو الصيغة المباشرة لتوحيد القوي الاجتماعية والسياسية في بداية ترسيخ أسس الدولة المستقلة، فإن استمراره يفترض تأسيسه الأصيل، وبالأخص بالنسبة لدول آسيا الوسطي، وهو تأسيس يفترض استناده إلي المكونات الواقعية والضرورية في نفس الوقت مثل (المكونات القومية التركية والفارسية) والثقافية (الإسلامية)، إلا أن النخب السياسية السائدة لم تستند في الواقع إلا علي التقاليد الروسية السياسية (القيصرية والسوفيتية). وبرز ذلك بقوة مبالغ فيها في إتباع سياسة ترسيخ أسس وتقاليد الحكم الفردي وعاربية المعارضة ومحاولة تصفية مختلف أشكالها ومستوياتها. وليس مصادفة أن تقف هذه النخب السياسية إلي جانب الأعداء التاريخيين للإسلام في المنطقة ضد الأصولية الإسلامية (باستثناء جزئي من جانب تركمانستان). لذا نجدها تتفق مع السلطة الروسية في محاربة ما يسمي بالإرهاب الإسلامي، وتؤيد الهند في تخوفها من الحلف الأصولي الإسلامي في آسيا الوسطي، وتتعاقد مع السلطة الصينية في تخوفها من الأصولية الإسلامية في المنطقة⁽⁴³⁾. بينما لا يتخوف أي منهم من التطرف والإرهاب الفعلي للأرثوذكسية الروسية والهندوسية والبوذية في مواقفهم من الإسلام والمسلمين!

تعكس مواقف النخب السياسية السائدة حاليا في دول آسيا الوسطي انسلاخها الواعي وغير الواعي عن المكونات الجوهرية للذات الثقافية الخاصة. وتشير في نفس الوقت إلي استمرار تقاليد قوة السلطة وسلطة القوة (المميزة للتقاليد السياسية التركية والقيصرية والسوفيتية)، لا معايير الرؤية الاستراتيجية لقوة التقاليد الثقافية وقيمتها بالنسبة لبناء الدولة العصرية، أي أن النخب السياسية الحالية لا تدرك قيمة ألقفزة النوعية

في مشاريع البدائل الإسلامية، باعتباره حدسا ثقافيا عميقا للانتقال من سيكولوجية العوام إلي فرضيات البدائل العقلانية واجتهادها الدائم، لكنها تبقى في الوقت نفسه جزءا من تجربة التطور الطبيعي والتلقائي المعقد لمنطقة آسيا الوسطي ودولها الحديثة. إضافة لذلك، أن ألبدائل الإسلامية لم تتجسد بعد في أيديولوجيات سياسية متكاملة، لأنها لم تتحول بعد إلي جزء عضوي في الوعي الاجتماعي والسياسي لدول آسيا الوسطي، أما وجودها السياسي بهيئة أحزاب وحركات وتجمعات وأفراد، فإنه يشير إلي الملامح الأولية لهذا التحول.

فقد ظهرت الحركات الإسلامية السياسية المعاصرة في آسيا الوسطي كجزء من صيرورة التعددية الاجتماعية والفكرية بعد انحلال السلطة السوفيتية وأيديولوجيتها الرسمية الوحيدة⁽⁴⁴⁾. وأدت التخصصية والانحلال احتكار العمل السياسي إلي تمايز اجتماعي وعقائدي وفكري أفرز تنوعا سياسيا شكلت الحركات الإسلامية (45) طيفا من أطرافه موازيا للوعي السياسي القومي في دول آسيا الوسطي الإسلامية. فقد أنتجت دول آسيا الوسطي في مجري هذه العملية تنظيمات سياسية عديدة وأنتجت أيضا نموذج من علاقة الدين بالسياسة⁽⁴⁶⁾. فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي علي ما يقارب عشرين تنظيما سياسيا إسلاميا، سبعة منها في أوزبكستان، وستة في كازاخستان، وأربعة في قرغيزيا، واثنان في طاجيكستان، وواحد في تركمانستان. لكن ما يميز أغلبها هو كونها كلها أحزاب محلية وصغيرة، وتسعي لتأسيس أحزاب وطنية، ومنهمكة أساسا في ميدان النشاط السياسي. والاستثناء الوحيد بينها لثلاثة أحزاب هي حزب النهضة الإسلامي لطاجيكستان)، والحزب الإسلامي لتركستان (أوزبكستان)، وحزب الأاش (كازاخستان). إذ تتصف هذه الأحزاب بوجود برنامج سياسي واضح، وتمتلك وسائل إعلام خاصة بها، إضافة إلي تنظيم سياسي حزبي، رغم عدم الاعتراف الرسمي بها. إضافة لذلك، أن هذه التجمعات والأحزاب أخذت في التوسع من حيث ديناميكيتها الداخلية والخارجية، بمعنى الاعتراف بها داخليا وتوسيع صلاتها الخارجية بالعالم الخارجي والإسلامي بشكل

خاص، وكذلك انهماكها في توسيع المدى النظري عبر ترجمة المصادر الفكرية القديمة والحديثة.

بالطبع أن هذه الأحزاب والحركات لها تاريخها الذاتي في نوعية ما يمكن تسميته بالإسلام الروسي والإسلام السوفيتي الذي أنتج إسلاما شعبيا إلى جانب أو بالضد من الإسلام الرسمي. ومن الممكن تتبع ذلك علي ظهور تيارات وشخصيات مؤثرة في الظاهرة الإسلامية لآسيا الوسطي بعد استقلالها وظهورها الجديد بهيئة دول وقوميات. ومن بينها تجدر الإشارة إلى تيار أهل الحديث الذي أكثر من مثله رحمة الله العلامة (1981) الذي كان تلميذا للحجبي دومله، الاسم المستعار لمحمد هندساتي رستم. (1982-1989) احد أهم وأشهر ممثلي التيار الحنفي⁽⁴⁷⁾. وعليه تخرجت أغلب الشخصيات الدينية المؤثرة في آسيا الوسطي، إذ تخرج عليه عبدالولي مرضاييف الذي انتقل لاحقا إلى معسكر الوهابية والأخذ بمهاجمة أبوحنيفة والشافعي علي لسان ابن حنبل. وتجدر الإشارة أيضا إلى تيار أهل القرآن الداعي بالرجوع إلى الأصول. وكذلك تيار الأكرمية، الذي كان يناقش أساسا ويؤسس لأهمية قضايا العبادة الصرف عبر تشديده علي أهمية معرفة الصلاة وكيفية القيام بها والتمسك بشروطها وما شابه ذلك. ومهاجمة ما يسمونه بالخرافات والبدع. كما تجدر الإشارة إلى الفرقة الصوفية (نورجيلار) مريدو بديع الزمان سعيد نورسي (1870-1960)، التي كانت تنشط في طشقند وسمرقند، إلى جانب النقشبندية التي تمركز نشاطها في وادي فرغانه.

أما الأحزاب السياسية فمن الممكن الإشارة إلى كل من حزب إسلام لاشكالاري (جند الإسلام) الذي انقسم لاحقا إلى تيارين: الأول، هو حزب العدالة، الذي حاول ضبط حدود الحياة بطريقته الخاصة وفرض شروط رؤيته علي الناس، حيث جري القضاء عليه عام 1992. والتيار الوهابي، الذي كان يوجه اهتمامه الرئيسي صوب قضايا الدين والعبادة. وقد كان قائدهم آنذاك طاهر يلداشيف، الذي قام بتشكيل خلايا من خمسة إلى عشرين شخصا، حيث استطاع تنظيم ما يقارب ستين خلية. وبعدها نشأت

الكثير من الأحزاب الصغيرة التي سرعان ما اندثرت مثل (حزب الله)، الذي كان استمرارا ونسخة من تيار التوبة، الذي نشط بين أعوام 1992 - 1995، أما حزب التحرير الإسلامي (ذو الأصول العربية) فقد ظهر عام 1990، غير أن اللوحة السياسية لا تنحصر بالأحزاب والتيارات والحركات الإسلامية، بل وتشتمل أيضا علي حركات ثقافية وسياسية) ليست حزبية، وتشترك في الحياة الاجتماعية، وتتميز بقدر معقول من الاعتدال في الفكر والسلوك العملي.

وبغض النظر عن هذا التنوع الأولي والمتناقض والمتصارع أيضا، فإننا نقف في الواقع أمام حالة توسع وتعمق الظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطي. وليس هذه الحالة معزولة عن مكوناتها الوجودية (الإسلامية) بوصفها المقدمة الضرورية الأولية، سواء جري النظر إليها بمعايير التاريخ والثقافة والهوية أو بمعايير المصالح القومية وفكرة الدولة. فقد كان التماهي بين الإسلام والقومية في آسيا الوسطي وما يزال مكونا جوهريا وجوديا للأمة والثقافة والوعي التاريخي الذاتي. فبعد المحلل الاتحاد السوفيتي، علي سبيل المثال، كان يعتقد 95٪ من القرغيز و90٪ من الأوزبيك و79٪ من الكازاخيين بأنهم مسلمين. كما أن المرحلة الروسية والسوفيتية لم تقطع الصلة بالتراث بما في ذلك من جانب النخبة السياسية المغتربة والمتأوربة. بل حتي البنية التقليدية في آسيا الوسطي (من جهوية وفتوية وقبلية وعائلية) لم تعارض مع هذه الظاهرة، بمعنى أن لكل جهة وفئة وانتماء قبلي أو عائلي صلته الخاصة بالإسلام من حيث كونه دينا وثقافة وتاريخ⁽⁴⁸⁾. والشيء نفسه يمكن قوله عن السلوك السياسي للسلطة والنخب في الاستعمال النفعي للإسلام، بمعنى إمكانية تأثيره المباشر وغير المباشر علي تفعيل الظاهرة الإسلامية علي المدى القريب والبعيد⁽⁴⁹⁾.

إن هذه المظاهر المتناقضة من الناحية الظاهرية هي جزء من معترك الحياة السياسية وصيرورة الدولة القومية، أما من الناحية الباطنية فإنها تتمثل ونجسد الأبعاد الدفينة للظاهرة الإسلامية نفسها بوصفها جزءا من تكامل وعي الذات القومي الثقافي، ومن ثم

فإنها تعمل، رغم تناقضها الشديد أحيانا، علي إرجاع آسيا الوسطي إلي تطورها الطبيعي، أي كل ما يجعل من الطبيعي أيضا رجوع الإسلام وتقاليدته إلي ميدان الوعي الاجتماعي، وهي ظاهرة سوف تتعمق مع كل إدراك لقيمة الموروث الثقافي الإسلامي، بمعنى الاقتراب الجزئي المستمر والمتعمق بين التيار التحرري الديمقراطي والتيار الإسلامي. فإذا كانت الحركات الإسلامية هي الصيغة الثقافية لتمثل وعي الذات القومي، فإن الحركات القومية هي الصيغة السياسية لهذا التمثل، أي أنهما يلتقيان في الباطن ويتباينان في الظاهر، وهو خلاف حدده ويحدده الشرخ التاريخي بين الوعي السياسي الدولي والموروث الثقافي الخاص. ومن ثم فإن كل خطوة إيجابية إلي الأمام يخطوها الوعي الاجتماعي السياسي والقومي والثقافي سوف تؤدي حتما إلي تلاقهما أو اتحادهما في رؤية الأولويات الكبرى بالنسبة لمصالح الدولة والمجتمع، وهو واقع نعثر عليه في ازدياد أثر وقيمة الموروث الثقافي الإسلامي عند الحركات السياسية والاجتماعية القومية (الراديكالية والمعتدلة)، كما هو الحال علي سبيل المثال عند حزب الأاش (الاستقلال) الكازاخي، وحزب العصبة القرغيزي، وحزب راستوخيز (النهضة) الطاجيكي. فقد وضع حزب الأاش مبدأ التضامن الإسلامي في صلب مبادئه الأربعة الأساسية إلي جانب مبدأ الوحدة الاجتماعية والحرية والديمقراطية، وجعل من بناء الدولة الإسلامية الموحدة لتركستان هدفه النهائي. وقد كان حزب الأاش استعادة لحركة الأاش التي نشأت في بداية القرن العشرين في تركستان. من هنا تعكس تسميته تمثل تجاربه القديمة وأفكاره الأساسية. ويعتمد الحزب أساسا علي الشباب المثقفين، ويتميز بنزعة راديكالية قومية (وتركستانية)، فهو الحزب الوحيد في كازاخستان الذي يتقصد السلطة بكل قواه ويعمل بمجدية من أجل نشر أفكاره وتحقيق أهدافه، ويضع الآن في صدارة مساعيه العملية السياسية تحرير أوزبكستان بصورة جذرية من التأثير والوجود الروسيين في البلد.

الكثير من الأحزاب الصغيرة التي سرعان ما اندثرت مثل (حزب الله)، الذي كان استمرارا ونسخة من تيار التوبة، الذي نشط بين أعوام 1992-1995، أما حزب التحرير الإسلامي (ذو الأصول العربية) فقد ظهر عام 1990، غير أن اللوحة السياسية لا تنحصر بالأحزاب والتيارات والحركات الإسلامية، بل وتشتمل أيضا علي حركات ثقافية وسياسية) ليست حزبية، وتشترك في الحياة الاجتماعية، وتتميز بقدر معقول من الاعتدال في الفكر والسلوك العملي.

وبغض النظر عن هذا التنوع الأولي والمتناقض والمتصارع أيضا، فإننا نقف في الواقع أمام حالة توسع وتعمق الظاهرة الإسلامية في آسيا الوسطي. وليس هذه الحالة معزولة عن مكوناتها الوجودية (الإسلامية) بوصفها المقدمة الضرورية الأولية، سواء جري النظر إليها بمعايير التاريخ والثقافة والهوية أو بمعايير المصالح القومية وفكرة الدولة. فقد كان التماهي بين الإسلام والقومية في آسيا الوسطي وما يزال مكونا جوهريا وجوديا للأمة والثقافة والوعي التاريخي الذاتي. فبعد المحلل الاتحاد السوفيتي، علي سبيل المثال، كان يعتقد 95٪ من القرغيز و90٪ من الأوزبيك و79٪ من الكازاخيين بأنهم مسلمين. كما أن المرحلة الروسية والسوفيتية لم تقطع الصلة بالتراث بما في ذلك من جانب النخبة السياسية المغتربة والمتأوربة. بل حتي البنية التقليدية في آسيا الوسطي (من جهوية وفتوية وقبلية وعائلية) لم تتعارض مع هذه الظاهرة، بمعنى أن لكل جهة وفئة وانتماء قبلي أو عائلي صلته الخاصة بالإسلام من حيث كونه دينا وثقافة وتاريخ⁽⁴⁸⁾. والشيء نفسه يمكن قوله عن السلوك السياسي للسلطة والنخب في الاستعمال النفعي للإسلام، بمعنى إمكانية تأثيره المباشر وغير المباشر علي تفعيل الظاهرة الإسلامية علي المدى القريب والبعيد⁽⁴⁹⁾.

إن هذه المظاهر المتناقضة من الناحية الظاهرية هي جزء من معترك الحياة السياسية وصيرورة الدولة القومية، أما من الناحية الباطنية فإنها تتمثل وتجدد الأبعاد الدفينة للظاهرة الإسلامية نفسها بوصفها جزءا من تكامل وعي الذات القومي الثقافي، ومن ثم

فإنها تعمل، رغم تناقضها الشديد أحيانا، علي إرجاع آسيا الوسطي إلي تطورها الطبيعي، أي كل ما يجعل من الطبيعي أيضا رجوع الإسلام وتقاليده إلي ميدان الوعي الاجتماعي، وهي ظاهرة سوف تتعمق مع كل إدراك لقيمة الموروث الثقافي الإسلامي، بمعنى الاقتراب الجزئي المستمر والتعمق بين التيار التحرري الديمقراطي والتيار الإسلامي. فإذا كانت الحركات الإسلامية هي الصيغة الثقافية لتمثل وعي الذات القومي، فإن الحركات القومية هي الصيغة السياسية لهذا التمثل، أي أنهما يلتقيان في الباطن ويتباينان في الظاهر، وهو خلاف حدده ويمجده الشرخ التاريخي بين الوعي السياسي الدولي والموروث الثقافي الخاص. ومن ثم فإن كل خطوة إيجابية إلي الأمام يخطوها الوعي الاجتماعي السياسي والقومي والثقافي سوف تؤدي حتما إلي تلاقهما أو اتحادهما في رؤية الأولويات الكبرى بالنسبة لمصالح الدولة والمجتمع، وهو واقع نعتز عليه في ازدياد أثر وقيمة الموروث الثقافي الإسلامي عند الحركات السياسية والاجتماعية القومية (الراديكالية والمعتدلة)، كما هو الحال علي سبيل المثال عند حزب الأاش (الاستقلال) الكازاخي، وحزب العصبة القرغيزي، وحزب راستوخيز (النهضة) الطاجيكي. فقد وضع حزب الأاش مبدأ التضامن الإسلامي في صلب مبادئه الأربعة الأساسية إلي جانب مبدأ الوحدة الاجتماعية والحرية والديمقراطية، وجعل من بناء الدولة الإسلامية الموحدة لتركستان هدفه النهائي. وقد كان حزب الأاش استعادة لحركة الأاش التي نشأت في بداية القرن العشرين في تركستان. من هنا تعكس تسميته تمثل تجاربه القديمة وأفكاره الأساسية. ويعتمد الحزب أساسا علي الشباب المثقفين، ويتميز بنزعة راديكالية قومية (وتركستانية)، فهو الحزب الوحيد في كازاخستان الذي ينتقد السلطة بكل قواه ويعمل مجدية من أجل نشر أفكاره وتحقيق أهدافه، ويضع الآن في صدارة مساعيه العملية السياسية تحرير أوزبكستان بصورة جذرية من التأثير والوجود الروسيين في البلد.

ونفس الشيء يمكن قوله عن حزب العصبة القرغيزي، الذي يضع بين أهدافه الكبرى الانبعاث القومي للقرغيز، ومعه انبعاث الإسلام، ولكن تحت راية الدولة الدنيوية. أما حزب راستوخيز الطاجيكي فهو من أوائل الأحزاب السياسية في آسيا الوسطى، التي أدرجت مهمة التحرر الوطني، وبناء الدولة الديمقراطية (ضمن الاتحاد السوفيتي) في أولويات برنامجه السياسي، وأخذ يقترب في مجري اشتداد الصراع السياسي والاجتماعي في طاجيكستان من مواقع الإسلاميين ليدخل معهم في نهاية المطاف في المعارضة الطاجيكية الموحدة، ويخوض الصراع المسلح أيضا إلي جانبهم ضد السلطة الحالية.

كل ذلك يكشف عن أن تعمق الصراع السياسي وإدراك الأولويات الكبرى لمصالح الدولة والمجتمع يدفع بالتيار القومي والتحرري والديمقراطي إلي الاقتراب من الحركات الإسلامية، كما يدفع بالحركات الإسلامية إلي الاقتراب منها، أي أن التكامل بينهم يعكس تكامل البنية الاجتماعية والقومية في دول آسيا الوسطى، كما أن تباعدهم يشير إلي واقع التفاضل بين الدول نفسها، وبين السلطات والمعارضة أيضا، وهي ظاهرة يصعب تذليلها دفعة واحدة لأسباب تتعلق بتاريخ نشوء الدولة الآسيوية المعاصرة ونخبها السياسية الجديدة. ونعثر علي هذه الظاهرة أيضا في تاريخ تكامل وتفاضل الحركات الإسلامية السياسية نفسها في آسيا الوسطى (السوفيتية) ودولها المستقلة المعاصرة. ومن الممكن اتخاذ حزب النهضة الإسلامي نموذجا حيا لهذه الظاهرة، لاسيما أنه الحزب الأكبر والأعرق والأقوي من الناحية العقائدية والأيدولوجية والسياسية والتنظيمية، إذ جعل من مهمته الأساسية إرجاع المسلمين إلي حضرة الإسلام، وتطهير الدين الإسلامي من مخلفات وبقايا مراحل الانحطاط والمرحلة السوفيتية، وذلك من خلال الرجوع إلي مبادئ الإسلام الأولى الحقيقية (50)، وفي تاريخ هذا الحزب وتحولاته يمكن رؤية مسار التعددية السياسية في أواخر المرحلة السوفيتية وبداية نشوء الدول المستقلة، وهي عملية تستثير بالضرورة تباين واختلاف المصالح والآراء والاجتهادات.

ففي كازاخستان، التي تتميز عن بقية دول آسيا الوسطي بمستوي عال من الدنيوية والروسنة، لم تتحول الظاهرة الإسلامية فيها إلي حركة سياسية فعالة بعد، فهي مازالت في حالة أقرب إلي العادات وتقاليد وأعراف حياتية وبعض معالم العبادة البسيطة، خاصة في المناطق الجنوبية (المتاخمة للعالم الإسلامي). ذلك يعني أن الإسلام السياسي فيها مازال في حالة كمون.

أما في قرغيزيا، التي تشبه لحد ما كازاخستان⁽⁵¹⁾، فإن الظاهرة الإسلامية فيها أكثر وضوحا وحضورا، رغم أن القرغيز أقل شعوب آسيا الوسطي تعلقا واندماجا بالتقاليد الثقافية الإسلامية بسبب تقاليدهم الرعوية الجبلية وضعف تقاليد المدينة،⁽⁵²⁾ إلا أن الفراغ الأيديولوجي والعقائدي بعد انهيار الشيوعية السوفيتية جعل من الإسلام، إلي جانب الفكرة القومية، عاملا أيديولوجيا مهما⁽⁵³⁾. ومع ذلك فإن الظاهرة الإسلامية فيها مازالت جزءا من الصراع السياسي المتراكم في مجري عملية تكامل البنية الاجتماعية والسياسية والحكومة للدولة. إذ لم تتحول الظاهرة الإسلامية بعد إلي كيان سياسي مستقل، بل مازالت في طور الاندماج العضوي الملازم لاستعادة تقاليد العبادات الإسلامية مثل بناء الجوامع والمساجد والمدارس الدينية والاهتمام بتراث الإسلام⁽⁵⁴⁾.

ونعثر علي نفس المنحي في تركمانستان، إلا أن ما يميزها بهذا الصدد عن بقية دول آسيا الوسطي الإسلامية، هو استغلال السلطة للظاهرة الإسلامية بما يخدم توجهها السياسي، إذ تسعى السلطة من وراء الاهتمام ببناء الجوامع والمساجد وإرسال الطلبة لتحصيل العلوم الإسلامية في البلدان الإسلامية، بل وإدخال مادة تاريخ الإسلام في المدارس، إلي جعل نفسها الممثل الشرعي الوحيد للإسلام في خدمة المصالح الوطنية كما تفهمها النخبة السياسية السائدة في تركمانستان حاليا، إذ تعتبر السلطة الإسلام جزءا من المكونات الثقافية للقومية التركمانية. وبنفس الاتجاه العام تسيير تصورات واقتراحات المؤسسة الدينية في تركمانستان، عندما تشدد علي أن الإسلام هو ليس كيانا مهمته ملء الفراغ الناتج عن انهيار الأيديولوجية الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، بل مكون روحي

جوهري سوف يكشف عن حيوته في كل ميادين الحياة بعد جيل أو جيلين من التربية الإسلامية. ذلك يعني أن مهمة الإسلام بالنسبة لها هو مهمة المستقبل. أي أن الظاهرة الإسلامية هي ظاهرة المستقبل الكامنة حاليا في بناء وحدة الدولة المستندة إلى التقاليد والثقافة القومية (التركمانية) والإسلامية.

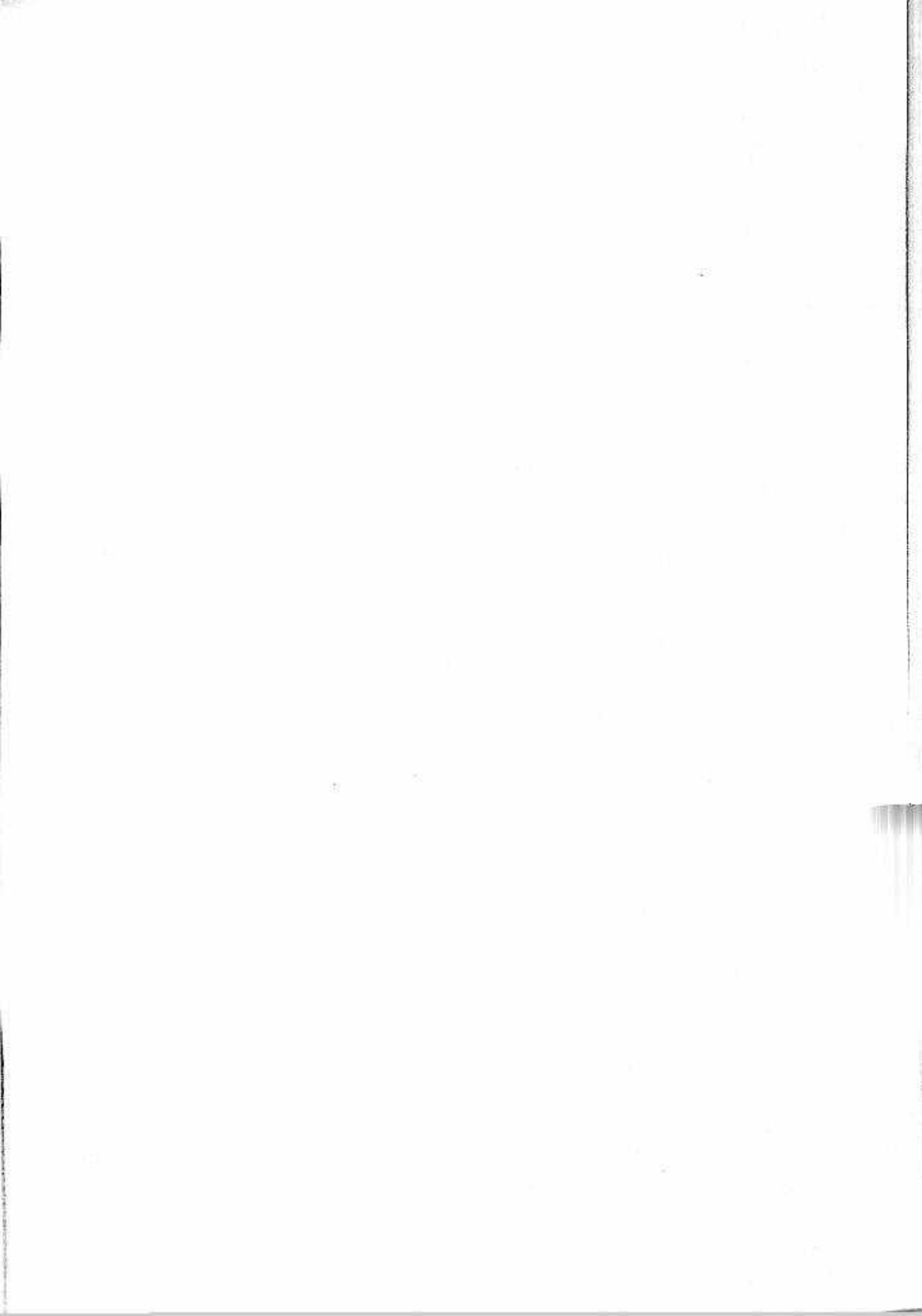
بينما تختلف الحالة في أوزبكستان. فمن المشهور أن الاوزبكيين من بين أكثر شعوب المنطقة (باستثناء الطاجيكيين) تأثرا بالتقاليد الإسلامية والحفاظ عليها،⁽⁵⁵⁾ إضافة إلى أنها المنطقة التي تحتوي على أكبر وأوسع وأعرق المراكز الثقافية الإسلامية الأ وهي بخاري وسمرقند. فقد كانت أوزبكستان من الناحية التاريخية والدينية مصدر التوسع الجغرافي لعالم الإسلام بين أترك آسيا الوسطى. لهذا برزت الظاهرة الإسلامية فيها مع أول انفتاح نسبي في أواخر المرحلة السوفيتية. حينها أخذت تنتشر الحركات السياسية والأحزاب الإسلامية السياسية مثل حزب النهضة الإسلامي وحزب العدالة (الإسلامي)، وحزب الله. فقد كان حزب النهضة منذ البدء في موقف المعارضة للسلطة الرسمية السياسية منها والدينية، إلا أنه تعرض إلى مهاجمة السلطة وتفريق صفوفه وإلقاء القبض على أعضائه ومؤازريه، مما اضطره لاحقا للإعلان في 10 أغسطس 1992 عن دخوله للعمل السري المناهض للسلطة الحالية. أما حزب العدالة الذي تأسس في 16 ديسمبر 1991 بأثر تشكيل مجموعات من مختلف الفئات الاجتماعية في مناطق نامنغان وانديجان وفرغانة لإحقاق العدالة من خلال محاربة ظواهر الفساد والخروج عن العادات والتقاليد الإسلامية. وأثار نشاطه الاجتماعي مخاوف السلطة مما اضطرها لقمعه وسجن بعض رؤسائه⁽⁵⁶⁾. أما حزب الله فقد اتبع منذ البداية أسلوب النشاط السري لأنه رفض منذ البدء التعامل مع السلطة، ووقف موقف المعارض الشامل لها، حيث جعل هدفه الرئيسي إرجاع أوزبكستان إلى الحضرة الإسلامية وتقاليد الشريعة، من خلال تثبيت وترسيخ القيم الإسلامية وإعادة بناء الدولة والمجتمع على أسس الإسلام وعقائده الكبرى.

أما في طاجيكستان فقد تبلورت الحركات السياسية الإسلامية منذ وقت مبكراً (57) فمنذ السبعينيات أخذت تظهر بوادر الحركة الإسلامية السياسية السرية، التي تجلّت للمرة الأولى في أحداث عام 1976 في كورغان - توبه، عندما اشتبك الإسلاميون مع السلطة في مواجهات مباشرة. بعد ذلك انتقل نشاطهم السري إلى المدن والقري. واتخذ الصراع في البداية مظهر محاربة رجال الدين الرسميين، باعتبارهم ممثلي السلطة المناهضة للإسلام نفسه، وأخذ بالازدياد عدد المساجد السرية. ومع بداية البيريسترويكا انتشرت المساجد العلنية بسرعة بالغة. فإذا كان عدد الجوامع عام 1989 يبلغ 17 جامعاً، ففي عام 1997 بلغ 204 جوامع. في حين ازداد عدد المساجد لنفس الفترة إلى نحو 5000 مسجد، وهو توسع يعكس تحول إسلام الظل إلى كيان فاعل في الحياة الروحية والسياسة لطاجيكستان. وتجلي ذلك بوضوح شديد في بداية التسعينيات من القرن العشرين (1992) عندما استطاع حزب النهضة الإسلامي والحركة الإسلامية الاستيلاء على السلطة السياسية في العاصمة، إلا أنه لم يستطع الاستمرار في قيادتها بفعل أسباب داخلية (مثل ضعف تكامل البنية الاجتماعية الوطنية، وتأثير النزعة المناطقيّة والقبلية، والتباين الاقتصادي والسياسي والعقائدي الحاد بين مختلف المدن والمناطق، واستعمال العنف المتبادل عوضاً عن الحوار السياسي) وخارجية (مثل التدخل الأوزبكي والروسي وسليبات التجربة الأفغانية). وأدى ذلك بحصيلته إلى اشتداد وتعمق عناصر وآلية الحرب الأهلية، التي خسرت بها الحركة الإسلامية زمام السيطرة السياسية داخل البلاد، وأبقت عليها بوصفها التيار الأكبر والأوسع والأقوى للمعارضة السياسية والمسلحة في طاجيكستان، حيث تحولت الحركة الإسلامية السياسية إلى قطب المعارضة الوطنية والتحررية والديمقراطية الطاجيكية داخل البلد وخارجه. وجعل ذلك منها القوة المعارضة الوحيدة القادرة على إدارة الحوار السياسي مع السلطة وفرض شروطها المعقولة بالنسبة لاستتباب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الوطنية. وتسوّج ذلك عبر مساومات مع السلطة الحالية إلى استعادة وجودها السياسي الشرعي ومؤسساتها الفاعلة، بما في ذلك السلطة التنفيذية.

كما سبق يتضح، بأن الظاهرة الإسلامية هي جزء من عملية تاريخية ثقافية سياسية كبرى ترافق الصيرورة الجديدة للدولة القومية في آسيا الوسطى، أي الحكومة بفقدان التاريخ السياسي واختباء التراث الثقافي فيما وراء وجودها الحديث والمعاصر، الأمر الذي أنتج حالة معقدة من تداخل المكون السياسي والثقافي في الظاهرة الإسلامية. وجعل في الوقت نفسه من الإسلام السياسي 'انعكاسا طبيعيا لهذا الخلل بين التاريخ والوعي، والدولة والثقافة. إلا أن المسار المعقد لهذا التداخل سوف يكشف مع مرور الزمن الحقيقة القائلة بأن الظاهرة الإسلامية من حيث جوهرها هي إشكالية تاريخية وسياسية وقومية من إشكاليات إرساء المرجعية الثقافية الخاصة، بمعنى أولويتها مقارنة بالأبعاد السياسية الملتهبة في الظروف الحالية. وكلما يجري إدراك هذه الحقيقة كلما يصبح أكثر واقعية إمكانية تحولها إلى بديهية سياسية نظرية وعملية قادرة على إزالة التعارض والتناقض المتعلّق بين التراث والمستقبل، وهي عملية معقدة ومتناقضة، لكنها تجري ضمن سياق المنطق الكامن فيما ادعوه بصيرورة المركزية الإسلامية الجديدة، أي مركزية إرساء أسس الإسلام الثقافي، وسوف تقطع دول آسيا الوسطى هذا المسار الشاق من خلال توصلها إلى إدراك الحقيقة القائلة، بأن الإسلام وتراثه الكبير هو ليس إشكالية سياسية، بل مرجعية ثقافية.

الفصل العاشر

المستقبل الاسلامي لشعوب دول آسيا الوسطى



الفصل العاشر

المستقبل الاسلامي لشعوب دول آسيا الوسطى

«تتارستان» الاستطلاع أسلوب تتجول من خلاله في عالم الواقع والافكار، يتم فيه تجميع موضوعي للمعلومات واستفهام عام للراء في مسائل محدّدة، يهدف إلى إثارة اهتمام أبناء الاسلام ورجاله بما يجري حولهم من أحداث، وما يتداول في أوساطهم من أفكار وأدوار، لتظهر حصيلة ذلك على صفحات هذه المجلة، إرساءً للصحة الاسلامية العالمية وسيراً بها على طريق ذات الشوكة. وقد بدأنا في العدد الثالث بنشر ما وصلنا من آراء قرآتنا الكرام حول المستقبل الاسلامي لشعوب دول آسيا الوسطى، ونظراً لاهمية الموضوع وما وصلنا من دراسات وتقارير حوله، نواصل نشر ما وردنا في هذا الباب، وقد وصلتنا رسالة من الدكتور فريد حيدر آل سلمان من تتارستان تضمّنت مجموعة من الاثارات والمطالب كانت جديرة بالتأمل والبحث، فدفعنا أحد كتابنا لتقديم دراسة استطلاعية عن تتارستان التابعة حالياً لروسيا نقدّمها لقرآتنا الاعزاء.

لقد كانت المعلومات النادرة التي تتسرّب حول أوضاع المسلمين في دول آسيا الوسطى قبل انحلال الاتحاد السوفيتي، تأتي من مصدر سوفيتي رسمي، ويقتصر في الغرب والبلدان الاسلامية على ترديد ما تؤكّده وسائل الاعلام الدعائية، المثيرة لمعلومات مقتضبة تعكس الوضع المأساوي المرير للمسلمين، لا يقصد الاهتمام وإبراز الحقائق، بل يقصد التوهين والخطّ من مكانتهم. وطالما تردّدت هذه الجمل القصار التي تخفي بين طياتها سموم العداة والحقد الدفين للاسلام: «لقد ماتت الاسلام بينهم والمخدر إلى مرتبة المخلفات الفولكلورية»، «أصبحوا سوفيت»، «أصبحوا شيوعيين» (1). هكذا كانت تروّج تلك الوسائل الاعلامية التي لا هم لها سوى التاجرة بمصائر الشعوب المستضعفة. أما الان فقد أصبحت الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي المنحل - المحكمة الاغلاق سابقاً قابلةً للنفوذ يتسرب منها نور جديد حول هؤلاء المسلمين السوفيت -

بعددهم البالغ 45 مليون نسمة والذين يتنامون بسرعة، والمؤهلين بموقعهم الاستراتيجي في آسيا العليا - لان يقوموا بدور مهم في المسرح التاريخي خلال الاعوام القادمة إن شاء الله تعالى. / XML:NAMESPACE PREFIX = O.

ومن الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفيتي المنحل والتي كانت ولا تزال تعيش تحت وطأة الاضطهاد الروسي، جمهورية تتاريا «تتارستان» ويطلق عليها ما يسمى بالمستقلة استقلالاً ذاتياً. ولعل ندرة المعلومات والابخار الواصلة عن هذه الجمهورية قد أدت إلى جهل الكثير من المسلمين بوجود هكذا جمهورية على الخارطة السياسية والعالمية، فضلاً عن العلم بأوضاع وأحوال وتاريخ الشعب المسلم في تتارستان، وذلك بسبب الطوق الحديدي المضروب على تلك الجمهوريات، وخنق النفس الاسلامي فيها، وممارسات المسخ الفكري والروحي على المسلمين هناك. لنسلط الضوء مع شيء من التفصيل حول هذه الجمهورية ذات الاغلبية المسلمة. ويتمحور البحث حول عدة نقاط:

1. معلومات إحصائية :

تشكّلت جمهورية التتر (تتارستان) في 27/ أيار/ 1920 كجمهورية مستقلة ذاتياً تقع في حوض نهر الفولغا، يغطّي إقليمها مساحة 68000 كم²، وعدد السكان الاجمالي طبقاً لآخر إحصائية عام 1979م 3436000 نسمة (2)، عاصمتها (قازان) وهي مركز صناعي هام، بلغ عدد سكان العاصمة فقط قرابة مليون نسمة عام 1979م معظمهم من الروس.

تمثل جمهورية التتر المستقلة ذاتياً طليعة الاسلام الشمالية المتقدمة والاقليم المسلم لا قرب إلى موسكو أيضاً.

ووفقاً لاحصائية عام 1979م ذكرت المصادر الرسمية أن المسلمين يشكّلون نسبة 6, 47٪ فقط من مجمل سكان الجمهورية، أي 1641000 نسمة، وتؤشر هذه النسبة إلى انخفاض ملحوظ بالنسبة لاحصائيات عام 1970م، إذ كان نصيبهم فيها 49٪ والتي شكّلت إنخفاضاً ملحوظاً لما قبلها من إحصائيات، وقد أشارت بعض الاحصائيات إلى أن

عدد المسلمين بلغ 2300000 - 2500000 نسمة. إن التدرّج في نسبة المسلمين في هذه الجمهورية يوضح مدى الترويس الذي مورس ضدها أي تحويلها إلى غالبية روسية، وذلك عن طريق تشجيع الهجرة إليها، حيث السيل الجديد من المهاجرين الروس باتجاه المراكز الصناعية في تاتاريا.

ومن هذا يتضح سبب كون العاصمة (قازان) تضم سكاناً روس بالدرجة الأولى. مقابل هذا فقد دلت الإحصائيات على وجود نسبة عالية من التترين تعيش خارج تاتارستان بلغ عددهم الاجمالي في الاتحاد السوفيتي المنحل 6317000 نسمة (3) عام 1979م، بينما كان العدد 5930000 نسمة عام 1970م حسب الإحصائيات الرسمية، أي أنّ زيادتهم منخفضة جداً بالنسبة للروس، إذ تبلغ 5، 6٪ فقط وهي أقل نسبة بين جميع الشعوب المسلمة في الاتحاد السوفيتي السابق. إنّ ربع التتر فقط يستوطنون جمهوريتهم الوطنية، والباقي مبعثرون بين الجمهوريات المستقلة حديثاً على شكل جاليات.

إنّ تتر الفولغا (4) هم الشعب التركي المسلم الوحيد في دول آسيا الوسطى الذي أصبح منذ القرن التاسع عشر شعباً مشتتاً خارج وطنه الأم. فقد أكره التتر على الهرب من قسوة الانظمة المسكوفية، فشكّلوا جاليات متفرقة ولكل جالية جامعتها ومدارسها تستخدمها أيضاً مراكز لنشر الثقافة الاسلامية.

وطبقاً لإحصائيات عام 1979م وهي آخر إحصائية رسمية يمكن الرجوع اليها فإن أكثر من المليون تتر يعيشون في جمهوريات آسيا الوسطى منهم 649000 في أوزبكستان، و314000 في قازاخستان، و80000 في طاجيكستان و72000 في قرغيزيا، و40000 في تركمنستان، بالإضافة إلى 32000 في آذربيجان، و90000 في أوكرانيا.

كذلك توجد أعداد أخرى في بعض الاقاليم لم نقف على إحصائياتها بشكل دقيق. وبالنسبة إلى لغة التترين فهي لغة تنتسب إلى اسرة اللغات التركية، ويطلق عليها التارية (5)، وهي اللغة القومية الأولى التي يتفاهم بها التاريون سواء في جمهوريتهم أو خارجها، حيث بقيت هذه اللغة حية بين السكان بالرغم من الحملة الترويسية التي تشنها روسيا

لتغيير لغة القوم إلى الروسية. ماعدا بعض الجاليات التترية خارج الوطن الاصلي فتمتاز بعدم تمتعها باستقلال ثقافي ذاتي، فهي محرومة من المدارس والمطبوعات التي تتعامل بلغتها القومية، لذلك فإن اللغة الروسية تحل محل اللغة الاصلية الأم، بالإضافة إلى لغات اخرى مثل التركية والبولونية والبلوروسية والليتوانية وغيرها.

2. إنتشار الاسلام في جمهورية تتارستان:

إنتشر الاسلام عن طريق التجار والسفراء المسلمين الذين حملوا الاسلام إلى مملكة بلغار الفولغا الاوسط - تتارستان حديثاً - منذ القرن التاسع الميلادي، واعتنقت هذه المنطقة بمعظمها الاسلام في القرن العاشر وبالتحديد في سنة 922م وتحول ملكها المسمى الماز عن النصرانية وأسلم واتخذ اسما اسلاميا هو جعفر، في أيام الخليفة العباسي المقتدر⁽⁶⁾، ومنها انتشر الاسلام إلى بقية البقاع المجاورة في آسيا الوسطى، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر بفضل التجار المسلمين من عرب و فرس و أتراك حتى امتد في الاورال الذي يشكل جمهورية بشكيريا اليوم - أحد الجمهوريات المستقلة ذاتياً في الاتحاد السوفيتي المنحل - ثم في سهوب قازاق في شمال (سير - داريا)، ثم في جبال قرغيزيا⁽⁷⁾ إلى أن وصل إلى سينغيانغ في الصين⁽⁸⁾.

لقد شهدت منطقة فولغا انتعاشاً وازدهاراً وتطوراً منذ دخول الاسلام إليها، سيما وأن دخوله كان بشكل سلمي، حيث تقبلت هذه المنطقة الاسلام بلا أية صعوبة، حتى حلت سنة 1226م⁽⁹⁾ وبدأ الغزو المغولي للعالم الاسلامي، فكانت أقاليم آسيا لوسطى الاسلامية مسرحاً لهذا الغزو وهي لا تزال حديثة عهد بالاسلام. لقد كان بين أوائل المغول الذين غزوا آسيا الوسطى عدد كبير من البوذيين والمسيحيين النسطوريين لذلك فقد اتخذ الغزو اتجاهاً معادياً للاسلام. ودخل المغول أراضي بلغار فولغا بعد حوالي 10 سنين من غزو آسيا الوسطى وسموها (تتارستان) وأطلق على شعب بلغار فولغا بالشعب التتاري (التتري أو تتر الفولغا) وإلى الان يعرف بهذا الاسم. وبفعل نشاطات الجماعات الاسلامية التي نشأت في المنطقة ترسخ الاسلام بين أوساط الناس

وأضفي عليه طابع شعبي، وتعمقت جذوره بين الطبقات المحرومة على الخصوص، وأصبح الدين الشعبي للبلاد، وفي تلك الاثناء كان المغول قد اهدوا إلى الاسلام، وبالتحديد في مطلع القرن الرابع عشر، أيام حكم أزيك خان (1312 - 1342م)⁽¹⁰⁾ وأفاد ملوكهم من الدخول في الاسلام، حيث أصبح تقدمهم واندفاعهم بعنوان نشر الاسلام أيسر من السابق، ودخل الاسلام على يدهم إلى الكثير من الاقاليم والبقاع.

3. التوسع الروسي والهجوم المضاد على الاسلام:

في عام 1552م غزت دولة مسكوفيا (11) بزعامة ايفان الرهيب - ضمن حملة التوسع الروسي باتجاه الاقاليم الاسلامية - إقليم تتر الفولغا⁽¹²⁾.

وقد مارس الروس بحق الشعب التتري أبشع حالات الاضطهاد والقسوة خلال أربعة قرون تقريباً، حتى بلغ عدد القتلى فقط في سنة 1552م أكثر من 250000 نسمة من المسلمين من أبناء قزان ونواحيها، وهدم أكثر من 420 مسجداً في قزان فقط، وقد استهدف المحتلون الروس في الاغلب صرف التتريين عن الدين الاسلامي وردهم إلى المسيحية. وتبنت القياصرة منذ عام 1555م سياسة الارتداد عن الدين الاسلامي إلى النصرانية بالقوة حتى بلغ عدد ضحايا سياساتهم التنصيرية إلى منتصف القرن الثامن عشر أكثر من 280000 قتيل وتشريد أكثر من 500000 من المسلمين فرّوا إلى بولونيا وألمانيا وتركيا وبلغاريا ورومانيا والصين.

لكن المقاومة المظفرة لهذا الضغط كانت ظاهرة تاريخية بلا سابقة، وقد شكلت جزءاً من التاريخ الديني والقومي للشعب التتري، وما يزال هذا الشعب المسلم حتى اليوم متمسكاً بشدة بالاسلام الذي أصبح يمثل بالنسبة إليه أساس الشعور الوطني أكثر من أي شيء آخر، وهذا لا يعني أنّ التتريين لم يتأثروا بالغزو المسكوفي، ووقوعهم تحت السيطرة الروسية لعدة قرون، سيّما وأنّ المحتلّ الروسي كان يريد اجتثاث جذور الاسلام من الاصل، والنيل من المسلمين ومعتقداتهم، فارتدّ البعض من التتر الى المسيحية (وكان

أكثر هؤلاء المرتدين من الوثنيين) وقد عرفوا باسم (ستاروكرياشن)⁽¹³⁾ وكان ذلك في أيام حكم القيصرية «أنا» خلال أعوام (1738 - 1755م) حيث كانت هذه الفترة من أشدّ الفترات على المسلمين التتر، فقد أغلقت الجوامع في الفولغا الاوسط، وصودرت أملاك الاوقاف وحولت إلى الدولة، وهي أوقاف كانت عائداً لها تخصص لأعمال الاحسان والتربية، وهورب رجال الدين المسلمون، وأصبحوا أمام خيارين: إما الموت وإما السير في ركب الامبراطورية الروسية (14)، بالإضافة إلى القسوة والارهاب والاضطهاد، فقد استخدم القيصرية أسلوباً آخر وهو إرسال مبشرين روس يعملون على تنصير المسلمين بأساليب مختلفة، ولكن دون جدوى. فاستمرّ ترسخ الاسلام وانتشاره، وقد سجّل تقدماً جديداً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أيام حكم القيصرية كاترين الثانية⁽¹⁵⁾، حيث بدأت عام 1764م بانتهاج سياسة تسامح ديني إلى حدّ كبير، فمنحت تتر الفولغا حريتهم الدينية المطلقة وحقهم ببناء الجوامع والمدارس القرآنية، وأصبح تجار تتر الفولغا وسطاء بين روسيا وآسيا الوسطى، وكانوا يتصرفون أيضاً كدعاة للاسلام بينون الجوامع والمدارس ويحملون الاسلام إلى الشعوب التي مازالت شبه وثنية في بشكيريا وسيبيريا الغربية وسهوب القازاخ⁽¹⁶⁾. غير أنّ الاوضاع لم تستقرّ على ما هي عليه فتغيّر بتغيّر القيصر وتبدّل الحكومة، ففي أيام القيصر الكسندر الأوّل غير المبالي بالاسلام، سلب التتر ودفعوا عن مناطقهم فلم تبق أمامهم غير وسيلة واحدة للحياة، هي الهجرة إلى الامبراطورية العثمانية. ويقدر أنّ أكثر من مليوني تتر غادروا وطنهم بين أعوام 1783 و1893م ليستقروا في تركيا والاقاليم التي كانت آنذاك عثمانية مثل رومانيا وبلغاريا.

4. الحركات السياسية والاسلامية في تارستان:

نتيجة للسياسات الجائرة وتصرفات القياصرة الطائشة برزت ردود فعل مختلفة من قبل الشعب التتري في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قبيل الثورة البلشفية، تمثلت في نشوء حركات عرقية وقومية وسياسية ودينية وانتشرت من تتاريا إلى الاقاليم الأخرى، فظهرت عدة حركات إسلامية منها:

1 - الحركة القومية الاسلامية: وظهرت لأول مرة في نهاية القرن التاسع عشر بقيادة تتر الفولغا وانتشرت بسرعة في الاقاليم الاسلامية الأخرى وكانت حركة أهلية محلية تولدت عفويًا بين مسلمي تارستان في روسيا، وقد نفذت إليها إيديولوجيات أجنبية عديدة مثل الرومانتيكية الألمانية، والتحررية البريطانية، وإيديولوجية الثورة الفرنسية، وإيديولوجية تركيا الفتاة وغيرها، وكانت تسمى بالتحررية المعتدلة المنفتحة على المسلمين كافة ولكن بقيادة التتر.

2 - حركة الرابطة الاسلامية المشتركة: نشأت هذه الحركة بين برجوازي تتر الفولغا على شكل حركة سياسية إسلامية هدفها توحيد المجتمع الاسلامي في إمبراطورية القياصرة، مع إضفاء طابع الكفاح من أجل تعميق الرابطة الاسلامية بين المسلمين. فقد كان الزعماء التتر لهذه الحركة يعرفون أن الاسلام ما يزال ضعيفاً فلا يمكنه أن يخوض حرباً معلنة ضد إمبراطورية القياصرة، لذلك فقد ظلوا حتى عام 1905م معتدلين ومخلصين للدولة القيصريّة الروسية بحيث لم تكن مطالبهم تتجاوز المساواة في الحقوق الشخصية مع الروس، متصورين أن انفصالهم عن الامبراطورية مضرّ حتماً بالمسلمين، لكنهم غيروا بعد ذلك سياستهم بعد اندحار روسيا عام 1905م على يد اليابان، حيث أصبحت روسيا واهنة ضعيفة مما أهاج الامل بالانتقام والتحرر من قبل الشعوب الخاضعة للامبراطورية بما فيها الشعوب المسلمة. وهكذا تطوّرت حركة الرابطة الاسلامية في سنة 1905م وعقدت مؤتمرات إسلامية سرية اشترك فيها مئات

التتريين قدّمت فيها مطالب سياسية وحقوقية جديدة، كان ذلك عام 1906م في مدينة (نيجني نوفغورود) .

3 - حزب اتحاد المسلمين: نشأ هذا الحزب في عام 1905م وتحوّل إلى حزب سياسي عام 1906م وكان هذا الحزب المحاولة الوحيدة لتوحيد جميع الشعوب المسلمة في روسيا تحت رعاية التتر.

وسرعان ما انحَلَّ هذا الحزب نتيجة لعدم اتفاقه ومواجهته لحزب الدستورين الديمقراطيين الروسي مما سبّب له مشاكل كثيرة، فقررت اللجنة المركزية للاتحاد حلّه عام 1908م.

كذلك فقد ظهرت حركات ماركسية بعد عام 1905م تدّعي التقدمية، وحركات تجديدية إصلاحية أخرى كانت تحمل إيديولوجية الاحزاب التركية، والرئيسية منها:

1 - حزب الوحدة (بيريك): وقد تأسس في ربيع عام 1906م في قازان عاصمة تارستان بزعامة المثقفين والثوريين، وكان جميع الماركسيين من التتر يتعاونون مع هذا الحزب، لقد كانت إيديولوجيته قومية متلوّنة باللون الماركسي، فهي مزيج بين الاشتراكية والديمقراطية، ولم يستمرّ هذا الحزب كثيراً حيث قضى عليه في خريف نفس العام.

2 - حزب تنغششر (نجمة الصبح): وقد تأسس في ربيع عام 1906م في قازان، وكانت زعامته بقيادة شباب مثقفين من أصل برجوازي، إيديولوجية الحزب انبثقت عن إيديولوجية الاشتراكيين الثوريين الروس، وقد قضت السلطة عليه عام 1907م.

3 - حزب أورالتششر (الأوراليون) وقد تأسس في كانون الثاني عام 1907م وكانت زعامته بيد مثقفين من أصل برجوازي، وقد بنيت إيديولوجيته السياسية على

أساس تَبَيُّ الأيديولوجية السياسية للحزب البلشفي، وقد تبدّد هذا الحزب في نيسان 1907م⁽¹⁷⁾.

5. المسلمون في تترارستان في ظلّ السلطة الشيوعية:

لقد كان تتر الفولغا يتطلّعون إلى من يتقدّ البلاد من سيطرة وظلم الحكم القيصري، لذلك فقد كانوا ينظرون إلى ثورة أكتوبر 1917م بتفاؤل، مما جعلهم من المشجّعين للثورة باعتبارها مرحلة انتقالية من الملكية الظالمة. ولكن ما لبثت أن تبدّدت آمالهم بعد الثورة حيث ذاقوا الويلات من الحكومة الشيوعية اللينينية الملحدة، فبعد أن توطّدت السلطة بيد الشيوعيين شنّوا هجومهم المباشر على الدين الإسلامي عام 1928م وكان نصيب تترارستان كبيراً من هذا الهجوم باعتبارها المعقل الأوّل الذي انتشر منه الإسلام قبل أربعة قرون إلى بقية أقاليم آسيا الوسطى⁽¹⁸⁾.

وامتدّ هذا الهجوم بمتهى الشراسة حتى إعلان الحرب العالمية الثانية، فقد أغلقت المساجد في تتراريا كلها، كما في بقية البلدان السوفيتية، وكذلك أغلقت مدارس المسلمين وصودرت أوقافهم.

ومن الفترات العصيبة التي مرّت بالمسلمين فترة حكم خروشوف التي استمرّت من عام 1954م حتى عام 1964م حيث مورست أبشع الجرائم بحق المسلمين بالإضافة إلى تشويه الحقائق وصرف أفكار الشباب المسلم التتري عن الإسلام. فقد أطلقت الصحافة والاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح وكل الوسائل الإعلامية المتوفرة حملات دعائية شديدة ومكثفة ضدّ الفكر الإسلامي، وكان ذلك بشكل علمي مدروس جُنّد له الآلاف من الخبراء والمتخصصين بهدف محو الإسلام ونشر الفكر الشيوعي الألحادي ليحلّ محلّه، ولتتلوّن حياة المسلمين التتريين باللون الأحمر.

فمن عام 1954م حتى عام 1964م نشر فقط باللغة التترية ما يقارب 65 مؤثقاً ضدّ الإسلام، بالإضافة إلى اللغات الأخرى. واستمرّت هذه المعاناة حتى عام 1991م عند تحطّم الاسطورة الماركسية وانضّاح زيف الادّعاءات الشيوعية وانفراج الوضع المأساوي الذي كان يعيشه المسلمون.

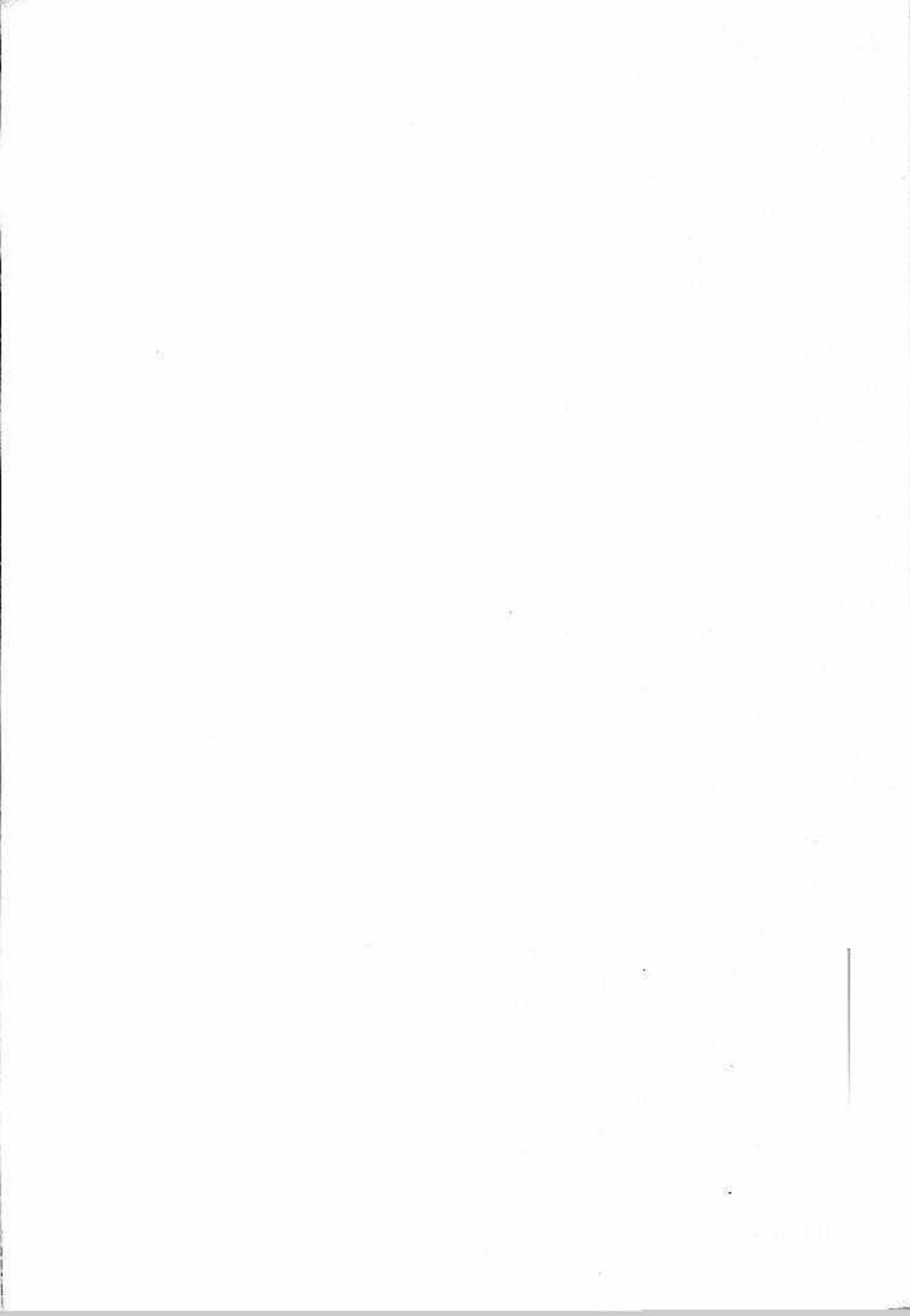
خاتمة

بعد نقل السنين الطويلة التي أرهقت مسلمي تارستان بالخصوص، وبقيّة مسلمي منطقة آسيا الوسطى بالعموم، تلك السنين المحملة بالمعاناة والمآسي الرهيبة والمخططات الجهنمية لقتل الاسلام في النفوس، ومنع مظاهره على الارض، وعزل أجيال كاملة عن تاريخها وأصالتها، ومنعها من الاتصال بالاخوان في الدين في بقية أرجاء المعمورة، بعد تلك السنين القاسية العجاف تحطمت قضبان السجن الذي أحكمه الشيوعيون طيلة أربعة وسبعين عاماً منذ ثورة 1917م، وطويت صفحات ممتدة في عمق التاريخ حُطّت بدماء المسلمين الذين صمدوا أمام ظلم القياصرة وحكوماتهم الجائرة، وتهاوت الجدران التي كانت تحنق النور وتمنعه من الوصول الى تلك البقاع المظلمة وبدت تستقبل هذا النور وتنفض عنها غباراً تراكم عبر الازمنة القاسية، فانهبوا الشيوعية وماترتب على ذلك من نتائج قد عكس حقائق كانت خافية على العالم أجمع، وبرزت صور جديدة لحياة المسلمين في الجمهوريات المستقلة حديثاً، أو تلك التي لاتزال تعيش أمل الاستقلال وإعلان الهوية الاسلامية.

فبالرغم من أن تارستان لاتزال محكومة من قبل روسيا مشكّلة جزءاً من روسيا الفيدرالية، إلا أن الأمل في الاستقلال الكامل يعيش في قلب كل مسلم هناك، سيما وإن إشعاعات الصحوة الاسلامية متواصلة ممتدة، ينال من ضيائها القريب والبعيد، وإن الثورة الاسلامية التي تفجّرت في إيران قد اقتطف من ثمارها المسلمون في أقصى نقاط الارض، فضلاً عن الذين يعيشون تحت ظلّ هذه الشجرة المباركة.

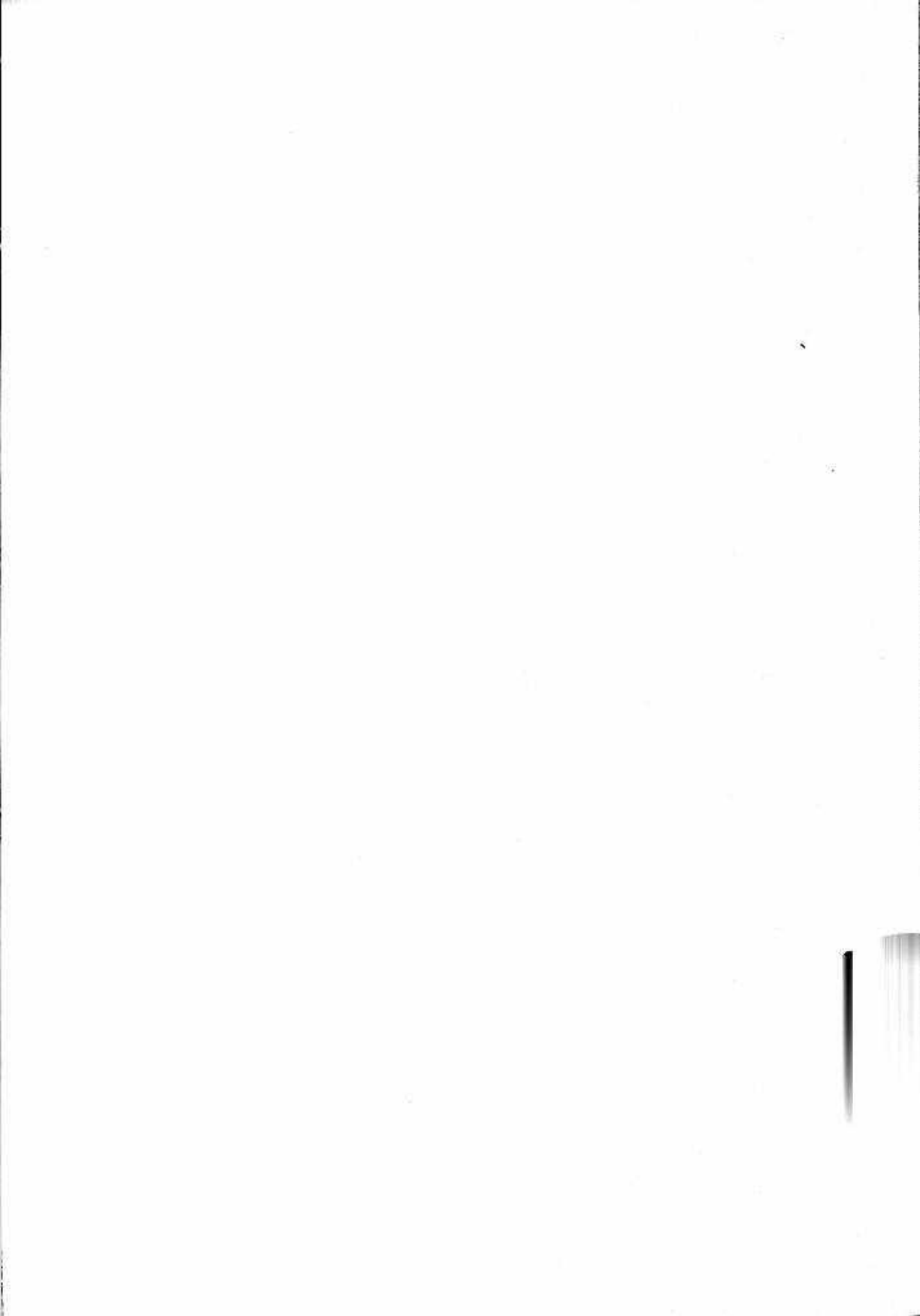
إن المسلمين في تارستان يتظرون وينظرون إلى من يمدّ يد العون إليهم، وإلى من صرهم بالكلمة الصادقة ويدافع عن مظلوميّتهم، ويزيح عنهم آلام الماضي المريرة وينفض عن تاريخهم الحافل بالجهاد والدفاع عن الهوية الاسلامية غبار النسيان والاهمال، فطالما صمدوا ووقفوا بوجه عملية الدمج الحضاري ومخططات الترويس والمسح الفكري

التي مورست وماتزال من قبل الحكومات الروسية المتعاقبة إلى يومنا هذا، لذلك فقد بقي الإسلام حياً في نفوسهم باعثاً فيهم الأمل، ورمزاً يذكّرههم بأعجادهم وبطولاتهم، سيّما وقد تفتّحت أمامهم أبواب الاستقلال السياسي، وبدأ النشاط يدبّ في الحركة الإسلامية بعد نوم عميق دام عدّة عقود، فبدأ تلهّفهم إلى الإسلام واضحاً من خلال النشاطات الإسلامية المختلفة، وتأسيس الجمعيات والمؤسسات المختصة بتثقيف الجيل الناشئ إسلامياً، ففي العاصمة (قازان) تأسست عدة جمعيات إسلامية مثل جمعية أهل القرآن والحديث، وجمعية القرآن الكريم، وجمعية الإيمان، وجمعية الامام الصادق عليه السلام، وغيرها. وهذه دلالة بداية عهد جديد للإسلام في تارستان متزامنة مع هبوب نسيم الصحوة الإسلامية لتمتزج بذكريات الماضي التليدة.



الفصل الحادي عشر

مستقبل الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى



الفصل الحادي عشر

مستقبل الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى

انهيار الاتحاد السوفيتي واستقلال الجمهوريات الإسلامية واقع دولي جديد برز إلى الوجود بإعلان الوفاة الرسمية لها عرف دوليًا بالاتحاد السوفيتي. وذلك بعد سلسلة من التطورات المتلاحقة التي فاقت في سرعة تدفقها كل التوقعات، والتي انتهت ب بروز نظام عالمي جديد⁽¹⁾.

وقد كان للاتحاد السوفيتي ملامح إمبراطورية من حيث المساحة، ومن حيث عدد السكان، وكان يضم العديد من الأعراق والأديان والقوميات، وكان هو يزهو بأنه دولة من نوع جديد: دولة الشعب كله، وأنه تعيش فيه جماعة تاريخية جديدة هي الشعب السوفيتي. وهذه الصورة من التلاحم الظاهري لم تكن تطابق الواقع في كثير من الأحيان، فمن وقت لآخر كانت قوميات الإمبراطورية تشور وتطالب بحقوقها في تقرير مصيرها، ولكن الدبابات السوفيتية كانت تسارع بإسكات هذه الأصوات وبإخضاع الشعب السوفيتي على مدى سبعين عامًا للأسر في منظومة شمولية رهيبة، ورغم شدة القيود فقد كانت تلوح دائمًا دلالات للرفض تعكس الفروق والصراعات، تبحث عن هوية وعن ماضي وعن ثقافات، وتطالب باستخدام اللغات القومية، وتبعث التمسك بالأديان - وخاصة الإسلام - وكانت الثورة الإسلامية في إيران (1979م) عنصرًا حاسمًا بهذا الصدد، وجد صدهاء عند الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي، وكان لا بد من أن تظهر

(1) في رؤى تحليلية مختلفة عن النظام العالمي الجديد. انظر: على سبيل المثال: أحمد شريف. مسيرة النظام الدولي الجديد قبل وبعد حرب الخليج. (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ط1، 1992م) مارسيل سيرل، أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد، ترجمة د. / حسن نافعة (الكويت، القاهرة: دار سعاد الصباح، القاهرة: مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية ط1، 1992م).

أصدائها عند ذلك الجزء من الشعب السوفيتي الذي.. بات يريد لنفسه أن يكون أيضاً شعباً مسلماً⁽¹⁾.

ومع انطلاق البيروسترويكا⁽²⁾، والتي كانت بمثابة حركة فاضحة لأزمة سوفيتية كامنة⁽³⁾. أخذت إجراءات إصلاح النظام السياسي تتصاعد في جراءة بلغت حد إلغاء المادة السادسة مع الدستور (مارس 1990م) التي تبيح للحزب الشيوعي السوفيتي إدارة الدولة والمجتمع، وصاحب ذلك ما عرف بمبدأ أجلياسونيست بما يعني أساساً جديدة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين مبدأ ألفيدرالية والمركزية الديمقراطية في التنظيم الحزبي.

ثم في أعقاب الانقلاب الفاشل (أغسطس 1991م) انطلقت الحركات الاستقلالية في جمهوريات البلطيق⁽³⁾ ثم تتابع إعلان الجمهوريات الإسلامية استقلالها⁽⁴⁾. انظر الخريطة رقم (1) في المرفقات.

(1) انظر: ميخائيل جورباتشوف البيروسترويكا (القاهرة: دار الشروق، 1988م).

(2) د. / رشيد شقير، مأزق البيروسترويكا مجلة الفكر الاستراتيجي العربي (بيروت: معهد الإنماء العربي)، العدد (39)، كانون الثاني (يناير) 1992م، ص 11.

(3) دول البلطيق هي: ليتوانيا، لاتفيا، استونيا، انظر:

- Time، September 9th، 1991.

- News Week، September 9th 1991. □

(4) يطلق اسم الجمهوريات الإسلامية على جمهوريات آسيا الوسطى الخمس: أوزبكستان، تركمانيا، طاجيكستان، كازاخستان، وقيرغيزيا، بالإضافة إلى جمهورية أذربيجان، الواقعة فيما وراء القوقاز والمطللة على الساحل الغربي لبحر قزوين، وقد حصلت هذه الجمهوريات الست على استقلالها تبعاً في الفترة بين أغسطس، ونوفمبر 1991م، (انظر الخريطة رقم (1) في المرفقات).

وانظر المصدر: أرواد أسير، ماذا يريد العالم الإسلامي الجديد؟ الوسط (لندن) (42) نوفمبر 1992م انظرها في: روسيا، وآسيا الوسطى والعرب: مجموعة قراءات أعدت لندوة روسيا وآسيا

وفي ديسمبر 1991م أعلنت أوكرانيا، وروسيا البيضاء، وروسيا الاتحادية إقامة (كومنولث) يجل محل الأتحاد السوفيتي، وإلغاء معاهدة تأسيس الأتحاد السوفيتي التي وقعت عام 1922م، وقد أعلنت الجمهوريات الإسلامية الانضمام إلى الكومنولث الجديد (شريطة حصولهم على حقوق متساوية واعتبارهم مؤسسين).

ومع حصول الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز على استقلالها تثار توقعات، لأن يهيئ ذلك الوضع الفرصة لتكوين كتلت إسلامي يلتقي مع تصاعد المد الأصولي في أنحاء شتى من العالم الإسلامي، فهل الفرصة مهيأة بالفعل لبناء نظام إقليمي؟ إسلامي؟ ... هذا ما سوف نبهته في هذه الدراسة من خلال قسمين أساسيين نتناول في أولهما: النظام الإقليمي وإسلاميته، وفي ثانيهما: الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز، وأهميتها الإقليمية.

أولاً: في النظام الإقليمي وإسلاميته:

مفهوم النظام الإقليمي "Regional System" في أبسط معانيه وأكثرها وضوحاً وإجمالاً يُقصد به نظام التفاعلات الدولية في منطقة ما تحدد عادة على أساس جغرافي⁽¹⁾.

ويعتبر مفهوم النظام الإقليمي، في نطاق تحليل العلاقات الدولية مفهوماً حديثاً نسبياً تم تداوله في إطار الدراسات منذ الستينيات والسبعينيات، وترجع جذوره في الأدبيات المتعلقة بالدراسات الدولية إلى مفهوم الإقليمية "Regionalism" حيث دار جدل بشأنها في مقابل مفهوم العالمية "Universalism" وكان الخلاف يتعلق بأيهما أجدى وأكثر نفعاً لحفظ السلام وتنظيم المجتمع الدولي: هل هو نظام عالمي يضم في إطاره كل الدول،

الوسطى والعرب القاهرة: 26 - 28 من إبريل 1993م. (مركز البحوث والدراسات السياسية: جامعة القاهرة) ص 282، 283.

(1) انظر: د/ علي الدين هلال، جميل مطر، النظام الإقليمي العربي: دراسة في العلاقات السياسية العربية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، فبراير 1983م) ص 17، 18.

أم الأكثر فعالية لتحقيق هذا الهدف هو مجموعة من النظم الإقليمية. ولقد ظهر في إطار هذا الجدل رأي يعتبر أن عملية التفاضل بين وجهتي النظر السابقتين تنطوي على خطأ يتمثل في اعتبار أحدهما بديلاً عن الأخرى، فالواقع - من وجهة النظر هذه - أن الإقليمية خطوة نحو تحقيق العالمية وليست بديلاً عنها⁽¹⁾.

وحول الجوانب النظرية لدراسة النظم الإقليمية ظهر عدد من الدراسات الرائدة، وفي واحدة من أول الدراسات الرائدة⁽²⁾ بهذا الصدد - تمت صياغة سبعة اعتبارات لتحديد مفهوم الإقليم وفي ضوء تلك الاعتبارات السبعة حددت الدراسة أن الإقليم الفرعي يتكون من أكثر من دولة يجمع بينها سمات مشتركة عرقية ولغوية وثقافية، واجتماعية، وتاريخية، وأن إحساسها - أي الدولة المكونة للنظام الفرعي - بالهوية المشتركة أحياناً ما يزيد من خلال تحركات الدول واتجاهاتها إزاء ما يتعداها إلى خارج النظام الفرعي⁽³⁾.

وفي الدراسة الرائدة (باللغة العربية) للدكتور علي الدين هلال، والأستاذ / جميل مطر عن النظام العربي الإقليمي حددت أربعة جوانب أساسية في دراسة النظم الإقليمية وهي: بيئة النظام، وخصائصه البنوية، ونمط السياسات والتحالف، ثم نمط الإمكانيات أو مستوى القوى المتوفرة للوحدات المكونة للنظام، وهل يوجد توازن للقوة بينها.

(1) المرجع السابق، ص 19.

(2) نقصد دراسة:

Louis J. contory and Steven L. Spiegel. The International politics; comparative Approach. (New jersey; prentic Hall. Inc Englewood liffs, 1970) pp. 6-7. □

(3) انظر حسن أبو طالب: السياسة الخارجية للنظام الإقليمي العربي 1945م - 1990م: دراسة استطلاعية.

مجلة الفكر الاستراتيجي العربي (بيروت: معهد الإنماء العربي)، العدد (40) أبريل 1992م، ص 169.

أيضاً من بين تلك الدراسات دراسة وجهت عناية إلى عنصر الهوية الإقليمية والوعي بالتقارب والتضامن بين أعضاء النظام والتعامل مع العالم الخارجي كوحدة أو على الأقل السعي إلى تحقيق ذلك⁽¹⁾

وهذا العنصر له أهمية فيما يتعلق بالتوجه الخارجي والسلوكي العام للنظام الإقليمي.. مقارنة بالتوجه الخارجي والسلوكي للدول أعضاء الإقليم الأمر الذي دعا البعض إلى القول بأن النظام الإقليمي ينظر إليه على أنه بمثابة وحدة اعتبارية منفصلة عن أعضائه⁽²⁾.

ويعد عنصر السياسة الخارجية في السياق الإقليمي عنصراً ذا أهمية معينة تبرز في التركيز على سياسات الأعضاء في إقليم معين تجاه قضايا تخص الإقليم، وتثور في داخل إطاره الجغرافي.

ويمكننا القول إنه على الرغم من اختلاف مناهج دراسة السياسة الخارجية، واختلاف التعريفات الإجرائية والوظيفية المصاغة بهذا الصدد إلا أن ثمة اتفاقاً بينها على وجود تفاعل بين عناصر ثلاثة هي: طرف دولي - سواء دولة أو إقليم، وقضية ثم سلوك.

وفي الدراسة التطبيقية التي أجراها الباحث (دونالد لامبرت) وأعطاه عنوان أنماط العلاقات عبر الإقليم.

تناول عدة أنماط تفاعلية للعلاقات بين أعضاء الإقليم وقد حددها في أنماط التبادل التكاملي، والاستغلال.

(1) المرجع السابق، ص 22، وانظر أيضاً:

Werner J. Feld and Gavin Boyd, "the conceptual study of International Regions) in: Werner J. Feld & Gavin Boyd (eds) , Comparative Regional systems, (New York; pergmon policy studies, 1980 (p.p 3-4.

(2) المرجع السابق، ص 173.

وفي دراسة أخرى لـ آن ماركوسين تناولت مستويين للحركة في السياسات الإقليمية، وهما مستوى: الكفاح الداخلي من أجل تطوير الإقليم ذاته، ومستوى الحركة عبر الإقليم لمواجهة كيانات خارجية تمثل تهديدًا من نوع ما أي أن التفاعلات تدرس على مستويين مستوى التفاعل الداخلي بين أعضاء الإقليم والموجه نحو تطوير الإقليم نفسه، ومستوى التفاعل الموجه نحو الآخرين من أجل الحماية من أخطار أو تهديدات معينة⁽¹⁾.

وفي سياق عملية التقويم لبلورة النظام الإقليمي في شكل منظمات إقليمية فإن الاتجاه العام يرى أن تأثير المنظمات الإقليمية على سلوك الدول ضعيف بصفة عامة ففي معظم الأحيان يكون التزام الحكومات والإدارات السياسية بالقيم والمعايير المفترض الالتزام بها في إطار المنظمة الإقليمية يكون التزامًا ضعيفًا، هذا فضلاً عن المخاوف التي قد يحملها بعض الأعضاء نحو البعض الآخر نتيجة عداوات قديمة أو خلافات حالية، الأمر الذي قد يثير شكوكًا وعدم استقرار في علاقات الأعضاء ببعضهم البعض⁽²⁾.

ويحسن بنا ونحن نتناول مفهوم النظام الإقليمي أن نناقش عددًا من المفاهيم التي تتصل به بشكل أو بآخر، وسوف نتناول مفهوم التوازن، وما يتصل به من الدور الإقليمي للدولة، ومدى ما تتمتع به من مصادر للقوة، وأيضًا مفهوم التامل في النظام الإقليمي، وبعض المفاهيم الأخرى التي تتفرع عن هذا التناول.

(1) المرجع السابق، ص 173، وانظر: أيضًا

Ann Markusen, Regions: the Economics and politics of Territory (New Jersey: Rowman & Littlefield, 1987), pp. 30-35.

(2) انظر: حسن أبو طالب، مرجع سابق، ص 171، وانظر أيضًا:

Werner J. Feld and Gavin Boyd, Op. cit. p. 11

1 - التوازن؛

بداية نقرر أن هذا المفهوم هو أكثر المفاهيم شيوعاً في نطاق العلوم الاجتماعية، وهو في أصوله المرتبطة بالنظرة العضوية (البيولوجية) للظاهرة السياسية يعبر عن حالة من حالات الكائن الحي لتصحيح أي اختلال يصيبه. وفي نطاق العلوم الاجتماعية فقد استخدم مفهوم التوازن بعدة معاني: منها ما يجعل منها مرادفاً للاستقرار أو محاولة التعاون بين قيم متضادة، أو التوازن بمعنى الاعتماد المتبادل بين الظواهر⁽¹⁾.

وفي نطاق العلاقات الدولية احتل مفهوم توازن القوى مركزاً تحليلياً منذ أوائل القرن التاسع عشر، ويعد بارسونز من أوائل من تناولوا هذا المفهوم بالتحليل، ثم جاءت نظرية ميزان القوى لتثبيت مفهوم التوازن الدولي كمفهوم مركزي وأساسي في تحليل العلاقات الدولية ودراستها، وتتابع اهتمام الباحثين بهذا المفهوم، حيث تناوله موجشاو من خلال التركيز على تعادل القوى في حين اهتم كيسكاً بالتنظيم الدولي كأحد الأسس المهمة التي يعتمد عليها لإرساء التوازن⁽²⁾.

وفي إطار الدور الإقليمي لإحدى وحدات النظام الإقليمي فإنه يرتبط بمصادر القوة التي تحوزها كل وحدة من حيث القوة العسكرية، والاقتصادية، ومدى ما تمثله من أيديولوجية تعطي طاقة معنوية، وتعد من أحد مصادر القوة. ويعد توزيع هيكل القوة بين وحدات متعددة بحيث تحوز كل وحدة مجرد تفوق نسبي في أحد مصادر القوة دون أن تترجح كفتها بأن تجمع أكثر من مصدر للقوة. يعد هذا الوضع ذا أثر على فقدان المنطقة

(1) انظر د. / محمد السيد سليم مفهوم التوازن الدولي وتطبيقاته الإقليمية مجلة العلوم الاجتماعية

المجلد (17). العدد (1) ربيع 1989، ص ص 153 - 155.

(2) المرجع السابق، ص 156.

الإقليمية لعنصر القيادة الإقليمية أو توزع هذه القيادة على الوحدات التي تحوذ أكبر قدر من مصادر القوة⁽¹⁾.

2- التكامل:

وهو في نطاق الدراسات الإقليمية يأخذ أحد معنيين: الأول: موسع جداً ليشمل كافة صور التعاون بدرجاته المختلفة بين كافة الأطراف. وهذا المستوى الأول يركز فيه على احتفاظ كل دولة بسيادتها.

بينما المعنى الثاني لأنه أكثر تحديداً من سابقه فإنه ينظر إلى التكامل على أنه ليس مجرد تعاون وإنما تفاعل حقيقي يجعل العلاقات بين أطرافه تأخذ شكلاً أوثق، ولذلك فإنه يؤدي إلى منح المؤسسات الإقليمية سلطة أكبر في صنع القرار بخصوص المواضيع التي تخص التكامل الإقليمي⁽²⁾.

وحتى تنجح هذه العملية التكاملية لا بد من توافر عدد من العوامل التي تعني بتوفير البيئة الموضوعية للتكامل، ومن أهمها: الإحساس بالخطر المشترك الذي يعبر عنه وجود عدد خارجي مشترك. وأيضاً توافر النموذج الذي يقود العملية التكاملية. هذا فضلاً عن متطلبات الثقافة السياسية المشتركة، وتعاون النخب السياسية والمؤسسات الحكومية، وغير الحكومية الواعية والمتفهمة، والراغبة في إنجاح التكامل، ثم لا بد من توافر إحساس بالتوزيع العادل للمكاسب والأعباء⁽³⁾. حتى تبقى عملية التكامل في إطارها العادل البعيد عن الاستغلال⁽⁴⁾.

(1) المرجع السابق، ص 171.

(2) انظر: د. / علي الدين هلال، جميل مطر، مرجع سابق، ص 19.

(3) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(4) راجع أنماط التفاعل بين أطراف الإقليم في:

3. معيار "الإسلامية" في النظام الإقليمي :

وقبل أن نشرع في بيان ذلك نوضح ارتباط موضوع النظام الإقليمي بموضوع النظام العالمي، وبصفة خاصة بعد التطورات الراهنة التي كان من أهم معالمها حرب الخليج 1991م، وانهيار الاتحاد السوفيتي وتفكك جمهورياته، وانفراد الولايات المتحدة بزعامة العالم وقيام نظام عالمي جديد، كما جاء على لسان رئيسها السابق بوش⁽¹⁾ وفي ظل السعي المحموم لإعادة ترتيب الأوضاع العالمية بما يكلل ويكرس النصر الأمريكي والمكاسب التي حققتها من جراء عاصفة الصحراء، وعلى أنقاض النظام الإقليمي العربي الذي تفجر وتطايرت أشلائه مع هذه الأحداث فإن الترتيبات تتخذ لإذكاء النزعات العرقية والطائفية والدينية سعياً إلى مزيد من التفتت للمنطقة العربية والإسلامية، وحرمانها من الاستفادة من المعطيات الجديدة التي طرحها حصول الجمهوريات الإسلامية لآسيا الوسطى والقوقاز على استقلالها. ورغبة في تفريغ وإجهاض أي محاولة لاستثمار هذه الكتلة الإسلامية الجديدة يتم التركيز على النظام الإقليمي الشرق أوسطى، مع اعتبار شرق ووسط آسيا منطقة خاصة بنفسها، بما يعني تجزئ العالم الإسلامي وتوزيعه على نظم إقليمية بعيداً عن معيار الإسلاموية وفي الواقع فإن هذا الوضع يجعلنا نهتم بتوضيح مفهومين أساسيين وهما:

(1) يذكر أن ميخائيل جورباتشوف كان هو صاحب الإرهاصات التي أوقدت شعلة الدعوة إلى نظام دولي جديد... أما الرئيس الأمريكي بوش فقد أعطى تعريفاً للنظام العالمي الجديد بعد وقف قتال حرب عاصفة الصحراء بأسبوع، وكان ذلك في اليوم الخامس من مارس عام 1991م أمام الكونجرس الأمريكي، حيث قال: إننا أمام نظام دولي جديد، انظر زكريا نبيل غموض يكتشف هوية النظام الدولي الجديد. جريدة الأهرام 2/12/1992م.

أ- مفهوم الشرق الأوسط:

وهو المفهوم الذي يتم تكريسه والتركيز عليه عبر وسائل الإعلام الغربية، وبصفة خاصة، وإن معهد الشرق الأوسط بواشنطن يحدد المنطقة التي يشملها هذا التعبير بحيث يجعلها تتطابق مع العالم الإسلامي أي من المغرب إلى إندونيسيا، ومن السودان إلى أوزبكستان⁽¹⁾.

وفي البداية نشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن المفهوم الذي يستخدم في نطاق ما، يشير عادة إلى التحيز معين، ويعكس توجهات معينة، ولا يعيب هذا الوضع المفهوم في حد ذاته، ولكنه يعيب من يستخدم المفهوم دون أن يكون واعياً ومدركاً للتوجه الفكري الذي يحمله.

ونشير - بهذا الصدد - إلى وعي وإدراك الباحثين الغربيين في استخدامهم الدائم لمفهوم الشرق الأوسط، وفي المقابل نشير إلى ذلك التردد غير الواعي من قبلنا سواء في وسائل الإعلام أو في النهج المتأثر بالكتابات الغربية في استخدام هذا المفهوم، فحين تتم الإشارة إلى المنطقة العربية والإسلامية - بصفة عامة - سواء في مجال الإعلام أو مجال الدراسات السياسية أو التاريخية أو الجغرافية أو حتى الاقتصادية يستخدم الباحثون الغربيون مفهوم الشرق الأوسط، وفي مجال النظام الإقليمي فإننا نجد عشرات الدراسات التي تشير إلى منطقتنا تحت مسمى النظام الإقليمي للشرق الأوسط⁽²⁾.

والواقع أن مفهوم الشرق الأوسط هو مفهوم ذو دلالات سياسية أكثر من أنه يشير إلى منطقة جغرافية بعينها، كما أن دلالة الأوسطية فيه تعني أنها دلالة تتحدد بالموقع

(1) انظر: د. علي الدين هلال، جميل مطر، مرجع سابق، ص 27.

(2) انظر: المرجع السابق، ص 25، وفي هامش هذه الصفحة توجد إشارات إلى العديد من الدراسات الغربية التي تناولت هذا المفهوم.

من الغير، وليس من خصائص ذاتية تنبع من المنطقة التي يشير إليها المفهوم⁽¹⁾ وإذا بحثنا في الدلالات السياسية التي يحملها هذا المفهوم نجد أنه يحمل أكثر من دلالة تخدم مآرب مصلحة معينة أكثرها خطورة على المنطقة هي الدلالة التي تشير إلى التركيز على أنه يضم خليطاً من التكوينات الفلسفيسائية المتباينة، ولا يعبر عن وحدة من أي نوع ما، فيتحقق من وراء ذلك هدفين أساسيين أولهما: استبعاد قيام تكوينات أو نظم إقليمية أخرى على أساس نوع من التوحيد أو الاشتراك في عناصر ثقافية أو حضارية معينة، حيث يتم التركيز على التنوع والتعدد الذي تعرفه هذه المنطقة.

والهدف الثاني: وهو الأهم حيث يتم تهيئة التربة والمناخ، وإيجاد القبول والتبرير للوجود الصهيوني في المنطقة باعتباره أحد صور هذا التنوع والتعدد، فهو انطلاقاً من هذه النظرة لا يمثل نعمة نشاراً طالما أن طابع المنطقة كلها هو التعدد والتنوع والتكوين الفلسفيسائي، ومن هنا تتم معارضة أي فكرة تعبر عن وحدة ثقافية أو حضارية تجمع بين شعوب هذه المنطقة ويتم تشجيع كل ما يمكن أن يؤدي إلى تفتتها وتجزئتها إلى دويلات على أسس عرقية أو دينية أو غيرها طالما أن هذا لعمل يخدم في النهاية الكيان الصهيوني المزروع في قلب هذه المنطقة⁽²⁾.

وبعد الضربة التي وجهت إلى النظام الإقليمي العربي بعد حرب الخليج الثانية 1991م أفسح المجال أمام المفهوم الشرق أوسطي للنظام الإقليمي؛ لأنه يخدم في اتجاهين: فهو من ناحية، يهيئ لتطبيع العلاقات بين (إسرائيل)، ودول المنطقة وإدماجهم جميعاً كأعضاء في نظام إقليمي واحد، وهو من ناحية أخرى يستخدم لتعتيم أي محاولة لأسلمة هذه المنطقة في إطار نظام إقليمي إسلامي يستوعب الجمهوريات الإسلامية المستقلة حديثاً في آسيا الوسطى والقوقاز.

(1) المرجع السابق، ص ص 25 - 29.

(2) انظر وقارن: المرجع السابق، ص ص 30 - 31.

من هنا تأتي المحاولة البحثية التي نبذلها في هذه الدراسة من أجل مستقبل هذه الجمهوريات ومستقبل العالم الإسلامي بأسره، ولعله آن الأوان لإنهاء الخصومة أو التعارض المفتعل بين العروبة والإسلام فالتركيز على العروبة وتفريغها من الإطار الإسلامي أفقد العروبة سنداً ودعمًا أساسيًا. وأن الأوان ليلتقي الاثنان: العروبة كمركز وعصب للإسلام، والإسلام كإطار أشمل وسند حقيقي للعروبة، والفائدة من هذا الالتقاء ستعم كل قضايا المنطقة عربية كانت أم إسلامية. ومن وجهة النظر الأمريكية فإن قيام نظام عالمي جديد يتطلب بالضرورة قيام نظام إقليمي جديد للشرق الأوسط⁽¹⁾ وكما سبق وأن أوضحنا أن النطاق الإقليمي الجغرافي لمفهوم الشرق الأوسط يكاد يتطابق مع مفهوم العالم الإسلامي، وهذا ينقلنا إلى بيان مفهوم العالم الإسلامي، وإلى بيان معيار الإسلامية الذي تناقشه في ظل مفهوم النظام الإقليمي.

ب - مفهوم العالم الإسلامي:

درج علماء الإسلام على تقسيم الأرض إلى قسمين: دار الإسلام حيث تعلو كلمة الإسلام، وتكون شريعته هي السائدة، ودار الحرب التي تصد عن سبيل الله، وتناصب المسلمين العدا، وفي العصر الحالي شاع مفهوم العالم الإسلامي ليشير إلى تلك الرقعة من العمورة التي يقطنها مسلمون، ومفهوم المسلمون هنا واسع جدًا يشمل عموم ذراري المسلمين الذين لا يزالون ينتسبون إلى الإسلام، بغض النظر عن واقع فريق منهم، بعد عن فهم الإسلام وتطبيق أحكامه، أو اعتنق نتيجة للغزو الفكري عقائد مخالفة ورفع شعارات غريبة عن الإسلام⁽²⁾.

(راجع: ماجد كيالي النظام الإقليمي في الشرق الأوسط ومفهوم التسوية الأمريكية - الإسرائيلية مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، (بيروت: معهد الإنماء العربي)، العدد (41)، تموز (يوليو)، 1992م ص 57.

(2) انظر: محي الدين حسن القضائي: قضايا في حاضر العالم الإسلامي (بيروت - دمشق: المكتب الإسلامي، ص 1، 1407 هـ / 1986 م) ص 8.

وبالتالي فإن مفهوم العالم الإسلامي هو مفهوم حضاري يعبر عن امتداد تاريخي للمسلمين كأمة عبر قرون من الزمان ساد فيها الإسلام واتسع ودخل أرجاء شتى من المعمورة. والنمط الجغرافي للعالم الإسلامي يبدو في شكل قوس يبدأ بمجنح أيسر عريض في أفريقيا وينتظم غرب آسيا، ووسطها، وينحني في جنوب آسيا وجنوبها الشرقي، ويسميه د. جمال حمدان هلال الإسلام الذي يشمل الوطن العربي وأفريقيا المدارية، ومن البلقان حتى باكستان، ومن الفولجا حتى سينكيانج في قطاعه الغربي، كما يشمل في قطاعه الشرقي شبه جزيرة الهند.. وبنجلاديش وجنوب شرق آسيا، ويتميز هذا الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي بأهميته الاستراتيجية على صعيد كوكبنا الأرض⁽¹⁾ (انظر الخريطة رقم (2) في المرفقات).

وفي الدراسة الرائدة للدكتور السيد سليم عن العلاقات بين الدول الإسلامية فرق بين مفهوم العالم الإسلامي الذي يشمل الوجود الإسلام في كل مناطق العالم بصرف النظر عما إذا كان هذا الوجود يتم في إطار دول إسلامية أو غير إسلامية⁽²⁾ وبين تعريف الدولة الإسلامية فالدولة ككيان سياسي - قانوني يعني جماعة من الناس يعيشون على أرض محددة، ويخضعون لسلطة سيادية معينة، ما هو معيار إسلاميتها؟ بمعنى آخر ما هو الحد المنطقي لتعريف دولة ما بأنها إسلامية؟.

في دراسة الدكتور سليم المذكورة استعرض عدداً من الأسس التي يعتبر بها في تحديد إسلامية الدولة، منها: نسبة المسلمين من سكان الدولة، فإذا بلغت النسبة 50٪ فما

(1) انظر: د. أحمد صدقي الدجاني ألتضامن الإسلامي وإمكانية قيام نظام إقليمي في العالم الإسلامي ندوة العالم الإسلامي والمستقبل، مركز دراسات العالم الإسلامي، ومركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة، القاهرة 13-17/10/1991م، ص 15.

(2) انظر: د. محمد السيد سليم، العلاقات بين الدول الإسلامية (السعودية: جامعة الملك سعود - كلية العلوم الإدارية) 1408هـ / 1988م، ص 2.

فوقها اعتبرت الدولة إسلامية نسبة إلى دين الغالبية العديدة من سكانها، وهذا التعريف يواجهه عدد من المشكلات لعل أكثرها شيوعاً هو عدم توافر الإحصائيات الدقيقة لعدد السكان طبقاً لمعيار الدين، وهذا فضلاً عن أن تعريف الإسلامية في النطاق الدولي أو في نطاق السياسات الدولية إنما يعني أساساً بنظرة الدولة إلى نفسها ونظرة العالم إليها، وبناء عليه فإن الدولة الإسلامية هي تلك التي تعرف نفسها إزاء العالم الخارجي، وتنظم علاقاتها الدولية بوصفها دولة إسلامية، وتتعامل مع العالم الخارجي من هذا المنطلق⁽¹⁾.

وهذا التعريف تواجهه أيضاً عدد من الإشكالات المنهجية، ومن ثم فقد اتجه د. سليم إلى اعتبار عضوية الدولة في منظمة المؤتمر الإسلامي هو أكثر المؤشرات ملائمة لتحديد مفهوم الدولة الإسلامية، وذلك باعتبار أن منظمة المؤتمر الإسلامي هي التنظيم الدولي الحكومي الشامل الذي يضم الدول التي اختارت أن تعرف نفسها بأنها دول إسلامية طبقاً لميثاق مكتوب يحدد التزامات وحقوق الدول تجاه بعضها البعض الآخر⁽²⁾.

والواقع أن هذا التعريف - أيضاً - لم يحل إشكالية معيار الإسلامية بشكل كامل ذلك؛ لأنه بعدم تحديده أي قيود أو مواصفات الإسلامية الدولة قد أصبح متسعاً إلى الدرجة التي وجدنا معها تعدداً أو مواصفات الإسلامية الدولة قد أصبح متسعاً إلى الدرجة التي وجدنا معها تعدداً في المعايير بين الدول الأعضاء فمثلاً، هناك ثمان دول لا يشكل المسلمون فيها أغلبية عدية، بل يشكلون أقلية، كما أن بعض هذه الدول تنص صراحة في دساتير، إما على أنها علمانية أو أنها تتجاهل قضية الدين عموماً، بل إن بعض رؤساء هذه الدول لم يكن مسلماً عندما دخلت دولهم المنظمة من ذلك لبنان

(1) المرجع السابق، ص 7.

(2) المرجع السابق، ص 11.

والسنغال وتشاد⁽¹⁾ وهذه الأمور كلها قد أثرت على فعالية المنظمة، ومدى التزام أعضائها بقراراتها ومدى قدرتها على التأثير في المحيط الدولي.

وهكذا نجد أن الاتساع غير المحدد للعضوية في منظمة المؤتمر الإسلامي والتشعب الجغرافي لأعضائها حتى إن بعض دول البحر الكاريبي تعتم الانضمام إلى المنظمة⁽²⁾ لا يجعلها تتطابق مع مفهوم النظام الإقليمي الإسلامي.

حيث - كما أوضحنا من قبل - فإن النظام الإقليمي يعبر بالأساس عن انتماء جغرافي لإقليم معين، هو بالنسبة لنظام الإقليمي الإسلامي يمثل الإقليم الممتد من المغرب غرباً إلى أوزبكستان شرقاً، ومن تركيا شمالاً إلى السودان جنوباً، وهذه منطقة جغرافية تجمع العالم العربي بآسيا الوسطى الإسلامية وتركيا، وإيران، وباكستان، وأفغانستان، ومعظمها دول مرشحة للنظام الشرق أوسطي الذي يجري إعادة صياغته وترتيبه.

إن هذا ينقلنا في الواقع إلى تناول الدول المنتمة للناطق الجغرافي للنظام الإقليمي الإسلامي، وسوف نبدأ بالجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز باعتبار أنها بؤرة اهتمام هذه الدراسة، الأمر الذي سيجعلنا نتناول باقي الدول في ضوء تفاعلاتها مع تلك الجمهوريات، وسوف نركز بالأساس على ثلاث من وحدات هذا النظام وهي: إيران، تركيا، والعرب، وذلك باعتبار أنها تمثل مراكز الثقل الأساسية في المنطقة.

ثانياً: جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز الإسلامية وأهميتها:

هناك افتراضان يطالغاننا - بهذا الصدد - أحدهما يدعى أن هذه المنطقة ذات أهمية هامشية، ولم يحدث أنها كانت مركزاً محركاً للتفاعلات الدولية. وهناك افتراض آخر يحوي قدرًا من التوقعات المتزايدة، والآمال التي تعلق على استقلال هذه الجمهوريات، وما

(1) راجع التفاصيل في: د. محمد السيد سليم 'فعالية منظمة المؤتمر الإسلامي' (دراسة تقويمية)،

السياسة الدولية، العدد (111) السنة (29) يناير 1993م، ص 39.

(2) المرجع السابق، نفس الصفحة.

يمكن أن تمثله من تكتل إسلامي يؤثر على الواقع الإقليمي والدولي في حالة التقائها مع الدول الإسلامية الأخرى في المنطقة، ولا سيما ذات الطابع الراديكالي "الثوري"، أو كما يقال الأصولي، ويقصد بها - بصفة خاصة - إيران، وسوف نتناول كل افتراض على حدة ونبدأ بأولهما، وهو الذي يدعى هامشية هذه المنطقة.

الافتراض الأول: هذه المنطقة ذات أهمية هامشية:

ويقوم هذا الافتراض على التدعيم بعدد من الدلالات الجغرافية، والتاريخية، لهذه المنطقة، فمن الناحية الجغرافية تقع هذه المنطقة على أطراف العالم الإسلامي، وقد اعتبرت في كثير من الأحيان منطقة تخوم أو تُغرّ للامبراطوريات الإسلامية⁽¹⁾، وإذا رجعنا إلى تصنيفات جمال حمدان عن عالم الإسلامي نجده تصورها في شكل دائرة كبيرة تضم بداخلها عدة دوائر كالحلقات، وهذه الأندازات الحلقية بلغ عددها ستة، وهي - كما عرفها - ووضعها على أساس معايير خمسة وهي: عمر الإسلام، وكثافة المسلمين، ونوعية التدين، ونسبة العرب، واللغة العربية فيها. وبناء على ذلك احتل الوطن العربي قلب الدائرة ومنطقة النواه، والمركز، وتتابع الحلقات الدائرية بعد ذلك لتمثل ظل ثم شبه ظل للعرب، وجاءت منطقة آسيا الوسطى في الحلقة أو الدائرة الخامسة التي أسماها صدى العرب، وهي تشمل: آسيا الوسطى، وباكستان، وجنوب شرق آسيا، وشرقي أفريقيا⁽²⁾.

ومن ناحية الدلالة التاريخية يوضح د. مصطفى علوي أن منطقة آسيا الوسطى بمفردها لم يكن لها أهمية استراتيجية إقليمية في حد ذاتها، وأن تلك الأهمية والتأثير لم

(1) راجع: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي (ج8 - العهد العثماني)، (بيروت: المكتب الإسلامي 1987)، ص 347 وما بعدها، وانظر وقارن: محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة عن التركية: د. أحمد السعيد سليمان، (القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر د. ت).

(2) انظر: د. أحمد صدقي الدجاني، مرجع سابق، ص 16.

يتحققا لها إلا عندما ارتبطت بمراكز التأثير والحياة في البلاد الإسلامية الرئيسية - إيران، والعراق، والشام، ومصر - وأنه منذ بدايات التاريخ الحديث أصبح تاريخ آسيا الوسطى تاريخاً محلياً. (Provincial History) ⁽¹⁾.

وأبعد من هذا نجد أن رأي الباحث الهندي الذي نشر مقالاً بعنوان: آسيا الوسطى: منطقة ذات أهمية هامشية فحسب ⁽²⁾ وهو في مقاله هذا يعارض الرأي الشائع في أن مستقبل آسيا الوسطى يقع ضمن عالم يوجهه الإسلام جغرافياً وسياسياً ⁽³⁾ وهو - على العكس - يرى أن مستقبل هذه المنطقة يرتبط أكثر بروسيا وبالخربة السوفيتية التي دامت سبعين عاماً، ونقلت هذه المنطقة من الإقطاع والتقليدية إلى الحضارة الحديثة، ولذلك فهو يرى أن الخلفية السياسية الراهنة لآسيا الوسطى هي من صنع السوفيت ⁽⁴⁾ وأن هذه المنطقة من الناحية الجغرافية والسياسية، لا تسمى وسطى فقط بالنسبة لآسيا، بل إنها كذلك بالنسبة لأوراسيا ⁽⁵⁾ كما أن النخب الحاكمة في هذه البلاد في ظل وعيها بكم المشاكل الهائلة التي تواجهها في التنمية والتحديث والأمن، هذا فضلاً عن مخاوف الصراعات العرقية ومشكلات الحدود كانوا حريصين على الإبقاء على روابطهم بروسيا،

(1) انظر: د. مصطفى علوي ألتعكاسات الإقليمية والدولية لاستقلال الجمهوريات الإسلامية الجديدة في آسيا الوسطى والقوقاز مجلة الفكر الاستراتيجي العربي (بيروت: معهد الإنماء العربي) العدد (40)، نيسان - أبريل 1992م، ص 58، ونقلاً عنه انظر: أيضاً:

P.M Holt. Ann Lambton and Bernard Lewis (eds). The Cambridge History of Islam, Vol 5, ch7 (Cambridge press, 1970) pp. 468 - 470.

(2) انظر: ب. ستوبدان آسيا الوسطى منطقة ذات أهمية هامشية فحسب مجلة التحليل الاستراتيجي (فصلية شهرية - تصدر من معهد تحليلات ودراسات الدفاع الهندية) المجلد (14) العدد (8) نوفمبر 1991م، انظرها في: روسيا وآسيا الوسطى والعرب: مجموعة قراءات مرجع سابق ص ص 267 - 279.

(3) المرجع السابق، ص 270.

(4) المرجع السابق، ص 271.

(5) المرجع السابق، ص 268.

ويبدو هذا في مسارعتهم للاشتراك ضمن الكومنولث ويزداد الأمر وضوحًا إذا قارنا وضع هذه الجمهوريات بحالة دول البلطيق التي تتطلع إلى أوروبا الموحدة فعلى العكس يواجه مسلمو آسيا الوسطى والقوقاز عالمًا إسلاميًا منقسمًا على نفسه تتصارع نماذج متعارضة ومتصارعة، وإذا أضيف الانقسام المذهبي الإسلامي إلى الانقسام العرقي والاثني: وزيد على ذلك النزعة الأصولية فإنه يخلص إلى نتيجة في غاية القتامة حيث يقول: وفي ظل الوضع المعقد واختلاف مصالح السائدين في آسيا الوسطى، فإن مستقبل الاتجاه الجغرافي السياسي الذي يعمل لصالح الإسلام، مظلم⁽¹⁾.

والواقع أن هذا الافتراض الموضوع للمناقشة يمكن دحضه ضمن معطيات كثيرة، ودون إغفال بعض النواحي ذات الدلالات المهمة ضمن ما جاء فيه، فإسلامية آسيا الوسطى والقوقاز واضحة بأكثر مما يمكن إنكارها، فهذه المنطقة المعطاءة قدمت وحدها للحضارة الإسلامية عددًا من أشهر وأعظم علمائها⁽²⁾. وإذا كان هذا الدليل يقع في إطار الماضي، فإن الحاضر يشهد بالعاطفة الإسلامية الجياشة لمسلمي هذه المنطقة، ويكفي أن سبعين سنة من الإلحاد الشيوعي والقسوة المتناهية في محاربة الأديان لم تستطع أن تنزع الإسلام من هذه المنطقة، بل إن الإسلام في هذه المنطقة قد اتخذ بعدًا أكثر من كونه دينًا فقد أصبح دينًا وقومية ورمزًا لهوية حاولت شعوب هذه المنطقة الحفاظ عليها عبر الأجيال⁽³⁾.

(1) المرجع السابق، ص 277.

(2) لمزيد من التفصيل حول إسهام هذه المنطقة في الحضارة الإسلامية، راجع: محمد فراج أبو النور: المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز منذ دخول الإسلام، وحتى الغزو القيصري الروسي. مستقبل العالم الإسلامي، 2 (5) شتاء 1992م، وانظرها في: روسيا وآسيا الوسطى والعرب: مجموعة قراءات مرجع سابق ص ص 168 - 171.

(3) انظر: أرواد أسبر، ماذا يريد العالم الإسلامي الجديد؟ مرجع سابق، ص 288.

وإن كان في الرأي السابق بعض جوانب صحة فإننا نلمس هذا في قوله: إن مسلمي آسيا الوسطى ليس لديهم فهم حقيقي للإسلام⁽¹⁾ وهذا في الواقع يضع عبئًا وواجبًا مهمًا على عاتق الدول الإسلامية ذات المؤسسات القادرة على نشر الثقافة الإسلامية والوعي بالإسلام وبصفة خاصة، مصر والسعودية، فإن واجبًا مهمًا يقع عليهم، خاصة بعد زوال الحاجز والستار الشيوعي الحديدي في إشباع رغبة مسلمي هذه المنطقة الجارفة إلى المعرفة بالإسلام، ولقد تمت جهود عديدة بالفعل في هذا الصدد⁽²⁾ والمجال مفتوح أمام مزيد من التعاون المحمود في هذا الميدان، وتبقى نقطة مهمة، وهي التي تتعلق بفلول الشيوعية، وآثار هذه الحقبة على اتجاهات النخبة الحاكم، وعلى الصراع بينها وبين التيارات ذات النزعات الأصولية الإسلامية.

إن هذا الأمر - في الواقع - يدفعنا إلى إثارة سؤالين يساعدانا في هذا الخصوص: الأول يتعلق بمفهوم المسلم في هذه المنطقة، والثاني يتعلق بمن هم الزعماء القابضون على زمام السلطة في هذه الجمهوريات؟

وفيما يتعلق بمفهوم المسلم فقد سبق وأن أشرنا إلى افتقاد أهالي هذه البلاد للمعرفة الحقيقية بالإسلام، فالغالبية العظمى منهم لا يعرفون أركان الإسلام، ولا

(1) انظر: ب سنتوبدان آسيا الوسطى منطقة ذات أهمية هامشية فحسب. مرجع سابق، ص 276.
(2) من أمثلة هذه الجهود ما ذكر من تخصيص جائزة مالية قدرها مليون جنيه تمنح سنويًا باسم مصر إلى إحدى الدول الإسلامية، وتخصص لإنشاء مركز إسلامي بعاصمتها وتقرر أن تمنح هذا العام إلى جمهورية أوزبكستان حيث من المقرر إقامة أول مركز إسلامي مصري في مدينة بخاري مسقط رأس الإمام البخاري انظر: جريدة الأهرام 8/28/1993م، أيضًا من حديث الباحثة مع الأستاذ عمر مرعي - مقرر لجنة الاتصالات بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعضو مجلس الشورى المصري - علمت بأنه يجري حاليًا إنشاء مبنى الجامعة الإسلامية في كازاخستان، وذلك بتمويل مصري وجهود مصرية تم الحديث أثناء انعقاد مؤتمر العطاء الحضاري للإسلام الذي نظمته وزارة الأوقاف المصرية بالتعاون مع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والذي انعقد بالإسكندرية في الفترة من 28 - 31/8/1993م).

يعرفون كيف تؤدي فرائضه، ويعبر الكاتب الصحفي مُرات أكجرين عن هذه الحقيقة اللاذعة في مقولة تثير الكثير من الدلالات حيث يقول: إن الغالبية العظمى من السبعين مليون مسلم⁽¹⁾ (يقصد مسلمو آسيا الوسطى والقوقاز) إن غالبيتهم العظمى لا تستطيع تسمية أركان الإسلام⁽²⁾ وبنفس السخرية اللازمة يجيب مُرات أكجرين على السؤال الخاص بمن هو الزعيم في الجمهوريات الإسلامية؟ بأن هذا سؤال يثير الضحك لدى سكان هذه الجمهوريات، وسيجيئون عليه أنهم الشيوعيون المحليون بالطبع⁽³⁾.

إن مزيداً من التحليل لهذا الوضع يكون في غاية الأهمية بالنسبة لمستقبل هذه الجمهوريات، وبصفة خاصة في ضوء عدد من الوقائع المحددة، والتي قد تختلف بشأنها التفسيرات والدلالات، ولكن تبقى أهمية الحدث بكل ما يثيره من دلالات، ويعبر عن ذلك مُرات أكجرين بقوله: تعتبر الجمهوريات الإسلامية في الوقت الحاضر أكثر الجمهوريات في الاتحاد السوفيتي محافظة وصلابة سياسية، ولم تضعف بل زادت فيها قوة الجهاز الشيوعي، كما حدث نسبياً في الجمهوريات المسيحية في الاتحاد السوفيتي، فلماذا هذا التناقض الظاهري⁽⁴⁾. وهناك تساؤلات تحمل دلالات أخرى تلك التي تدور حول لماذا تنفصل عن الاتحاد السوفيتي ويعنف الأمم المسيحية الصغيرة فيب جورجيا، وأرمينيا،

(1) التقديرات في مصادر أخرى (50) مليوناً فقط، وفي بعض المصادر الأخرى يتراوح العدد بين (60-70) مليون نسمة، وفي الواقع فإن تعداد السكان في الاتحاد السوفيتي لم يكن يتم على أساس معتقداتهم الدينية، ومن ثم فإنه من الصعب التقدير لأعداد المسلمين هناك.

(2) انظر: مرات أكجرين ماذا يجري في الجمهوريات الإسلامية السوفيتية رسالة إخبارية، انظرها في: روسيا وآسيا الوسطى والعرب مجموعة قراءات مرجع سابق، ص 263.

(3) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(4) المرجع السابق، نفس الصفحة، وانظر قارون أيضاً: عبد المجيد فريد: المسلمون في الاتحاد السوفيتي إلى أين؟ جريدة الأهرام 9/10/1991م.

وليتوانيا، لاتفيا، استونيا، ومولدافيا، في الوقت الذي لم يفصل فيه زعماء الجمهوريات الإسلامية القريبة - والتي تعد أكثر من سبعين مليوناً من البشر - من الاتحاد السوفيتي⁽¹⁾.

إن النخب المحلية الشيوعية تسيطر على وسائل الإعلام من إذاعة وتلفزيون، وصحافة وليس أدل من أنه في جمهوريات عديدة (من الجمهوريات الإسلامية).

لا يسمح بيت فقد تلفزيون موسكو للحزب الشيوعي⁽²⁾ وفي أوزبكستان تم منع الحزب الديمقراطي من التسجيل بحجة أنه عمل بإعلان أوزبكستان لسيادتها فليس هناك أحزاب في الجمهوريات سوى الحزب الشيوعي⁽³⁾. بل وأكثر من ذلك أن الزعامة الشيوعية القيروغيزياً ممثلة في رئيسها التقرب إلى الغرب بإظهار قدرتها على الضرب بيد من حديد على الاتجاهات الأصولية الإسلامية وفي ذلك صرح رئيس قيروغيزياً في مؤتمر صحفي، إنني ضد التعصب الديني وهناك افتراض أن تصبح جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية دولا إسلامية وأتعهد بالآلا يحدث ذلك⁽⁴⁾.

والأمر في طاجيكستان أكثر وضوحاً حيث تعد طاجيكستان معقلاً من معاقل الشيوعية التي لا يستهان بها⁽⁵⁾ وعلى الرغم من سقوط الشيوعية في موسكو فإن في

(1) انظر: مرات أكجرين ماذا يجري في الجمهوريات الإسلامية السوفيتية؟ مرجع سابق، ص 263.

(2) المرجع السابق، ص 264.

(3) المرجع السابق، نفس الصفحة، وانظر تفصيلاً عن الاتجاهات السياسية الرئيسية في الجمهوريات الإسلامية في: إيمان يحيى مستقبل الجمهوريات الإسلامية السوفيتية: خريطة جيوسياسية - اقتصادية واجتماعية - مستقبل العالم الإسلامي، 2 (5) شتاء 1992م، انظرها في: روسيا وآسيا الوسطى والعرب مجموعة قراءات مرجع سابق، ص 247 وما بعدها.

(4) انظر: محمد عبد القادر أحمد الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي بين الماضي والحاضر مرجع سابق، ص 260.

(5) المرجع السابق، ص 230.

طاجيكستان ما زال يوجد من يتمسكون بالشيوعية، ويرون فيها الخير والصلاح⁽¹⁾ إلى الحد الذي دعا البعض إلى القول بأن أنتصار الشيوعية في طاجيكستان قد يؤدي إلى تشكيل كتلة جمهوريات في آسيا الوسطى تحكمها الأنظمة الشيوعية⁽²⁾ ويستخدم القابضون على زمان السلطة كافة الوسائل لمحاربة الإسلام، وإظهار أن الإسلام يهدد الحضارة، ويدخل في هذا النطاق إطلاق الشائعات والوقعة والدسائس بين الطوائف والقوميات المتعددة، وتصوير الصحوة الإسلامية في صورة العدو، من أجل إثارة مخاوف المغرب من إمكانات اجتياح الأصولية لتلك المنطقة الشاسعة التي تتاخم أفغانستان وإيران⁽³⁾.

ومن أجل ذلك يستخدم الشيوعيون كل الوسائل لمحاربة ما أسموه الإجراءات الإسلامية السوفيتية وأنهموا المعارضة بأنها تسعى إلى تشكيل دولة إسلامية أصولية لا تستطيع بقية القوميات الأخرى أن تعيش في كنفها⁽⁴⁾ والواقع أن محاربة الصحوة الإسلامية بين مسلمي آسيا الوسطى والقوقاز لا تنفصل عن الحرب الموجهة ضد الإسلام والمسلمين في بقاع شتى من العالم، وهي ورقة يتم استخدامها لضرب أي معارضة وسحقها بحجة الخوف من المد الأصولي، وهذا ما يستخدمه الروس كما يستخدمه غيرهم، فالروس يشيرون أن الصحوة الإسلامية، التي تظهر في آسيا الوسطى هي كون آخر من الأصولية الإسلامية التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا، كما يشيرون، كما يشيع غيرهم ضمن حملة مدروسة ضد الإسلام أن النبوة المعتدلة

(1) المرجع السابق، نفس الصفحة، وانظر أيضاً: مرات أكجرين، مرجع سابق، ص 264.

(2) انظر: د. محمد عبد القادر أحمد، مرجع سابق، ص 230.

(3) المرجع السابق، ص 234، وانظر وقارن: د. إيمان يحيى، احتمالات التطور السياسي المستقبلي

للجمهوريات الإسلامية السوفيتية بشئون سوفيتية، (5) سبتمبر - أكتوبر 1992م انظر في روسيا

وآسيا الوسطى والعرب، مجموعة قراءات مرجع سابق، ص 328 - 329.

(4) انظر: د. محمد عبد القادر أحمد، مرجع سابق، ص 235.

لدى بعض الإسلاميين تخفي وراءها جذوة ملتبهة من الحماسي الديني يمكن أن تقوي، وتظهر إلى العيان في اليوم الذي يصل فيه الإسلاميون إلى السلطة⁽¹⁾.

وهكذا نرى أن التوقعات المتزايدة التي أثارها استقلال هذه الجمهوريات الإسلامية، واحتمالية تكوين كتلة إسلامية فاعلة في المحيط الدولي لا ينبغي أن تؤخذ بهذا الشكل المبسط، فالصراع بين الشيوعية والإسلام في هذه المنطقة لم يتنه بعد، بل على العكس، لقد دخل مرحلة جديدة قد تكون منطقة آسيا الوسطى والقوقاز المسرح الأساسي لها، وهذا ما سوف يتكشف في المستقبل القريب وننتقل الآن إلى:

الافتراض الثاني:

وهو الذي يرى أن هذه المنطقة في التقائها مع الدول الإسلامية الكبرى الواقعة ضمن إطارها الإقليمي يمكن أن تخلق كتلة إسلامية وأن تكون نواة لنظام إقليمي إسلامي.

ويحسن بنا قبل مناقشة هذا الافتراض، وقيل أن نتناول الدول الإسلامية الكبرى التي يمكنها أن تمارس هذا الدور، ونعني بها على وجه الخصوص: إيران - تركيا - الدول العربية (بصفة خاصة السعودية ومصر) ويحسن بنا أن نوضح بعض الفروقات الأساسية لدلالة بعض المصطلحات والمسميات التي تستخدم كثيراً، وهي الفروق بين مسميات "مسلمين" و"إسلاميين"، وعلاقة هذا ببعض المصطلحات الشائعة حالياً مثل: مصطلح "الأصولية"، وأيضاً مصطلح: "الإسلام السياسي".

وبداية نلاحظ أن مصطلح "الإسلام السياسي" يستخدم من قبل الغرب للفرقة بين الإسلام، كدين له مؤمنين به منذ قرون، وبين ظاهرة حديثة متمثلة في شكل حركات لها مطالب معينة وتحاول أن تلعب دوراً سياسياً محدداً في إطار الإسلام أيضاً يستخدم هذا

(1). المرجع السابق، ص 237.

المصطلح من قبل بعض المنتمين إلى تيار الإسلام السياسي¹ لتمييز أنفسهم باعتبارهم مؤمنين بأن الإسلام دين ودولة وأنه يرتبط بالسياسة، وبين جماهير المسلمين الذين يكتفون بممارسة الإسلام كشعائر وعبادات فقط من صلاة، وصوم، وحج... إلخ.

وبناء على ما سبق يتم التفرقة بين مسمين:

- مسلمين 'Muslimans'.

- إسلاميين 'Islamistes'.

ونلاحظ أن هذه التفرقة ليست مطلقة؛ لأننا نجد أن بعض المنتمين لتيار الإسلام السياسي يتبناها وبعضها، والبعض الآخر يرفضها ويقول: لا يوجد إسلام سياسي، وإنما يوجد إسلام فقط ونحن مسلمون فقط⁽¹⁾ ونلاحظ أيضاً أن الحدود التي تفصل بين جماهير المسلمين المؤمنين بالإسلام كدين، وبين مناضلي تيار الإسلام السياسي في تحقيق دور يسمح لها بزعامة جماعة المسلمين المؤمنين بالإسلام كدين (زعامتهم معنوياً وسياسياً) ففي هذه الحالة تصبح التفرقة بين المسمين لا أهمية لها، حيث يصبح جمود المسلمين (باعتبار الدين) بمثابة رصيد احتياطي للمساندة للتيار المناضل.

وخلاصة ما سبق أننا نستطيع أن نقول إنه من الممكن أن نتحدث عن مسلمين 'Muslimans' دون أن يكونوا إسلاميين 'Islamistes' أي متمين إلى تيار الإسلام السياسي ومنخرطين في العمل معه.

وهذه التفرقة في المعنى تساعد على عدم الخلط بين ظاهرة سياسية دينية (حديثة) وبين الإسلام كدين راسخ منذ قرون، أي بين حداثة مصطلح الإسلام السياسي والحركات والتيارات التي تعبر عنه، وبين قدم الإسلام كدين، وقد عرض البعض الإسلام السياسي بأنه: اللجوء إلى مفردات الإسلام من أجل التعبير عن مشروع سياسي

(1) انظر: فرانسو بورجا، الإسلام السياسي: صوت الجنوب، ترجمة: د. لورين كرى (القاهرة، دار العالم الثالث 1992م) ص 30 - 31.

بديل لسليبات التطبيق الحرفي للتراث الغربي⁽¹⁾ أيضاً يرى البعض أننا نستطيع أن نفهم الإسلام السياسي على أنه يعمل على تجديد فهم الإسلام عن طريق المناادة بالعودة إلى الأصول.

وهذا ينقلنا إلى مصطلح الأصولية الذي يستخدمه كترجمة لكلمة Fundaentalism وكما في قواميس اللغة فإن معناها يشير إلى مذهب العصمة الحرفية وهي حركة عرفتها البروتستانتية في القرن العشرين تؤكد أن الكتاب المقدس معصوم عن الخطأ لا في قضايا العقيدة والأخلاق فحسب، بل أيضاً في كل ما يتعلق بالتاريخ ومسائل الغيب⁽²⁾.

ومع استعمال اللفظ واستخدامه للإشارة إلى الحركات الإسلامية المعاصرة فقد صاحبه معاني سلبية كثيرة كالتشدد والمغالاة، هذا فضلاً عن عدد المعاني السلبية الأخرى، وهناك اختلاف وجدل حول أصل هذه الكلمة ومدلولها سواء في مصطلحها الغربي أو في ترجمتها العربية، إلا أن الدلالة المستقرة في الأذهان عنها دلالة سلبية تعكس انحيازات قيمة وأيديولوجية معينة.

وإذا نظرنا إلى الكلمة (الأصول - الأصوليين) في التراث الإسلامي نجد لها معنى مغايراً حيث إن الأصوليين في مجال الفقه هم المتخصصون في علم أصول الفقه فهذا هو المعنى الذي تثيره الكلمة عند أهل التخصص، إنهم العارفون بالقواعد والبحوث التي يتوصل بها إلى استفادة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، ولكن هذه الكلمة (الأصولية - الأصوليين) تطلق الآن لوصف بعض القواعد والإطارات المعاصرة، وكرجمة لكلمة Fundamentalism التي تعطي معنى مغايراً تماماً، وقد تم توجيه العديد من الانتقادات لاستخدام هذا المصطلح.

(1) المرجع الثالث، ص 71 - 72.

(2) انظر: منير البعلبكي، قاموس المورد (بيروت: دار العلم للملايين) ط1، 1971م، ص 373.

ولكن - كالعادة - تنقل وسائل الإعلام عندنا التعبيرات، والمصطلحات الغربية وتلتزم بها، فكما التزمت من قبل بمصطلح الشرق الأوسط إذا بها تستخدم مصطلح الأصولية على عيوبه وقصوره لوصف حركة الإحياء الإسلامي المتعددة المصادر والروافد والمتنوعة الاتجاهات⁽¹⁾ والواقع أنه منذ الثورة الإسلامية في إيران 1979م، وقد وضع الإسلام - كما يقول أحد الباحثين الغربيين - في الأجندة الدولية⁽²⁾.

وبعد هذه الإيضاحات التي حرصنا عليها تمييزاً للمفاهيم وحذراً من اختلاط المعاني تتضح لنا الصورة أكثر حيث إن الاهتمام بآسيا الوسطى لم يحدث فجأة بعد تفكك الاتحاد السوفيتي واستقلال الجمهوريات الإسلامية، وإنما اتجهت الأنظار إلى مسلمي آسيا الوسطى والقوقاز من قبل هذا الوقت، وبالتحديد منذ الثورة الإسلامية في إيران فمنذ ذلك الحين، والخوف من أن يتحول الإسلام إلى قوة وسياسة موحدة للمسلمين في آسيا الوسطى وفي مناطق أخرى من العالم الإسلامي أصبح هاجساً قوياً يقلق الغرب ويقلق الشرق على السواء.

(1) لدراسة وافية حول هذه المصطلحات انظر: د. حسين توفيق إبراهيم. وأساني مسعود، ظاهرة الإحياء الإسلامي في الدراسات الغربية: رؤية تحليلية نقدية مجلة منبر الحوار، السنة 7، العدد 25، صيف 1992م، ص 6 - 42. وانظر وقارن: محمد سعيد العشماوي، الإسلام السياسي، (القاهرة: سينا للنشر، 1987م، وانظر أيضاً: Najih El-Ayubi، *palitical Islam*، (London: Routledge)، 1990).

وانظر في التعريف بالأصوليين من منطلق علم أصول الفقه د. عبد الوهاب خلاف - علم أصول الفقه (الكويت، دار القلم، ط8، د. ت) ص 12.

(2) انظر:

Edward Mortimer, "Christianity and Islam" International Affairs Vol. 67 N. 1 January 1991, p.7.□

ولذلك كانت إيران هي المرشح رقم واحد للاستفادة من انهيار الاتحاد السوفيتي، واستقلال جمهورياته الإسلامية، حيث يسهل عليها ذلك مهمة تصدير الثورة الإسلامية، ولعب دور قيادي تطمح إليه، وهذا ما سوف نناقش تفصيله حالاً.

1 - إيران والنظام الإقليمي ومسلمو آسيا الوسطى والقوقاز

هناك عدد من العوامل والمتغيرات الدولية والإقليمية التي هيأت لإيران الفرصة المناسبة للعب دور إقليمي يشبع طموحاتها، ونستطيع أن نحدد هذه العوامل والمتغيرات في حرب الخليج، وما ترتب عليها من تدمير للقوة العسكرية العراقية هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، انهيار الاتحاد السوفيتي واستقلال الجمهوريات الإسلامية. فقد أدت هذه العوامل مجتمعة ومتزامنة - إلى حد بعيد - إلى تهيئة فرصة فريدة لإيران، وإيجاد فراغ استراتيجي يمكنها من خلاله أن تلعب دوراً في عدة اتجاهات، فهي من ناحية بما لها من ثقل ومكانة إقليمية وعسكرية يمكنها أن تشارك بفعالية في ترتيبات الأمن الخاصة بمنطقة الخليج، وهي من ناحية أخرى بما لديها من عقيدة تشكل أيديولوجية إسلامية وجدت الفرصة للتطبيق من خلال دولة تتبنى نموذجها وتسعى للدعوة إليه، يمكنها الاستفادة من الفراغ الإيديولوجي الذي أحدثه انهيار الشيوعية وسقوط نموذجها التطبيقي في الاتحاد السوفيتي.

ويقوم تصور إيران لدورها ومكانتها الإقليمية على أساس محاولة تكوين كتلة إقليمية تكون هي فيها بمثابة القلب والمركز، وتضم هذه الكتلة الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز، بالإضافة إلى منطقة الخليج. وبهذا تلعب إيران دوراً مهماً كمركز للتوازن بين منطقة آسيا الوسطى وأفغانستان من جهة، والعالم العربي من جهة أخرى. كما يقوم التصور الإيراني - كما يظهر من خلال تصريحات الدوائر المسؤولة في وزارة الخارجية الإيرانية - على أن يتخذ ما سبق كمقدمة لنظام إقليمي إسلامي يجمع بين

المسلمين في آسيا الوسطى والقوقاز وبين العالم العربي، وتحتل فيه إيران مكانة مركزية وقيادية⁽¹⁾.

ولتحقيق هذا التصور اتخذت إيران بالفعل عدة خطوات في الجبهتين التي تحاول أن تكون هي مركزاً للتوازن بينهما. ففي الجبهة العربية قامت بمحاولة احتواء العراق عن طريق استيعاب التنازلات التي قدمها العراق دون أن تنهي حالة اللا سلم واللا حرب بينها وبينه. ومن ناحية أخرى اتخذت عدة خطوات لتحسين علاقاتها بدول الخليج في محاولة لإجراء نوع من المصالحة. إلا أن هذه الخطوات على الرغم من نجاح بدايتها إلا أنها لا تلبث أن تتقهر مع بروز النوايا والأطماع الإيرانية في جزر أبو موسى، ولا سيما مع محاولات إيران لإيجاد عمق استراتيجي لها وموطئ قدم في قلب العالم العربي، والحالة الواضحة لذلك السودان ولبنان⁽²⁾.

ويعد توازن المكانة أحد الأبعاد البنائية المهمة في دراسة التوازن الدولي، حيث إن لكل دولة مكانة Status ويقصد بها مجموعة المقومات التي من خلالها يتحدد مكان الدولة وموقعها في التسلسل الهرمي للنسق الدولية، وتحدث حالة التوازن عندما يحدث توافق بين المقومات المكونة للمكانة سواء بالقوة أو بالضعف، وما يهمننا في هذا المقام، هو أن عدم توازن المكانة بالنسبة لدولة ما يؤدي إلى توتر في هذه الدولة قد يدفعها إلى أن تسلك مسلكاً عدوانياً، كما أنه من ناحية أخرى يؤثر على النسق الإقليمي، وعلى السياسة الخارجية للدولة غير المتوازنة في المكانة⁽³⁾.

وفي حالة إيران نجد أن مكانتها الإقليمية اتسمت إلى حد كبير بعدم التوازن سواء في عهد الشاه أو في عهد الثورة الإسلامية ففي عهد الشاه حولت تحقيق مكانتها الإقليمية

(1) انظر وقارن: أحمد إبراهيم محمود: (السياسة العسكرية الإيرانية في التسعينيات) السياسة الدولية، العدد (111) السنة (29) يناير 1993م، ص ص 255 - 256.

(2) المرجع السابق، ص 257.

(3) د. محمد السيد سليم مفهوم التوازن الدولي وتطبيقاته الإقليمية مرجع سابق ص 162 - 163.

لإحداث التوافق بين ما تتمتع به من مقدرات عسكرية واقتصادية فأنجهدت للتحالف مع السعودية في إطار مشروع القمة الإسلامية في الستينيات، أو عن طريق اتباع سياسات استعراض القوة في الخليج العربي من خلال الجزر الثلاث، أو من خلال التقارب مع مصر في السبعينيات⁽¹⁾.

وبعد الثورة الإسلامية عام 1979م، امتلكت إيران قوة جديدة تتمثل في إيديولوجيتها الإسلامية، بما يعينه ذلك من موارد معنوية زادت من حالة عدم التوازن التي تعاني منها إيران في منطقتها الإقليمية، ولعل هذا يفسر - في جانب ما - مسلكها العدواني تجاه الجيران في محاولة منها لإيجاد التوازن بين مواردها المعنوية الإيديولوجية الجديدة، وبين الدور الإقليمي الذي تطمح إلى القيام به ومن ثم، فإن تحليل توازن أو عدم توازن مكانة الدول في إقليم معين يمكننا من التعرف على خصائص القيادة الإقليمية، وعلى طبيعة التفاعلات السياسية في الإقليم، وعلى توجهات ومضامين السياسة الخارجية للدول التي تتسم مكانتها بعدم التوازن⁽²⁾.

وانطلاقاً مما سبق تتابع نشاط إيران في الجبهة الأخرى - تعني آسيا الوسطى والقوقاز - في محاولتها لإحداث التوازن لمكانتها الإقليمية. حيث أنجهدت إيران مستغلة مواردها الاقتصادية، والسكانية، وإيديولوجيتها الإسلامية، وانطلاقاً من الجوار الجغرافي، والصلات التاريخية إلى الجمهوريات الإسلامية. وبصفة خاصة إلى المناطق التي تغلب عليها الثقافة واللغة الفارسية، وشهدت المنطقة نشاطاً إيرانياً ملحوظاً، ومن ذلك أن إيران عقدت مع طاجيكستان⁽³⁾ عدة اتفاقيات تعاون في يوليو 1992م، وأيضاً في مطلع

(1) المرجع السابق، ص 172.

(2) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) مما يذكر بهذا الصدد في أن كلمة 'الطاجيك' من أصل عربي، وكانت تطلق على العرب من سكان إقليم آسيا الوسطى، وأخيراً توسع استخدام هذه الكلمة فصارت تطلق على كل مسلم هناك. انظر

عام 1992م انعقدت قمة طهران، التي شملت كلاً من: إيران، وتركيا، وباكستان، والجمهوريات الإسلامية الست: كازاخستان، وأوزبكستان، وتركمانستان، وطاجيكستان، وقيرغيزيا، وأذربيجان، وكان هذا الحدث على حد تعبير طهران حدثاً تاريخياً وبمناسبة عقد هذه القمة الإقليمية، أعلن الرئيس الإيراني - على أكبر هاشمي رافسنجاني - عن تكوين المجلس القزويني الذي يضم إلى جانب إيران، أذربيجان، وتركمانستان، وقازاخستان، وروسيا الاتحادية، وهي الدول التي تطل على بحر قزوين. وقد أعلن الرئيس الإيراني أن مقر هذا المجلس سيكون في طهران. هذا بالإضافة إلى تأسيس منظمة الناطقين باللغة الفارسية، والتي ضمت إليها طاجيكستان، وقسمًا من المجاهدين الأفغان، وفي إطار حرص إيران على نشر اللغة الفارسية، واتخاذها عامل تقارب بينها وبين الناطقين بها في آسيا الوسطى نذكر الواقعة التي حدثت في مطلع عام 1992م عندما قاد أحد نواب الوزراء الإيرانيين وفدًا من بلاده لزيارة طاجيكستان، وفي ختام المباحثات اتفق الطرفان على أنه سيكون أدمى للانسجام الأقوى بين البلدين أن تتم صياغة محاضر المحادثات باللغة الفارسية⁽¹⁾.

ولا يقتصر اهتمام إيران بمسلمي آسيا الوسطى والقوقاز على النواحي الإيديولوجية العقيدية فحسب، ولكنها تنظر إليها أيضاً من زاوية اقتصادية واستراتيجية. فمُنظمة التعاون الاقتصادي الإسلامي التي يرجع إنشاؤها إلى عام 1965م، وكانت تضم: إيران، تركيا، وباكستان، والتي حلها الإمام الخميني عام 1979م، باعتبار أنها أداة أمريكية قام الرئيس هاشمي رافسنجاني بإعادتها، حيث قبلت المنظمة الجمهوريات الإسلامية بعد استقلالها عن الاتحاد السوفيتي، وكانت قمتها المنعقدة بطهران في مطلع العام 1992م، توثيقاً للتعاون الاقتصادي، حيث تم التركيز على أنها يمكن أن تصبح سوقاً مشتركة تضم

د. محمود أبو العلا، المسلمون في الاتحاد السوفيتي سابقاً (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط1،

1993) ص 71.

(1) المرجع السابق، ص 279 - 280.

دولاً إسلامية عديدة، يُبلغ عدد سكانها (250) مليون نسمة، وإجمالي ناتجها القومي أكثر من (300) مليار دولار سنوياً⁽¹⁾ ويصف الرئيس رافسنجاني المنظمة بقوله: إنها أسرة إسلامية كبرى حيث تأمل إيران أن تتحول منظمة التعاون الاقتصادي إلى قوة عالمية⁽²⁾ أما المجلس القزويني السابق الإشارة إليه، فإن إيران ترمي من ورائه إلى الجمع بين التحرك على اليابسة والتعاون على الماء، في إطار تنشيط التعاون على بحر قزوين⁽³⁾.

ويرى البعض أن النشاط الإيراني في هذا الإطار يعد نشاطاً دفاعياً وليس هجوميًا، وذلك بالنظر إلى حاجة إيران للأمن إزاء تفوق النشاط التركي عليها، اعتماداً على غلبة العنصر التركي السني على الجمهوريات الإسلامية، والذي يبدو واضحاً في إحاطتها بتركيا غرباً، وبأغلبية سكانية في آسيا الوسطى من الذين يتكلمون التركية ويتبعون المذهب السني، ومن ثم لجأت إيران إلى سياسة دفاعية قوامها بنية ثقافية، محاولة استخدام اللغة الفارسية كعامل توحيد ثقافي بينها وبين طاجيكستان، وأفغانستان، وأيضاً بنية اقتصادية تقوم على التعاون الاقتصادي والتجارة المفتوحة بينها وبين جيرانها في آسيا الوسطى⁽⁴⁾.

ومن الناحية الاستراتيجية تأمل إيران عن طريق نشاطها في آسيا الوسطى والقوقاز إلى تعزيز قوتها في السيطرة على الاختلافات الاثنية والقومية مخافة أن تمتد هذه النزاعات إلى داخل إيران نفسها. وفي هذا الإطار قامت إيران بالوساطة بين جمهوريتي أرمينيا وأذربيجان في النزاع المسلح الناشب بينهما حول إقليم ناجورنو - كارباخ إلى أن الناحية الاستراتيجية الأكثر أهمية، والتي تعول إيران عليها من جراء مساعيها ونشاطها في هذه

(1) انظر: د. محمد عبد القادر أحمد، مرجع سابق، ص 281.

(2) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) انظر: عبد الملك خليل ألتحرك الإيراني الخاطف من اليابسة إلى المياه الأهرام 1992/2/20م.

(4) انظر: نبيل عبد الفتاح، العرب من النظام العربي إلى النظام الشرق أوسطي تحت التشكيل السياسة الدولية، العدد (111) السنة (29) يناير 1993م، ص 57.

المنطقة هي محاولة الاستفادة بأقصى قدر ممكن من أجل تحديث مؤسساتها العسكرية - بصفة خاصة - في مجال الأسلحة المتطورة والنوية.

وبغض النظر عن مدى صحة الأنباء التي تناقلتها وسائل الإعلام العربية، والتي تفيد حصول إيران على أسلحة نووية متطورة من قازاخستان، وأنها استطاعت الاستفادة من حالة الفوضى التي انتابت الجمهوريات السوفيتية، ولمجحت في استقطاب عدد من علماء وخبراء الذرة، فبغض النظر عن مدى صحة هذه الأخبار أو حجم المبالغة فيها، فإنه - من الناحية الواقعية - تعتبر الفرصة مهيأة لإيران بالفعل للاستفادة الفعلية لتحديث مؤسساتها العسكرية، وخاصة مع ظهور ما سمي بسوق المرتزقة النوويين، وهم علماء وخبراء الطاقة النووية في الاتحاد السوفيتي السابق، ويقدر الغرب عدد هؤلاء الخبراء والعلماء بثمانين ألف خبير. والتنافس على أشده بين دول عديدة لاستقطاب هؤلاء العلماء، ولا سيما وأن بعضهم كان يعلن عن نفسه من خلال إعلانات الصحف⁽¹⁾.

وعلى الرغم من مساعي إيران ونشاطاتها الدعوية، فإن البعض يرى أنها لن تحقق نجاحًا كبيرًا، في هذه المنطقة؛ لأنها تواجه فيها منافسًا يتفوق عليها ويمحظى بدعم وتأييد الغرب الذي يقلقه هاجس الأصولية وأمد الإسلام وتصدير الثورة الإيرانية⁽²⁾ وهذا المنفذ هو - بالطبع - تركيا، التي تطمح هي الأخرى في دور إقليمي كبير في هذه المنطقة.

2 - تركيا والنظام الإقليمي والجمهوريات الإسلامية

منذ إلغاء الخلافة العثمانية والقضاء على الرجل المريض أخذت السياسة التركية مبدأ الانكفاء على الداخل ومن ثم فقد تمسكت بمبدأين - على حد تعبير - تسييفي تسمعان مدير معهد السياسة الخارجية التركية - وهما: عدم التدخل في الشؤون الداخلية

(1) انظر: د. محمد عبد القادر أحمد، مرجع سابق، ص 262.

(2) انظر وقارن: الفاينانشيال، تاميز، 15/4/1992م، مقال بعنوان إيران لن تنشر ثورتها في جمهوريات آسيا الوسطى نقلًا عن: د. محمد عبد القادر أحمد، مرجع سابق، ص 278.

للدول التي كانت تشكل في يوم ما جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. والمبدأ الثاني: التحالف مع الغرب، وأن تكون على رأس الدول التي يعتمد عليها الغرب في صراعه مع الاتحاد السوفيتي. وبسقوط الاتحاد السوفيتي فقدت تركيا جزءاً كبيراً من أهميتها لدى الغرب - بصفة خاصة - تلك الأهمية التي كانت تتمتع بها باعتبارها دعامة شرقية جنوبية مهمة لحلف شمال الأطلسي.

ومع التغييرات التي تسود النظام العالمي والأوضاع الإقليمية - بوجه عام - بدأت تركيا في البحث لها عن دور يعيدها إلى نفس الأهمية التي كانت تتمتع بها، وكانت جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية فرصة مهمة لها للقيام بهذا الدور⁽¹⁾. بالمقارنة بإيران فهي تقدم نموذجاً أكثر قبولاً من إيران معتمدة في ذلك على سنيين وهما: غلبة العنصر وقد عملت تركيا بالفعل على تدعيم هذا المناخ الثقافي المشترك بيث محطة التلفزيون الدولية إفراسيا والتي تنقل لآسيا الوسطى وأوروبا البرامج التركية، هذا فضلاً عن العديد من بروتوكولات واتفاقيات التعاون في مختلف المجالات⁽²⁾ وقد عملت تركيا بهمة ونشاط في هذا المجال، وكانت سباقة إلى الاعتراف باستقلال الجمهوريات الإسلامية، ومد جسور التعاون والتفاهم والود بينها. ولا تقتصر فرص تركيا على ما يدعمها عرقياً وثقافياً وتاريخياً، بل إن لها أحلامها الإمبراطورية القديمة بإقامة أمة طورانية تمتد من البسفور إلى حدود الصين⁽³⁾ وفي هذا الإطار نذكر ما جاء على لسان سليمان ديميريل - حين كان رئيساً لوزراء تركيا في زيارته للجمهوريات الإسلامية (ما عدا طاجيكستان التي ألغيت

(1) انظر وقارن: أحمد ناجي، تركيا والجمهوريات الإسلامية السوفيتية المستقلة السياسة الدولية، العدد (110) السنة (27) أكتوبر 1992م، انظرها في: روسيا وآسيا الوسطى والعرب مجموعة قراءات مرجع سابق، ص 314 - 315.

التركي على هذه الجمهوريات، وأيضاً غلبة اللغة التركية، الأمر الذي يعطي مناخاً ثقافياً يجعلها أكثر قبولاً.

(2) المرجع السابق، ص 317.

(3) انظر: د. محمد عبد القادر أحمد، مرجع سابق، ص 271.

زيارته لها) وذلك في مايو 1992م، حين صرح بقوله: إن تركيا قد قبلت تمثل العالم التركي حيث يرى أن الوقت قد حان لإقامة رابطة تركية بين هذه الجمهوريات القريبة ثقافياً بعضها من بعض، وأنه لا يمكن لأحد أن ينكر أن هناك عالماً تركياً من البحر الإدراتيكي إلى سور الصين⁽¹⁾.

وفي شهر يونيو 1992م، توجت تركيا جهودها بعقد مؤتمر لإحدى عشرة دولة تطل على البحر الأسود بهدف إقامة تعاون اقتصادي بينهم. وفي المؤتمر الصحفي عقب اجتماع القمة السابق صرح ديميريل بأن بقاء أوروبا موحدة يعتمد بدرجة كبيرة على وجود حزام للتعاون والسلام والرفاهية في المنطقة الممتدة بين البلقان والقوقاز وتقع في قلب وسط آسيا⁽²⁾ والواقع أن محاولة تركيا إقامة كتلة اقتصادية تلعب هي فيها دوراً رئيسياً تلتنقي مع رغبتها في إنعاش اقتصادها النامي وتعويض فشلها المتكرر في محاولتها المضنية من أجل الانضمام لمجموعة الجمهوريات الإسلامية المستقلة حديثاً، حيث إنها تعكس النموذج الغربي للديمقراطية تحت مسمى دولة إسلامية. وبذلك يتحقق فيها النموذج الذي يتوق إليه مسلمو آسيا الوسطى الذين عانوا لحقبة طويلة من آثار الحكم الشمولي.

فمن ناحية فإن تركيا دولة إسلامية، ومن ناحية أخرى هي نموذج للممارسة الديمقراطية.

ويبدو أن هذا التصور يلقي تأييداً ودعمًا سواء من الولايات المتحدة والغرب عمومًا، أو من زعماء الجمهوريات الإسلامية نفسها، فقد صرح إسلام كريموف - رئيس أوزبكستان - بعد زيارة له لأنقرة: إنني أعلن أمام العالم بأسره أن بلادي سوف تسير قدمًا

(1) انظر: أحمد ناجي. تركيا والجمهوريات الإسلامية السوفيتية المستقلة مرجع سابق، ص 317.

(2) المرجع السابق، نفس الصفحة. انظر وقارن أيضًا: د. جلال عبد الله معوض تركيا النظام الإقليمي في الشرق الأوسط بعد أزمة الخليج العربي: الجانب الأمني، شئون عربية، العدد (67)، سبتمبر 1991م، ص ص 64 - 68.

في الطريق التركي، وقد اخترناه ولن نعود للوراء⁽¹⁾ ويقول نور سلطان نازار باييف - رئيس كازاخستان - إننا نريد إقامة اقتصاد السوق الحر، والنموذج التركي هو الوحيد امامنا⁽²⁾ أيضاً في تصريح لحسن حسانوف - رئيس وزراء أذربيجان - في العام 1991م، وقال: إننا نريد أن تمثلنا تركيا أمام العالم الخارجي⁽³⁾.

وبذلك نرى أن فرصة تركيا متسعة عبر الجمهوريات الإسلامية، وأنه باستثناء طاجيكستان، تعد تركيا هي الأكثر قبولاً بالمقارنة بإيران، فهي تبدو في صورة الأب أو الأخ الشقيق الذي يتعين عليه توفير الرعاية كما أن نجاح تركيا في القيام بدور إقليمي قيادي ومركزي في هذه المنطقة يلقي دعماً وتأييداً من الغرب باعتبار أنها البديل الواجب توفيره للحيلولة دون اختراق الأصولية الإسلامية لهذه المنطقة، إلا أنه يعاب على الدور التركي تركيزه على النعرة القومية التركية بدلاً من تركيزه على الإسلام، وكان الواجب الوعي بأن الإسلام هو نقطة الجذب الرئيسية لمسلمي هذه المناطق التي تتعطش لهويتها الإسلامية، كما أن تدعيم الغرب لها وارتباطها به قد يلقي ظللاً على مصداقيتها الإسلامية بالمقارنة بإيران التي يعد تحركها في هذا الإطار تحركاً مدفوعاً بدوافع ذاتية، وليس مدفوعاً من قبل الغير. وبذلك تبدو تركيا حليفة للغرب الذي يعتبر أن انتصاره في الصراع ضد الشيوعية يجب أن يكفل بالانتصار على التطرف الديني⁽⁴⁾.

والواقع أن التحرك التركي يشهد نشاطاً ملحوظاً واعيًا من تركيا بموقعها الجغرافي، ورغبة منها في لعب دور إقليمي على عدة محاور سواء في آسيا الوسطى أو في الشرق الأوسط أو في العالم الإسلامي فأياً ما كان النظام الإقليمي أو النظم الإقليمية الفرعية

(1) انظر: أحمد ناجي، مرجع سابق، ص 316.

(2) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) انظر وقارن: الأراع التركي - الإيراني حول الجمهوريات الإسلامية جريدة أوفند 2/1/1991م.

(4) انظر وقارن: المنافسة التركية الإيرانية في آسيا الوسطى جريدة أوفند 22/5/1992م.

التي تشكل ضمن إطار النظام العالمي الجديد فإن تركيا حريصة على أن تحتفظ لنفسها بمكانة إقليمية على كل هذه المحاور.

وهي لا تنسى التوفيق بين نزعتها إلى التآورب¹ - إذا جاز التعبير - التي يعبر عنها سعيها الدءوب للانضمام للمجموعة الأوروبية، وبين إدراكها بأنها لا تستطيع أن تهرب من موقعها الجغرافي² - على حد تعبير الصحفي التركي سنكيز كندار - حيث يقول: إن تركيا بدأت تدرك أنها تستطيع أن تهرب من موقعها الجغرافي، وأنها تتطلع إلى إحياء مجال نفوذ الإمبراطورية العثمانية لكي تضمن على الأقل موقعاً في إطار عمليات تفكك وإعادة تشكيل هذه المنطقة الهامة على خريطة عالم ما بعد الحرب الباردة⁽¹⁾.

إذن يقوم التصور التركي لدورها ومكانتها الإقليمية على أن تلعب تركيا دور الوسيط الاستراتيجي - إذا جاز التعبير - بين آسيا الوسطى، ودول البحر المتوسط وأوروبا، وبينها وبين الشرق الأوسط، وبين هؤلاء بعضهم وبعض⁽²⁾ والجدير بالذكر في هذا المجال أن سعي تركيا هذا، يقوم ويعتمد على بناء مكانتها الإقليمية على أنقاض النظام الإقليمي العربي الذي مزقته حرب الخليج، وعلى العمل من خلال عدة محاور كما سبق وأن ذكرنا، ويؤيد ذلك - التصور الذي طرحه الرئيس التركي الراحل تورجوت أوزال، لما يسمى بالخيار الآسيوي⁽³⁾ وهو الذي يرمي إلى تشكيل تحالف اقتصادي وأمني واستراتيجي عبر تركيا، وإيران، وباكستان لتوسيع إطار الأطراف غير العربية⁽⁴⁾.

(1) انظر مقولة الصحفي التركي سنكيز كندار في روزا ليند ما ندين إيران تواجه عقوبات في مد نفوذها إلى آسيا الوسطى، نشرة الإعلام الأمريكي بالقاهرة 1992/5/7م، نقلًا عن: أحمد ناجي، مرجع سابق، ص 57 - 63.

(2) المرجع السابق، ص 64.

(3) انظر: التقرير الاستراتيجي العربي لعام 1991 القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، الأهرام 1993م ص 218 وما بعدها.

(4) انظر: نبيل عبد الفتاح، مرجع سابق، ص 64.

كذلك تستغل تركيا ورقة استراتيجية مهمة هي ما تتمتع به من فائض في المياه، وذلك باعتبار أن الحرب المقبلة في الشرق الأوسط قد تشب بسبب المياه وليس الأرض⁽¹⁾ وهكذا نجد تركيا تعمل في عدة محاور لاستغلال جميع الأوراق الممكنة لتعزيز مكانتها ودورها الإقليمي باعتبارها نموذج المشروع العلماني للعلاقة بين الدين الإسلامي - السني المذهب - وبين السياسة في مواجهة المد الإسلامي الراديكالي في المنطقة، وباعتبار أنها طرف مباشر في مواجهة عدو النظام الإقليمي الجديد المتمثل في الإسلام السياسي⁽²⁾ والنزعة الأصولية المتشددة.

وفي حديث لسليمان ديميريل لجريدة الأهرام صرح بأن تركيا تنظر لنفسها ولدورها الإقليمي على أنها وسيط للسلام، وعامل في ترسيخ وبناء الثقة، وكبادرة على التعاون في المشاريع الإقليمية التي تستهدف المساهمة في الأمن الجماعي لعدد من المناطق.. الممتدة من شبه جزيرة البلقان إلى آسيا الوسطى.. وترى تركيا دورها كمحرك للتغيير، تغيير من شيوع الفوضى إلى إقرار النظام عن طريق الحوار والتعاون⁽³⁾.

وفي معرض تقويم التنافس الجاري بين إيران وتركيا حول آسيا الوسطى والقوقاز، وما يمكن أن يتمخض عنه من تكوين كتلة إسلامية أو نظام إقليمي إسلامي. ونعرض وجهة نظر لفلاديمير فيوتنسكي، الذي يرى أن منظمة البلدان الإسلامية للتعاون

(1) من تصريح لسيمون بيريز عقب لقائه بالرئيس التركي الراحل تورجوت أوزال في 8 من أبريل 1991م، انظر التصريح في: مجدي صبحي، مشكلة المياه في المنطقة والمفاوضات متعددة الأطراف (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام: سلسلة أوراق استراتيجية. الورقة رقم (7)، يناير 1992م ص 18.

(2) انظر: نبيل عبد الفتاح، العرب من النظام العربي إلى النظام الشرق أوسطي تحت التشكيل مرجع سابق، ص 65.

(3) انظر: عبد الملك خليل الرئيس التركي سليمان ديميريل في أول حديث شامل للأهرام: تركيا مؤهلة لدور وسيط السلام في البلقان وآسيا الوسطى، جريدة الأهرام 28/8/1993م.

الاقتصادي التي أصبحت بعد قمة طهران الأخيرة السوق الإسلامية المشتركة يمكن أن تكون مقدمة إلى اتحاد إسلامي من نوع ما قياساً إلى أن مثال أوروبا الموحدة بدأ بالتعاون الاقتصادي والسوق الأوروبية المشتركة، وتحت عنوان المخاوف هل تتحقق؟ تبرز وجهة النظر الروسية، والتي تشترك فيها روسيا مع الغرب من وجود احتمال يسمح بتحقيق الاتحاد الإسلامي حيث يرى أن هذا الاحتمال عالٍ للغاية حيث إن الجمهوريات الإسلامية لا يربطها بروسيا سوى بعض المشاكل الاقتصادية وبعض المشاكل الخاصة بالأمن، في حين أنها ترتبط مع جيرانها من الدول الإسلامية بمقومات روحية مشتركة، ومقومات لغوية، وإذا أضيف إلى ذلك عنصر وحدة اقتصادية لبات اتحادها أكثر احتمالاً. وبناء عليه فإن لهذا الموضوع عواقب سياسية مهمة - بصفة خاصة - بالنسبة لروسيا - حتى في حالة استبعاد كازاخستان وقيرغيزيا من الاتحاد الإسلامي نظراً؛ لأنهما أكثر تحفظاً، فإنه على الرغم من ذلك تبقى عواقب أن الشرقيين الأوسط والأدنى، وآسيا الوسطى سوف تشهد ظهور تكوين دولي قوي وفعال قد لا يكون ديداً للغاية مع روسيا، ويطمح في النهوض بدور الرائد عن الشعوب الإسلامية، ويستقطع جزءاً كبيراً من آسيا⁽¹⁾.

وعن التنافس بين طهران وأنقرة وإيهما ترجح كفته يرى فيوتينسكي أن ازدواج المركز في منظمة التعاون الاقتصادي المذكورة، وازدواج الصراع بين طهران، وأنقرة لا يعول في الجانب الأكبر على الخلاف المذهبي بين الشيعة والسنة. وإنما التنافس يرجع بصفة أكثر أهمية إلى أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية. وأنه في مجال موازنة كفة كل منهما. بالكفة الأخرى نجد بين عناصر هذه المعادلة عنصراً ذا وزن خاص، وهو أن إسلام المسلمين السوفيت هو أقرب للطابع العلماني الذي تمثله تركيا أكثر من الطابع الأصولي الذي تمثله إيران، وإذا حدث ورجحت الكفة الإيرانية فإن عواقب وخيمة تنتظر بالنسبة

(1) انظر: فلاديمير فيوتينسكي الصراع الإيراني - التركي على آسيا الوسطى أسبوعية فيديرا نسباً العدد (14). أبريل 1992م، انظرها في: روسيا، وآسيا الوسطى والعرب مجموعة قراءات مرجع سابق، ص 318 - 319.

لعلاقات الجوار بين المركز الروسي والأطراف الجدد في العلاقات الدولية. فالعالم الإسلامي يتميز اليوم - على حد قوله - بزحف القوى الأصولية، ومع أنه لا يجوز لنا الاستهانة بقدرتها على بسط نفوذها إلا أن ما ينبغي لنا فهمه أيضاً هو أن الإسلام في بلادنا أصبح بعد 70 عاماً ونيف من النظام السوفيتي على جانب أكبر من العلمانية وتطبع بالروح الأمر الذي أتاح لحد الآن فرصة الحفاظ على وحدة الدولة فهل سيكون باستطاعتنا استغلالها؟⁽¹⁾.

هكذا يدور التنافس بين أطراف متعددة ومنها إلى جانب إيران، وتركيا، دول أخرى تلعب أدواراً أقل تنافسية، ولكنها داخلية ضمن إطار المنافسة، كفاعل أو كمراقب ومن بينها: باكستان، وأفغانستان، والهند، والصين، وأيضاً اليابان، وحتى (إسرائيل) تحاول أن تتسلل وتلعب دوراً في خضم هذه الأحداث. والسؤال الآن: أين العرب من كل هذا؟ وأين موقعهم ضمن النظام الإقليمي الذي يجري إعادة تشكيله؟

3- العرب والنظام الإقليمي تحت التشكيل⁽²⁾.

لقد أصبحت المنطقة العربية مختزقة من قبل أطراف غير عربية تريد أن تلعب دوراً إقليمياً وتؤسس مكانة إقليمية على أنقاض النظام العربي الذي تآثرت أشلائه بفعل أزمة وحرب الخليج الثانية، تلك أصبحت حقيقة، والحقيقة الثانية هي: التداخل بين مفاهيم العربي والآسيوي والشرق أوسطي - وذلك في منطقة الخليج⁽³⁾.

(1) المرجع السابق، ص 320 - 321.

(2) انظر: نبيل عبد الفتاح، العرب من النظام العربي إلى النظام الشرق أوسطي تحت التشكيل مرجع سابق ص 46.

(3) انظر: د. مصطفى علوي، الانعكاسات الإقليمية والدولية لاستقلال الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز مرجع سابق، ص 65.

الأمر الذي يعني - وبوضوح - إعادة النظر في مفاهيم النظام الإقليمي في المنطقة فقد شهدت المنطقة العربية مع بداية عقد التسعينيات عدة تغيرات إقليمية ودولية شديدة التأثير على المنطقة العربية، ولعل أبرزها: أزمة حرب الخليج الثانية، وانهيار الاتحاد السوفيتي، ولقد عبر كثير من الباحثين عن أزمة النظام الإقليمي العربي ما بين انهيار هذا النظام أو ذوبان حدود النظام العربي، وتداخلها مع نظام الشرق الأوسط⁽¹⁾ وهذا دعا البعض إلى اعتماد أن مقولة التناقض الحتمي بين الانتماء للنظام العربي والانتماء لأي نظام آخر. وبخاصة نظام الشرق الأوسط، من دعاوى التاريخ، ولم يعد لها بريقها السابق⁽²⁾ الأمر الذي دعا البعض الآخر إلى مقولة: 'خروج العرب من التاريخ'⁽³⁾.

ولعل أخطر ما يترتب على تلك المتغيرات من نتائج هو نفاذ دول الجوار الجغرافي إلى قلب المنطقة (العربية) مع إسرائيل من خلال قضايا المياه، والتعاون الاقتصادي والترتيبات ذات الطابع الأمني، وذلك في مرحلة وهن عربي شامل لم يشهدها في تاريخه المعاصر⁽⁴⁾.

وهناك ادعاء بانتهاء التناقض بين النظام العربي والنظام الشرق أوسطي، وذلك تأسيساً على ما حدث إبان أزمة وحرب الخليج الثانية من غزو دولة عربية لدولة عربية أخرى، ومن ثم فقد تغير مفهوم الخطر المحتمل، فهو قد يأتي من الجار العربي، وخاصة

(1) انظر وقارن: أسامة المجدوب 'المستقبل العربي وتداعيات عقد التسعينيات' السياسة الدولية، السنة (29) إبريل 1993م، ص 129، وانظر أيضاً: د. مصطفى علوي 'مصر والنظام العربي بعد حرب الخليج، ندوة حرب الخليج والسياسة المصرية. (أسوان 28 - 30 نوفمبر 1991م) مركز البحوث والدراسات السياسية - جامعة القاهرة نوفمبر 1991م).

(2) انظر هذا الرأي في: د. مصطفى علوي 'الانعكاسات الإقليمية والدولية لاستقلال الجمهوريات الإسلامية الجديدة في آسيا الوسطى والقوقاز' مرجع سابق.

(3) انظر: د. فوزي منصور، 'خروج العرب من التاريخ' (القاهرة: مكتبة مدبولي، ط1، 1993م).

(4) انظر: نبيل عبد الفتاح، مرجع سابق، ص 69.

وأن نمط التحالفات التي شهدتها تلك الفترة قد عرف وقوف دول شرق أوسطية في تحالف مع دول عربية ضد دول عربية أخرى، بل والأغرب من ذلك أن أصبحت إسرائيل والسعودية - وفي وقت واحد - هدفًا للصواريخ العراقية، الأمر الذي أدى ببعض الأطراف العربية (وبصفة خاصة دول الخليج) إلى إدارة الظهر للعالم العربي تمهيدًا لتصفية بقايا الالتزامات المعنوية والمالية نحو هذا النظام (العربي) وتحويلها وإدماجها ضمن منظومة الشرق الأوسط⁽¹⁾.

والواقع أن تناول كل هذه الأحداث المتشابكة ودراسة تفاعلاتها يحتاج إلى العرض التفصيلي لبعض الجزئيات التي تساعد على فهم وتحليل المواقف، وبيان المصالح والاتجاهات المتعارضة، وبيان وفهم حقيقة المصطلحات التي نستخدمها أكاديميًا وإعلاميًا.

وهذا يعني عودة منا مرة أخرى لمصطلح الشرق الأوسط الذي سبق أن تحدثنا عنه، لنوضح أن دعوى انتهاء التناقض بين هذا المصطلح وبين مصطلح النظام العربي وإن كان لها مبرراتها التي ذكرنا بعضها آنفًا إلا أنه يبقى مصطلح الشرق الأوسط على عيوبه التي سبق وذكرناها على خطورته على مستقبل المنطقة وقضاياها المصيرية.

فالتناقض بين هذا المصطلح (الشرق الأوسط) وبين إسلامية النظام الإقليمي يبقى قائمًا، بل إن إسلامية النظام الإقليمي تبقى - من وجهة نظرنا الأمل الباقي لإنقاذ مستقبل المنطقة العربية والإسلامية.

وقد سبق وأن أوضحنا أن النطاق الجغرافي الذي يشمل مصطلح الشرق الأوسط يتطابق - في بعض التحديات - مع النطاق الجغرافي للعالم الإسلامي. فلماذا إذن يريدونه نظامًا إقليميًا شرق أوسطيًا، وليس نظامًا إقليميًا إسلاميًا؟ إذن الإجابة على هذا السؤال في غاية الوضوح، فالنظام الشرق أوسطي يعني دخول إسرائيل وإدماجها في هذا النظام وتعزيز مكانتها الإقليمية، وتكريس شرعية وجودها عبر كل الدول المتتمة لنظام الشرق

(1) المرجع السابق، ص 66.

الأوسط، والتي هي دول إسلامية - بالأساس - ضمن إطار العالم الإسلامي. وبذلك تنتهي دعوى أن إسرائيل كيان غريب على الجسد العربي، وبذلك يكون إرساء النظام الشرق أوسطي على حساب معيار إسلامية النظام الإقليمي، ولصالح تبرير وجود إسرائيل وتكريس شرعيتها، والاعتراف بذلك من جميع جيرانها.

واستكمالاً لهذا التحليل نضيف بعضاً من سلسلة النتائج والتداعيات الخطيرة للنظام الشرق أوسطي على كيان العالم العربي والإسلامي ومستقبله، والتي تتمثل في تصفية التراث الإيديولوجي والسياسي القائم على رفض الإيديولوجية الصهيونية، سواء في الخطاب السياسي أو في أساليب التنشئة التعليمية، والسياسة... إلخ⁽¹⁾ والتركيز على أن نظام الشرق الأوسط الجديد هو شرق أوسط متعدد الإيديولوجيات والأديان والسياسات، والقوميات والثقافات⁽²⁾ ولعل هذا في جانب منه يفسر شيوع مصطلح التعددية الأكاديمية أو الثقافية عموماً⁽³⁾ الأمر الذي يخدم ويكرس في النهاية بقاء إسرائيل، وتبرير وجودها على أساس أنها إحدى صور هذه التعددية التي تذخر بها هذه المنطقة، وذلك على حساب أي دعاوى بوجود وحدة ثقافية حضارية عربية إسلامية تجمع بين هذه المنطقة وتجعلها عربية وإسلامية. ومن ثم يتأكد مصطلح الشرق الأوسط وتنزوي وراءه أي دعاوى عربية أو إسلامية.

وبذلك يتم حرمان المنطقة العربية والإسلامية من أي مقومات تساعد على الخروج من أزمتها، وذلك بتشجيع التنظيمات الفرعية بعيداً عن الالتزام بإطار عربي أو

(1) المرجع السابق، ص 69. وانظر أيضاً: نبيل عبد الفتاح ألقضايا المطروحة في مفاوضات السلام، جريدة الأهرام 1/11/1991م.

(2) انظر: نبيل عبد الفتاح العرب من النظام العربي إلى النظام الشرق أوسطي تحت التشكيل مرجع سابق، ص 69.

(3) انظر: د. نيفين عبد الخالق مصطفى الأبعاد السياسية لمفهوم التعددية: قراءة في واقع الدول القطرية العربية، واستقراء لمستقبلها بحث قيد النشر.

إسلامي شامل، كعزل أمن الخليج ومستقبله عن باقي الوطن العربي، وعزل منطقة آسيا الوسطى والقوقاز عن الالتقاء بالعالم الإسلامي وبقائها ضمن الإطار الروسي⁽¹⁾. وبذلك يتم توزيع المكاسب مرة أخرى بين القطبين السابقين أعداء أمس وحلفاء اليوم: روسيا، والولايات المتحدة حيث تحتفظ روسيا بالجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز ضمن إطار الكومنولث وتهيمن الولايات المتحدة على الخليج ومنابع النفط الغنية.

ومن هنا تأتي أهم الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز، فهي قد تكون بمثابة تعويض استراتيجي عما خسره العرب من تفكك وانهيار حليفهم القديم الاتحاد السوفيتي فكيف يكون ذلك؟

في الواقع إن هناك معنى مهماً ينبغي توضيحه حينما تقول: العرب فالسؤال يكون أي عرب⁽²⁾ فمن الواضح أن العرب لا يكونون إرادة سياسية واحدة، ولا كيأنا سياسياً موحداً له مصالح معينة وسياسات متفق عليها، ولكنهم يتوزعون بين كيانات سياسية قطرية قد تتعارض مصالحها واتجاهاتها وقد تختلف سياساتها وتوجهاتها. وإذا كان المقصود بالعرب جامعة الدول العربية، فإننا نجد من أهل هذه الجمهوريات من يرون أن جهودها قاصرة حتى الآن. وإن كان المقصود هو الدول العربية، فإن من بينها اثنتين - على وجه الخصوص - مرشحتين لمزيد من التعاون مع هذه المنطقة، وهما: السعودية ومصر، وذلك لاعتبارات تتعلق أساساً بوجود الحرمين الشريفين في الأولى، ووجود الأزهر الشريف في الثانية.

(1) انظر وقارن:

William E. Odom, "soviet politics and After: old and New concepts. World politics vol. 45, October 1992, No 1 pp. 66-98. □

(2) انظر وقارن: الوسط تحاور هيلين كارير، دانكوس - الخيرة البارزة في شئون الجمهوريات الإسلامية في: أرواد أسبر، ماذا يريد العالم الإسلامي الجديد مرجع سابق، ص 287 - 288.

هذا فضلاً عن أوجه التعاون والاستثمارات الممكنة الاستفادة بشأنها⁽¹⁾ هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، يواجهنا - بهذا الصدد - افتراض بأن الدول العربية قد أخفقت - حتى الآن - في الاستفادة الفعالة لإقامة روابط شاملة مع هذه الجمهوريات، وأن رؤيتها لهذه الجمهوريات قد انحصرت في أشكال التعاون الديني والثقافي متغافلة عن مدى ما يمكن أن تقيده في المجال التسليحي والاقتصادي والاستراتيجي من هذه المنطقة، ولا سيما وأن إسرائيل لقد سبقت العرب بالفعل فأقامت علاقات بشكل مبكر تمثلت في الخط الجوي الذي فتحت مع باكورة عاصمة أذربيجان، وسبقت بذلك الدول العربية، أيضاً في عرض الخبرة الإسرائيلية في المجال الزراعي والصناعي كما حدث في أوزبكستان⁽²⁾ وذلك من أجل تدعيم النشاطات والعلاقات الاقتصادية بينها وبين مختلف الجمهوريات⁽³⁾.

وفي المقابل نجد أن القصور العربي دفع رئيس أذربيجان (مطالبيوف) - حين التقى بمسئول بمكتب جامعة الدول العربية بموسكو - من أن يصرح: 'بح صوتنا في مناشدتك أن

(1) راجع: المرجع السابق، ص 228 - 279.

(2) انظر وقارن: د. محمد السيد سليم مستقبل الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز مستقبل العالم الإسلامي. 2 (5) شتاء 1992م، وانظرها في: روسيا وآسيا الوسطى والعرب: مجموعة قراءات مرجع سابق 227. وانظر أيضاً: محمد السيد سليم، العرب فيما بعد العصر السوفيتي: المخاطر والفرض، السياسة الدولية، 27 (108) من أبريل 1992م انظرها في: روسيا وآسيا الوسطى والعرب مجموعة قراءات مرجع سابق ص 341.

(3) انظر: وقارن: عبد الرحمن الهواري مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي في ضوء تفكك الاتحاد السوفيتي الدار العربية للدراسات والنشر والترجمة لعدد (57) أغسطس 1992م، انظرها في: روسيا وآسيا الوسطى والعرب مجموعة قراءات مرجع سابق، ص 380.

ولزيد من التفاصيل عن التسلل الإسرائيلي لهذه الجمهوريات انظر: مني ياسين إسرائيل تتسلل لاختراق الجمهوريات الإسلامية السوفيتية جريدة الشعب 25/6/1991م، انظر أيضاً: إسرائيل تغزو الجمهوريات الإسلامية السوفيتية جريدة المسلمون 6/9/1991م.

تمدوا إلينا أيديكم لتعمل معاً في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والتجارية⁽¹⁾ كما أن مفتي كازاخستان (أحميدوف) قد نبه إلى أن الظروف الاقتصادية في هذه الجمهوريات تدفعها إلى التعاون مع كل من يمد يده إليها. فأين الدول العربية من ذلك، إنها لا تزال تقف موقف المتفرج من الأحداث التي تشهدها المجتمعات الإسلامية، وهناك من يظن أن واجبه ينحصر في تقديم المصاحف والهدايا التذكارية لبعض المسلمين... وهؤلاء يهربون من الميدان، ويتركون الفرصة للغير ليدخل ويقدم مساعداته وأفكاره، وثقافته وسياساته⁽²⁾.

ويعتقد البعض أن العرب لديهم فرصة أكبر مع الجمهوريات الإسلامية، وذلك للذكريات التاريخية للسيطرة الفارسية والعثمانية على تلك المناطق⁽³⁾. في حين ينظر إلى العرب - وبصفة خاصة السعودية حيث الحرمين الشريفين، ومصر حيث الأزهر بكثير من المشاعر الإسلامية، كما يرى البعض أن فرصة العرب باعتبار أنهم ليسوا من دول الجوار الجغرافي لآسيا الوسطى ستجعلهم مفضلين من قبل هذه المنطقة؛ لأن احتمالات الهيمنة بسبب الجوار الجغرافي ليست واردة بالنسبة لهم⁽⁴⁾. ولعل هذه المبررات يمكن أن تمثل معطيات المصالح العربية مع هذه المنطقة بخصوص قضيتين مهمتين هما: الصراع مع

(1) انظر: عبد الملك خليل 'روسيا والغرب وصياغة أخرى لمستقبل العلاقات' جريدة الأهرام 1991/11/18، وانظر أيضاً: مصر الفتاة بالقاهرة 9/9/1991م، نقلاً عن د. محمد السيد

سليم، 'مستقبل الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز' مرجع سابق، ص 227.

(2) انظر تصريحات زين الدين أحميدوف - المفتي الأول في كازاخستان - جريدة الجمهورية 1992/2/6م.

(3) انظر وقارن: عبد المجيد فريد. المسلمون في الاتحاد السوفيتي إلى أين؟ جريدة الأهرام 1991/10/9م.

(4) انظر: وحيد عبد المجيد، تأثير تفكك الاتحاد السوفيتي في العالم العربي والإسلامي 'مستقبل العالم الإسلامي، 2 (5) شتاء 1992م، انظرها في: روسيا الوسطى والعرب مجموعة قراءات مرجع سابق، ص 368.

إسرائيل، والتعاون الاقتصادي، فما هي التأثيرات الممكنة لاستقلال الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز على هاتين القضيتين.

أ - بالنسبة للصراع مع إسرائيل:

هل يعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه واستقلال الجمهوريات الإسلامية في صالح العرب في صراعهم مع إسرائيل؟ وكيف؟

في واقع الأمر، كان ينظر إلى الاتحاد السوفيتي في معظم فترات هذا الصراع على أنه حليف للعرب، ومصدر أساسي من مصادر التسليح، هذا فضلاً عن أن وجوده كقطب في توازن دولي يقوم على الثنائية القطبية كان يعطي هامشاً للمناورة⁽¹⁾. لا يتوافر في حالة سيطرة قطب واحد. على الرغم من أن البعض يرى في زوال القطبية الثنائية فرصة لإيجاد حل لهذه القضية باعتبار أن ثنائية التوازن كان تصعب الوصول إلى حل، فما كان يوافق عليه أحد قطبي التوازن الدولي يرفضه الآخر لمجرد أنه صادر عن خصمه ومناقسه⁽²⁾.

والمشكلة الحقيقية في اختفاء الاتحاد السوفيتي هي مشكلة بعض القيادات العربية التي تعودت أن تعتمد على وجوده، وعلى أن تتصور أن هذا وضع أبدي لا يمكن أن يتغير⁽³⁾. ولعل الوعي بهذه المشكلة ينه القيادات الحالية على ألا تكرر نفس الخطأ بأن تبني سلوكها، واستراتيجيتها على أن النظام الدولي يتميز بهيمنة قطب واحد هو الولايات المتحدة، وأن هذا الوضع سوف يستمر، فهذا - على الأقل - لا يمكن أن يكون

(1) انظر: د. محمد السيد سليم العرب فيما بعد العصر السوفيتي: المخاطر والفرص مرجع سابق، ص 338.

(2) انظر وقارن: عبد الرحمن الهواري، مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي في ضوء تفكك الاتحاد السوفيتي مرجع سابق، ص 380.

(3) انظر وقارن: أسامة المجدوب. المستقبل العربي وتدابير عقد التسعينيات مرجع سابق، ص 131.

الاحتمال الوحيد، فهناك منافسون جدد. هذا بالإضافة إلى ما يتوقعه بعض الباحثين من عودة روسيا لتمارس دورها كقوة عظمى بعد تغلبها على مشاكلها الاقتصادية، وفي ذلك نذكر تلك المقولة: "قد عودنا التاريخ الروسي بأنهم كأمواج البحر ينحسرون لفترة لأسباب داخلية كما حدث بعد ثورة أكتوبر (1917م) ثم يعودون مرة ثانية أقوى من السابق، وبمعنى آخر أن عودة روسيا من جديد - لا بد منها - كقوة عالمية تلعب دوراً مهماً في القضايا الدولية والإقليمية، ولكن بعد ترتيب البيت الداخلي، وتعزيز الاستقرار الاقتصادي الجديد ثم الخروج إلى العالم الخارجي"⁽¹⁾

وبغض النظر عن مدى صحة هذه المقولة، فإن هذا يبقى أحد الاحتمالات، والمهم أن روسيا الآن - وتحت زعامة يلتسن - لا تعد توجهات إيجابية نحو العرب، بل على العكس إنها ترى فيهم مؤيدين ومحالفين للاتحاد السوفيتي السابق بكل ما يأخذونه عليه من مخالفات لحقوق الإنسان⁽²⁾. وحتى قبل مجيء يلتسن والتطورات الأخيرة، فإن الاتحاد السوفيتي في عهد جورباتشوف كان قد بدأ التحول نحو استرضاء الولايات المتحدة وجعل أولويات منصبه حول حل مشكلاته الاقتصادية، وبما تبناه من مفاهيم توازن المصالح، وألغى اعتماد المتبادل. كل ذلك جعل مشاكل العالم الثالث والزراعة السوفيتية إلى دعم قضاياها، تتضاءل أمام الرغبة في التوافق مع الولايات المتحدة، إذن بانهايار الاتحاد السوفيتي كان العرب بالفعل قد خسروا الكثير، ولم يبق أمامهم إلا التحرك للتعامل مع ثلاث مشكلات أساسية، وهي: إمدادات التسليح، وجهود التسوية، والهجرة اليهودية من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق إلى فلسطين.

ولقد تأثرت بالفعل إمدادات التسليح للدول العربية، وخاصة في غيبة صناعة حربية عربية متطورة، يمكن أن تعوض نقص الإمدادات الخارجية، وقد ينظر إلى

(1) انظر: محمد حسن العبدوس، مجلس التعاون الخليجي بين الأمن الإقليمي والتحديات الخارجية مجلة دراسات دولية (تونس: جمعية الدراسات الدولية) العدد (47)، فبراير 1993م، ص 31.

(2) انظر: د. محمد السيد سليم العرب فيما بعد العصر السوفيتي مرجع سابق، ص 343.

الجمهوريات الإسلامية على أنها يمكن أن تكون مصدرًا من مصادر التسليح، وخاصة وأنها لظروفها الاقتصادية تعتمد على بيع الأسلحة. ولكننا نلفت النظر إلى أن سوق السلاح لورثة الاتحاد السوفيتي ينافس العرب فيه منافسون كثيرون لديهم القدرة على الدفع بالعملة الصعبة، فضلاً عن أن الولايات المتحدة تراقب جيداً هذه العملية لتمنع تسرب الأسلحة المتطورة وعلماء الطاقة النووية من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق إلى دول العالم الثالث، وبصفة خاصة إلى الدول العربية والإسلامية حتى لا يؤثر ذلك على التفوق الإسرائيلي في مجال التسليح والذي تدعمه الولايات المتحدة⁽¹⁾.

وإذ كان استقلال الجمهوريات الإسلامية قد أوجد بادرة إيجابية تمثلت في إعلان نازار باييف - رئيس كازاخستان - اعترافه بالدولة الفلسطينية، وذلك في لقاء بينه وبين ياسر عرفات⁽²⁾ إلا أن كم المشاكل الداخلية التي تواجه هذه الجمهوريات واحتمالات تفجر الصراعات الحدودية والاثنية والعرقية، تجعل احتمال أن يكون لهذه الجمهوريات أثر ملموس بالنسبة لميزان التسليح بين العرب وإسرائيل، أو لجهود التسوية احتمالاً ضئيلاً، فالأثر الأكبر سيكون لروسيا الورثة الكبرى للاتحاد السوفيتي، وورثة مقعده في الأمم المتحدة.

تبقى المشكلة الأهم، وهي المتعلقة بالهجرة اليهودية من هذه البلاد إلى إسرائيل. وأكثر ما يمثل هذا الوضع من خطورة تتمثل فيما يمكن أن يؤدي إليه من التأثير - مستقبلاً - على المعادلة السكانية بحيث ترجح اليهود في إسرائيل والأرض المحتلة، وما يمثل هذا الوضع من تهديد خطير للدول العربية المجاورة، وإذا علمنا أن الجمهوريات الإسلامية في

(1) انظر مزيداً من التفصيل في: مرجع سابق، ص 340، 341. وراجع أيضاً: جريدة الشعب 1991/12/31م، جريدة الأهرام 1992/12/4م. سلامة أحمد سلامة. نحن والأوكازيون النووي" جريدة الأهرام 1992/2/11م.

(2) انظر: د. محمد السيد سليم العرب فيما بعد العصر السوفيتي: المخاطر والفرص، مرجع سابق، ص 343.

آسيا الوسطى والقوقاز تضم حوالي 12% من إجمالي يهود جمهوريات رابطة الدول المستقلة يتركز معظمهم في أوزبكستان (5.5% من إجمالي يهود الجمهوريات)⁽¹⁾. يكون على العرب التحرك السريع لاستخدام كافة الوسائل الممكنة للتعاون مع هذه الجمهوريات من أجل مواجهة هذه المشكلة والأخطار التي تحملها.

أما عن القضية الثانية التي تهتم العلاقات بين العرب والجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز فهي:

ب - التعاون الاقتصادي:

وفي دراسة عن العلاقات العربية - السوفيتية من الناحية الاقتصادية لوحظ أن هذه العلاقات كانت مبنية على مقومات موضوعية أكثر منها على اعتبارات إيديولوجية⁽²⁾ ومن ثم فإن تفكك الاتحاد السوفيتي لا يعني انهيار العلاقات الاقتصادية العربية التي ترتبط بجمهورياته، بل إنه يعني فتح آفاق جديدة للتعامل مع عدد أكبر من الكيانات

(1) المرجع السابق، ص 344. ونقلاً عنه ولزيد من التفصيل عن هجرة اليهود السوفيت يمكن مراجعة د. عبد الوهاب المسيري. هجرة اليهود السوفيت (القاهرة: دار الهلال. سلسلة كتاب الهلال 1990م) ص ص 139 - 228. د. أحمد يوسف أحمد المخطط الراهن لتهجير اليهود السوفيت إلى فلسطين، الجذور، الواقع، المستقبل. المستقبل العربي 13 (141) نوفمبر 1990م، ص ص 80 - 101 ويمكن مراجعة إحصاء المهاجرين اليهود في: التقرير الاستراتيجي العربي لعام 1989م، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية الأهرام، 1991م). ص 23.

(2) انظر: طه عبد العليم آفاق العلاقات الاقتصادية العربية - السوفيتية، المستقبل العربي، السنة (10) العدد (110) أبريل 1988م، ص 75.

السياسية المستقلة، ولا سيما مع الجمهوريات الإسلامية التي تعد سوقاً اقتصادياً كبيراً، كما أنها تحوي آفاقاً رحبة للتعاون الاقتصادي⁽¹⁾.

وقد تمت بالفعل بعض الخطوات في سبيل تدعيم التعاون في هذا المجال، فقد اتفقت مصر وأذربيجان على إقامة بنك مشترك، ووقع صديق أبو شيف - وزير اقتصاد كازاخستان - اتفاقية تجارية مع جمعية مستثمري العاشر من رمضان في مصر في فبراير 1992م⁽²⁾. كما اتخذت بعض الخطوات مع بعض الجمهوريات الأخرى، منها اتجاه عدد من رجال الأعمال المصريين إلى إقامة عدد من المشروعات المشتركة بين مصر والجمهوريات الإسلامية، وعلى المستوى الرسمي توجه وفد اقتصادي برئاسة الدكتور الجزوري لزيارة بعض الجمهوريات المستقلة، وذلك في 19 يناير 1992م⁽³⁾.

والواقع إننا إذا كنا نضع الحاضر والمستقبل أمام دائرة البحث، فإن التعاون الاقتصادي هو أساس النجاح في كافة المحاور الأخرى، وهذا يستلزم الوعي بضرورة التنسيق العربي، ووضع استراتيجية عربية شاملة تضع نصب أعينها التعاون الاقتصادي العربي - العربي - الإسلامي، على أوسع نطاق. وفي هذا الخصوص فإن الدول العربية البترولية تحتل أهمية كبيرة لما توفره في أرصدة مالية وتسهيلات ائتمانية، واستثمارات يمكن أن تعزز بها التعاون الاقتصادي مع الجمهوريات الإسلامية المستقلة، وخاصة، وأن المشاكل الاقتصادية هي من أهم ما يواجه هذه الجمهوريات من مشاكل وتحديات⁽⁴⁾، وإذ علمنا أن ودائع الدول العربية في البنوك الأجنبية تجاوزت (1000)

(1) لمزيد من التفاصيل حول الإمكانيات الاقتصادية لجمهوريات المستقلة راجع: معتر محمد سلامه، مستقبل الدور الروسي في الكومنولث الجديد السيادة الدولية، السنة (29) العدد (112) أبريل 1993م، ص 158.

(2) انظر: د. محمد السيد سليم العرب فيما بعد العصر السوفيتي: المخاطر والفرص مرجع سابق ص 345.

(3) المرجع السابق، نفس الصفحة

(4) انظر وجهة نظر بهذا الشأن في: أسامة المجدوب مستقبل العربي وتدابير عقد التسعينيات مرجع سابق، ص 128 وما بعدها. ولمزيد من التفاصيل عن الإمكانيات الاقتصادية لندوة العالم

مليار دولار، فإنه ينبغي توجيه جزء من هذه الأموال للاستثمار في هذه الجمهوريات خاصة، وأنها تملك ثروات طبيعية لم تستغل بعد⁽¹⁾.

وقد توجد هناك عوائق دولية ومنافسات إقليمية قد تعوق التعاون الاقتصادي المنشود بين الدول العربية والجمهوريات الإسلامية المستقلة، فمن المعروف أنه منذ انتهاء عصر الحرب الباردة، ووجود احتمال التحام الجمهوريات الإسلامية بالعالم الإسلامي، مع ما يعنيه ذلك من تهديد للمصالح الغربية - بصفة خاصة الأمريكية - في حقول البترول الخليجية - وهذا الهاجس يقلق صانع القرار الغربي، وذلك في ظل استراتيجية في الغرب بفكرة الجسر المقطوع بين الناحيتين⁽²⁾.

إلا أن رغبة الغرب في الوقوف ضد المد الأصولي الإسلامي والذي تمثله إيران⁽³⁾ قد يدفعه إلى تشجيع التعاون في كافة المجالات بين هذه الجمهوريات والدول التي لا تتبنى النزعة الأصولية، وفي سبيل هذا قد تعمد الولايات المتحدة إلى التنسيق بين كل من تركيا ومصر، لإيجاد نوع من التوازن أمام النشاط الإيراني في هذه الجمهوريات. ومن هذا المنطلق يمكن تفسير تصريح وزير دفاع ألمانيا أثناء زيارته لمصر في فبراير 1992م حيث صرح بأن مصر وتركيا يمكنها أن يلعبا دوراً مهماً يدعو للتأمل مع الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى⁽⁴⁾.

الإسلامي والمستقبل، مرجع سابق، وبصفة خاصة بحث د. محمد إبراهيم منصور التكاملي وتقسيم العمل بين الأقطار الإسلامية ص 1 - 53.

(1) انظر: د. محمود أبو العلا، مرجع سابق، ص 157 - 158.

(2) انظر: د. محمد عبد القادر أحمد، مرجع سابق، ص 285.

(3) انظر: رؤية بهذا الصدد في: سليم الحسيني الإسلام والنظام الدولي: رؤية في بوادر التأثير مجلة منبر الحوار السنة (5) العدد (19) خريف 1411هـ / 1990م، ص 73، 74، وانظر أيضاً صلاح بسيوني: العلاقات العربية في أولويات الجمهوريات المستقلة السيامة الدولية، 27 (108) من أبريل 1992م، انظرها في روسيا وآسيا الوسطى والعرب مجموعة قراءات مرجع سابق، ص 376.

(4) انظر: د. محمد السيد سليم العرب فيما بعد العصر السوفيتي، المخاطر والفرص مرجع سابق، ص

342

الخاتمة...

النظام الإقليمي والعلاقات العربية والإسلامية بين التنافس والتنسيق

استعرضنا في الصفحات السابقة القوى الرئيسية داخل النظام الإقليمي الإسلامي: إيران، تركيا، والعرب، وقد أوضحنا أنه يوجد إلى جوارهم قوى أخرى عرضنا لبعضها، وتناولنا البعض الآخر بشكل غير مفصل. فقد قصرنا التفصيل على القوى الثلاثة المذكورة آنفاً، وذلك من خلال قناعة تحليلية بمحيقة التفاعل بين مختلف العوامل والعلاقات التي تربط هذه الأطراف الثلاثة⁽¹⁾ وبين وحدة التحليل الرئيسية في هذه الدراسة، وهي الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز. وأن شكل التفاعل بينهم لا ينبغي أن يتجه إلى إذكاء التنافس بشكل يؤدي إلى نتائج سلبية، وإنما ينبغي أن

(1) تمثل إيران - تركيا - مصر ما يسمى بثلاث القوة الإقليمية في الشرق الأوسط، كما جاء في تحليل د. جمال حمدان، وهو نفس مثلث القوة الإقليمية للنظام الإقليمي الإسلامي باعتبار أن منطقة الشرق الأوسط ومنطقة العالم الإسلامي تمثلان نفس المنطقة الجغرافية إلا أننا وسعنا من الضلع الثالث في هذا المثلث ليشمل العرب وعلى وجه الخصوص: مصر، والسعودية، ونلاحظ أنه حينما كانت مصر تتمتع بتوازن بين مقدراتها ومكانتها كان العالم العربي يتمتع بقيادة إقليمية. أما الآن وبعد أن توزعت المقدرات بين الدول العربية بحيث لا يجوز أحدهما قدرًا يسمح له بالانفراد بالقيادة فإن هذا قد أضعف من النظام العربي، إلا أنه تظل لمصر نظرًا لاعتبارات كثيرة، منها موقعها في قلب الوطن العربي قدرة على القيام بهذا الدور، انظر في تحليل جمال حمدان لمثلث القوة الإقليمية. د. جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير (بيروت - القاهرة: دار الشروق، ط1، 1403هـ / 1983م) ص 416، وانظر تحليلًا لمكانة مصر الإقليمية وعنصر القيادة في النظام العربي في: د. محمد السيد سليم مفهوم التوازن الدولي وتطبيقاته الإقليمية، مرجع سابق، ص 171 - 172، و (انظر الخريطة رقم (3) في المرفقات).

يدور التفاعل في إطار من التنسيق والتكامل من أجل مصلحة جميع الأطراف. فهل هذا ممكن⁽¹⁾؟ أم أنه مجرد تصور مثالي.

في الواقع أن ثمة دلائل واقعية تدفع إلى عدم ترجيح كفة التنافس الإقليمي، وتفضيل وجود حد أدنى من التنسيق. وتمثل هذه الدلائل في وجود بعض القيود على تحركات كل طرف تدفعه إلى عدم تصعيد الروح التنافسية⁽²⁾. فبالنسبة لإيران مثلاً، لديها مخاوف من اندلاع نزعة للوحدة الأذربيجانية يمكن أن تؤثر على المطالبة الإقليمية لجمهورية أذربيجان بالمدينة الإيرانية المجاورة لها، والتي تحمل نفس الاسم، هذا فضلاً عن أنه توجد مخاوف في الجمهوريات الإسلامية نفسها من التحرك الإيراني النشط، وذلك لما تمثله إيران من نزعة أصولية وذلك باستثناء طاجيكستان التي تعد النزعة الأصولية فيها أكثر شدة بسبب نشاط حزب النهضة الإسلامي⁽³⁾.

والواقع أننا نجد أن النظر إلى الدور الاجتماعي للدين الإسلامي في هذه البلاد كمنظم للحياة الاجتماعية، ومحافظ على القيم الأخلاقية، ورمز للهوية هو المفضل، وذلك في إطار التوجه إلى النموذج العلماني - الديمقراطي. ومن ثم فإن الدور السياسي للدين كما تقدمه النزعة الأصولية يلقي تحوفاً ويعتد قيذاً على مدى الترحيب بالنشاط الإيراني.

(1) انظر تحليلاً لنظريات التعاون الدولي في:

Helen Milner, International theories of Cooperation among Nations: strengths and weaknesses, world politics vol. 44 April 1992, pp. 466 - 496. □

(2) انظر: د. وحيد عبد المجيد تأثير تفكك الاتحاد السوفيتي في العالم العربي والإسلامي مرجع سابق، ص 366 وما بعدها.

(3) انظر وجهة نظر سوفيتية في: أ. مالا شنيكو الإسلام في السياسة والسياسة في الإسلام، ترجمة: د. حسين الشافعي، شؤون سوفيتية، العدد الأول - سبتمبر / أكتوبر 1992م، انظرها في: روسيا، وآسيا الوسطى والعرب: مجموعة قراءات مرجع سابق، ص ص 309 - 313.

وبالنسبة لتركيا، فإن هناك قيماً يتمثل ففي حرصها الدائم على الموازنة بين توجهاتها الغربية والشرقية مع إعطاء الأولوية للأولى⁽¹⁾. إلا أن مصلحة الغرب في الحد من النشاط الإيراني قد تكون في صالح دعم التوجه التركي نحو هذه الجمهوريات، ومع ذلك يبقى القيد المتعلق بالخوف التي قد تنشأ لدى هذه الجمهوريات من استبدال الهيمنة الروسية بالهيمنة التركية، وخاصة وأن النزعة الاستقلالية لهذه الجمهوريات ما زالت في عنفوانها بعد تحررها بعد طول عناء من حقبة تسلطية دامت ما يقرب من سبعين عاماً⁽²⁾.

أيضاً بالنسبة للعرب، فلا تزال لهم مصالح تربطهم بروسيا، وتجعل عليهم - من المنظور الاستراتيجي - ضرورة الموازنة في علاقاتهم، في ضوء الوعي بأن روسيا وأن كانت تمثل أقل مما كان يمثل الاتحاد السوفيتي السابق إلا أن احتمال عودتها لتصبح قوة دولية كبرى لا يزال قائماً. وهو أمر ينظر إليه البعض على أنه في صالح الدول الصغيرة التي تضعف قدرتها على المناورة في ظل هيمنة قطب دولي واحد⁽³⁾ وقد تشارك أطراف متعددة في وجهة النظر هذه، وهي الحد من هيمنة الولايات المتحدة عن طريق عدم تشجيع الانهيار الروسي، والتي تعبر عنها مقولة نائب وزير الخارجية الإيراني (بشارتي)

(1) انظر: د. وحيد عبد المجيد تأثير تفكك الاتحاد السوفيتي في العالم العربي والإسلام مرجع سابق، ص 368.

(2) انظر وقارن: معتر محمد سلامة مستقبل الدور الروسي في الكومنولث الجديد. مرجع سابق، ص 156 - 162.

(3) انظر وقارن: وجهة نظر تحليلية في:

Richard K. Herrmann, "Soviet Behavior in Regional Conflicts: Old Questions, New strategies, and important Lesson, world politics, vol. 44 No. 3., April 1992, pp. 398 - 431. □

كنا نهتف بالموت للاتحاد السوفيتي، واليوم بعد سقوط الشيوعية لا نطلب له الموت، بل نحن حريصون على وحدته إلى أقصى حد⁽¹⁾.

وفي نفس هذا الاتجاه جاءت تحليلات بعض الباحثين من أن الابتهاج الذي ساد بانهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط الشيوعية باعتبار أن ذلك انتصار للإسلام على الشيوعية، وانتصار للشعوب الإسلامية التي كانت تخضع لهيئته واستطاعت الحصول على حريتها، لم يلبث أن ظهر وجهه الآخر من حيث التأثير على التوازن الدولي تأثيراً جعل الدول العربية هي الأكثر ترشيحاً من بين دول العالم الثالث، لتكون ضحية هذه التطورات⁽²⁾.

ومن ثم فإن انفصال الجمهوريات الإسلامية عن الكومنولث الروسي لصالح أي تكتل إقليمي آخر، لا يعد مطلباً ذا قبول في الوقت الحالي على الأقل، وذلك بسبب بعض الخصائص التي تميز الصراع السياسي داخل هذه الجمهوريات حيث ينظر إلى أن هذا الانفصال قد يدعم من موقف الشيوعيين السابقين الذين يريدون تكوين كتلة من طاجيكستان، وأوزبكستان، وتركمانيا ضد جيرانهم الذين قد أخذوا في السير في طريق ديمقراطي⁽³⁾ هذا فضلاً عما يتضمنه هذا الوضع من مخاطر التقسيم والصراع بين المسلمين في هذه المنطقة، وفصل مسلمي روسيا عنهم وتعريضهم للذوبان داخلها⁽⁴⁾. أيضاً بسبب

(1) انظر: وحيد عبد المجيد تأثير تفكك الاتحاد السوفيتي في العالم العربي والإسلامي مرجع سابق، ص 369. ونقلاً عنه انظر: صحيفة السفير (بيروت)، حدث للسيد محمد علي بشارتي نائب وزير الخارجية الإيراني، 26/10/1991م.

(2) انظر: د. محمد السيد سليم العرب فيما العصر السوفيتي: المخاطر والفرص مرجع سابق، ص 347.

(3) انظر: د. إيمان يحيى مستقبل الجمهوريات الإسلامية السوفيتية: خريطة جيوسياسية - اقتصادية واجتماعية مرجع سابق، ص 251.

(4) المرجع السابق، نفس الصفحة.

المخاوف من الصراعات العرقية والخلافات على الحدود⁽¹⁾. فلا يمكن التعويل على تأثير الأخوة الإسلامية عند اندلاع الصراعات الاثنية، وهذه هي الخبرة المؤلمة للصراعات داخل العالم الإسلامي إجمالاً حتى الآن⁽²⁾.

وفي نفس هذا الإطار جاءت آراء بعض المفكرين الإسلاميين في العالم العربي، ومن ذلك ما صرح به د. محمد عمارة لصحيفة المسلمون من مخاوف تتعلق بأن الجمهوريات الإسلامية ليست مؤهلة للانفصال عن الكومنولث بسبب المخاوف من الصراعات العرقية والمذهبية، وما صرح به أيضاً فهمي هويدي من أن انهيار الشيوعية وإن كان قد ترتب عليه تخفيف المعاناة عن المسلمين في هذه المناطق، إلا أن انفصالهم عن المركز لن تكون آثاره محمودة لاعتبارات متعددة سياسية واقتصادية⁽³⁾.

إذن بقي التنسيق هو الخيار الأفضل بدلاً من إذكاء التنافس. والتنسيق يعني أساساً بالتركيز على المصالح المشتركة لجميع الأطراف بما في ذلك الجمهوريات الإسلامية بالطبع. والتركيز على بناء تعاون ونظام إقليمي إسلامي يقف في وجه التغلغل الإسرائيلي لا بد وأن يضع في الاعتبار النزاعات والصراعات التي قد تنشأ بين هذه الجمهوريات فالعالم الإسلامي أثقل بهوموم وصراعاته، من الأولى به أن يتعامل من موقع احتواء الصراع بدلاً من انتظار حدوثه، ومن هنا تأتي أهمية الاقتراح بمبادرة

(1) انظر: وحيد عبد المجيد تأثير تفك الاتحاد السوفيتي في العالم العربي والإسلامي مرجع سابق، ص 371، 372، وانظر تناولاً جيداً لمشكلة الحدود من منظور إسلامي في: أماني عبد الرحمن صالح، إشكالية الحدود في التصور الإسلامي السياسة الدولية، السنة (29) العدد (112)، أبريل 1993م. ص ص 54 - 63.

(2) انظر: وحيد عبد المجيد، مرجع سابق، ص 731.

(3) المرجع السابق، ص 373، 374. وانظر أيضاً: فهمي هويدي: العالم الإسلامي: مكوناته وفعالياته في القرن الحادي والعشرين مجلة منبر الحوار، العدد (19) السنة (5) خريف 1990 - 1411هـ ص 19 - 20.

بتأليف لجنة في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي مثلاً، لإجراء اتصالات مع قادة الجمهوريات على أعلى مستوى من المكاشفة للتوصل إلى حلول سلمية لمشكلات الحدود تحول دون انفجارها.

وبعد، لعل أهم ما يهدد بناء نظام إقليمي إسلامي بالفعل ليس هو الصراع بين المسلمين كسنة وشيعة فقط، ولكن الصراع بين الاتجاه الإسلامي الثوري (الأصولي) وبين الاتجاه الإسلامي المعتدل (المهادن)⁽¹⁾ ⁽²⁾. والخلاف المبني على قواعد الحركة قد أورت بالفعل خلافاً حول تحديد العدو والخطر المشترك، وحول أنماط التحالفات بين الدول الإسلامية والقوى الدولية المختلفة، إذن يمكننا أن نحدد عقبتين أساسيتين أمام هذا النظام: الأولى، وهي الصراع بين ما يمكن أن نسميه الإسلام الاجتماعي في مقابل

(1) نلاحظ أن الصراع - الإسلامي - لم يعد بالأساس بعد سنة - وشيعة (فقط) - بدليل أن الاتجاه الشيعي الأصولي الذي تمثله إيران الشيعية، يعطي دعماً وتأييداً لفصائل المقاومة الإسلامية المعارضة في مصر، وشمال أفريقيا وهي سنية بالأساس - (أو على الأقل ليست شيعية) - فالصراع الحالي اتجاهاه الأساسي هو بين الإسلام الأصولي (الثوري) وتمثله إيران الشيعية وفصائل المعارضة السنية في مصر، والسودان، وشمال إفريقيا، وأفغانستان ووسط آسيا، وبين الإسلام المعتدل (المهادن) وانتماء بعض تيارات من الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة إلى اتجاهات ومدارس فكرية معينة سبق أن توصلنا إليه وعرضناه في رسالتنا للدكتوراه في شكل مدارس فكرية جمعت بداخل كل منها بعض اتجاهات فرق ومذاهب مختلفة فداخل (مدرسة الصبر) كان هناك اتجاه الشيعة الاثني عشرية وأهل السنة. وقد أوضحنا التغيرات التي حدثت في فكر الشيعة فيما يتعلق بـ'التقية' و'ولاية الفقيه' الأمر الذي نقل الفكر الشيعي - للإمامية الاثني عشرية - من (مدرسة الصبر) إلى (مدرسة الثورة). كما أوضحنا أن فكرة الثورة قد عرفت طريقها إلى داخل فكر أهل السنة (القطب الرئيسي لمدرسة الصبر) وذلك في صورة الدعوة إلى التجديد ويعكس الالتقاء بين الفكر الثوري الشيعي الجديد في إيران وبين فصائل المعارضة السنية في مصر، وشمال إفريقيا صورة أخرى لهذا التحليل، راجع التفصيل في: د. نيفين عبد الخالق مصطفى، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي، رسالة دكتوراه منشورة (القاهرة، مكتبة الملك فيصل الإسلامية، ط1، 1985م).

الإسلام السياسي⁽¹⁾ حيث يركز الأول على دور الدين كمنظم للعلاقات الاجتماعية ولقواعد التعامل الأخلاقي دون أن يتدخل في السياسة. أما الثاني، فلهو يعني أساساً بالدور السياسي المتعلق بالسلطة والعلاقة بين الحاكم والمحكوم وبمنظرة الأصولية إلى النظام العالمي⁽²⁾.

أما العقبة الثانية فهي ترتب على الأولى، إذ ينبغي على ما سبق الخلاف بين المسلمين حول تحديد العدو، والخطر المشترك، بل الأكثر من ذلك خطورة هو أن يتخذ كل من الاتجاهين السابقين الاتجاه الآخر عدواً له، بل إنه قد يعتبره العدو رقم واحد.

وفي الختام، لا يسع الباحث إلا أن تقرر كم التشابك والتعقيد الذي يكتنف التحليل الذي تناوله هذه الدراسة، بحيث لا يمكن أن ينتهي بنتائج مؤكدة أو باحتمالات ترجيحية على درجة عالية من التأكيد، فما يزال المستقبل يكتفه الغموض، وما تزال المنطقة حُبلى بالكثير الذي ينتظره مستقبل هذه الجمهوريات ومستقبل العالم العربي والإسلامي بأسره⁽³⁾.

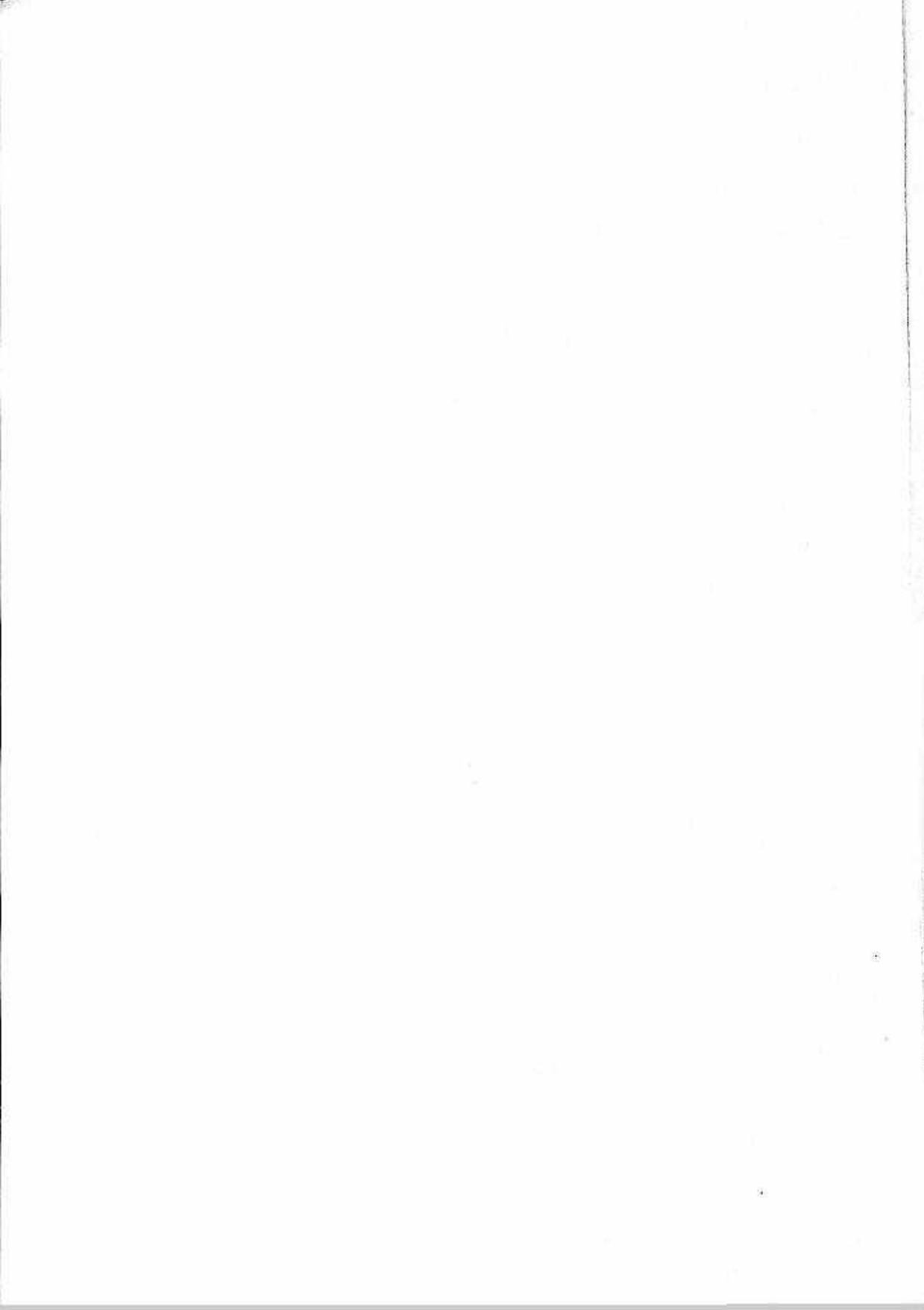
(1) نوجه النظر إلى أن الإسلام نظام حياة شامل من كافة النواحي الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية.. الخ، ولكن المقصود بهذه التعبيرات التي ذكرناها (الإسلام الاجتماعي - الإسلام السياسي) هو الإشارة إلى توجهات فكرية تعطي الأولوية لجانب في الإسلام وتقدمه على باقي الجوانب الأخرى أو أنها تقصره عليها.

(2) انظر في تفصيل ذلك: د. أحمد الموصلي، الأصولية الإسلامية والنظام العالمي، (بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ط1، 1992م).

(3) بعد أن انتهينا من كتابة هذا البحث وطباعته نتابعت الأحداث في جمهورية طاجيكستان حيث نمر هذه الأيام بمحنة قاسية وسط نكتم إعلامي رهيب وصمت إسلامي غريب.. وذلك نتيجة تدخل شيوعي جديد وسافر في أمر هذه الجمهورية الإسلامية. فقد استطاعت المعارضة الإسلامية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي - وبالطرق الديمقراطية - المشاركة في السلطة عن طريق وزارتين فقط إلا أن هذا الوضع أثار مخاوف من جهة وصول التيار الإسلامي للسلطة والخوف من أن يؤثر هذا على الجمهوريات الأخرى المجاورة كأوزبكستان وغيرها، ويتم ترابطها مع القوى الإسلامية في

وهذا يتفق مع تحليلنا الذي ذكرناه في البحث من أن الصراع بين الشيوعية والإسلام في هذه المناطق لم ينته بانتهاء الاتحاد السوفيتي، وإنما هو دخل مرحلة جديدة لعل آسيا الوسطى تكون أهم مسرح لها (راجع ص 18، 19 من هذا البحث). والواقع أن قضية طاجيكستان هي أكبر من طاجيكستان وحدها، فأوزبكستان لا تريد عنصراً إسلامياً واحداً في المسئولية في طاجيكستان وكذلك الروس وهم يرون أنه إذا خرجت طاجيكستان من أيديهم سيمتد ذلك لبقية الجمهوريات، والأمر الأهم أن 30% مما لدى الاتحاد السوفيتي من اليورانيوم كان يأتي من طاجيكستان، وأول قنبلة نووية روسية صنعت من يورانيوم طاجيكستان، كما أن تكنولوجيا اليورانيوم وتخصيبه موجودة في طاجيكستان أنظر في أخبار الصراع في طاجيكستان: سعيد الزهراني، طاجيكستان بوابة آسيا الإسلامية تعايش الاحتضار جريدة المسلمون السنة (9)، العدد (447) الجمعة (10 من ربيع الأول 1414هـ / 27 من أغسطس 1993م).

أفغانستان وبذلك تظهر قوة إسلامية كبيرة، لذلك تم التحرك السريع بتدبير انقلاب على الحكومة الائتلافية وذلك في نوفمبر 1992م، وتنصيب شيوعي كرئيس للجمهورية، وقام الشيوعيون بالجدد بمجازر رهية وسط المسلمين، ولكل ما يمت للإسلام بصلته وكان من نتيجة هذه الهجمات البربرية مقتل ما يقارب من 100 مسلم طاجيكي، وهجرة وتشريد ما يزيد عن مليون مهاجر وصل منهم مائة ألف إلى شمال أفغانستان والبقية منتشرون وسط الجبال وهي القرى الأكثر أمناً.



الفصل الثاني عشر

الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى



الفصل الثاني عشر

الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى

تطلق هذه التسمية على تلك الجمهوريات التي تقع في أواسط آسيا، والتي استقلت عن الاتحاد السوفييتي السابق بعد انهياره في أوائل تسعينيات القرن الميلادي المنصرم، وتحدها من الشمال أراضي سيبيريا التابعة لروسيا، وهي أراض إسلامية اغتصبها الروس ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي، وتحدها من الجنوب أفغانستان وإيران، ومن الشرق الصين، وتحديدا منطقة تركستان الشرقية المسلمة الخاضعة للاحتلال الصيني، ومن الغرب بحر قزوين..

التركستان: هو الاسم الجامع لبلاد الترك الواقعة بين بحر قزوين غرباً إلى حدود جبال التبت ومنغوليا شرقاً، ويحتوي هذا الإقليم على العديد من المدن ذات الشهرة العالية التي ترتبط مسمياتها بأسماء الكثير من جهاينة علماء المسلمين، ومنها مدن بخارى وسمرقند وطاشقند وخوقند وترمذ وكاشغر وختن وبلاساغون وأسيجاب وغيرها، وسكان هذه المدن من الأتراك التتغزغز والكيماك والغز والخفشاق والقرغيز والقالبوق وغيرهم.

أما التركستان في الوقت الحالي فينقسم إلى قسمين: تركستان الشرقية (الصينية) وتركستان الغربية (الروسية) والتي تضم حالياً عدداً من الجمهوريات السوفيتية مثل قازخستان، وقرغيزستان، وتركمانستان، وأوزبكستان، وطاجيكستان، وقره قالباق وغيرها، ومعظم سكان هذه الجمهوريات من المسلمين.

وكان أول ظهور للإسلام في بلاد التركستان وما وراء النهر سنة 70هـ/689م. وذلك عندما تمكن موسى بن عبد الله حازم من فتح أرض ترمذ موطن الإمام الترمذي رحمه الله. أما الفتح الشامل لبلاد ما وراء النهر وما يلحق بها من بلاد تركستان الغربية

فكان على يد قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي نجح خلال المدة الممتدة ما بين سنتي 88-99هـ/706-714م من توسيع نطاق الفتوحات الإسلامية حيث وصلت جيوشه إلى حدود بلاد الصين شرقاً، وحمل إليه إمبراطورها الجزية، كما وطد أركان الدولة الإسلامية في تركستان الغربية وخاصة فيما يعرف اليوم بأوزباكستان وتركمانستان وطاجيكستان وقيرغيزستان. وقد استغرقت حملات قتيبة في بلاد ما وراء النهر نحواً من عشر سنوات

وتشمل خمس جمهوريات هي:

1- كازاخستان :وهي أكبر هذه الجمهوريات مساحة، إذ تبلغ مساحتها 2، 716، 000 كيلومتر مربع، أي أنها أكبر مساحة من السودان. وعدد سكانها حوالي (15 مليون) نسمة، وعاصمتها ألماتاي. تبلغ نسبة المسلمين في كازاخستان حوالي (66٪) .. أما أهم الأعراق، فالكازاخ يشكلون (45٪) من السكان، والروس (35٪).

2- أوزبكستان :مساحتها 447، 000 كيلومتر مربع، وسكانها حوالي (26 مليون) نسمة، منهم (88٪) من المسلمين. أما أهم الأعراق فهي كالتالي: الأوزبك (70٪)، الروس (10٪)، والتتار (4٪). وطشقند هي عاصمة الجمهورية، ومن مدنها التاريخية الكبرى بخارى وسمرقند.

3- تركمانستان :مساحتها 488، 000 كيلومتر مربع، وسكانها حوالي (7 مليون) نسمة، منهم (75٪) من المسلمين. وتبلغ نسبة التركمان حوالي (75٪)، والروس حوالي (25٪). والعاصمة هي عشق آباد. ومن المدن التاريخية الهامة ترمذ ومرو.

4- قرغيزستان :مساحتها 198، 000 كيلومتر مربع، وسكانها حوالي (6 مليون) نسمة، منهم (77٪) مسلمون، ونسبة القرغيز تبلغ حوالي (50٪)، والتاجيك (25٪)، والروس (15٪) .. عاصمة الجمهورية هي بيشكيك.

5- تاجيكستان: وتقع إلى الشمال مباشرة من أفغانستان. مساحتها 143، 000 كيلومتر مربع. والمسلمون يشكلون حوالي (78.6%) من السكان، وأما أهم الأعراق فهي كالتالي: التاجيك (60%)، الأوزبك (23%)، والروس (9%) .. والعاصمة هي دوشانبه. ويتميز التاجيك بعدم انتمائهم إلى العرق التركي كما هو شأن الكازاخ والأوزبك والتركمان والقرغيز.. بل هم أقرب إلى الجنس الآري الذي يشمل أيضا الفرس والبشتون.

1- الاستبداد والفساد: فقد طال التغيير كل الجمهوريات السوفيتية السابقة إلا الإسلامية منها! فهناك جرت انتخابات حرة نزيهة (أو شبه نزيهة) وتغيرت الأنظمة، وسقط الجبابرة وبدأت ملامح التغيير الديمقراطي تظهر بقوة أو على استحياء في أوكرانيا وجورجيا وأرمينيا وليتوانيا وإستونيا وغيرها بدعم سياسي واقتصادي وإعلامي واضح من الغرب، دون أن تصل تلك التغييرات إلى الجمهوريات الإسلامية، فظلت تعاني من تسلط أنظمة قمعية فاسدة هي من بقايا العهد الشيوعي المنذر، وظل يحكم تلك الجمهوريات طراز غريب من البشر رفعوا أنفسهم إلى مرتبة من لا يسأل عما يفعل.. كل ذلك بدعم من روسيا والغرب على حد سواء! فظلت هذه الأنظمة بالتالي في مأمن من الضغوط الأمريكية والأوروبية بشأن انتهاكات حقوق الإنسان، وظلت مستثناة تماما من أجندة الإصلاح والتغيير الأمريكية، وهذا التفاق الغربي ليس بمجديد، بل هو المنهج المتبع ما دام الأمر يتعلق بالمصالح، وليس رغبة حقيقية في سيادة قيم الحرية والديمقراطية.

2- تنافس القوى الكبرى: فبالرغم من التوافق الأمريكي الروسي على إبعاد هذه المنطقة عن أصولها الإسلامية، إلا أنها تتنافس في ما سوى ذلك! فالمنطقة تتميز بالموقع الاستراتيجي والثروات المعدنية الهامة، خاصة النفط.

3- ضعف الوعي الديني الصحيح: وذلك بعد سبعين عاما من الحكم الشيوعي الملحد، الذي وجه كل أجهزته الإعلامية والتربوية الجبارة نحو أي أثر للدين الإسلامي من المجتمع، وهذا يمثل تحديا خطيرا للحركات الإسلامية، حيث أن التجربة الأفغانية أثبتت أن الحماس المجرد والعاطفة الملتهبة لا يكفيان لإقامة مجتمعات إسلامية، بل لا بد من الفهم العميق الناتج عن التربية الإسلامية الجادة والشاملة.

خلال الفترة الممتدة من نهاية عام 1998م وحتى الآن، سمع العالم كما لم يسمع من قبل بمنطقة آسيا الوسطى، وبمرور الأعوام أصبحت أبعاد الصراع في آسيا الوسطى أكثر عمقا، وأصبحت امتداداته أكثر اتساعاً إضافة إلى أن القوى المتصارعة في هذه المنطقة أصبحت أكثر تنوعاً، لجهة السيطرة والنفوذ على المصالح التي أصبحت بدورها أكثر حيوية.

المجال الحيوي: جغرافيا آسيا الوسطى:

عرضياً تقع آسيا الوسطى في الرقعة الممتدة من ساحل بحر قزوين الشرقي حتى تخوم منغوليا الواقعة بين الصين وروسيا، وتقع آسيا الوسطى في المنطقة الممتدة من شمال أفغانستان وحتى حدود روسيا الجنوبية.

يضم الإقليم السياسي الخاص بمنطقة آسيا الوسطى خمسة دول: كازاخستان، تركمانستان، أوزبكستان، طاجيكستان، كيرغيزستان. وتقول المعلومات التاريخية أن هذه المنطقة ظلت لفترة طويلة تحمل اسم تركستان ولكن بعد ضمها إلى الاتحاد السوفيتي السابق، وتحديدأ في فترة حكم جوزيف ستالين، أطلقت كتب الجغرافيا السوفيتية عليها تسمية منطقة آسيا الوسطى التي كانت ضمن الاتحاد السوفيتي واستقلت بعد انهياره مكونة دول آسيا الوسطى الخمسة.

المزايا الاستراتيجية لمنطقة آسيا الوسطى:

كتب الخبراء الاستراتيجيون كثيراً عن مزايا آسيا الوسطى ووضع الخبير الاستراتيجي ماكيندر نظرية قلب الأرض الشهيرة بالاستناد إلى أهمية منطقة آسيا الوسطى باعتبارها تمثل المتغير الجيو-سياسي اللازم الذي يمثل مفتاح السيطرة على العالم، وتأسيساً على ذلك، يمكن الإشارة إلى المزايا الآتية التي تتمتع بها المنطقة والتي يمكن أن يتمتع بها من يسيطر عليها:

- التمرکز في آسيا الوسطى يتيح الإطلالة الأكثر سهولة والأقل تكلفة باتجاه:
- العمق الحيوي الروسي باتجاه الشمال.
- العمق الحيوي الصيني باتجاه الجنوب الشرقي.
- العمق الحيوي لشبه القارة الهندية باتجاه الجنوب.
- العمق الحيوي الإيراني باتجاه الجنوب الغربي.
- العمق الحيوي لكامل منطقة بحر قزوين باتجاه الغرب لجميع هذه المناطق تسعى الولايات المتحدة الأمريكية للسيطرة عليها وممارسة النفوذ فيها.
- السيطرة على موارد آسيا الوسطى تتيح التحكم في إمدادات النفط والغاز والمعادن والموارد الزراعية إلى روسيا والصين وشبه القارة الهندية ودول الاتحاد الأوروبي.
- السيطرة على ممرات آسيا الوسطى تتيح السيطرة على الممرات البرية والجوية التي تربط بين شبه القارة الهندية، وروسيا والصين، وغير ذلك من الطرق والممرات التي تتيح ضبط التفاعلات والعلاقات البينية التي تربط بين الأقاليم المحيطة بمنطقة آسيا الوسطى.

الوضع الحالي للصراع في آسيا الوسطى:

بسبب الطبيعة المعقدة للصراع في هذه المنطقة فإن من الأفضل الاعتماد على تحليل خارطة الصراع على النحو الآتي:

أولاً: الأوضاع الجزئية للصراع:

ويمكن استعراض الصراع حالياً في دول آسيا الوسطى على النحو الآتي:

• كازاخستان: يتميز النظام الحالي بالاستقرار إضافة إلى الروابط القوية مع روسيا، مع الإبقاء على باب العلاقات مفتوحاً مع كل من الصين والولايات المتحدة الأمريكية، وتقول المعلومات أن المعارضة الداخلية ضعيفة وغير قادرة على القيام بفرض أي تهديدات حقيقية في الوقت الحالي.

• تركمانستان: تتميز بالبيئة السياسية المنقسمة والذرائعية الشديدة، لجهة قدرة النظام على فرض سيطرته الداخلية الشديدة، ولكن على صعيد السياسة الخارجية فإن توجهات النظام غير مستقرة فهو يلعب على كل الخطوط وقد وقع اتفاقيات تعاون مع روسيا وأمريكا وإيران ويحاول بقدر الإمكان توظيف الأوراق الخارجية للوقاية من المخاطر الداخلية.

• أوزبكستان: كانت من أوائل الدول في آسيا الوسطى التي حاولت الارتباط بأجندة السياسة الأمريكية ولكن لاحقاً بدأت خطط العودة عن طريق إنهاء اتفاقية نشر القواعد الأمريكية فيها، وتفادي الضغوط الأمريكية التي تريد أن تجعل من أوزبكستان المر الشمالي للقوات الأمريكية في أفغانستان لتلعب دوراً مشابهاً لذلك الذي تلعبه باكستان باعتبارها المر الجنوبي. هذا، وقد سبق أن لعبت أوزبكستان هذا الدور عندما شاركت في تحرك الحملات العسكرية ضد نظام طالبان الإسلامي ففي الوقت الذي كان فيه محور الهجوم الجنوبي متحركاً من باكستان كان محور

المهجوم الشمالي متحركاً من أوزبكستان ضمن ما عرف باسم تحالف قوات الشمال. هذا، وبسبب مجاورة أوزبكستان المباشرة لأفغانستان إضافة لوجود الامتدادات القبلية ذاتها، وعلى وجه الخصوص الأوزبيك التي توجد في شمال أفغانستان وجنوب أوزبكستان، فقد انتقلت عدوى الجماعات الإسلامية المسلحة لأوزبكستان وحالياً تعتبر أوزبكستان المفصل الأكبر للحركات الإسلامية المسلحة في آسيا الوسطى.

• طاجيكستان: وهي من أكثر دول آسيا الوسطى المعرضة حالياً للاضطرابات بفعل تأثيرات الانقسامات على الخطوط الإثنية-ثقافية إضافة إلى تداعيات الحرب الأهلية الطاجيكية التي ظلت تندلع بين الفينة والأخرى، وتشير المعلومات إلى أن اندلاع الحرب الأهلية سببته عليه إشعال الصراعات داخل أوزبكستان كيرغيزستان المجاورتان لطاجيكستان.

• كيرغيزستان: تقع في أقصى الجانب الشرقي لمنطقة آسيا الوسطى وتعتبر ذات قيمة جيوسياسية خطيرة في المنطقة، لأنها تطل مباشرة على إقليم سينغ يانغ الصيني الغربي الذي تنشط فيه الحركات الإسلامية المعاصرة الانفصالية المعروفة باسم حركات الإيفغور، والذي مازال سكانه رافضين الاعتراف بالهوية القومية الصينية وبدلاً من ذلك يطلقون على منطقتهم اسم تركستان الشرقية، وعلى أنفسهم تسمية التركستانيين الشرقيين، وتقول الإحصائيات أن 70٪ من سكان الإقليم من ذوي الأصول الكيرغيزية والكازاخية.

ثانياً: الأوضاع الكلية للصراع:

يدور الصراع في المنطقة على أساس اعتبارات وجود نوعين من القوى المتورطة في الصراع ويمكن استعراض ذلك على النحو الآتي:

• القوى الإقليمية: وتمثل في إيران، تركيا، الهند، باكستان، إضافة إلى روسيا والصين باعتبارهما تجاوران الإقليم وتربطهما علاقات تعاون وصراع مرتبطة بالشأن الإقليمي.

• القوى الكبرى العظمى: وتمثل في الولايات المتحدة وروسيا والصين مع ملاحظة أن فرنسا قوة كبرى ظلت تركز على التعامل مع ملف آسيا الوسطى عن طريق الاتحاد الأوروبي.

معايير الصراع الكلي ما تزال في حدود الآتي:

• المواجهات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة من جهة، والصين وروسيا من الجهة الأخرى، ضمن ما يمكن تسميته بعلاقات الصراع.

• التعاون الدبلوماسي بين الصين وروسيا ضمن ما يمكن تسميته بعلاقات التعاون.

برغم محاولات الولايات المتحدة الأخيرة الهادفة إلى إعادة إشعال الخلافات بين روسيا والصين ومحاولة توظيف الخلافات الصينية والروسية على غرار توظيف هذه الخلافات خلال فترة الحرب الباردة السابقة فإن التعاون على خط موسكو - بكين قد قطع شوطاً كبيراً في تجاوز خلافات الماضي، عندما نجح التوافق الروسي - الصيني في بناء منظمة تعاون شنههاي ذات الطبيعة الاقتصادية - السياسية - العسكرية - الأمنية، والتي تقول التحليلات أنها:

• ستلعب دوراً كبيراً في حفظ توازن القوى الكبرى.

• ستقوم بدور الموازن الذي يقف في الجانب الشرقي في مواجهة حلف الناتو الذي يقف في الجانب الغربي.

سوحالياً، استطاعت منظمة تعاون شنغهاي النجاح في ضم دول آسيا الوسطى الخمسة إلى عضويتها بالإضافة إلى روسيا والصين، ومنغوليا مع إعطاء إيران وباكستان والمند صفة مراقب. وبسبب جهود المنظمة فقد قررت أوزبكستان عدم تجديد اتفاقيات استمرار وجود القوات الأمريكية في أراضيها إضافة إلى كيرغيزستان التي بسبب تورطها في استضافة قاعدة عسكرية أمريكية قامت على الفور باستضافة قاعدة عسكرية روسية، بحيث أصبحت القاعدتان الأمريكية والروسية توجدان على مقربة من بعضهما البعض.

تقول التوقعات أن النفوذ الأمريكي كان يمكن أن يتمدد بقدر أكبر في آسيا الوسطى لو استمرت إدارة بوش في تطبيق مخططات إدارة كليتون القائمة على تقديم المعونات وتوجيه الاستثمارات وبناء الروابط التجارية والاقتصادية ولكن إدارة بوش لجأت إلى استخدام الوسائل المدنية - العسكرية في محاولة فرض السيطرة على دول آسيا الوسطى ومن أبرز ما قامت به إدارة بوش الآتي:

• محاولة إشعال الثورات الملونة في أوزبكستان كيرغيزستان وتركمانستان وغيرها الأمر الذي أدى إلى إغضاب الأنظمة الحاكمة فيها.

• محاولة ابتزاز دول آسيا الوسطى عن طريق الربط بين تقديم المعونات وبناء الروابط وبين مدى تقديم دول آسيا الوسطى للتسهيلات الأمنية والعسكرية لأمريكا.

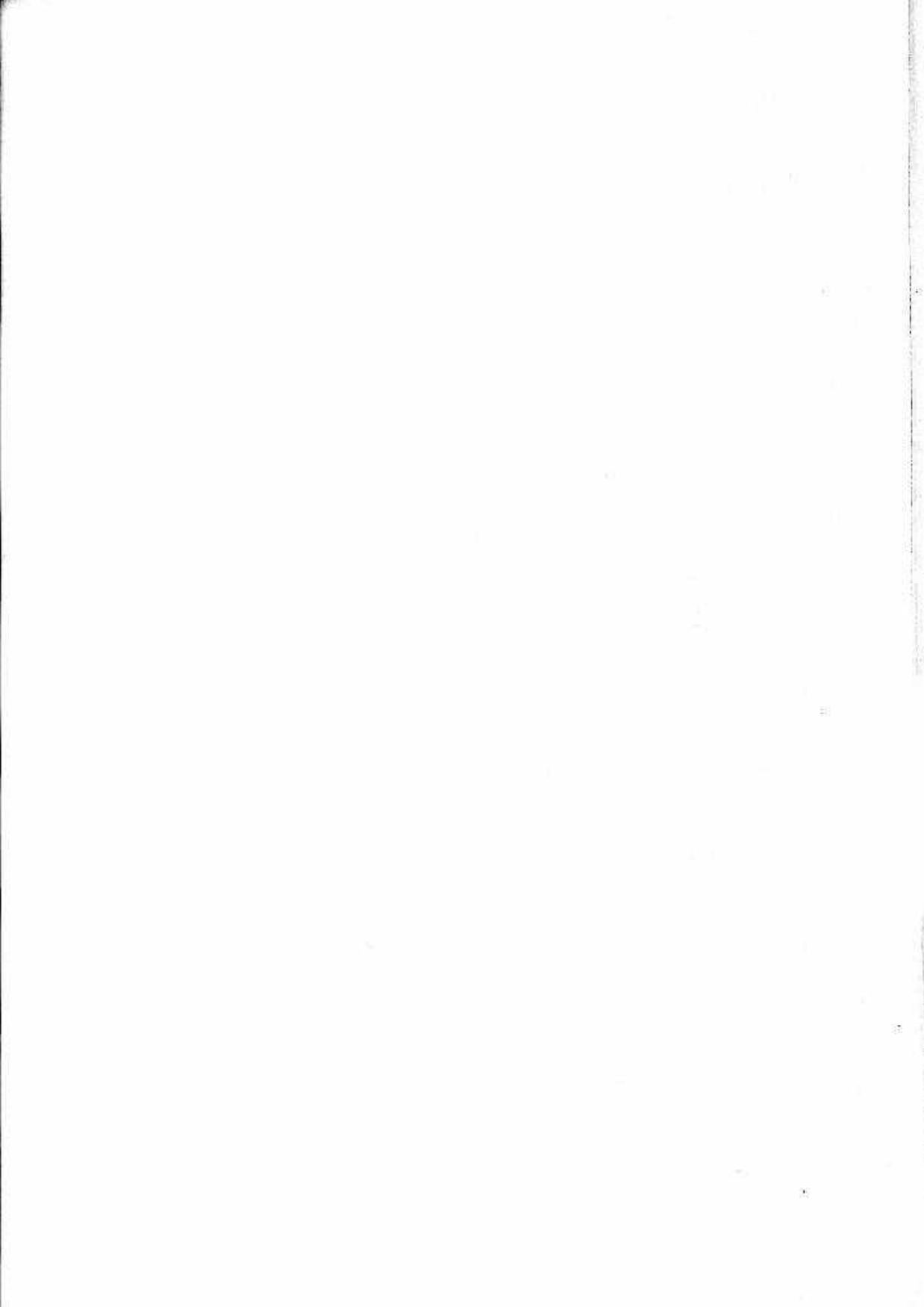
• احتلال أفغانستان والعراق وتداعياتها على الأوضاع في باكستان أدت مجتمعة إلى تشويه مصداقية واشنطن السياسية في آسيا الوسطى.

وحالياً، من الصعب على إدارة أوباما إعادة إنتاج مفاعيل جهود إدارة بوش لأن تاريخ شعوب بلدان آسيا الوسطى قد مضى قدماً، التي لم تعد ترغب في أي وجود

أمريكي في أراضيها إضافة إلى أن أنظمة آسيا الوسطى أصبحت أكثر شكوكاً ومخاوفاً إزاء
أجنحة واشنطن الحقيقية وما زاد مخاوف دول آسيا الوسطى تزايد وجود الجماعات
اليهودية التي أعادت تصديرها إسرائيل إلى المنطقة، ومحاولتها استخدام يهود طاجيكستان
وكازاخستان وتركمانستان وأوزبكستان في محاولة النفاذ والتغلغل داخل الهياكل المؤسسية
الرسمية وهو أمر انتبهت إليه هذه الدول وعلى وجه الخصوص عندما تبين أن هذه
الأقليات اليهودية قد شاركت بقدر كبير في تفعيل وتمويل حركات الاحتجاج المدني التي
اندلعت وحاولت إشعال الثورات الملونة في آسيا الوسطى على غرار الثورة البرتغالية
الأوكرانية والثورة الوردية الجورجية التي قادها ساخاشفيلي الذي يحمل جنسيتين أمريكية
وجورجية...

الفصل الثالث عشر

التغلغل الإسرائيلي في دول آسيا الوسطى



الفصل الثالث عشر

التغلغل الإسرائيلي في دول آسيا الوسطى

أصبحت إسرائيل تولي اهتمامًا خاصًا بالنفوذ إلى دول آسيا الوسطى، وتمتد العلاقات معها، لا بل تنوع هذه العلاقات لتصبح أبواب هذه الكتلة الآسيوية مفتوحة أمامها لاستثمارها؛ لدعم وجودها في فلسطين، وانعكاسات ذلك على العلاقات العربية مع دول آسيا الوسطى.

وخصص هذا البحث للإجابة عن بعض التساؤلات المهمة، لعل من أبرزها: ما أسباب التغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى؟ وما الوسائل التي استخدمتها إسرائيل لتسهيل عملية تغلغلها في دول آسيا الوسطى؟ وما مستقبل التغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى؟ وبني هذا البحث على فرضية مؤداها إمكانية حصول تأثيرات سياسية واقتصادية جراء التغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى، وانعكاساتها السلبية على العلاقات بين العرب ودول آسيا الوسطى.

أولاً: أسباب التغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى

عند البحث عن أسباب التغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى، تبدو للمراقب ثلاثة أنواع رئيسة من العوامل التي تفسر أسباب هذا التغلغل، فهي إما عوامل استراتيجية، أو اقتصادية، أو أمنية.

1- العوامل الاستراتيجية:

أ- يرى بعض الباحثين الغربيين أن هناك عدة عوامل استراتيجية للتغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى، لعل من أبرزها⁽¹⁾:

(1) تقييد دور العرب والمسلمين في آسيا الوسطى، والحد من تطوير علاقتهما المشتركة، وخاصة إذا كان لها تأثير لتقييد التحرك الإسرائيلي في المنطقة، خشية أن تثمر تلك العلاقات انعكاسات وتداعيات من شأنها أن يكون الميزان العسكري في غير صالح إسرائيل⁽²⁾.

(2) الوجود الإسرائيلي من الناحية الجغرافية مهم جدًا في تلك المنطقة، فإسرائيل ترى في آسيا منطقة عمق، وذلك لامتداد البحر الأحمر كشرط له إطلالة عسكرية، وليست أوزبكستان وحدها التي تحظى بالاهتمام الإسرائيلي، بل إريتريا وإثيوبيا.

ب- ويفسر بعض الباحثين الآسيويين أسباب تغلغل إسرائيل الاستراتيجي في آسيا الوسطى، بالتالي⁽³⁾:

- (1) تحسين الوجه الإسرائيلي، وجعله مقبولاً لدى الأوساط الآسيوية.
- (2) إظهار أهمية اعتماد دول آسيا الوسطى على إسرائيل في إعداد وتأهيل كوادرها العسكرية.
- (3) تقديم التسهيلات التي تتيح بناء علاقات مع أنظمة دول آسيا الوسطى.
- (4) إظهار قدرة إسرائيل على خدمة أجندة دول آسيا الوسطى عملياً وعسكرياً.
- (5) تحاول إسرائيل أن تربط بين دول آسيا الوسطى والشرق الأوسط، إذ إن جذب دول آسيا الوسطى في المشروع الشرق أوسطي يستحدث واقعاً جديدًا في الشرق الأوسط، لعلاج الخلل الكائن فيها من خلال ضم دول غير عربية إليها، مثل دول آسيا الوسطى والقوقاز من الشرق، وإثيوبيا من الجنوب⁽⁴⁾.

2- العوامل الاقتصادية:

يبدو أن إسرائيل أعطت الأسباب الاقتصادية أهمية خاصة في تحركها لتبرير تغلغلها في آسيا الوسطى لعل من أبرزها:

أ- انتزاع مواطني أقدام متزايدة الاتساع في أسواق آسيا الوسطى⁽⁵⁾.

ب- احتضان دول آسيا الوسطى طاقات علمية ضخمة ورثتها من تركة الاتحاد السوفيتي السابق، ومنها كازاخستان، حيث كانت تعتبر واحدة من أكثر الجمهوريات السوفيتية تقدماً من الناحية العلمية، فضلاً على وقوع مطار بايكونور الفضائي الشهير داخل أراضيها، وهو مركز إطلاق سفن الفضاء، وتجارب الصواريخ، وأبحاث حرب النجوم في العهد السوفيتي، وما تزال روسيا تستأجره للأغراض نفسها حتى الآن⁽⁶⁾.

ج- الاستحواذ على مواقع الثروة ومصادر الطاقة المستجملة⁽⁷⁾، حيث إن الثروات الهائلة التي تمتلكها الدول الخمس في آسيا الوسطى: أوزبكستان، وطاجيكستان، وتركمانستان، وقرغيزستان، وكازاخستان، هي بحد ذاتها فاتحة للشهية الإسرائيلية قبل أية حسابات استراتيجية؛ بالإضافة إلى المخزون الهائل من اليورانيوم، والذهب، والفضة، وباقي المعادن الاستراتيجية، يشكل حجم احتياطي النفط في تقديراته الأولية بحد ذاته عاملاً مشجعاً للتغلغل الإسرائيلي⁽⁸⁾، فمثلاً يبلغ المخزون النفطي لكازاخستان نحو 10 مليارات برميل، إضافة إلى نحو 2 تريليون قدم مكعب من الغاز، بينما يقدر المحتمل من النفط بنحو 30 مليار برميل⁽⁹⁾.

وتتميز تركمانستان بأنها تمتلك مخزوناً من الغاز يفوق مخزونها من النفط، وهي الدولة الوحيدة من دول آسيا الوسطى التي تتاخم إيران، وما زالت ثرواتها المؤكدة قيد الاستكشاف، حيث لم تسلط الأضواء عليها كثيراً حتى الآن⁽¹⁰⁾.

د- سعي إسرائيل إلى أن تكون محطة لاستيراد نفط آسيا الوسطى وبحر قزوين⁽¹¹⁾.

استغلت إسرائيل تنامي تيار الأصولية الإسلامية في دول آسيا الوسطى، بحيث أصبحت مجابهة هذه الظاهرة هدفاً مشتركاً بينهما، باعتبار أن الأصولية الإسلامية تشكل بالنسبة إلى الطرفين 'عدواً مشتركاً'⁽¹²⁾. وفي هذا الاتجاه، وبرغم سقوط حركة طالبان، وهيمنة الإدارة الأمريكية على أفغانستان، لم يتوقف التخوف الإسرائيلي من الأصولية الإسلامية، خاصة مع التقارب النووي الإيراني - الروسي، والوجود الإيراني الجيوسياسي في آسيا الوسطى⁽¹³⁾.

فمثلاً رصدت إسرائيل المخاوف المتزايدة لدى نظام كرموف في أوزبكستان مما يسمونه بـ'الخطر الأصولي'، الذي يمثل النموذج الأفغاني بعد الإطاحة بنظام لحبيب الله في كابول في نيسان/إبريل عام 1992م، وإصرار فصائل المقاتلين الأكثر تشدداً على طرد المجموعات الأوزبكية بزعماء الجنرال عبد الرشيد دوستم من العاصمة الأفغانية⁽¹⁴⁾.

وضاعف من المخاوف الإسرائيلية الخوف من تصاعد الأزمات الداخلية في دول آسيا الوسطى، بسبب وجود تداخل عرقي كبير بين طاجيكستان وأوزبكستان، فهناك حوالي 25 بالمئة من سكان طاجيكستان ذوي أصول أوزبكية، ونحو 20 بالمئة من سكان أوزبكستان ذوي أصول طاجيكية⁽¹⁵⁾.

وبعد ظهور حركة طالبان في أفغانستان، واستيلائها على كابول، وصولاً إلى الحدود الأوزبكية عام 1997م، كان نظام كرموف يعيش حالة من القلق والمخاوف من احتضان طالبان والقاعدة للحركات الإسلامية في أوزبكستان، وليعطي طشقند حافزاً لتعزيز علاقات تعاونها الأمني مع تل أبيب، ثم مع واشنطن، بعد أن غيرت الأخيرة موقفها من حركة طالبان عقب نفس السفارتين الأمريكيتين في دار السلام ونيروبي⁽¹⁶⁾.

ثانياً: وسائل التغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى:

1- الوسائل السياسية:

سخرت إسرائيل الوسائل السياسية كمنفذ للتغلغل في دول آسيا الوسطى، حيث تنوعت إلى ثلاثة مجالات، هي:

أ- إقامة علاقات دبلوماسية: بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بدأت إسرائيل حملة لإقامة علاقات دبلوماسية مع دول آسيا الوسطى من خلال فتح سفارات لها في تلك الدول⁽¹⁷⁾. وقد اعترفت قرغيزستان بإسرائيل خلال الزيارة التي قام بها رئيسها السابق عسكر أكاييف إلى إسرائيل في كانون الثاني/يناير عام 1993م، وقد فتحت قرغيزستان سفارة لها في تل أبيب⁽¹⁸⁾. وقد أكد ديفيد كيمحي، المدير العام السابق لوزارة الخارجية الإسرائيلية، أن إسرائيل قدمت الرشى إلى الحكام الشيوعيين مقابل إطلاق يد البعثات الإسرائيلية المختلفة في التحرك بحرية تامة داخل دول آسيا الوسطى⁽¹⁹⁾.

ب- تبادل الزيارات الرسمية: كانت إسرائيل تبعث برجالها ووفودها الرسمية إلى دول آسيا الوسطى لتمتين العلاقات بين الطرفين، فمثلاً قام أرييه ليفي من وزارة الخارجية الإسرائيلية بزيارات إلى كل من كازاخستان وطاجيكستان وقرغيزستان وأوزبكستان، بحث من خلالها سبل إقامة التعاون الاقتصادي الشامل بينها وبين هذه البلدان⁽²⁰⁾.

وقد زار نزار باييف، رئيس كازاخستان، إسرائيل في شباط/فبراير 1993م، بناء على دعوة من حكومة راين التي سعت إلى إقامة علاقات وثيقة مع كازاخستان، باعتبارها أكبر وأهم الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى⁽²¹⁾.

وقام نائب رئيس الوزراء التركمانستاني في عام 1994م بزيارة رسمية إلى إسرائيل، ورد الزيارة وقتئذ شمعون بيريس⁽²²⁾.

وفي شهر أيلول/ سبتمبر عام 1988م زار رئيس أوزبكستان إسلام كاريموف إسرائيل، ونتج من الزيارة إعداد البرنامج الخاص بطرق تطوير التعاون مع إسرائيل، الذي أقرته الحكومة الأوزبكية بعد زيارة كاريموف⁽²³⁾.

ج- المشاركة في قمة دول آسيا الوسطى: دأبت إسرائيل على أن تتواجد داخل تخوم دول آسيا الوسطى من خلال المشاركة في النشاطات السياسية، ولم تحدث هذه الخطوة لولا انفتاح تلك الدول على إسرائيل، من خلال فتح الأبواب أمامها للجلوس سويًا على مائدة المؤتمرات التي تخص شؤونها، فمثلًا حضر شمعون بيريس، النائب الأول لرئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك، قمة دول آسيا الوسطى في كازاخستان التي عقدت في حزيران/ يونيو 2006، والتقى بيريس على هامش القمة عددًا من الذين حضروا القمة، ومن بين المشاركين في القمة رئيسا روسيا والصين، ورئيس وزراء باكستان، ونائب الرئيس الإيراني⁽²⁴⁾.

2- الوسائل الاقتصادية:

أ- توقيع اتفاقيات وعقود اقتصادية: حاولت إسرائيل أن تؤسس لها موطئ قدم اقتصاديًا في دول آسيا الوسطى، من خلال توقيع عقود اقتصادية تشمل المجالات الخدمية، والتنمية، والمشاريع الزراعية، وطرق الري، التي تمتلك إسرائيل خبرة متقدمة بها⁽²⁵⁾.

وقد وقعت إسرائيل اتفاقًا مع طاجيكستان في شباط/ فبراير 1992م لنقل التقنية الزراعية الإسرائيلية، واستغلال النفط الخام الطاجيكي⁽²⁶⁾. أما أوزبكستان فقد وقعت مع إسرائيل اتفاقية في أيلول/ سبتمبر 1992م لبناء مشروع ري في إقليم أنديزان، وإنشاء مزارع نموذجية بتعاون مالي أمريكي، بالإضافة إلى تدريب خبراء في زراعة القطن، مما كان له أثره في زيادة إنتاج القطن بنسبة 30 بالمئة، وتوفير ثلثي استهلاك المياه⁽²⁷⁾.

وقد قام الإسرائيلي شاول إيرنبرغ، وهو أحد رجال الأعمال، بتوقيع عقود مع حكومة كازاخستان في عام 1992م بمشاريع قيمتها مليار دولار، تتعلق بمشروعات خاصة بالري، والاتصالات، والنفط، وغيرها، وقد مهد إيرنبرغ بهذه العقود المجال أمام حكومة إسرائيل لاستيعاب كازاخستان⁽²⁸⁾.

أما تركمانستان، فقد وقعت عدة اتفاقيات مع إسرائيل تتعلق بالتعليم والزراعة والصحة، حيث بلغت قيمة التبادل التجاري بين الطرفين عام 1995م أربعين مليون دولار⁽²⁹⁾.

من جانبها، اتفقت قرغيزستان مع إسرائيل في مناسبات عديدة في عقد التسعينيات من القرن المنصرم على التعاون في مجالات متعددة، منها: العلمية، والاتصالات، والتقنية، والمشاريع المشتركة، من خلال توقيع عدة اتفاقات اقتصادية بين الطرفين لتطوير مجالات العمل بينهما⁽³⁰⁾.

ويذكر أن حجم التجارة الثنائية بين إسرائيل وكل من كازاخستان وأوزبكستان هو حوالي 20 مليون دولار سنويًا، إضافة إلى قيام عشرات من المشاريع المشتركة⁽³¹⁾.

ب- إشراك الخبرات الإسرائيلية في المشاريع الاقتصادية: تمتلك إسرائيل خبرات متقدمة في المجالات الاقتصادية، وتسعى القيادة الإسرائيلية إلى توظيف هذه القدرات في مجال توسيع تغلغلها داخل دول آسيا الوسطى، حيث يتولى خبراء إسرائيليون إدارة المشاريع المشتركة، وتطوير البنية الاقتصادية، وتوريد التقنية المتطورة⁽³²⁾. ومن أجل إنجاح الاستثمارات الإسرائيلية في دول آسيا الوسطى، واستغلالها كغطاء لعمل أجهزتها السرية، ومنها جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الموساد، حيث زجت إسرائيل بشركات تابعة للجهاز للعمل في تلك المنطقة لجمع المعلومات، والتأشير إلى نقاط الضعف والقوة في تلك الدول؛ لتوظيفها في الاستراتيجية الإسرائيلية تجاه تلك المنطقة⁽³³⁾.

ج- تشجيع المستثمرين الإسرائيليين للعمل في دول آسيا الوسطى: قامت إسرائيل عن طريق شركة "ديفي" في كازاخستان بزيادة متزوج الحليب بنسبة 6 بالمئة، وخفضت كلفة الإنتاج إلى حد كبير، كما قامت باستثمارات محلية في قطاع المصارف والمحلات التجارية الكبرى والاتصالات⁽³⁴⁾.

وفي عام 1992 كانت شركة "بيزك" الإسرائيلية للاتصالات قد بدأت في تطوير شبكة الاتصالات الكازاخية، وكانت شركة "كباليم" قد اتفقت على إقامة مصنع للكابلات المحورية⁽³⁵⁾.

د- إنشاء خطوط نقل الغاز من دول آسيا الوسطى إلى منطقة الشرق الأوسط: حاولت إسرائيل إيجاد منافذ خارج المنطقة العربية لتوريد المنتجات النفطية، ومنها الغاز إلى مواتها، ومن هذه المنافذ دول آسيا الوسطى، حيث تنعم أرضها بثروات هائلة من النفط والغاز. وقد وقعت في منتصف عقد التسعينيات من القرن المنصرم عقداً من تركمانستان بقيمة 500 مليون دولار لتقوية مصفاة تكرير النفط في تركمانستان، فضلاً عن مد خط أنابيب غاز عبر تركيا لإيصاله إلى إسرائيل بواسطة شركة "مرهاف"⁽³⁶⁾.

هـ- تسهيل استقبال ناقلات النفط من آسيا الوسطى في الموانئ الإسرائيلية: من ضمن وسائل الترغيب الإسرائيلية مع دول آسيا الوسطى اتفاقها مع الشركات الغربية التي تشتري النفط الروسي، أو نفط دول آسيا الوسطى وبحر قزوين، على استعمال أراضيها كممر ترانزيت لهذا النفط، حيث يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أن هذه محاولة لكسر الاعتماد على قناة السويس، إلا أن الهدف الآخر غير المعلن هو السماح للناقلات التي ترسو في الموانئ الإسرائيلية بالعمل في الموانئ الخليجية، ومن ثم كسر واختراق المقاطعة العربية في هذا المجال الحيوي لإدخال إسرائيل من الباب الخلفي في مشروعات الشرق الأوسط⁽³⁷⁾.

و- تقديم المساعدات الاقتصادية: بادر عدد من رجال الأعمال الإسرائيليين إلى زيارة دول آسيا الوسطى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي؛ ليوضحوا أنه ليس ثمة أمر يدعو إلى الخوف من إسرائيل⁽³⁸⁾.

ز- عقد المؤتمرات الاقتصادية: بعد أقل من ثلاثة أشهر على انهيار الاتحاد السوفيتي، كانت إسرائيل قد نظمت في العاصمة الأوزبكية طشقند أول مؤتمر اقتصادي مشترك بينها وبين دول آسيا الوسطى في آذار/ مارس 1992م، لبحث احتياجات تلك الدول من المشروعات والمساعدات الاقتصادية، والدور الذي يمكن أن تقوم به إسرائيل في تلييتها⁽³⁹⁾.

3- الوسائل الأمنية:

تعتبر الحركة الإسلامية داخل تلك الدول، ومن أبرزها طاجيكستان، من أنشط وأقوى الحركات الإسلامية في المنطقة⁽⁴⁰⁾.

وتفسر بعض الدراسات أسباب قوة الشعور الإسلامي الذاتي لدى الشعب الطاجيكي أكثر مما هو موجود لدى بقية شعوب آسيا الوسطى، بما يأتي⁽⁴¹⁾:

تأثير الثورة الإسلامية الإيرانية التي ساهمت كثيراً في إيقاظ الوعي الديني، حيث استفادت الحركة الإسلامية الطاجيكية في توجيه الشباب من عامل اللغة التي تجمعهم مع إيران، وكانت كتب المفكر مرتضى مطهري من الكتب الإسلامية التي كان يجري تداولها سرا بين أعضاء حزب النهضة الإسلامية.

كان للحركة الأفغانية ضد الأنظمة الشيوعية والاحتلال العسكري السوفيتي للبلاد أثر كبير في هذا الإطار، فعلاقة الطاجيك وثيقة بالشعب الأفغاني الذي يشكل الطاجيك الأفغان 30 بالمئة منهم.

وتبعاً لذلك، وخشية من اتساع المد الإسلامي داخل دول آسيا الوسطى، حاولت إسرائيل أن تعرض خدماتها الأمنية والاستخباراتية لمساعدة نظم الحكم في تلك الدول

لمجابهة الحركات الأصولية المناهضة لها، إذ بدأت في عقد التسعينيات من القرن المنصرم بتنظيم دورات لتدريب كوادر أجهزة المخابرات في دول آسيا الوسطى، وفي مقدمتها أوزبكستان، على أساليب مكافحة ما يسمى بـ الإرهاب، مستندة في ذلك إلى خبرتها في مواجهة المنظمات الفلسطينية الوطنية، والحركة الوطنية اللبنانية، وخاصة منظمات حماس والجهاد وحزب الله⁽⁴²⁾.

ومن جانب آخر، كشفت نشرة عسكرية إسرائيلية النقاب عن وجود خبراء عسكريين إسرائيليين في بشكيك، عاصمة قرغيزستان، للمساعدة على إنشاء وتدريب قوة تدخل سريع لمحاربة الحركات الإسلامية⁽⁴³⁾.

وقد استغلت إسرائيل حالة الصراع السياسي الذي شهدته دول هذه المنطقة بين أنظمتها السياسية، وحركات معارضة مسلحة، غالباً إسلامية، ترى الأنظمة السياسية الحاكمة في آسيا الوسطى، كأنظمة علمانية، استمراراً للنظام الشيوعي السوفيتي. وقد عزفت إسرائيل على هذا الوتر، واتكأت على مخاوف هذه الدول لإبعادها عن احتمال بناء علاقات قوية مع العالم العربي والإسلامي، بوصفه المحيط الطبيعي لحركة هذه الدول⁽⁴⁴⁾.

ثالثاً: العوامل المؤثرة في التغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى

1- العوامل الداخلية:

تجتمع عدة متغيرات داخلية لتؤثر في عملية التغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى، وهي:

أ- وجود الموارد الطبيعية: تعتبر آسيا الوسطى، أو ترانس أوكسانيا، وهو الاسم الذي كانت تعرف به حتى بداية القرن العشرين، وهي ترجمة لاتينية للاسم الذي أطلقت العرب عندما فتحوا تلك المنطقة في القرن الهجري الأول، وهو بلاد ما وراء النهر⁽⁴⁵⁾، وتضم كلاً من أوزبكستان وطاجيكستان وكازاخستان وتركمانستان وقرغيزستان، من المناطق التي تزخر تربتها بأنواع مختلفة من المعادن والثروات الطبيعية، وسيتم تناولها بنوع من التفصيل⁽⁴⁶⁾.

(1) أوزبكستان: تعتبر أكبر دول آسيا الوسطى، حيث بلغ عدد السكان عام 2001، 24 مليون نسمة، وثانيها من حيث مستوى التقدم الصناعي والعلمي والتقني بعد كازاخستان، وعلاوة على ذلك تتمتع أوزبكستان بشروات طبيعية كبيرة من الذهب، والفضة، واليورانيوم، والنحاس، والزنك، فضلاً عن الغاز الطبيعي والفحم وغيرها، وهي تعتبر سادسة دول العالم في إنتاج الذهب بمعدل إنتاج 70 طنًا سنويًا، ورابعها من حيث احتياطات ذلك الخام الفضي الذي يبلغ 4 ملايين طن. ومعروف أن لديها القدرة على تخصيص اليورانيوم، وبالإضافة إلى ذلك تتمتع أوزبكستان بموقع جغرافي استراتيجي وفريد في قلب آسيا الوسطى.

(2) طاجيكستان: تمتلك مناجم كبيرة من اليورانيوم تم اكتشافها في الثلاثينيات؛ وفي عام 1946م، وفي مدينة تابوشا الطاجيكية، تم تشييد أول معمل سوفيتي لاستخلاص اليورانيوم الذي استخدم كمادة أولية في تصنيع بلوتونيوم القنبلة الذرية.

وفي 29 آب/ أغسطس 1949م، تم تفجير أول قنبلة بلوتونيومية مصنوعة من اليورانيوم الطاجيكي الموجود في مناجم أورسمان وتابوشار، وهناك مصنع للصواريخ في منجم ناوجزران - تشيفريك، ومنجم كيزل صهر الذي يحتوي على جانب اليورانيوم على ثروات من الذهب.

ب- وجود الجاليات اليهودية: يقدر عدد اليهود الموجودين في منطقة آسيا الوسطى بنحو 12 بالمائة ضمن إجمالي اليهود السوفيت⁽⁴⁷⁾، حيث يوجد في بخارى حوالي 8 آلاف يهودي، وفي أوزبكستان يوجد أقل من 30 ألف يهودي⁽⁴⁸⁾.

وقد اهتمت إسرائيل بالجاليات اليهودية في دول آسيا الوسطى التي كانت منضوية تحت المنظومة الاشتراكية في عهد الاتحاد السوفيتي السابق، وسعت إلى تهجيرهم إلى إسرائيل لمعالجة الخلل الديمغرافي هناك، حيث كان عام 1989م،

وهو العام الذي بدأ يشهد تدفقاً كبيراً من الهجرة اليهودية من دول الاتحاد السوفيتي السابق باتجاه الأراضي الفلسطينية المحتلة، إذ بلغ عدد المهاجرين 1.45 مليون مهاجر⁽⁴⁹⁾.

وفي عام 2002م، بلغ عدد المهاجرين 185.000، بينما قدم إلى إسرائيل عام 2003م، 125000 مهاجر، ويعتبر نصفهم تقريباً من غير اليهود في اعتقاد الحاخامية، لكن ذلك لا يمنعهم من الاستفادة من قانون العودة، حيث يمنحون الجنسية الإسرائيلية بصفتهم أهالي لليهود⁽⁵⁰⁾.

أما في عام 2004م، فقد أشارت وزارة الاستيعاب الإسرائيلية إلى تراجع أرقام الهجرة، حيث لم يتعد الرقم 22 ألف مهاجر يهودي. وتضيف المعطيات أن 143 ألف مولود جديد قد ولدوا في العام نفسه في إسرائيل⁽⁵¹⁾. وترى بعض الدراسات أن سبب انخفاض عدد المهاجرين يعود إلى تراجع كبير في عدد القادمين من دول الاتحاد السوفيتي السابق⁽⁵²⁾. أما في عام 2006، فوصل إلى إسرائيل 21 ألف مهاجر، منهم 9300 مهاجر من دول الاتحاد السوفيتي السابق، و2500 من فرنسا، و2000 من الولايات المتحدة الأمريكية⁽⁵³⁾.

وقد نقلت الإذاعة العبرية عن تقرير سري للشرطة الإسرائيلية أن مهاجرين من دول الاتحاد السوفيتي السابق أقاموا 13 تنظيمًا إجراميًا في إسرائيل تنشط في مختلف المجالات، خاصة في مجالات تبييض الأموال، والابتزاز المالي، والاتجار بالنساء، والزنى، والتزيف والخداع⁽⁵⁴⁾.

وقد أشارت بعض الدراسات إلى أسباب كثيرة لهجرة اليهود من دول آسيا الوسطى إلى إسرائيل، بينها عدم مراعاة السلطة لتأمين الظروف الثقافية والدينية الملائمة لليهود القاطنين في هذه المنطقة، وإضافة إلى ذلك يجب الأخذ بعين الاعتبار الظروف الاقتصادية المتأزمة، ومستوى المعيشة المتدني، حيث لا يتجاوز معدل الراتب الشهري في المنطقة 90 دولاراً⁽⁵⁵⁾.

وبعد تزايد النشاط الإسرائيلي في آسيا الوسطى تغيرت الاستراتيجية الإسرائيلية من استقدامهم، أي اليهود الذي يرغبون في الهجرة إلى إسرائيل إلى تشجيعهم على البقاء في دولهم، وتشكيل لوبيات للتأثير في صنع القرار في دول آسيا الوسطى.

وفعلاً بدأت إسرائيل عملية منظمة للإشراف على هذه اللوبيات، وخاصة عن طريق أحد أجهزتها السرية، الموساد الإسرائيلي، الذي أدى دوراً مهماً داخلها منذ العهد السوفيتي، من خلال جهاز خاص يتبع لرئاسة الوزراء الإسرائيلية مباشرة يدعى جهاز ألفايت، وهو الجهاز المسؤول عن تنظيم الجاليات اليهودية في المنطقة، وتهجير المطلوب هجرتهم من بين أفرادها، وتوظيف البعض منهم لصالح أجندها السياسية والاستخباراتية⁽⁵⁶⁾. ويعتبر هذا الجهاز ذراعاً قوية للتغلغل الإسرائيلي في هذه الدول، ثم لم تبخل إسرائيل أن توظف جالياتها اليهودية في المنطقة، باعتبارها أدوات لتسهيل السيطرة الأمريكية، وفتح الأبواب أمامها، والضغط على الحكومات المحلية إذا تلكأت في ذلك⁽⁵⁷⁾.

ج- القدرات والخبرات التقنية النووية: ورثت دول آسيا الوسطى قدرات وخبرات نووية عالية الكفاءة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وقد أثارت الدول الغربية ضجة كبيرة حول احتمالات حصول بلدان عربية على السلاح النووي عام 2002 من إحدى الجمهوريات التي استقلت عن الكتلة الشرقية، وسارعت الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل إلى اختراق تلك الجمهوريات الحديثة الاستقلال؛ لمحاصرة أي علاقات وثيقة بينها وبين البلدان العربية، ومنع أي احتمالات للتعاون في المجال النووي من هذه الدول، خشية من انتقال الخبرات النووية إلى العالم الإسلامي والوطن العربي⁽⁵⁸⁾.

وقد اشترت شركة سايينون ليمتد، وهي أحد فروع شركة أفريطا - إسرائيل إنفيستمنت الإسرائيلية القابضة، مجمع تسليفا للتعددين والكيمياء في كازاخستان بكل موجوداته، وهو أحد أكبر مجمعات معالجة اليورانيوم، ويبلغ إنتاجه نحو 1560-1800 طن سنوياً⁽⁵⁹⁾.

وقد اشترت الشركة الإسرائيلية المجمع الكازاخي الضخم بكل موجوداته بمبلغ ثلاثمئة وثلاثة عشر ألفاً وستمئة دولار، مع التزام الشركة بدفع أجور العاملين المتأخرة، بما يعادل مليونين وثلاثمئة وخمسين ألف دولار. وقد كلفت الصفقة كلها إسرائيل ما يعادل مليونين وستمئة وثلاثة وستين ألف دولار⁽⁶⁰⁾.

2- العوامل الإقليمية:

أ- الموقف العربي: يتصارع آرايان مختلفان حول طبيعة الموقف العربي من دول آسيا الوسطى: الأول يقلل من فاعلية هذا الدور لاعتبارات عديدة، فبالرغم من أن رئيس أوزبكستان كان أول من زار البلدان العربية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق للبحث في إمكانية إقامة تعاون اقتصادي بينها وبين هذه الدول، وإمكانية الاستثمارات العربية فيها، إلا أنه لم يجد استجابة عربية لمتطلبات بلاده، كما أن التعاطف العربي مع النخب الدينية الإسلامية المعارضة جعل النخبة الحاكمة الأوزبكية، على سبيل المثال لا الحصر، تتجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل؛ ذلك لأن النخبة الحاكمة الأوزبكية اقتنعت بمحدودية المصالح المشتركة بين دولها والوطن العربي، كما أنها رأت في المساعدات العربية الرامية إلى رفع الوعي الديني محاولة عربية للتدخل في الصراع السياسي القائم لصالح الجماعات الدينية المعارضة، الأمر الذي يضعف موقفها الداخلي. ومن ثم، فقد كان لهذه المساعدات العربية غير القائمة على معرفة دقيقة بالأوضاع السياسية في هذه الدول أثر سلبي في علاقات هذه الدول بالبلدان العربية⁽⁶¹⁾.

وترى بعض الدراسات أن سبب عزوف دول آسيا الوسطى عن التوجه إلى الجانب العربي، هو تحول منطقة بحر قزوين (إذ تقع بعض شواطئ هذه الدول على هذا البحر)،

بفعل ثرواتها الضخمة من النفط والغاز، إلى مركز استقطاب لصراعات بين قوى متعددة، إقليمية ودولية⁽⁶²⁾.

أما الرأي الثاني: فإنه يشدد على فاعلية الدور العربي في دول آسيا الوسطى، وخاصة الدور السعودي والمصري، الذي يرتبط بالضغط الأمريكية والغربية لتوظيف هذا الدور لصالحهما، وخاصة خدمة الاستراتيجية الأمريكية والإسرائيلية في المنطقة. ولعل جمهور العربية السعودية ومصر يهدف إلى محاصرة النفوذ الإيراني، وخلق فجوة سياسية وفكرية وعقائدية بين هذه الدول وإيران، مستغلة في ذلك بعض مضامين الإسلام، كاللغة العربية ومدى قداستها بين أبناء الشعوب المسلمة، وأن الإسلام جاء من العرب، وبشر به العرب، والعرب أقدر على فهمه من غيرهم، وأن ما تقوم به طهران وفق رأيهما، لا يهدف سوى إلى إثارة المشاكل، وأن طهران تعيش في أزمة علاقات مع العالم، ولا يمكن الاطمئنان إلى توجهاتها، وأنها على علاقة وثيقة بل وداعمة للتيار الأصولي الذي يؤمن بالعنف، إضافة إلى تورطها في تأييد منظمات وأعمال تدخل في نطاق التدخل في الشؤون الداخلية لدول آسيا الوسطى⁽⁶³⁾.

ويمكن استعراض الدور السعودي والمصري في دول آسيا الوسطى بالتالي:

- الدور السعودي: حاولت العربية السعودية التحرك في دول آسيا الوسطى من خلال الوسائل التالية⁽⁶⁴⁾:
- تولي العربية السعودية عناية كبيرة لبناء المساجد والمدارس، وتخرج الوعاظ.
- توزيع القرآن الكريم.
- قبول الشباب للدراسة في الجامعات السعودية ليتخرجوا أئمة مساجد.
- الدور المصري: لم تكن مصر بعيدة عن دول آسيا الوسطى، حيث سعت إلى توطيد علاقاتها من خلال عدة اتجاهات⁽⁶⁵⁾:
- إبرام الاتفاقيات الثقافية والتجارية معها.

- استقبال مصر وجامعة الأزهر مئات الطلاب المسلمين الذين كانوا يتوافدون لدراسة العلوم الإسلامية في جامعاتها.

- سعي مصر إلى أن تكون دول آسيا الوسطى سوقاً جديداً لتصريف منتجاتها.

ب- الموقف الإيراني:

(1) الوسائل السياسية⁽⁶⁶⁾:

- بادرت إيران إلى افتتاح سفارات لها في الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى لتواكب عملية بناء العلاقات السياسية والاقتصادية المتصاعدة بين الطرفين.

- تمت زيارات رسمية لرؤساء ووزراء من الطرفين، وأجريت محادثات مشتركة بصدد العديد من القضايا التي تهم الأطراف جميعاً.

وتؤشر بعض الدراسات إلى عوامل التقارب بين إيران وبعض دول آسيا الوسطى، ومنها كازاخستان، وخاصة في المجال السياسي، لعل من أبرزها⁽⁶⁷⁾:

- يمثل الوجود العسكري الأمريكي في دول آسيا الوسطى وبحر قزوين حاجساً أساسياً لكل من إيران وكازاخستان، حيث يؤثر مباشرة في استقرارهما الأمني والاقتصادي، خصوصاً في ضوء التوجه الأمريكي لتغيير مسارات خطوط أنابيب الطاقة إلى بدائل أخرى، رغم أنها ليست البدائل الأفضل اقتصادياً.

- توقيع إيران وكازاخستان عدداً من اتفاقيات التعاون المشترك فيما بينهما في مختلف المجالات.

إلا أن الدراسات السابقة نفسها تحاول التقليل من عوامل التقارب الواردة سلفاً بين إيران وكازاخستان بفعل وجود موضوعات وقضايا مهمة تذكي روح المنافسة بينهما، حيث تتركز في قضيتين أساسيتين⁽⁶⁸⁾: أولاهما، تحديد النظام القانوني لتقسيم ثروات بحر

قزوين الذي تطل عليه خمس دول، هي: كازاخستان وتركمانستان وأذربيجان وإيران وروسيا، حيث تعقدت عقب انهيار الاتحاد السوفيتي الأمور كثيراً بين إيران وكازاخستان المتشاطتين، نتيجة الخلاف حول تقسيم ثروات بحر قزوين، حيث ترى إيران أن تقسيم ثروات البحر يجب أن تكون وفقاً لموقع الدول المطلّة عليه، وهي الدول الإسلامية الأربع: كازاخستان وتركمانستان وأذربيجان وإيران، بالإضافة إلى روسيا.

أما كازاخستان، فتقترح تقسيم ثروات البحر بطريقة المشاع، ونظراً إلى هذا الاختلاف حول النظام القانوني لتقسيم ثروات بحر قزوين، فقد تهيأ المجال لتغلغل النفوذ الأمريكي إلى المنطقة، مما أدى إلى مزيد من حالة التنافسية وعدم الاستقرار، باعتباره نتيجة طبيعية لاختلاف المصالح السياسية والاقتصادية. وثانيتها، المشروعات المستقبلية لخطوط نقل الطاقة (النفط والغاز الطبيعي).

(2) الوسائل الاقتصادية⁽⁶⁹⁾:

- توسيع التبادل التجاري بين إيران ودول آسيا الوسطى.
- تصدير المواد الزراعية والمنتجات الصناعية، وبشروط ميسرة تلائم اقتصاديات دول آسيا الوسطى التي ما زالت تعاني متاعب وصعوبات جمة.
- افتتاح مصارف إيرانية في دول آسيا الوسطى قادرة على تأمين الاعتمادات اللازمة لعمليات الاستيراد والتصدير.

(3) الوسائل الثقافية⁽⁷⁰⁾:

- نشر الكتاب الإسلامي الذي يصدر عن دور نشر إيرانية.
- تأسيس المساجد والمراكز الدينية.
- إرسال كفاءات وخبرات في المجالين الديني والثقافي.

سخرت إسرائيل علاقاتها مع تركيا لصالح تسهيل عملية تغلغلها في دول آسيا الوسطى، وتأمل إسرائيل في أن تفتح تركيا الطريق أمامها إلى هذه الدول، مقابل فتح الطريق التركي للولوج في أحداث منطقة الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية بالذات⁽⁷¹⁾.

وجدير بالذكر، أن هناك علاقات مشتركة بين تركيا ودول آسيا الوسطى، فأغلب شعوب هذه الدول يتحدث بالتركية، أو لهجة متفرعة عنها، عدا طاجيكستان التي تتحدث الفارسية. كما أن المنطقة تعرضت للتركيز منذ القرن الثاني عشر حتى عرفت بـ تركستان، وبقيت تربطها بها علاقات قوية حتى انهيار الإمبراطورية العثمانية. وتبعاً لذلك، فإن هذه السمات المشتركة هي التي تدفع التيار القومي في تركيا إلى ضرورة تمتين الدائرة الثقافية التركية، وإحياء الأجداد الماضية لتركستان، التي يجب أن تقودها تركيا باعتبارها الوريث الحضاري والثقافي لها⁽⁷²⁾.

وترى بعض الدراسات أن سبب اندفاع تركيا نحو دول آسيا الوسطى هو إرساء قواعد نظام إقليمي في آسيا الوسطى وبلاد القوقاز تحت زعامتها وقيادتها، بحكم خبرتها، وتجاربها الطويلة، ونفوذها السياسي، وموقعها الجغرافي، وثقلها الدولي، باعتبار أنها عضو في حلف الأطلسي، وهي قادرة على إعطاء قدوة لهذه الدول الوليدة، وخاصة في مجالات الثقافة والنظام السياسي والتنمية الاقتصادية⁽⁷³⁾.

وقد اتبعت تركيا استراتيجية عملية للتحرك نحو دول آسيا الوسطى لتمتين العلاقات معها، وتتمثل في⁽⁷⁴⁾:

- تقديم تركيا المساعدات الاقتصادية المحدودة.
- زيادة حجم الاستثمار المالي التركي في دول آسيا الوسطى.
- أرسلت تركيا آلاف الخبراء والفنيين للعمل في شتى حقول النشاطات الاقتصادية والفنية والبضائع ومحطات الطاقة والإدارة.

- عقدت تركيا اتفاقات عديدة مع دول آسيا الوسطى لتنفيذ مشاريع تنمية من قبل الشركات التركية، وهي تهدف إلى تشغيل آلاف الأيدي العاملة، وتقليل نسبة البطالة المتفشية فيها.

3- العوامل الدولية:

تحتل منطقة آسيا الوسطى أهمية بالغة بالنسبة إلى القوى الكبرى، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية للأسباب التالية⁽⁷⁵⁾:

- ضمان عدم عودة الدول المستقلة إلى مجال النفوذ الروسي.
- عدم ارتهان ثروات هذه المنطقة للهيمنة الروسية.
- الحيلولة دون مد النفوذ الصيني من الشرق، والنفوذ الإيراني من الجنوب إلى المنطقة.
- ونتيجة لوقوع شواطئ بعض دول آسيا الوسطى على بحر قزوين، فإن التطلعات الاستراتيجية الأمريكية تهتم بهذه المنطقة نتيجة للعوامل التالية⁽⁷⁶⁾:
- الحيلولة دون هيمنة روسية على النفط توفر لروسيا أموالاً طائلة تمكنها من تطوير صناعتها النفطية الخاصة.
- الحيلولة دون تحول روسيا إلى مزود رئيس مباشر بالنفط بالنسبة إلى أوروبا.
- ضمان تدفق نفط بحر قزوين إلى العالم من خلال يد أمريكية.
- تخفيض أسعار النفط إلى حد لا يضر بمصالح الشركات الدولية.
- إيجاد التوازن بين منطقة بحر قزوين ومنطقة الخليج العربي، بحيث لا تعود منطقة الخليج تتمتع بالمزايا الاستراتيجية الراهنة.

وترى بعض الدراسات أن من الأسباب التي حفزت الولايات المتحدة الأمريكية على دعم التغلغل الإسرائيلي في دول آسيا الوسطى، ما يعود إلى تطويرها فكرة ومشروع الاستقلال منذ أواخر السبعينيات من القرن المنصرم، لإيقاف الاعتماد على نفط منطقة الخليج العربي، ومحاولة إيجاد بدائل أو مصادر طاقة أخرى⁽⁷⁷⁾.

وإضافة إلى ما ذكر، فإن المصالح الأمريكية والإسرائيلية تلتقي حول استراتيجية واحدة، مفادها تحييد دور إيران في دول آسيا الوسطى، خشية من التقارب بين إيران والشعوب المسلمة في هذه الدول، وخافة أن يؤدي ذلك إلى نمو التيار الإسلامي الأصولي بتأثير التمدد الثقافي والسياسي في تقوية هذا التيار في كل المنطقة، أي من آسيا الوسطى إلى الشرق الأوسط، إلى شمالي إفريقيا، وتهدف استراتيجية واشنطن إلى احتواء هذه الخطر قبل اتساعه وفقدان السيطرة عليه، لأن نمو التيار الإسلامي الثوري سيرسخ الحقيقة القائلة: إن الجولة الحضارية القادمة ستكون بين الإسلام والأيدولوجيا الغربية⁽⁷⁸⁾.

وقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية أن تضيف الطابع الأمريكي على استراتيجيتها تجاه دول آسيا الوسطى، وكما حدد ذلك نائب وزير الخارجية الأمريكية السابق، ستروب تالبون، في خطاب له ضمن أنشطة مركز آسيا الوسطى والقوقاز، حيث أشار إلى أن الاستراتيجية الأمريكية للدخول في المنطقة، أو اختراقها، أو الهيمنة عليها تقوم على الأسس التالية⁽⁷⁹⁾:

- تطوير الديمقراطية.

- خلق اقتصاد السوق الحرة.

- احتضان السلم والتعاون بين دول المنطقة.

- إدماج دول المنطقة في منظومة المجتمع الدولي.

وقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية إقامة حكومات قرية لواشنطن ومتحالفة معها على أقل تقدير في منظومة دول آسيا الوسطى، وهذه المتغيرات تلاقت مع توجهات

النخب الحاكمة، وخاصة في جمهورية أوزبكستان التي حاولت بناء علاقات جيدة مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل للأسباب التالية⁽⁸⁰⁾:

- خوض إسلام كريموف، رئيس أوزبكستان، حربًا بلا هوادة ضد الأصولية الإسلامية في بلاده وفي منطقة آسيا الوسطى، وأنه أبدى استعدادًا للتعاون في مكافحة ما يسمى الإرهاب الدولي مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل.
- اهتمام كريموف بالتعاون الاقتصادي والفني مع إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية في العديد من المجالات، ويرى أن هذا التعاون يمكن أن يساعده على تحقيق التنمية الاقتصادية.
- تشجيع كريموف الجالية اليهودية على إحياء دورها في أوزبكستان، فضلاً عن تشجيعه نشاط الوكالة اليهودية، وإعادة بناء المعابد اليهودية.
- زيادة كريموف عدد المدارس الخاصة بالأطفال اليهود.
- فتح كريموف أبواب الهجرة إلى إسرائيل أمام يهود أوزبكستان.

رابعاً: مستقبل التغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى:

عند قراءة مستقبل التغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى، يطفو على سطح المستقبل المنظور سيناريو هان: الأول يرجح تأثير التغلغل الإسرائيلي في العلاقات بين العرب ودول آسيا الوسطى، والثاني ينفي أي تأثير للتغلغل الإسرائيلي في العلاقات بين العرب ودول آسيا الوسطى، وستتم معالجتهما تباعاً.

السيناريو الأول: يؤثر التغلغل الإسرائيلي في العلاقات بين العرب ودول آسيا الوسطى، ومن بين أهداف إسرائيل بالتضامن مع الولايات المتحدة الأمريكية من التغلغل في آسيا الوسطى، هو منع تسرب التقنية والموارد والخبرات النووية، وكذلك تقنية

الصواريخ وغيرها من الأسلحة التقليدية، أو فوق التقليدية المتطورة الموروثة عن العهد السوفيتي من دول آسيا الوسطى، وخاصة كازاخستان وأوزبكستان، إلى البلدان العربية، حرصاً على احتفاظ إسرائيل بتفوقها العسكري النوعي⁽⁸¹⁾.

ولاشك في أن هذا المتغير سيؤثر في العلاقات بين العرب ودول آسيا الوسطى، حيث ستميل الأخيرة إلى تسخير خبراتها لإسرائيل أكثر من العرب، ولاسيما أن إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية عملاً على استخدام وسائل الترغيب تجاه دول آسيا الوسطى، ومن ضمنها دعمها بالمساعدات الاقتصادية، ولاسيما أن هذه الدول ورثت هياكل اقتصادية ضعيفة من النظم الشمولية، ولا توجد حركة اقتصادية تساعد على مجابهة التحديات الاقتصادية بعد عقد التسعينيات من القرن المنصرم، وأبرزها عولمة الاقتصاد، واتباع نهج اقتصاد السوق والخصخصة.

وتبعاً لذلك، تسعى إسرائيل إلى إطباق العزلة على البلدان العربية، ومنعها من الدخول في النادي النووي، بالرغم من الفرصة التاريخية التي توفرت لها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، من خلال توفر الخبرات النووية والقدرات في هذا المجال في دول آسيا الوسطى، التي قد تساعد على انتقال هذه إلى البلدان العربية، من أجل تطوير قدراتها وخبراتها النووية للموازنة مع قدرات إسرائيل النووية، أو تطوير الأمر إلى امتلاك هذه القدرات، لفرض عامل الردع النووي تجاه إسرائيل؛ للتخفيف من حدة التلويح بقدراتها النووية، وترهيب العرب بها.

ومن بين الأهداف التي تسعى إسرائيل إلى تحقيقها جراء تطوير علاقاتها مع دول آسيا الوسطى، ضم هذه الدول بالتدرج إلى منطقة الشرق الأوسط، باعتبارها عنصراً جديداً مهماً للمشروع الأمريكي - الإسرائيلي (الشرق الأوسط الجديد أو الكبير)، وتبذل إسرائيل كل ما بوسعها من أجل دخول هذه الدول إلى الشرق الأوسط، وفقاً للشروط التي تعكس مصالحها. ومن هذه الشروط بقاء هذه الدول علمانية، الأمر الذي من شأنه تقليص دور الدول الإسلامية. وإذا دخلت هذه الدول الشرق الأوسط الأوسع على

أساس هذه الشروط سينغير ميزان القوى في المنطقة لصالح إسرائيل. أما أداة تحقيق هذا الهدف، فهي إثارة قلق آسيا الوسطى بمخطر الجماعات الأصولية، أو بتوهم هذا الخطر⁽⁸²⁾.

ويبدو أن وجود دول آسيا الوسطى في أي منظمة إقليمية جديدة تحت لواء الشرق الأوسط الجديد، برعاية أمريكية وإسرائيلية، سيكون عبئاً على العرب، واختلالاً واضحاً في موازين القوى، لأن دول آسيا الوسطى ستكون مجندة لصالح الاستراتيجية الإسرائيلية في المنطقة بفعل العلاقات الوظيفية معها، مما سيرتب ضغوطاً جديدة على السياسات العربية في مواجهة السياسة الإسرائيلية بالتوافق مع الدول الآسيوية المنضمة إلى الشرق الأوسط الجديد.

ويرى بعض الخبراء أن من الآثار الاستراتيجية في العلاقات الإسرائيلية مع دول آسيا الوسطى هو توظيف هذه الدول-التي تنتهج نهجاً علمانياً- في مواجهة الإسلام والمسلمين؛ للتصدي للتأثير الإيراني، ومنع إيران من تحقيق هدف فرض النفوذ من خلفية إسلامية في تركيا، وتسعى من خلال التعاون مع حكومة أنقرة إلى أن تكون لها مجسات في منطقة متاخمة للمحدود السورية - العراقية⁽⁸³⁾.

ويبدو أن من النتائج المتوقعة جراء ذلك حدوث اختلالات أمنية في المنطقة، جراء أي عملية مواجهة سياسية واقتصادية بين دول آسيا الوسطى المؤيدة لإسرائيل وإيران، ولاسيما بعد تواجدها في المنطقة بشكل فعلي في المستقبل المنظور، وهي ستؤثر بالتأكيد في مسلمات الأمن القومي العربي، وستؤثر في العلاقات بين العرب ودول آسيا الوسطى، لاستهجان العرب لأي صراع إرادات في المنطقة هي في غنى عنها، ولاسيما إذا كان الطرف فيها دول آسيا الوسطى.

ويبدو أن إسرائيل "دفعت بخبراتها الاقتصادية لتقدمها إلى دول آسيا الوسطى لتشكل معها علاقات هيكلية، خاصة في المجال الزراعي والتجاري. فضلاً على ذلك، تسعى إسرائيل إلى استخدام أسواق هذه الدول لصالحها لترويج البضائع الإسرائيلية، وتحجيم أي وجود اقتصادي عربي داخل هذه الدول.

وتأسيسًا على ذلك، فإن هذه التوجهات الإسرائيلية ستؤثر في أي اندفاع اقتصادي عربي داخل هذه الدول، ولا سيما أنها يمكن أن تكون ساحة مفتوحة أمام البضائع العربية، ناهيك عن أن هذه الدول يمكن أن تُزج بها العمالة العربية بشكل واسع، مع إمكانية وجود المستثمرين العرب هناك لخلق وشائج اقتصادية معها، إلا أن إسرائيل تحاول بأي شكل من الأشكال إثبات حضورها الاقتصادي، ومحاولة اعتماد هذه الدول على خبراتها، لينتفي التفكير في أي مجال للتعاون مع الأطراف الأخرى، ومنها الأطراف العربية.

السيناريو الثاني: لا يؤثر التغلغل الإسرائيلي في العلاقات بين العرب ودول آسيا الوسطى، وإن إمكانية نمو هذا السيناريو غير مستحيلة، ولا سيما إذا كانت هناك إرادة عربية جادة للتواجد في دول آسيا الوسطى، إذ بدأت البلدان العربية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بإقامة علاقات دبلوماسية مع هذه الدول، واستقبلت كبار المسؤولين منها، حيث كان إسلام كريموف، رئيس أوزبكستان، أول رئيس دولة من هذه الدول يقوم بزيارة إلى البلدان العربية للبحث في إمكانية التعاون معها في مجالات الاستثمار والتنمية الاقتصادية المختلفة، كما قامت بعثات حكومية عربية تضم وزراء ورجال أعمال بزيارة هذه الدول، بما فيها أوزبكستان، باستطلاع الأوضاع الجديدة في هذه الدول، بما يمكنها من إرساء العلاقات معها على أسس سليمة، إلا أن التحرك العربي اللاحق اقتصر على الجانب الديني والثقافي فقط، دون أن يمتد إلى الجانب الاقتصادي، الذي كانت له أولوية خاصة لدى الدول بحكم الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تواجهها⁽⁸⁴⁾.

ويمكن للعرب أن يكون لهم حضور فاعل في دول آسيا الوسطى إذا ساروا وفق استراتيجية محكمة لتفعيل علاقاتهم مع هذه الدول، وتنشيط الجوانب السياسية والاقتصادية، وجعل الطرفين يستفيد أحدهما من الآخر بمصالح متبادلة، مما سيعطي طابعًا متميزًا لعلاقتهم، وإمكانية تحييد الوجود الإسرائيلي فيها، لأن هذه الدول تأمل من البلدان العربية في أن تكون لها معينًا وعاملًا مساعدًا للوقوف على أقدامها، بعد أن

خرجت من عنق الكتلة الاشتراكية، وهي محملة بالمشاكل الاقتصادية التي تأمل أن يساعدها الآخرون لجعلها تتأقلم مع التطورات الدولية الجديدة، وخاصة في المجال الاقتصادي، ولا سيما السير في طريق الاندماج مع عمليات إضفاء طابع اقتصاد السوق. وهنا يمكن للبلدان العربية أن يكون لها شأن في هذا المجال إذا أحسنت في تقديم خبراتها في المجالات الزراعية والتجارية والاقتصادية لهذه الدول لتطوير خدماتها، ووظائفها الاقتصادية، ناهيك عن إمكانية التعاون مع هذه الدول في المجال النفطي، والاستفادة من الخبرات العربية في هذا المجال، مع وجود ثروة نفطية هائلة في دولها، فضلاً على ذلك، يمكن للبلدان العربية أن توظف العامل الديني والثقافي في مجال تمتين العلاقات مع هذه الدول، إذ يمكن أن تكون البلدان العربية حاضرة في هذا الإطار داخل الجمهوريات الإسلامية لتكون عوناً لها على فهم الإسلام بصورة صحيحة، وتسهيل توافد الوفود من هذه الدول إلى الأماكن المقدسة في البلدان العربية، وخاصة في العربية السعودية والعراق، إذ قد يكون هذا التواصل من شأنه خلق وشائج بين الشعوب يمكن أن تؤثر في صيرورة العلاقات بين دول آسيا الوسطى والعرب.

ويمكن للعرب أن يستفيدوا من الخبرات والقدرات النووية داخل هذه الدول من خلال تفعيل التعاون النووي بين الطرفين، وإمكانية ربطه بالتعاون النفطي، إذ يمكن لهذه الدول أن تمنح البلدان العربية خبراتها وقدراتها النووية، في مقابل تقديم العرب لخبراتهم وإرسال خبراتهم إلى تلك الدول، لتحسين واستثمار الثروة النفطية، وتطوير عمليات التنقيب، وبناء المصافي، وتكرير النفط، ومد خطوط لنقل النفط، وتدريب طاقاتهم البشرية داخل المؤسسات النفطية العربية، حيث يمكن أن ينتج في النهاية حزمة من العلاقات يمكن أن تحد من التغلغل الإسرائيلي داخل تلك الدول.

خاتمة

لقد وصل التغلغل الإسرائيلي في آسيا الوسطى إلى مستوى بدأ يهدد العلاقات بين تلك الدول والعرب، لأن الجهد الإسرائيلي في تحركه داخل تلك الدول لا يخرج من أهدافه: تقليل أو تحجيم الدور العربي في آسيا الوسطى، من خلال استخدام مختلف الوسائل السياسية، والاقتصادية، والاستخبارية، لتسهيل عملية مد النفوذ الإسرائيلي هناك.

وقد لا يتفق أكثر الخبراء والمحللين مع القول الذي يشير إلى أن فرصة العرب داخل آسيا الوسطى قد سحبتها إسرائيل من تحت أقدامهم، لأن بمقدور الجانب العربي أن يكون فاعلاً داخل تلك الدول، ليس بالتصريحات والتمنيات الشخصية، بل عبر وضع استراتيجية عمل حقيقية لتنظيم العلاقات مع دول آسيا الوسطى، حيث إن هناك الكثير من المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية، يمكن أن يبحثها العرب مع تلك الدول، وتأسيس آليات عمل مشتركة للتعاون فيما بينهما، والأمر يحتاج إلى نوع من الجدية والعمل المثابر، لأن الزمن يجري وإسرائيل تَمْضِي في مخططها للنفاذ إلى داخل تلك الدول، ومنع أي أطراف أخرى، ومنها العربية، من أخذ زمام المبادرة، بدلاً منها، في الاستثمار الاقتصادي، والاستفادة من ثروات تلك الدول لصالحها.

ويبدو أن تنمية الوجود العربي في آسيا الوسطى ليس بالأمر السهل؛ لأن ذلك يحتاج إلى تضافر كل الجهود العربية، وتعاون كل المؤسسات والتجمعات العربية، ومن ضمنها جامعة الدول العربية، ومجلس التعاون الخليجي، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ومراكز البحوث، والجامعات، والمؤسسات الحكومية العربية، ومنظمات المجتمع المدني وغيرها.

الكل يجب أن يوظفوا جهودهم لتطوير العلاقة مع هذه الدول، لأن تفويت الفرصة على أي طرف آخر هو لصالح العرب، ولا سيما إذا أحسنوا من تحركاتهم لتوظيف هذه الدول باتجاه خدمة القضايا العربية، ومنها القضية الفلسطينية، ومعادلة التوازن في القدرات النووية مع إسرائيل في إطار الصراع العربي - الإسرائيلي.

الهوامش:

- (1) سعيد السبكي، وجراهام دولك، خبير الشؤون الآسيوية في هولندا: إسرائيل جندي تسهيلات لأمريكا في آسيا الوسطى، البيان (الإمارات)، 25/1/2002م.
- (2) بيسان عدوان، النزاع الإسرائيلي - الإيراني في آسيا الوسطى والشرق الأوسط، مختارات إيرانية، العدد 56، (آذار/ مارس 2005).
- (3) نوار القيسي، الغياب العربي - الإسلامي عن الساحة الآسيوية فتح الباب على مصراعيه: الاستراتيجية أمريكية، والتنفيذ صهيوني، والمصلحة مشتركة، البيان، 25/1/2002م.
- (4) عدوان، المصدر نفسه.
- (5) محمد فراج أبو النور، آسيا الوسطى - منطقة جديدة للصراع والتوغل الصهيوني، البيان، 25/1/2002م.
- (6) عدوان، المصدر نفسه.
- (7) أبو النور، المصدر نفسه.
- (8) محمد أحمد يوسف، الكتلة الأكثر إثارة في التوازنات الجديدة.. دولة الكيان الصهيوني تتسلل إلى عمق آسيا الوسطى من الباب الخلفي، البيان، 25/1/2002م.
- (9) النفط والجيوستراتيجية المعاصرة، مجلة علوم البيئة والطاقة، (28 حزيران/ يونيو 2006م)
- (10) المصدر نفسه.
- (11) نظام مارديني، خط النفط جيهان - تبليسي - باكو - إسرائيل تحميه وإيران تهدده، الحياة، 26/9/2006م، ص 15.
- (12) عدوان، النزاع الإسرائيلي - الإيراني في آسيا الوسطى والشرق الأوسط.

(13) المصدر نفسه.

(14) هويدا سعيد، حقائق وأرقام.. آسيا الوسطى والقوقاز تشابك الثروات والأعراق والمصالح الدولية، البيان، 2002/1/25م.

(15) المصدر نفسه.

(16) المصدر نفسه.

(17) جعفر عبد الرزاق، الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والاستقطاب الدولي، الفكر الجديد، (5 آذار/ مارس 1993م).

(18) خالد إبراهيم بعباع، إسرائيل والجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، الدستور (عمان)، 2005/4/4م.

(19) نيازي صفر، طاجيكستان - المسلمون يواجهون خطر الاحتواء، <http://www.darislam.com>

(20) مصطفى الطحان، المنسيون ورد في: <http://www.islamtoday.net> and <http://www.altareekh.com>.

(21) القيسي، الغياب العربي - الإسلامي عن الساحة الآسيوية فتح الباب على مصراعيه: الاستراتيجية أمريكية، والتنفيذ صهيوني، والمصلحة مشتركة.

(22) بعباع، إسرائيل والجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى.

(23) ليوند سيوكيانين، تغلغل سياسي اقتصادي وأدوار مشبوهة للدولة الصهيونية الشريك الأصغر لأمريكا في آسيا الوسطى، البيان، 2002/1/25م.

(24) شمعون بيريز يشارك في قمة دول آسيا الوسطى بكازاخستان، وكالة الأنباء القطرية، <http://www.qnaol.com>، 2006/6/16م.

(25) عبد الرزاق، الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والاستقطاب الدولي.

(26) بعباع، إسرائيل والجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى.

(27) المصدر نفسه.

(28) القيسي، الغياب العربي - الإسلامي عن الساحة الآسيوية فتح الباب على مصراعيه: الاستراتيجية أمريكية، والتنفيذ صهيوني، والمصلحة مشتركة.

(29) بعباع، المصدر نفسه.

(30) المصدر نفسه.

(31) سيوكيانين، تغلغل سياسي اقتصادي وأدوار مشبوهة للدولة الصهيونية الشريك الأصغر لأمريكا في آسيا الوسطى.

(32) عبد الرزاق، الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والاستقطاب الدولي.

(33) القيسي، الغياب العربي - الإسلامي عن الساحة الآسيوية فتح الباب على مصراعيه: الاستراتيجية أمريكية، والتنفيذ صهيوني، والمصلحة مشتركة.

(34) بعباع، إسرائيل والجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى.

(35) سعيد، حقائق وأرقام: آسيا الوسطى والقوقاز تشابك الثروات والأعراق والمصالح الدولية.

(36) بعباع، المصدر نفسه.

(37) وليد خدوري، الأبعاد النفطية في العلاقات الخليجية - الأمريكية، شبكة البصرة، 2005/2/14م.

(38) محمد سعد أبو عامود، في ظل أخطاء السياسة العربية والتحول الاستراتيجية.. أمريكا ودولة الكيان وسيناريوهات المصالح المشتركة في آسيا، البيان، 2002/1/25م.

(39) سعيد، حقائق وأرقام.. آسيا الوسطى والقوقاز تشابك الثروات والأعراق والمصالح الدولية.

(40) صفر، طاجيكستان - المسلمون يواجهون خطر الاحتواء.

- (41) المصدر نفسه.
- (42) سعيد، المصدر نفسه.
- (43) عدوان، النزاع الإسرائيلي - الإيراني في آسيا الوسطى والشرق الأوسط.
- (44) ممدوح الشيخ، مخططات غربية صهيونية: حضور الكيان الصهيوني في آسيا الوسطى ليس المشكلة بل غيابنا، البيان، 2002/1/25م.
- (45) سعيد، حقائق وأرقام.. آسيا الوسطى والقوقاز تشابك الثروات والأعراق والمصالح الدولية.
- (46) المصدر نفسه.
- (47) عبد الوهاب المسيري، هجرة اليهود السوفيت.. منهج في الرصد وتحليل المعلومات، كتاب الهلال 48 (القاهرة، دار الهلال، 1990)، ص 149.
- (48) سيوكيانين، تغلغل سياسي اقتصادي وأدوار مشبوهة للدولة الصهيونية الشريك الأصغر لأمريكا في آسيا الوسطى.
- (49) نبيل السهلي، إسرائيل وحصاد عام 2004، نشرة الملف، العدد 156، ورد في شبكة المشكاة الإسلامية.
- (50) تراجع جديد للهجرة في إسرائيل خلال عام 2003، معهد الشرق العربي (لندن)، <http://www.thisissyria.net>.
- (51) السهلي، المصدر نفسه.
- (52) محمد إسماعيل، الهجرة اليهودية في تراجع مستمر، مركز العودة الفلسطيني (لندن)، النشرة الرقم 148، (نيسان/ إبريل 2004).
- (53) علي بدوان، الدولة الصهيونية بعد 58 سنة من قيامها، الوطن (الدوحة)، 2006/5/7م.
- (54) نقلًا عن: الإذاعة العبرية (نيسان/ أبريل 2006)، إنصات شخصي.

- (55) سيوكيانين، تغلغل سياسي اقتصادي وأدوار مشبوهة للدولة الصهيونية الشريك الأصغر
لأمريكا في آسيا الوسطى.
- (56) أبو النور، آسيا الوسطى - منطقة جديدة للصراع والتوغل الصهيوني.
(57) المصدر نفسه.
- (58) عبد الله حمودة، افتراضات، الوطن، 2002/9/9م، والطحان، المنسيون.
- (59) سعيد، حقائق وأرقام: آسيا الوسطى والقوقاز تشابهك الثروات والأعراق والمصالح
الدولية.
(60) المصدر نفسه.
- (61) أبو عامود، في ظل أخطاء السياسة العربية والتحولت الاستراتيجية.. أمريكا ودولة
الكيان وسيناريوهات المصالح المشتركة في آسيا.
(62) المصدر نفسه.
- (63) عبد الرزاق، الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والاستقطاب الدولي.
(64) المصدر نفسه.
- (65) المصدر نفسه.
- (66) المصدر نفسه.
- (67) حسين صوفي محمد، إيران وكازاخستان.. محددات التقارب، مختارات إيرانية، العدد 69
(نيسان/ إبريل 2006).
- (68) المصدر نفسه.
- (69) عبد الرزاق، الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والاستقطاب الدولي.
(70) المصدر نفسه.
- (71) صفر، طاجيكستان - المسلمون يواجهون خطر الاحتواء.

(41) المصدر نفسه.

(42) سعيد، المصدر نفسه.

(43) عدوان، النزاع الإسرائيلي - الإيراني في آسيا الوسطى والشرق الأوسط.

(44) ممدوح الشيخ، مخططات غربية صهيونية: حضور الكيان الصهيوني في آسيا الوسطى
ليس المشكلة بل غيابنا، البيان، 25/1/2002م.

(45) سعيد، حقائق وأرقام.. آسيا الوسطى والقوقاز تشابك الثروات والأعراق والمصالح
الدولية.

(46) المصدر نفسه.

(47) عبد الوهاب المسيري، هجرة اليهود السوفيت.. منهج في الرصد وتحليل المعلومات،
كتاب الهلال 48 (القاهرة، دار الهلال، 1990)، ص 149.

(48) سيوكيانين، تغلغل سياسي اقتصادي وأدوار مشبوهة للدولة الصهيونية الشريك الأصغر
لأمريكا في آسيا الوسطى.

(49) نبيل السهلي، إسرائيل وحصاد عام 2004، نشرة الملف، العدد 156، ورد في شبكة
المشكاة الإسلامية.

(50) تراجع جديد للهجرة في إسرائيل خلال عام 2003، معهد الشرق العربي (لندن)،
<<http://www.thisissyria.net>>.

(51) السهلي، المصدر نفسه.

(52) محمد إسماعيل، الهجرة اليهودية في تراجع مستمر، مركز العودة الفلسطيني (لندن)،
النشرة الرقم 148، (نيسان/ إبريل 2004).

(53) علي بدوان، الدولة الصهيونية بعد 58 سنة من قيامها، الوطن (الدوحة)،
2006/5/7م.

(54) نقلًا عن: الإذاعة العبرية (نيسان/ أبريل 2006)، إنصات شخصي.

(55) سيوكيانين، تغلغل سياسي اقتصادي وأدوار مشبوهة للدولة الصهيونية الشريك الأصغر
لأمريكا في آسيا الوسطى.

(56) أبو النور، آسيا الوسطى - منطقة جديدة للصراع والتوغل الصهيوني.

(57) المصدر نفسه.

(58) عبد الله حمودة، افتراضات، الوطن، 2002/9/9م، والطحان، أنيسون.

(59) سعيد، حقائق وأرقام: آسيا الوسطى والقوقاز تشابك الثروات والأعراق والمصالح
الدولية.

(60) المصدر نفسه.

(61) أبو عامود، في ظل أخطاء السياسة العربية والتحويلات الاستراتيجية.. أمريكا ودولة
الكيان وسيناريوهات المصالح المشتركة في آسيا.

(62) المصدر نفسه.

(63) عبد الرزاق، الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والاستقطاب الدولي.

(64) المصدر نفسه.

(65) المصدر نفسه.

(66) المصدر نفسه.

(67) حسين صوفي محمد، إيران وكازاخستان.. محددات التقارب، مختارات إيرانية، العدد 69
(نيسان/إبريل 2006).

(68) المصدر نفسه.

(69) عبد الرزاق، الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والاستقطاب الدولي.

(70) المصدر نفسه.

(71) صفر، طاجيكستان - المسلمون يواجهون خطر الاحتواء.

(72) عبد الرزاق، المصدر نفسه.

(73) المصدر نفسه.

(74) المصدر نفسه.

(75) النفط والجيواستراتيجية المعاصرة.

(76) المصدر نفسه.

(77) خدوري، الأبعاد النفطية في العلاقات الخليجية - الأمريكية.

(78) عبد الرزاق، الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والاستقطاب الدولي.

(79) سعيد، حقائق وأرقام.. آسيا الوسطى والقوقاز تشابك الشروات والأعراق والمصالح الدولية.

(80) أبو عامود، في ظل أخطاء السياسة العربية والتحول الاستراتيجي.. أمريكا ودولة الكيان وسيناريوهات المصالح المشتركة في آسيا.

(81) أبو النور، آسيا الوسطى - منطقة جديدة للصراع والتوغل الصهيوني.

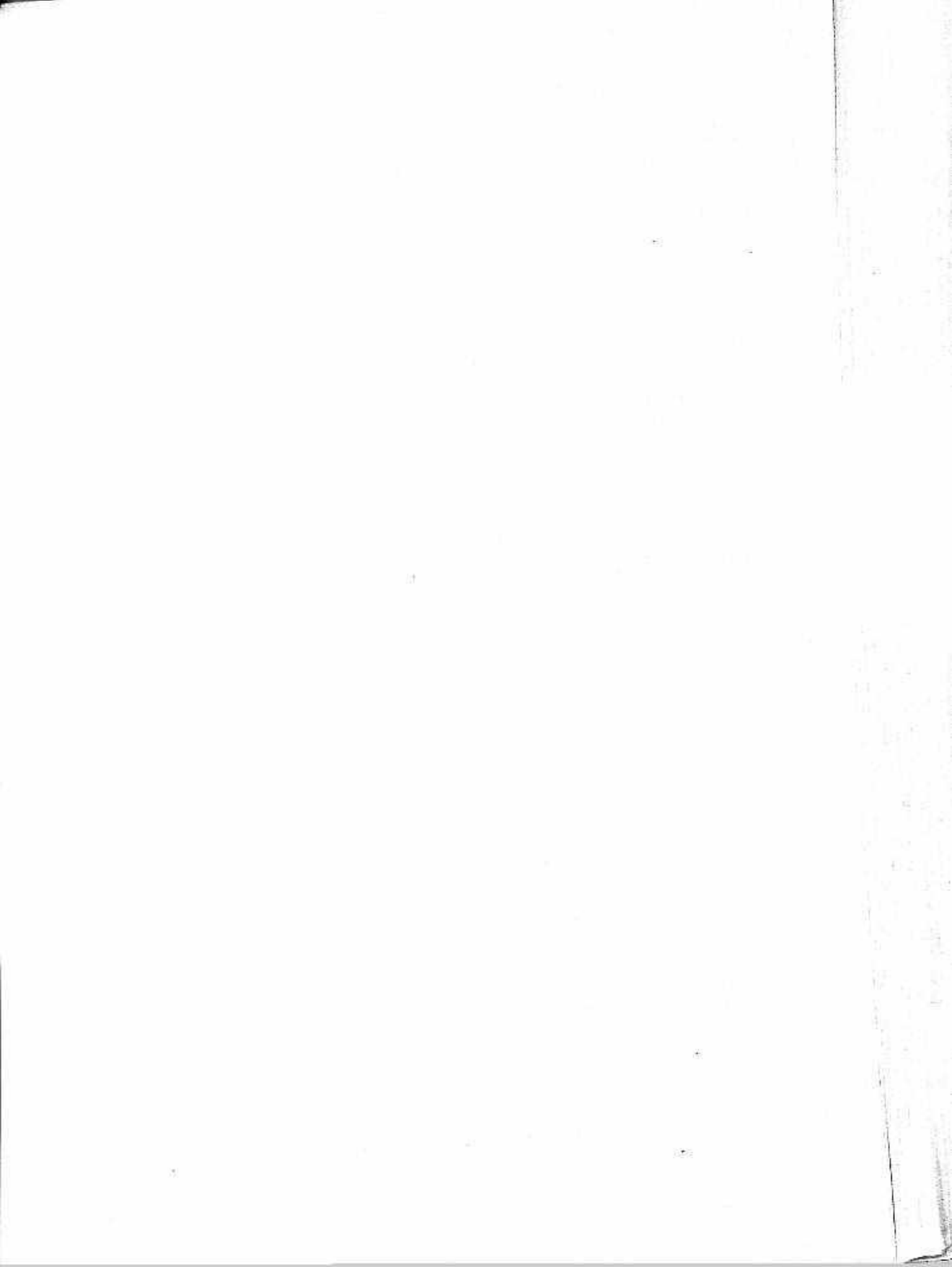
(82) سيوكيانين، تغلغل سياسي اقتصادي وأدوار مشبوهة للدولة الصهيونية الشريك الأصغر لأمريكا في آسيا الوسطى.

(83) السبكي، وجراهم دولك، خبير الشؤون الآسيوية في هولندا، إسرائيل جندي تسهيلات لأمريكا في آسيا الوسطى.

(84) أبو عامود، في ظل أخطاء السياسة العربية والتحول الاستراتيجي: أمريكا ودولة الكيان وسيناريوهات المصالح المشتركة في آسيا.

الفصل الرابع عشر

التطرف الإسلامي في آسيا الوسطى



الفصل الرابع عشر

التطرف الإسلامي في آسيا الوسطى

يتميز حزب التحرير الإسلامي عن الحركات الإسلامية الأخرى الأكثر شهرة بمعارضته الواضحة للعنف. غير أن آراءه شديدة التطرف، إذ إنه يفضل الاطاحة بالحكومات في كافة أنحاء العالم الإسلامي واستبدالها بدولة إسلامية على شكل خلافة متجددة النشاط. وقد نما هذا الحزب بسرعة في آسيا الوسطى وقوبل باضطراد يتسم بالظلم ويؤدي ربما إلى المزيد من التطرف عند أعضائه ولنشر بذور تطرف إسلامي أشد في المنطقة كلها.

كان حزب التحرير قد ظهر في البداية في صفوف الفلسطينيين في الأردن في مطلع الخمسينات. وقد حقق اكتساب اتباع قليلي العدد ولكنهم شديداً الالتزام في عدد من بلدان الشرق الأوسط، وحظي بشعبية بين المسلمين في أوروبا الغربية واندونيسيا. وبدأ العمل في آسيا الوسطى في منتصف التسعينات، وطور اتباعاً ملتزمين داخل أوزبكستان، وإلى حد أقل في قزغستان وطاجكستان وكازخسان. وتتنوع تقديرات اتباعه إلى حد كبير، وربما يشكل العدد التقريبي من 15-20 ألفاً في كامل أنحاء آسيا الوسطى. ويجب عدم المبالغة في نفوذه -يحظى بدعم شعبي قليل في منطقة يعتبر الميل للإسلام السياسي محدوداً- لكنه أصبح حتى الآن أكبر حركة إسلامية متطرفة في المنطقة.

وليس حزب التحرير منظمة دينية، بل هو حزب سياسي تقوم أيديولوجيته على الإسلام. وهو يهدف إلى إعادة الخلافة الإسلامية من أجل توحيد جميع البلدان الإسلامية تحت حكم إسلامي وبناء دولة توازن الغرب. وهو يرفض الجهود الحالية لإقامة دول إسلامية، مؤكداً على أن السعودية وإيران لا تلبين المعايير اللازمة لذلك. وحسب مفهوم حزب التحرير فإن الدولة الإسلامية هي التي تطبق فيها الشريعة الإسلامية في كافة مناحي الحياة، وليس فيها حلول وسط مع أشكال التشريع الأخرى.

ويدّعي حزب التحرير بأنه يرفض العنف كشكل من اشكال النضال السياسي ويرفض الحزب نظريا الارهاب معتبرا قتل الابرياء مخالفة للشريعة، ولكن هناك خلف هذا الخطاب تبريرا ايدولوجيا للعنف في ادبياته، ويعترف بالمشاركة في عدد من محاولات الانقلاب الفاشلة في الشرق الاوسط. وله كذلك بعض الصلات مع بعض الجماعات الاقل شكوكا بخاطر العنف. ولكن، رغم ادعاءات الحكومات، ليس هناك دليل على تورطه في أنشطة ارهابية في آسيا الوسطى او غيرها.

تسم ردود فعل الحكومات بالتناقض وعدم الفاعلية في غالب الاحيان. والحزب محظور في الكثير من بلدان الشرق الاوسط من العمل العلني، وتعرض الكثير من اعضائه للسجن. وتتخذ حكومات آسيا الوسطى مواقف قاسية بشكل خاص، وفي مقدمتها ازبكيستان التي تعتبر رائدة في اعتقال واصدار احكام سجن لمدد طويلة على الالاف من اعضائه. وفي بلدان اسلامية اخرى مثل اندونيسيا، يعمل حزب التحرير بشكل علني تقريبا، مثلما هو حاله في الكثير من بلدان اوروبا الغربية.

وربما اسهمت سياسات غير صائبة للحكومات في آسيا الوسطى في نمو حزب التحرير، وبخاصة في ازبكيستان. فقد منحه اضطهاد الحكومة الازبكية نوعا من الصوفية لدى بعض السكان، وعمل الافتقار الى اشكال بديلة من المعارضة السياسية او التعبير عن الاستياء على اجتذاب الحزب لافراد من الجمهور المعارض للنظام الحاكم لاسباب سياسية. وزادت السياسة الاقتصادية الهزيلة من تقويض التأييد للحكومة، وحرضت على السخط عند التجار-المؤيدين الرئيسيين لحزب التحرير-. كما ان نظام الحدود الصارم في البلد زاد الدعم لجماعة تؤيد وتدعو الى دولة اسلامية عالية بدون تمييز بين القوميات.

ان وجود حزب التحرير المتمثل في جماعة صغيرة ولكن هامة من الشباب في غالبية الامر، يقدم لنا تفسيراً سهلاً لفشله في تحقيق التغيير في حياتهم الشخصية، او في المجتمع او نظام الدولة. وهو يقدم للشباب معنى ومعتقداً بنويها في حقبة لولاه لكانت حقبة

مربكة وذات تغير اجتماعي صعب. وهو يقدم كذلك مكاسب مادية ودعمًا اجتماعيًا في دول تتسم بالفقر المدقع والانهيار الاجتماعي.

وقد عمل اضطهاد اعضائه، وفي الغالب اضطهاد الذين يتعاملون معهم، على لجوء الحزب للتطرف وانتشار تأثيره على مجتمعات اوسع. ونظرا للافكار المتطرفة للحركة والطبيعة التأمريه لنضالها السياسي، لم يعد غريبا ان تخشى الحكومات من تأثيرها على الاستقرار ولكننا كثيرا ما نجد ان الحكومات في المنطقة، وبخاصة في ازبكستان، تستخدم حزب التحرير كذريعة لفسلها في اجراء اصلاح سياسي واقتصادي وكذريعة لاستمرار قمع النشاط الديني خارج الهياكل الرسمية الضيقة. وفي غالب الامر نجد ان المجتمع الدولي يفض الطرف عن قومه. والواقع ان الغرب، والولايات المتحدة بصفة خاصة، يواجه خطر الإساءة لسمعته في المنطقة بتعاونه الوثيق مع دكتاتوريات آسيا الوسطى.

ان للمجتمع الدولي دوراً قيادياً عليه القيام به. فعليه ان يقاوم الاغراء في مطالبة حكومات آسيا الوسطى، بحظر حزب التحرير، لان اضطرابه للعمل السري سيجعله يلجأ الى المزيد من السرية والتآمر وربما للمزيد من التطرف. وبدلا من ذلك، فان من مصلحة الغرب الضغط على دول مثل ازبكستان للقيام بإجراءات عاجلة لتغيير البيئة التي يزدهر فيها حزب التحرير. ان النظم السياسية المغلقة، والافتقار لحرية التعبير، وقلة التقدم الاقتصادية، والاجهزة الامنية القمعية، تسهم كلها في نمو الجماعات المعارضة والمتطرفة. ومن المصالح الأمنية للمجتمع الدولي التاكيد من ان المعارضة السياسية للأنظمة غير الشعبية لا تندمج داخل الجماعات الاكثر تشددا وذات الاجندات الاكثر عنفا والأكثر خطورة من حزب التحرير الحالي.

تعتبر طبيعة ودور حزب التحرير الإسلامي احدى اقل الظواهر فهما في الوضع السياسي والاجتماعي والديني في آسيا الوسطى. ويشهد ظهور الحزب على مدى السنوات الخمس الاخيرة تطورا سياسيا هاما، واستخدمته حكومات المنطقة على نطاق

ويدعي حزب التحرير بأنه يرفض العنف كشكل من اشكال النضال السياسي. ويرفض الحزب نظريا الارهاب معتبرا قتل الابرياء مخالفة للشريعة، ولكن هناك خلف هذا الخطاب تبريرا ايدولوجيا للعنف في ادبياته، ويعترف بالمشاركة في عدد من محاولات الانقلاب الفاشلة في الشرق الاوسط. وله كذلك بعض الصلات مع بعض الجماعات الاقل شكوكا بخطر العنف. ولكن، رغم ادعاءات الحكومات، ليس هناك دليل على تورطه في أنشطة ارهابية في آسيا الوسطى او غيرها.

تسم ردود فعل الحكومات بالتناقض وعدم الفاعلية في غالب الاحيان. والحزب محظور في الكثير من بلدان الشرق الاوسط من العمل العلني، وتعرض الكثير من اعضائه للسجن. وتتخذ حكومات آسيا الوسطى مواقف قاسية بشكل خاص، وفي مقدمتها ازبكستان التي تعتبر رائدة في اعتقال واصدار احكام سجن لمدد طويلة على الالاف من اعضائه. وفي بلدان اسلامية اخرى مثل اندونيسيا، يعمل حزب التحرير بشكل علني تقريبا، مثلما هو حاله في الكثير من بلدان اوربا الغربية.

وربما اسهمت سياسات غير صائبة لحكومات في آسيا الوسطى في نمو حزب التحرير، وبخاصة في ازبكستان. فقد منحه اضطهاد الحكومة الازبكية نوعا من الصوفية لدى بعض السكان، وعمل الافتقار الى اشكال بديلة من المعارضة السياسية او التعبير عن الاستياء على اجتذاب الحزب لافراد من الجمهور المعارض للنظام الحاكم لاسباب سياسية. وزادت السياسة الاقتصادية الهزيلة من تقويض التأييد للحكومة، وحرضت على السخط عند التجار-المؤيدين الرئيسيين لحزب التحرير-. كما ان نظام الحدود الصارم في البلد زاد الدعم لجماعة تؤيد وتدعو الى دولة اسلامية عالمية بدون تمييز بين القوميات.

ان وجود حزب التحرير المتمثل في جماعة صغيرة ولكن هامة من الشباب في غالبية الامر، يقدم لنا تفسيراً سهلاً لفشله في تحقيق التغيير في حياتهم الشخصية، او في المجتمع او نظام الدولة. وهو يقدم للشباب معنى ومعتقداً بنويها في حقبة لولاه لكانت حقبة

مربكة وذات تغير اجتماعي صعب. وهو يقدم كذلك مكاسب مادية ودعمًا اجتماعيًا في دول تتسم بالفقر المدقع والانهيار الاجتماعي.

وقد عمل اضطهاد أعضائه، وفي الغالب اضطهاد الذين يتعاملون معهم، على لجوء الحزب للتطرف وانتشار تأثيره على مجتمعات أوسع. ونظرا للأفكار المتطرفة للحركة والطبيعة التأميرية لنضالها السياسي، لم يعد غريبا أن تخشى الحكومات من تأثيرها على الاستقرار ولكننا كثيرا ما نجد أن الحكومات في المنطقة، وبخاصة في أذربيجان، تستخدم حزب التحرير كذريعة لفشلها في إجراء إصلاح سياسي واقتصادي وكذريعة لاستمرار قمع النشاط الديني خارج الهياكل الرسمية الضيقة. وفي غالب الأمر نجد أن المجتمع الدولي يفض الطرف عن قمعهم. والواقع أن الغرب، والولايات المتحدة بصفة خاصة، يواجه خطر الإساءة لسمعته في المنطقة بتعاونه الوثيق مع دكتاتوريات آسيا الوسطى.

إن للمجتمع الدولي دوراً قيادياً عليه القيام به. فعليه أن يقاوم الأجراء في مطالبة حكومات آسيا الوسطى، بحظر حزب التحرير، لأن اضطرابه للعمل السري سيجعله يلجأ إلى المزيد من السرية والتأمر وربما للمزيد من التطرف. وبدلاً من ذلك، فإن من مصلحة الغرب الضغط على دول مثل أذربيجان للقيام بإجراءات عاجلة لتغيير البيئة التي يزدهر فيها حزب التحرير. إن النظم السياسية المغلقة، والافتقار لحرية التعبير، وقلة التقدم الاقتصادية، والأجهزة الأمنية القمعية، تسهم كلها في نمو الجماعات المعارضة والمتطرفة. ومن المصالح الأمنية للمجتمع الدولي التأكيد من أن المعارضة السياسية للأنظمة غير الشعبية لا تندمج داخل الجماعات الأكثر تشدداً وذات الأجندات الأكثر عنفاً والأكثر خطورة من حزب التحرير الحالي.

تعتبر طبيعة ودور حزب التحرير الإسلامي إحدى أقل الظواهر فهما في الوضع السياسي والاجتماعي والديني في آسيا الوسطى. ويشهد ظهور الحزب على مدى السنوات الخمس الأخيرة تطوراً سياسياً هاماً، واستخدمته حكومات المنطقة على نطاق

واسع لتعليل فشلها في تحقيق التحرر السياسي والاقتصادي، وتعتبره النخب المحلية تهديدا خطيرا.

منذ الثمانينات على الاقل، يناقش العلماء وصناع السياسة دور الاسلام في سياسات السوفيت وما بعد حقبة السوفيت. يرى البعض بان النظام السوفيتي، على الاقل قمع، ان لم يكن قد ابطل امكانية ان يصبح الاسلام قوة سياسية ودينية موثوقة. وتوقع اخرون ان تقوم ثورة اسلامية تقضي على السوفيت في آسيا الوسطى، او ان تسرع حركة اسلامية ملئ الفراغ في السلطة الذي يخلفه انهيار الحزب الشيوعي.

والواقع ان الحركات الإسلامية لم تلعب دورا في الانهيار السوفيتي وفي الاستقلال المتوقع في دول آسيا الصغرى عام 1991. وفي طاجكستان وحدها نشط حزب اسلامي في الحراك الاجتماعي المحدود الذي جرى في اواخر الفترة السوفيتية. فكان لحزب النهضة الإسلامية اتباع قلائل وكان مجرد واحد من جماعات معارضة عديدة. ورغم ان هذا الحزب تولى دور الريادة في المعارضة المتحدة، لكن الدعم الشعبي للاسلام السياسي يبدو انه محدود وانه قد انحسر بسرعة في اعقاب الحرب الاهلية.

وكان لحركة ازبكيستان الإسلامية نجاح اقل في توليد الدعم لنموذجه من الجهاد 'اسلامي' ولاجندته السياسية العسكرية، رغم انه وضع الخوف من الارهاب الإسلامي' التنظرف الديني' على قمة الاجندات المحلية والدولية في المنطقة. ويوحى فشل حزب النهضة الإسلامية وحركة ازبكيستان الإسلامية والناشطين الإسلاميين الاخرين في توليد اتباع بان للاسلام طاقة سياسية خطيرة صغيرة في المنطقة.

ولذلك جاء ظهور قوة حزب التحرير ونموها الواضح وبقاؤها امرا مفاجئا. وبينما لم يكن احد يسمع شيئا عن هذه الحركة في المنطقة قبل خمس سنوات، فانها تدعي الان بان لها الاف الملتزمين بها، وقد اصبحت فكرة مهيمنة في تبرير الحكومة لاعمالها الحازمة وسياساتها القمعية.

ولما كان حزب التحرير منظمة سرية فان من الصعب فهمه وتقييمه. وقد بذلت محاولات مناسبة قليلة للبحث حول ايدولوجيته وامكاناته السياسية. ذلك ان الافتقار الى معلومات موثوقة قد اعاق ردود فعل الحكومات على هذه المنطقة في آسيا الوسطى وغيرها. ومع ذلك، فان فهم حزب التحرير في آسيا الوسطى، اهدافه ووسائله واتباعه، امر هام في تطوير سياسات الدولة للتعامل مع هذه القوة المعارضة.

ويعتبر الفهم الصحيح امرا جوهريا لايجاد استراتيجيات دولية مناسبة، وبخاصة لان اشراك الولايات المتحدة في الحرب على الارهاب قد صعّد بشكل مثير الوجود الدولي في المنطقة. ولذلك فان على دول اسيا الوسطى والمجتمع الدولي الاختيار الدقيق المتأني لاستراتيجيات وسياسات للتعامل مع الجماعات السياسية-الدينية من امثال حزب التحرير اذا ارادت تجنب خلق تهديد لاستقرار الدول والمنطقة.

البرنامج العالمي لحزب التحرير

أ- الجذور

تأسس حزب التحرير عام 1952 فيما كان حينذاك الجزء الخاضع للسيطرة الاردنية من القدس، على يدي عالم اسلامي فلسطيني وناشط سياسيا، هو تقي الدين النبهاني (1909-1977). كان النبهاني قد تلقى علومه في الجامع الازهر بالقاهرة، وعمل فيما بعد في فلسطين في المحاكم الشرعية، واصبح قاضيا في نهاية الامر. وبعد عام 1948، اصبح النبهاني عضوا بارزا وقياديا في دوائر النقاش السياسي بالقدس الشرقية التي كان يؤمها الفلسطينيون الناشطون في ميدان السياسة، والذين التحق الكثير منهم فيما بعد في حركة البعض الاشتراكي. كما اعجب النبهاني كذلك بافكار القومية العربية، ولكنه بعكس الكثيرين من معاصريه بنى اراءه السياسية على محورية الاسلام في السياسة.

ومثل الكثير من الاحزاب السياسية العربية بعد الثلاثينات، اتخذ حزب التحرير شكل حزب سياسي حديث، له برنامجه وهياكله. ووجد الكثير من هذه الاحزاب الالهام

في الاراء اللينينية المبكرة، مرده صدى مفهوم الحزب كطليعة ثورية. وتبنى معظم الاحزاب ايديولوجية القومية او الاشتراكية، او كليهما وكان تقى الدين النبهاني احد اوائل المفكرين العرب في الدعوة الى قيام حزب سياسي حديث باستخدام الخطاب الإسلامي .

ومع ذلك فان لحزب التحرير التقاء من حيث البنية السياسية مع الاحزاب السياسية، مثل حزب البعث الذي اصبح فيها الحزب الحاكم في العراق وسورية، اكثر مما كان له من التقاء مع كبرى الحركات الإسلامية، الاخوان المسلمون .

ومنذ البداية تقريبا، عمل حزب التحرير كحزب غير دستوري، حيث رفضت السلطات الاردنية طلب تسجيله كحزب مشروع، لكنه ظل يعمل بشكل علني وكجزء من المعارضة السياسية الواسعة. ونال الحزب دعما شعبيا خلال الخمسينات في الاردن وفي الضفة الغربية، وبعض الدعم في بيروت حيث اجبر النبهاني على الاقامة في المنفى، ولكن نفوذه بشكل عام كان محدودا على المسرح السياسي الواسع في الشرق الاوسط.

وحاز المزيد من الدعم في الستينات، وفي عام 1968 رأت قيادته بان هذا الدعم كان كافيا للاستيلاء على السلطة، لا في الاردن وحده، بل وكذلك في العراق وسورية، بقيادة جيوب من المساندة في القوات المسلحة في كل بلد. لكن محاولة الانقلاب فشلت، مثلما فشلت محاولات اخرى في الاردن في عامي 1969 و1971، وفي جنوب العراق عام 1972 .

ويبدو ان هذا الفشل وما تلاه من اعتقال الكثير من اعضائه قاد الى المحسار حاد في الحماسة والنشاط بين صفوفه. كان الافتراض الاساسي للحزب هو انه كما حدث في القرن السابع الميلادي، فان الامر يتطلب ثلاثين سنة، اقتداء بنهج النبي محمد في انشاء الدولة الإسلامية. ولكن عجز الحزب عن تحقيق اهدافه المعلنة ادى الى خسارة في اعضائه والى بعض التشوش الايديولوجي. وقد توفي النبهاني عام 1977 بدون ان يشهد أي نتائج، وواصل الحزب المحذره في الثمانينات. وخلف النبهاني يوسف شيخ عبد القديم

زلوم، وهو عضو مؤسس ومن اصل فلسطيني ايضا. ولكن اعادة تنشيط الحزب على نطاق واسع بدأ في مطلع التسعينات مع اندفاع موجة من الاسلام السياسي في المحاء العالم الإسلامي، وعملت احداث كحرب الخليج على تطرف قطاعات من المجتمع الإسلامي.

كانت شعبية الحزب قد انتشرت قبل ذلك خارج حدود الاردن وسورية الى شمال افريقيا وتركيا وجنوب شرق آسيا. وقد ادى اضطهاد حزب التحرير في الشرق الاوسط الى دفع بعض اعضائه لفتح فصول جديدة له في اوربا الغربية. وسرعان ما احرز تقدما في وسط الجيل الثاني من المهاجرين واصبحت له الان فروع هامة في المملكة المتحدة والمانيا والسويد والدنمرك. ومع انهيار الاتحاد السوفيتي، بدأ العمل في آسيا الوسطى حيث اخذ ينمو بسرعة في النصف الثاني من التسعينات.

ورغم ان الكثير من العمل التنظيمي قد انتقل الى الجاليات الإسلامية في الغرب، لكن القيادة ما زالت تتمحور حول الفلسطينيين في المنفى، وبخاصة القادمين من الاردن. وقد توفي عبد القديم زلوم، الذي ربما كان يقيم في عمان، في نيسان 2003. وخلفه في القيادة فلسطيني اخر هو عطا ابو الرشتا، وهو مهندس مدني درس في القاهرة وكان يترأس في السابق فرع الاردن. وقد قضى فترة من الوقت في السجن في الاردن، وكان على صلة بالحزب منذ عام 1955. ونظرا لخلفيته، يبدو من غير المحتمل ان يحدث تغيير هام في ايدولوجية الحزب تحت قيادته، رغم انه لا يعرف مدى التأثير الحقيقي الذي يحظى به الأمير الجديد، مقارنة مع الزعماء النشطاء الاخرين.

ب- الايدولوجية

ان الاهداف المعلنة لحزب التحرير واضحة وعظيمة الطموح -اعادة اقامة الدولة الإسلامية، في تفسير طوبائي للخلافة التي حكمت ذات مرة العالم الإسلامي، والتي سوف تطبق فيها الشريعة الإسلامية حالا وبشكل كامل. ولا يوجد تدرج او مهادنة في برنامج التغيير، وينظر حزب التحرير لكافة -برامج الاحزاب الاخرى السياسية

والاجتماعية والدينية على انها غير مناسبة في افضل الاحوال، لانه يرى بان الجماعات الإسلامية الاخرى لا تستطيع سوى فعل اليسير لكي تركز على اقامة دولة اسلامية بالمعنى الكامل.

لقد تغيرت عقيدة الحزب قليلا عما اوجزته كتابات النهاني في الخمسينات والستينات رغم استمرار وجود جهود للاستناد الى ارائه في تطوير احكام لكافة مناحي الحياة وتقديم رؤية اسلامية بديلة حول المشكلات الحديثة والمعاصرة. والواقع ان كتاباته ظلت الاساس لايدولوجية حزب التحرير الى حد انها تشكل معتقدا اساسيا يصعب تغييره بدون تقويض جوهر الحزب.

ان طريقته في فهم الاسلام والسياسة ميزت الحزب عن توجهين اساسيين في الفكر الاسلامي في الفترة المعاصرة فمن ناحية، نرى ان الاحزاب الإسلامية الاكثر تقليدية، مثل جماعة الاخوان المسلمين الاصلية، سعت لتطبيق مظاهر الاسلام واوجهه ضمن الاطر الدستورية القائمة، كنوع من الاصلاح الإسلامي، ركز على التغيير التدريجي من خلال الاصلاح التربوي والشرعي. لكن النهاني رفض هذا التدرج رفضا تاما، مدعيا بان التحول الجذري للمجتمع سيؤدي الى التغيير في حياة المسلمين.

ومن ناحية اخرى، كان هناك الكثيرون من اتباع سيد قطب، الذين تبنوا التطرف الإسلامي. بخلاف المصلحين الإسلاميين الاوائل، رفض النهاني كافة محاولات التوفيق بين الاسلام والافكار الغربية المتصلة بنظام الحكم الدستوري او بالقومية. وتتسم جميع كتاباته بكرامية الغرب، وبخاصة البريطانيين. ولكن لم يقتدي بسيد قطب في رفض العصرية؛ والواقع ان حزب التحرير، اكثر من معظم الجماعات الإسلامية، قد احتضن التكنولوجيا والاصطلاحات الحديثة، حتى في منهجيته السياسية، وبينما يدعي الحزب بانه يركز على مطلع التاريخ الإسلامي، فانه مدين بالكثير للحركات الثورية الحديثة، مثل اللينينية.

في الامور الدينية، طور النهاني رأيا مستقلا عن المدارس الفقهية الإسلامية الاربعة الكبرى. والمراقبون الذين يرغبون في اقحامه داخل المعسكر الوهابي لاسباب سياسية سوف يجدون مشقة في ذلك على اساس ايديولوجيته الدينية. ذلك ان معتقداته من الواضح بانها ليست متطابقة في حالات كثيرة مع مدرسة الوهابية في تفسير الشريعة الذي يتبعه الكثير من الجماعات الوهابية. وتعني طريقته المستقلة بان الكثير من تعاليم حزب التحرير حول الامور الإسلامية يعتبر بدعة عند العلماء من رواد المدارس الإسلامية الكبرى.

1- الدولة الإسلامية:

يرفض حزب التحرير المحاولات الحالية لاقامة دول اسلامية باعتبارها محاولات غير جذرية بقدر كاف. ان رؤيته حول دولة اسلامية رؤية مطلقة: "لكي يعتبر بلد ما دولة اسلامية، لا بد ان تتبع كل مادة وقانون من دستور البلد من الشريعة الإسلامية."

ولا يقبل الحزب باي توفيق مع الاشكال الاخرى من البنية السياسية او الشروط القانونية، بل يجب تطبيق الشريعة بالكامل وفي الحال على أي دولة تسمى نفسها دولة اسلامية. والدول الحالية التي تسمى نفسها اسلامية مرفوضة دعواها لانها بعيدة عن الوضع المثالي. فايران تعتبر تدرجية الى حد بعيد، مع اشتقاق عناصر كبيرة من هيكلها السياسية من النظم السياسية الغربية (الانتخابات والبرلمان، وما الى ذلك)، والكثير من السياسات، حسب راي حزب التحرير، ليست مبنية بالكامل على المبادئ الإسلامية: فسياستها الخارجية، مثلا، ملوثة بالقومية الايرانية ومصالح الدولة. وكذلك السعودية، كمملكة، لا تلي معايير حزب التحرير.

اما تفاصيل ما يجب ان تكون عليه الدولة الإسلامية فهي واردة في سلسلة من الادييات التي اصدرها الحزب. بعضها مفصل تماما، ولكن هناك القليل من الآلية الفعلية

والاجتماعية والدينية على انها غير مناسبة في افضل الاحوال، لانه يرى بان الجماعات الإسلامية الاخرى لا تستطيع سوى فعل اليسير لكي تركز على اقامة دولة اسلامية بالمعنى الكامل.

لقد تغيرت عقيدة الحزب قليلا عما اوجزته كتابات النهاني في الخمسينات والستينات رغم استمرار وجود جهود للاستناد الى ارائه في تطوير احكام لكافة مناحي الحياة وتقديم رؤية اسلامية بديلة حول المشكلات الحديثة والمعاصرة. والواقع ان كتاباته ظلت الاساس لايدولوجية حزب التحرير الى حد انها تشكل معتقدا اساسيا يصعب تغييره بدون تفويض جوهر الحزب.

ان طريقته في فهم الاسلام والسياسة ميزت الحزب عن توجهين اساسيين في الفكر الاسلامي في الفترة المعاصرة فمن ناحية، نرى ان الاحزاب الإسلامية الاكثر تقليدية، مثل جماعة الاخوان المسلمين الاصلية، سعت لتطبيق مظاهر الاسلام واوجهه ضمن الاطر الدستورية القائمة، كنوع من الاصلاح الإسلامي، ركز على التغيير التدريجي من خلال الاصلاح التربوي والشرعي. لكن النهاني رفض هذا التدرج رفضا تاما، مدعيا بان التحول الجذري للمجتمع سيؤدي الى التغيير في حياة المسلمين.

ومن ناحية اخرى، كان هناك الكثيرون من اتباع سيد قطب، الذين تبناوا التطرف الإسلامي. بخلاف المصلحين الإسلاميين الاوائل، رفض النهاني كافة محاولات التوفيق بين الاسلام والافكار الغربية المتصلة بنظام الحكم الدستوري او بالقومية. وتتسم جميع كتاباته بكراهية الغرب، وبخاصة البريطانيين. ولكن لم يقتدي بسيد قطب في رفض العصرية؛ والواقع ان حزب التحرير، اكثر من معظم الجماعات الإسلامية، قد احتضن التكنولوجيا والاصطلاحات الحديثة، حتى في منهجيته السياسية، وبينما يدعي الحزب بانه يركز على مطلع التاريخ الإسلامي، فانه مدين بالكثير للحركات الثورية الحديثة، مثل اللينينية.

في الامور الدينية، طور النبهاني رأيا مستقلا عن المدارس الفقهية الإسلامية الاربعة الكبرى. والمراقبون الذين يرغبون في اقحامه داخل المعسكر الوهابي لاسباب سياسية سوف يجدون مشقة في ذلك على اساس ايديولوجيته الدينية. ذلك ان معتقداته من الواضح بانها ليست متطابقة في حالات كثيرة مع مدرسة الوهابية في تفسير الشريعة الذي يتبعه الكثير من الجماعات الوهابية. وتعني طريقته المستقلة بان الكثير من تعاليم حزب التحرير حول الامور الإسلامية يعتبر بدعة عند العلماء من رواد المدارس الإسلامية الكبرى.

1- الدولة الإسلامية:

يرفض حزب التحرير المحاولات الحالية لاقامة دول اسلامية باعتبارها محاولات غير جذرية بقدر كاف. ان رؤيته حول دولة اسلامية رؤية مطلقة: "لكي يعتبر بلد ما دولة اسلامية، لا بد ان تتبع كل مادة وقانون من دستور البلد من الشريعة الإسلامية."

ولا يقبل الحزب باي توفيق مع الاشكال الاخرى من البنية السياسية او الشروط القانونية، بل يجب تطبيق الشريعة بالكامل وفي الحال على أي دولة تسمي نفسها دولة اسلامية. والدول الحالية التي تسمي نفسها اسلامية مرفوضة دعواها لانها بعيدة عن الوضع المثالي. فايران تعتبر تدرجية الى حد بعيد، مع اشتقاق عناصر كبيرة من هيكلها السياسية من النظم السياسية الغربية (الانتخابات والبرلمان، وما الى ذلك)، والكثير من السياسات، حسب راي حزب التحرير، ليست مبنية بالكامل على المبادئ الإسلامية: فسياستها الخارجية، مثلا، ملوثة بالقومية الايرانية ومصالح الدولة. وكذلك السعودية، كمملكة، لا تلي معايير حزب التحرير.

اما تفاصيل ما يجب ان تكون عليه الدولة الإسلامية فهي واردة في سلسلة من الاديات التي اصدرها الحزب. بعضها مفصل تماما، ولكن هناك القليل من الالية الفعلية

للسلطة. ومع ذلك، فقد اصدر الحزب مسودة دستور، يضع التدابير الرئيسية لهذه الدولة. انه خليط عجيب من العناصر المنظرية على مفارقات تاريخية من زمن خلافة العصور الوسطى، موضوعة جنباً الى جنب مع عناصر من الدولة الحديثة. وحسب راي احد العلماء، 'حاول النبهاني احياء نماذج تعكس الحياة الاجتماعية الاقتصادية لمجتمعات اقل تعقيدا من مجتمعات اليوم، مقدما اضافات قليلة لحاجات وظرف العصر الحالي".

وتتصل العناصر الرئيسية بالحاكم، الخليفة، الذي ينتخبه مجلس الامة المنتخب من الشعب. ويسمح بوجود احزاب سياسية، شريطة ان تقوم على اساس العقيدة الإسلامية، ويطلب منها محاسبة الخليفة، ضمن اطار الشريعة.

ويهيمن الامير على الشؤون العسكرية والعلاقات الخارجية. ولا مجال لوجود علاقات دبلوماسية مع الدول الاستعمارية، مثل بريطانيا وامريكا، ويتحتم وجود حالة حرب مع اسرائيل، مثل الامم المتحدة، وعموما، يجب ان تكون في حالة جهاد مع الكفار.

البنود الاساسية في سياسة حزب التحرير الاقتصادية في العودة الى الذهب وكرامية الرأسمالية، ولكن الذي يحل مكانها تحديدا شيء مبهم، رغم ان اجزاء من الدستور تبدو نوعا من الاشتراكية المصطبغة بالاسلام. وليس من الواضح كيف تمول الدولة مسؤولياتها الواسعة لتوفير الصحة والتعليم وما الى ذلك.

ويجب ان تكون النساء بشكل رئيسي معزولة عن الرجال، رغم السماح للمرأة بتولي مناصب في الدولة، والعمل في مجال التجارة وانشطة اخرى. ويسمح لغير المسلمين باتباع معتقداتهم وعاداتهم الخاصة بهم.

وتعتبر الدولة الإسلامية التي يقترحها حزب التحرير دولة مثالية اسلامية فاضلة (طوبية) لن يعترف سوى القليل من المسلمين بانها ممكنة التحقيق او انها محيية الى النفوس. ولا يبدي اعضاء الحزب اهتماما كبيرا بتفاصيل الدولة الإسلامية - لا يوجد هنا شيء يناقش في هذا المجال، لان كل شيء يعتبر محسوما ومقررا. ومن طرق عديدة، تقوم

الدولة، لا على الرغبة في تطوير دولة بقدر ما هو على الحاجة النفسية للاعتقاد بان نظام حكم اسلامي عظيم يمكن ان يتمخض مرة ثانية ويظهر للسيطرة على الشؤون العالمية وان يتحدى الدول الغربية، مثلما كان الاتحاد السوفيتي القوة الموازنة للقوة الامريكية. والواقع ان هناك الكثير من وجوه التطابق بين الدولة السوفيتية والدولة الإسلامية التي يقترحها حزب التحرير، بما في ذلك حالة الثورة الدائمة (الجهاد) مع القوى الاخرى.

ان الطبيعة المطلقة لاهداف حزب التحرير والانتقال الى الواقعية في الرؤية تجعل من غير المحتمل ان يتمخض كقوة سياسية كبرى ذات جاذبية للجماهير في أي بلد، ولكن طبيعة بناء السياسية ضمنت له الاستمرارية، بينما الحركات المتطرفة المشابهة قد تلاشت او انصهرت في جماعات اخرى.

2- المنهجية السياسية:

يعتبر الاصرار على منهج النضال السياسي جزءا اساسيا من ايدولوجية حزب التحرير مما يميزه عن الجماعات الإسلامية الاخرى .

تتحدث كتابات الحزب بتوسع عن ثلاث مراحل من النضال السياسي مبنية على تفسيره للرسالة التاريخية للنبي محمد في اقامة الدولة الإسلامية الاولى:

- المرحلة الاولى: مرحلة الرعاية، وتتضمن ايجاد ورعاية وتنشئة الافراد المقتنعين بفكر ومنهج الحزب ويعتبر ذلك ضروريا من اجل صياغة واقامة جماعة قادرة على حمل افكار الحزب.

- المرحلة الثانية: مرحلة التفاعل مع الامة الإسلامية وذلك لتشجيع الامة على العمل للاسلام وحمل الدعوة كما لو كانت دعوتها، ولكي تعمل على اقامة الاسلام في الحياة والدولة والمجتمع.

- المرحلة الثالثة: مرحلة تولي الحكم وتطبيق الاسلام تطبيقا كاملا، وحمل رسالته الى العالم .

وتعتبر المرحلة الاولى اهم المراحل في النشاط الحالي للحزب واحد المفاتيح لاستمراره. وتبنى هذه المرحلة على ايجاد الافراد المناسبين وصياغتهم حسب افكار الحزب. يقول النبهاني، أخذهم عبر هذه العملية من التنشئة يتطلب ان يتولى كل فرد دور (تلميذ) يجب اعادة تشكيل عقله من جديد وهذه العملية من اعادة تشكيل العقول هي اهم جزء فاعل من الاستراتيجية، مما يمكن حزب التحرير من تاسيس جماعات قوية جدا من الافراد الملتزمين بالقضية التزاما شديدا.

وتتضمن المرحلة الثانية لتنشئة الجماعة للجماهير... من خلال تنظيم الدروس في المساجد، والمؤتمرات والمحاضرات، واماكن التجمع العامة، والصحف والكتب والنشرات... ويعتبر حزب التحرير شديد الفاعلية في نشر افكاره من خلال النشر الواسع للكتب والنشرات بلغات متعددة وشبكات مواقع على الانترنت توفر الوصول لمعظم ادبيات الحزب.

ويدعي حزب التحرير بانه من خلال هاتين المرحلتين يستطيع تطوير وعي جماهيري بأرائه (وليس بالضرورة عضوية اعداد كبيرة) والاهم من كل شيء، ان يقدر على اقتناع الشخصيات المؤثرة في الدوائر السياسية والقوات المسلحة واماكن اخرى على العمل حسب اهدافه وبرنامجه. ويحاول الحزب ناشطا تجنيد الاعضاء ذوي مستوى التعليم العالي في المجتمع، وبخاصة الموجودين في مراكز تسمح لهم بالتاثير على الراي العام.

من هذا المنطلق -القبول الواسع لافكار الحزب والتاثير على الذين هم قادرون على التاثير على السياسة- تعتبر اقامة دولة اسلامية هي جوهر المرحلة الثالثة من النضال السياسي. وهذه المرحلة من الاستيلاء الفعلي على هذه السلطة واقامة دولة اسلامية، هي الاكثر ضيائية في ادبيات الحزب.

يرفض حزب التحرير في معظم كتاباته المشاركة في الديمقراطية البرلمانية او في أي تحالفات مع احزاب سياسية اخرى من اجل اكتساب السلطة. ومع ذلك فقد عدل موقفه من الانتخابات في بعض البلدان -وكان له عضو في البرلمان لوقت قصير في الاردن-

ولكن يبدو ان هذه النقطة كانت مثار خلاف داخل الحركة. وسمح الحزب لاعضائه بالتنافس على الانتخاب في اليمن عام 2003، ولكن فقط في ظل شروط صارمة، شريطة اعلانهم جهرا رفضهم للنظام الرأسمالي الغربي، واعلنوا انهم كانوا يعملون على تغيير انظمة الكفر واقامة الاسلام مكانها، واستخدموا القرآن كبرنامج انتخاب وحيد لهم .

لا شك في ان حزب التحرير يظهر استخفافه بالديمقراطية. فهو يرفض هذا المفهوم باعتبار انه اختراع غربي مناهض للاسلام، وان الحزب لا يرغب في العمل كحزب ضمن نظام سياسي. ويدعي منشور صدر مؤخرا بان الديمقراطية تعتبر نظاما كافرا، وهي تناقض واضح مع القرآن والسنة ."

وهذه الاراء مقبولة عند اعضاء الحزب في آسيا الوسطى وقال ناشط لجماعة الازمة الدولية: الديمقراطية تعني حرية الرأي وحرية النشاط التجاري -وكل ذلك مناقض للاسلام. وتقول نشرة اعلامية لحزب التحرير صدرت في طاجكستان: لقد اغرقت الديمقراطية المسلمين في مستنقع الذل، وقادت الى تفرقهم عن بعضهم البعض "...

واثار هذا الرفض للوسائل الديمقراطية النقاش حول كيفية توقع الحزب في اكتساب السلطة. هناك اختلاف هام بين ما يعتبره الحزب مهمته -الايضاح للناس بان الخلافة امر حيوي- وبين اخراجها الى حيز الوجود، والذي هو واجب ومسؤولية الأمة بكاملها. ووضح عضو في آسيا الوسطى بقوله: نحن نخوض نضالا سياسيا؛ مهمتنا ليست بناء الدولة بانفسنا، ولكن ان نوضح للناس كيف يبنون الدولة ."

اذن، ما هي نصيحة حزب التحرير للمجتمع الإسلامي باكماله حول كيفية اقامة الدولة الإسلامية؟ احد الخيارات هو اقتناع القادة الحاليين بمحاجتهم الى تبني اقتراحات الحزب. ويبدو ان الاعضاء حاولوا ذلك في عدة مناسبات. فهم يدعون بانهم التقوا مع القائد الليبي معمر القذافي لتقديم النصح له حول كيفية بناء دولة اسلامية، ولكن الامر انتهى بهم في السجن. كما انهم التقوا مع اية الله الخميني في الايام الاولى من حكمه في

ايران. ولكنهم لم يلاقوا النجاح في محاولاتهم في الاقتناع، ولذلك اثير التساؤل حول اذا ما كانوا على استعداد للجوء الى اعمال العنف.

3- الموقف من العنف:

يقال على نطاق واسع ان حزب التحرير، في وسط آسيا وخارجها، يبغض العنف كوسيلة لتحقيق اهدافه. ويقول بعض نشطاء حقوق الانسان انه بشكل اساسي جماعة مسالمة تعمل فقط في عالم الفكر والدعاية. ولم يثبت مطلقا تورط الحزب في أي عنف بآسيا الوسطى، وفي انشطته العالمية الاخرى سلك سبل تحقيق اهدافه من خلال الدعاية السلمية. وهو شديد المعارضة للسياسة الامريكية في الشرق الاوسط، لكنه لا يدعو الى اعمال ارهابية ضد امريكا. والواقع انه يدعي معارضته للنشاط الارهابي ويؤكد بان قتل المدنيين الابرياء يعتبر مخالفا للشريعة الإسلامية. وادبياته واضحة، تدعي بان الكفاح المسلح ليس هو الوسيلة لاستعادة الخلافة وكما يعبر احد اعضائه عن ذلك: أن مساعدة العراق واجب كل مسلم. ولكن ان تساعد والهندية في يدك امر ينم عن الحمق- الذي نحتاجه هو اقامة الخلافة."

لكن الرأي بان حزب التحرير يعارض العنف السياسي في حد ذاته رأي خاطئ. ولكي نفهم موقفه، من الهام التاكيد على ان الاساس النظري لنشاطه السياسي هو المثال التاريخي للنبي محمد. ويكمن اساس اللاعنف في ان محمدا لم يستخدم القوة في البداية في مطلع حياته في مكة، وبدلا من ذلك عبر عن معارضته للأعمال الخاطئة لذوي السلطان، وجمع الاتباع حوله.

ومع ذلك، فموقف حزب التحرير واضح في دعوته الى الاطاحة بنظم الحكم القائمة حاليا في العالم الإسلامي، وإلى استبدالها بدولة اسلامية. كيف اذن يتوقع الوصول الى السلطة واقامة دولة اسلامية اذا كان يرفض استخدام العنف؟ الامر الاول هو ان حزب التحرير يتوقع تحقيق اتباع الجماهير لانكاره قبل الاستيلاء على السلطة. وهو

يعارض فكرة الاستيلاء على السلطة ثم اجبار المجتمع على قبول النظام الإسلامي، وفي ذلك تناقض مع فكرة اقناع المجتمع لتقبل افكاره، الامر الذي يؤدي الى تغيير نظام الحكم .

ولكن حتى في هذه الظروف، ربما توجد حاجة الى استخدام نوع من القوة لازاحة الانظمة المتمسكة بالسلطة. ويوضح ذلك احد العلماء بقوله:

... "يرى النبهاني بانه يمكن باساليب عملية الاطاحة بنظام حكم من خلال العصيان المدني، كالاضراب، او عدم التعاون مع السلطات او المظاهرات، او من خلال مسيرة الى القصر او المقر الرئاسي، شريطة ان تتمتع الحركة بقيادة وسيطرة كاملة... ويمكن، كبديل لذلك، الاطاحة من خلال انقلاب عسكري تنفذه قوات مسلحة تكون قد وافقت على تسليم السلطة للحركة .

ولكن حزب التحرير يتمسك بوجهة نظره في انه كحزب سياسيا لا يقوم بـ اعمال عنف. اذن، كيف يمكنه تبرير الاشتراك في انقلاب عسكري؟

"ان حزب التحرير نفسه يعارض استخدام القوة [لكن]..المصادر الداخلية تدعي بان الجماعات التي تتعهد بدعم الحزب يمكنها استخدام السلاح...اذا وقف المجتمع ضد النظام الحاكم فان ازالته حتى بالقوة المسلحة لا تشكل عمل عنف: وهذا هو الحال فقط اذا تحتم على الحزب قتل اعدائه للوصول الى السلطة، مثلا".

يظهر هنا مبدأ هام في تفكير الحزب يوضح بعض التناقضات الظاهرة. لقد طور حزب التحرير مبدأ طلب النصر من الخارج، بدراسته للنصرة التي تلقاها النبي محمد من القبائل العربية في بعض الاحيان .

ان اهداف طلب النصر ذات شقين: فهي اولا لحماية الحزب وتمكينه من مواصلة الدعوة لعقيدته، والثاني، للوصول الى الحكم من اجل اقامة الخلافة واعادة حكم الله في الحياة والدولة والمجتمع ."

ليس من المؤكد ما يعنيه ذلك عمليا، ولكن من الواضح انه يمكن تفسيره بالسعي للحصول على المساعدة العسكرية من جماعات اخرى اذا كان الاعضاء يعانون من اذى كبير، او من اجل اقامة الخلافة. وبهذه الطريقة يظل الحزب ملتزما بكفاحه الفكري والسياسي ولكنه لا يستبعد السعي لتل المساعدة من جماعات اخرى، بما في ذلك جماعات تقوم بعمل عسكري نيابة عن الحزب.

4- الجهاد:

يبدو للوهلة الاولى ان تفسير الحزب للجهاد غامض الى حد ما. ويبدو ان تفسير النبهاني للجهاد محدود باعتباره مسؤولية الخلافة، اذ يرى حزب التحرير ان الجهاد ليس جزءا من الاسلوب الذي يمكن بواسطته اعادة بناء الخلافة. وقد فسر ذلك عضو في كازخستان بقوله: "هناك نوعان من الجهاد: المادي والمعنوي. والجهاد المادي ياتي بعد اقامة الخلافة. اما المعنوي فهو للوقت الحالي."

مؤكد ان مفهوم حزب التحرير للجهاد ليس بشكل مبدئي هو ذلك الصراع الداخلي ضد الرغبات والشهوات لتطهير الذات. ويعلق كاتب من الحزب بقوله: "...عندما تسعى امم الغرب لتغيير مفهوم الجهاد لكي لا يعني سوى الصراع ضد الشهوات الذاتية الداخلية، فان هذا يعطيها (الامم الغربية) ميزة واضحة لان ذلك سيجعل المسلمين عاجزين عن الدفاع عن انفسهم. ويدعي بان هناك اجماعا عند علماء المسلمين على ان الجهاد هو محاربة الكفار لازالة العقبات من طريق جعل كلمة الله هي العليا".

ورغم ان الجهاد الرئيسي غير متوقع حتى يتم اقامة الخلافة، لكن هذا لا يعني بالا يخوض المسلمون حروبا دفاعية. ولذلك فان على المسلمين، بمن فيهم اعضاء حزب التحرير، القتال ضد معتد اذا هاجمهم:

"ان حقيقة عدم استخدام الحزب للقوة المادية لحماية نفسه او كسلاح ضد الحكام، لا صلة له بموضوع الجهاد، لان الجهاد يجب ان يستمر حتى يوم القيامة. ولذلك، ففي أي وقت يهاجم فيه الاعداء الكفار بلذا مسلما، يصبح الجهاد واجبا الزاميا على المواطنين المسلمين لدحر العدو".

وهناك خطاب مسهب عن الجهاد في منشورات الحزب، لا يؤكد دائما هذه الفروق. ومن الواضح ان هناك إمكانية لجهاد دفاعي يفسر على نحو واسع وغير محدد. ولكن يبدو ان التوجه الرئيسي لفكر حزب التحرير يقي واضحا: الجهاد سيأتي عندما تقوم الخلافة.

5- سجل الحزب:

من الصعب تفسير هذه الالتواءات الايديولوجية، ولكن يبدو انها تعني بان حزب التحرير يخطط، نظريا على الاقل، لنضال سياسي سلمي في معظم الحالات، سعيا لزيادة اعضائه ونفوذه حتى تصل افكاره لحشد كبير من الجماهير حاسم. ومن شان ذلك ان يؤدي بطريقة ما الى الاطاحة بالنظام الحاكم بدون سفك دم. وتعبير غريب للرئيس السابق لفرع الحزب في بريطانيا، عمر بكري محمد، فان أمة الاسلام تشبه امرأة... احقنها بالفكر حتى تصبح حبلى ثم سوف تضع وليد الدولة الإسلامية."

وفي حالات اخرى، يشعر الحزب بوضوح بان واجب المسلمين هو الاطاحة بالحكام غير المسلمين، وينطبق هذا على الذين هم في موقع يمكنهم من ذلك. وبالتالي فان الشخصيات ذات النفوذ في الجيش سواء كانوا من اعضاء حزب التحرير ام لا- يمكن اقناعهم للقيام بانقلاب لازاحة زعيم غير مؤمن. يقول احد قادة الحزب: أن الانقلاب الابيض اسلوب مقبول تماما لتحقيق الاطاحة بحكومة. وبالطبع ليست كل الانقلابات بدون اراقة دماء، ولكن يبدو من المهم تحقيق انقلاب باقل الطرق عنفا. يقول نفس القائد: لا نريد التشجيع على أي نوع من الحرب الاهلية، مثلا."

وتوفر باكستان مثالا هاما من ناحية نظرية، رغم الامكانية الضئيلة في وجود أي نفوذ هام لحزب التحرير هناك. ويقول الحزب هناك انه يميز بين القيادة الباكستانية العليا وصغار الضباط والجنود. يقول احد قادة الحزب ان الجنرالات هم عملاء الامبريالية الدولية، بينما بقية الجيش هو حليفهم المحتمل. ففي بيان صحفي، يحث حزب التحرير الجنود الباكستانيين السير على منوال محمد بن القاسم في الوقت الذي يعتدي فيه الكفار على شرف اخواتنا العراقيات تاريخيا، لا يقدم سجل الحزب دليلا على تورطه في نشاط ارهابي ضد المدنيين، او في اعمال عسكرية ضد المصالح الامريكية او الغربية. ولكن هناك دليلا على اشتراكه في سلسلة من الانقلابات الفاشلة ومحاولات الاطاحة بحكومات في الشرق الاوسط. بعض ادلة هذه الاحداث محل خلاف، ولكن يبدو واضحا ان حزب التحرير اشترك في محاولة انقلاب فاشلة في الاردن في عدة مناسبات في اواخر الستينات ومطلع السبعينات. وقد اتهم ايضا بالتورط في هجوم على الاكاديمية العسكرية في مصر عام 1974، وفسرته الحكومة على انه كان تحضيرا لانقلاب. وبدلا من انكار الاشتراك، يعترف ممثلو الحزب بانه ليس سرا في اشتراك حزب التحرير في عدد من محاولات الانقلاب الفاشلة في الشرق الاوسط".

وقد زادت الدعوة في ادبيات الحزب الاخيرة الى الاطاحة بالقيادة المسلمين الفاسدين. وازداد التدخل العسكري الامريكي في افغانستان والعراق المزيد من التطرف الى خطابه. فقد اكد احد الناشطين في مقالة ظهرت مؤخرا: لقد حان وقت التغيير. حان وقت ازاحة الحكام الذين يشلون العالم الإسلامي، اما مباشرة عن طريق الجماهير او عن طريق اقوى العناصر... الناس مستعدون، الحكام قد فشلوا، ولم يبق سوى ان يشعر جنرال في سورية او مصر، باكستان او تركيا، بما يكفي من اثاره لرفع سماعة الهاتف".

وهكذا، بينما لا يمكن تصنيف حزب التحرير عقائديا وعمليا على انه جماعة ارهابية، فانه على استعداد لاقتناع العسكريين للاطاحة بحكوماتهم، وان يشترك بنفسه في حالات معينة في هذه الانقلابات العسكرية. واذا وصل الحزب للسلطة، يصبح من المؤكد

على استعداد لاستخدام العنف كدولة اسلامية. ذلك ان الحزب يؤكد بان واجب الدولة الإسلامية القيام بمحملات عسكرية لتحرير الاراضي الإسلامية من حكم الكفار وشن حرب على اسرائيل.

ومن الهام ان نتذكر بان حزب التحرير لم يحقق مطلقا ايا من اهدافه، وان الدعم الجماهيري المحدود له في معظم بلدان العالم الإسلامي يعني ان من المستبعد له تحقيق ذلك. ويرى البعض بان ذلك ربما يقود الى نفاذ الصبر عند اعضائه عندما يبدو لهم بان اهدافهم بعيدة بمقدار ما كانت بعيدة عندما تأسس الحزب قبل نصف قرن مضى. من الواضح ان ذلك كان مشكلة في الماضي: كانت منشوراتهم تحت الاعضاء على عدم التسرع ونفاذ الصبر، وان يكونوا واثقين من ان الدولة الإسلامية سوف تقام، حتى لو استغرق ذلك وقتا طويلا".

ج- الشبكة العالمية

ان الايديولوجية المنبثقة عن كتابات النبهاني عن الشخصيات الرئيسية في القيادة شيء، وقضيته مدى تقبل هذه الايديولوجية عند الفروع المحلية للحزب شيء اخر. المعلومات قليلة عن مدى وحدة وتناغم الحزب، ولكن الانطباع السائد هو ان هناك قاعدة ايديولوجية مركزية مع اعطاء مجال واسع للقادة المحليين في تنفيذ النشاط السياسي بطرق تتناسب مع الظروف المحلية. ويبدو ان ذلك يمثل تحولا، ربما دخل في مطلع الثمانينات، عن سير الحزب في السنوات الاولى، عندما كان يطبق تنظيما صارما لمبادئ الحزب على النمط اللينيني، وكان يتم طرد اعضاء عندما كانوا ينحرفون عن مسار السلطة المركزية للحزب. ليس واضحا المدى الذي يصل اليه هذا التحول، ولكن يبدو من المستبعد ان تقدر الفروع المحلية على تجاوز عناصر معينة من الايديولوجية.

1- الشرق الاوسط:

حدثت الانشطة المبكرة لحزب التحرير في الاردن في غالب الامر، حيث كسب اتباعا داخل صفوف الفلسطينيين. ولم تكسب انشطته شرعية كاملة في يوم من الايام، رغم ان احد الاعضاء المؤسسين، وهو احمد الداعور، نجح عام 1964 في الانتخابات البرلمانية. وكان عام 1968 من بين الذين تم اعتقالهم بعد اتهام الحكومة للحزب بمحاولة القيام بانقلاب عسكري، ومنذ عام 1969 اصبح موقف الحزب اكثر هشاشة، حيث اصبحت العضوية فيه تؤدي الى السجن لمدة ست سنوات.

وجاءت الحرية السياسية في التسعينات لتعطي الحزب فرصة اكبر، ولكنه تلقى ضربة اخرى عام 1993 عندما جرى القاء القبض على الكثير من اعضائه، وادعت السلطات بانها اكتشفت خلايا مسلحة لحزب التحرير في الادارة العسكرية لجامعة مؤتة (وهو اتهم ثبت عدم صحته في قضية لاحقة امام القضاء). وعلى الرغم من ذلك، يواصل الحزب العمل في الاردن، وهناك بعض الشواهد على ان جزءا من القيادة ما زال موجودا هناك.

قضى النهائي معظم حياته في المنفى في بيروت، وجعل النظام المتسامح هناك من لمدينة قاعدة لكثير من أنشطة الحزب. ورغم وجود الفلسطينيين على رأس الحركة، لكن حزب التحرير لم يحظ بنفوذ جاد داخل الاراضي المحتلة، حيث لم يستطع منافسة الجماعات المتطرفة التي تنظم مقاومة شعبيته، مثل حماس، او منافسة العناصر الوطنية الفاعلة المتمثلة في منظمة التحرير الفلسطينية. ورغم ان الحزب يعبر عن شيء ما بين التعاطف والدعم للانتفاضة، الا انها لا تتوافق مع ايدولوجيته الكلية، وهو ان الجهاد ضد اسرائيل يمكن ان ينطلق فقط بشكل جدي عندما تقام الدولة الإسلامية.

وقد تم حظر نشاط الحزب في سورية. وقامت قوى الامن بحملة اعتقال مكثفة على اعضائه عام 1999 تواصلت حتى عام 2002، رغم ان الرئيس بشار الاسد اصدر

عفوا عن بعض نشاطاته. وبناء على قول اللجنة السورية لحقوق الانسان، ظل في السجن 59 من اعضاء الحزب.

وفي العراق، يبدو ان الحزب فقد القدرة على القيام باي نشاط هام في ظل نظام صدام حسين. ففي عام 1990 تم اعدام اعضاء من الحزب بعد دعوته صدام لاقامة دولة اسلامية. ولكن الحزب اعلن بعد سقوط صدام عن افتتاح فرع له في العراق، رغم انه ليس من الواضح ما يعنيه ذلك على ارض الواقع. حتى الان، يبدو ان التحالف لم يفرض قيودا على انشطته.

وفي مصر، صدر حظر على نشاط الحزب بعد تورطه في محاولة الانقلاب الفاشلة عام 1974، وجرت عمليات اعتقال اخرى عام 2002، اشتملت على ثلاثة اعضاء بريطانيين في حزب التحرير. كما حظر نشاط الحزب في بلدان شمال افريقيا. ففي تونس تم تدمير خلاياه عام 1983، وطال الاعتقال 80 من اعضائه عام 1991. وفي ليبيا فشلت محاولات للتاثير على سياسة القذافي، وأدع بعض اعضاء الحزب السجن، بعد ان غضب القذافي من تقديم لايدولوجيته، ويقول احد المصادر ان الحزب اشترك في محاولات انقلاب في الجزائر والسودان، ولكن ليس هناك تاكيد من جهات مستقلة. وفي تركيا كان الحزب نشيطا، لكنه واجه قمع الدولة.

جاءت نتائج نشاط وعمل حزب التحرير في الشرق الاوسط تافهة بصورة عامة، رغم ان الحزب قد أثر على النقاش بين الإسلاميين. ومع ذلك، ينظر اليه عند المسلمين ذوي المستوى الجيد من التعليم على انه يمثل جماعة مبتدعة مهرطقة لا يقبل تفسيرها لكثير من آيات القرآن. ويبدو ان حزب التحرير يتمتع بميزة في المجتمعات التي توجد فيها ثقافة اسلامية محدودة عند المسلمين، وحيث تكون الدولة علمانية بشكل صريح، كما هو الحال في آسيا الوسطى، او في الجاليات الإسلامية في اوربا الغربية.

2- اوروبا الغربية:

يقول زعيم حزب التحرير في السويد، فادي عبد اللطيف، ان الحزب ينشط في تجنيد الجيل الثاني من المهاجرين المسلمين. ولما كان اعضاء هذه الجماعة لم يهربوا انفسهم من الحكومات الظالمة مثلما فعل الكثير من ابااتهم، الا انهم يبدون في الغالب النقد للديمقراطية ولظلم الراسمالية، وبالتالي المجذبوا الى رسالة حزب التحرير المتمثلة في نظام اسلامي عادل. وبلاضافة لذلك، يواجه المهاجرون المسلمون غالبا التمييز الديني او العنصري. وظلت شعبية الحزب تواصل الصعود بين المسلمين في الغرب، مما وفر له قاعدة تنظيمية وربما مالية قوية.

كانت المانيا اول دولة غربية تقدم على حظر حزب التحرير، وذلك في تشرين الثاني 2003 ولكن الحكومة الالمانية لم تقدم أي دليل على وجود علاقات بين الحزب وبين الجماعات الارهابية. وقامت قوى الامن الالمانية بمزيد من الغارات على الناشطين المعروفين، الذين يعملون الان بوجه غير قانوني، وذلك في ايار 2003. وفي الدنمارك، اكتسب الحزب مساندة من المهاجرين. وفي اذار 2003، ادين زعيمه فادي عبد اللطيف بانتهاك القوانين المضادة للعنصرية، بعد ان وزع منشورات يقال انها دعت قتل اليهود. ويدعي الحزب بان الاقتباس عن المنشورات قد حُرف. والواضح ان الحكومة فكرت في حظر نشاط الحزب الذي له نحو مائة عضو، حسب تقارير وسائل الاعلام.

وفي المملكة المتحدة يظل حزب التحرير شديد النشاط، وبخاصة في لندن وفي المدن التي يوجد بها اعداد كبيرة من السكان المسلمين، مثل برمنجهام وبرادفورد وشفيلد. والواضح انه ينجح في تجنيد الطلبة، رغم حظره في الحرم الجامعي بعدة جامعات، بسبب معاداته للسامية مما يشكل تهديدا لطلبة من اتباع ديانات اخرى، وبسبب اعتراضه العلني على الشذوذ الجنسي.

كان حزب التحرير قد طور شهرة مثيرة للجدل في المملكة المتحدة في مطلع التسعينات بأنه حاول جادا العمل بطريقة تنسي الناس مسأولته. وقد برز بسرعة وتطور من منظمة غير معروفة ربما الى اكثر الحركات الإسلامية سوء سمعة في بريطانيا. حتى مطلع عام 1996، كان زعيم الحزب هناك هو عمر بكري محمد، وهو مهاجر سوري جعلت منه خطابات المتتبهة شخصيته مكروهة في الصحافة السورية، ولكن زعيما شهيرا عند بعض الشباب المسلم الغاضب.

كان الجدل الذي ثار في الاعلام حول انكار بكري محمد للمحرقة والتوتر المتزايد في حرم الجامعات بين حزب التحرير والطلاب الهنود واليهود قد ادى الى طرد بطري محمد من جانب القيادة الدولية للحزب عام 1996. ولكنه قام بتشكيل حركة المهاجرون، وهي جماعة اكثر تطرفا، اتهمت بارسال الشباب المسلم للتدريب العسكري في افغانستان وفي اماكن اخرى.

ويقوم الزعماء الحاليون لحزب التحرير في المملكة المتحدة باظهار وتقديم رسالة ودية لوسائل الاعلام اكثر اعتدالا، ويمرصون على التقليل من اهمية أي تفسير خاطئ قد يظهر حول افكارهم. ويسرعون إلى إنكار الاتهام بمعادة السامية وبتدوين بأعمال العنف، لكن الرسالة الأيديولوجية الأساسية تظل هي نفسها بدون تغيير.

3- اسيا:

من جذوره في الشرق الاوسط، واتباعه بين المسلمين في الغرب، يحاول حزب التحرير نشر شبكة له في كافة انحاء العالم الإسلامي. ومن بين اهدافه البلدان الإسلامية غير العربية، ومنها دول اسيا الوسطى، والبلدان الإسلامية في الشرق الاوسط، مثل اندونيسيا وجنوب اسيا، وبخاصة باكستان. وهناك بلدان، هما اندونيسيا وباكستان، يقدمان وجهة نظر متناقضة عن امكانية نجاح الحزب السياسي.

4. اندونيسيا:

ظهر حزب التحرير لأول مرة في اندونيسيا عام 1983، على يدي استرالي من اصل اردني-لبناني، اسمه عبد الرحمن البغدادي. وظل طيلة الخمسة عشر عاما التالية يعمل في الغالب كحركة سرية في الجامعات في جزيرة جاوة، اما المتحدث الحالي باسم الحزب، وهو اسماعيل يوسانتو، فقد انجذب الى الحركة عام 1985 عندما كان طالبا يدرس الجيولوجيا في كلية فنية في احد المعاهد الاندونيسية البارزة، جامعة غاجا مادا بوسط جاوة.

وما زال الحزب يعمل في الجامعات بشكل اساسي، ولكنه انتشر خارجها عندما المحسرت القيود السياسية بعد سقوط سوهارتو في ايار 1998. ويدعي الان بان اعضاء عشرات الالاف، وينشر عددا كبيرا من المطبوعات، بما في ذلك نسخة فاخرة من النشرة الشهرية للحزب الوعي. وللحزب حضور قوي بشكل خاص في بوغور بجاوة الغربية، في حرم معهد بوغور الزراعي، وفي يوغيكارا بوسط جاوة، وفي جاكرتا، ومكسار بجنوب سولاسي.

وتمكن حزب التحرير من حشد الاف المظاهرات تايدا لتطبيق للشريعة الإسلامية (مثلا، في مسيرات منفصلة في جاكرتا وكنداري في تشرين الاول 2002)، وضد الحرب الامريكية في العراق. لكن اعضاء لم يشاركوا في عنف، رغم ان الحزب كان له ممثلون في المؤتمر التاسيسي لمجلس مجاهدي اندونيسيا الذي ضم بعض الممثلين عن الجماعات الإسلامية، التي اتهمت بتدبير التفجير في بالي في تشرين الاول 2002. كما كان للحزب حضور بارز في جماعة دعم ابو بكر باسير، زعيم الجماعة الإسلامية، عند بدء محاكمته في نيسان 2003، بذلك تحالف ثانية مع مجلس مجاهدي اندونيسيا.

وكامثاله في اماكن اخرى، يلتزم حزب التحرير (باندونيسيا) باستعادة الخلافة الإسلامية، لكن الكثير من حملاته تركز على مكاسب قصيرة المدى. ففي اجتماع

حضرته جماعة الازمة الدولية في اواخر عام 2002، عالج كيفية غرس معاني اخلاقية جديدة في المدارس الابتدائية، ولكن للحزب نظرة عالمية، مع اهتمام خاص بالسياسات الغربية حول الشيشان وافغانستان والعراق. وهو شديد القلق بسبب اضطهاد اعضاء الحزب في اوزبكستان.

رغم ان يوسانتو يرفض مشاركة حزب التحرير في النظام السياسي كحزب - الواقع انه يرفض الديمقراطية باعتبارها نظاما سياسيا- يحافظ الحزب على علاقات طيبة مع تلك الاحزاب الإسلامية الملتزمة بتطبيق الشريعة الإسلامية. وبالنسبة لحزب التحرير في اندونيسيا، يبدو ان الوسيلة الرئيسية لتحقيق اهدافه هي تجنيد الاعضاء، يقول زعيمه: يمكن الاطاحة بسوهارتو بمائة الف شخص فقط، بينما كان في جاكرتا 11 مليوناً في ذلك الوقت. وعندما يصل عدد اعضائنا الملايين يمكننا ان نتحدث عن تغير اجتماعي وسياسي."

حتى الان، لم تفرض قيود على الحزب او على أي من نشاطاته. وهو يتمتع بحرية في عقد الاجتماعات الحاشدة ويجزرها اعداد كبيرة. وهذا الحزب، بالاضافة لجماعة التربية - التي هي امتداد للاخوان المسلمين والتي اصبحت تحمل اسم حزب العدالة، يعتبر بين اكثر حركتين اسلاميتين تطرفا في البلد.

باكستان:

بالمقارنة مع النمو السريع لحزب التحرير في اندونيسيا، نجد انه اقل نجاحا بكثير في باكستان، حيث تاريخه قصير، لانه بدأ نشاطه بشكل فاعل في تشرين الثاني 2000. ورغم ادعائه بوجود اعضاء له دائما في البلد، فان المؤسسين له كانوا في غالبهم من المغتربين الباكستانيين.

ومثل معظم فروع حزب التحرير، فهو في باكستان صغير ويعمل سرا. ويأخذ تنظيمه الشكل الهرمي، ويقع الامير على قمة الجماعة الباكستانية للحزب، ولا تعرف

4. اندونيسيا:

ظهر حزب التحرير لأول مرة في اندونيسيا عام 1983، على يدي استرالي من اصل اردني-لبناني، اسمه عبد الرحمن البغدادي. وظل طيلة الخمسة عشر عاما التالية يعمل في الغالب كحركة سرية في الجامعات في جزيرة جاوة، اما المتحدث الحالي باسم الحزب، وهو اسماعيل يوسانتو، فقد انجذب الى الحركة عام 1985 عندما كان طالبا يدرس الجيولوجيا في كلية فنية في احد المعاهد الاندونيسية البارزة، جامعة غاجا مادا بوسط جاوة.

وما زال الحزب يعمل في الجامعات بشكل اساسي، ولكنه انتشر خارجها عندما انحسرت القيود السياسية بعد سقوط سوهارتو في ايار 1998. ويدعي الان بان اعضاء عشرات الالاف، وينشر عددا كبيرا من المطبوعات، بما في ذلك نسخة فاخرة من النشرة الشهرية للحزب الوعي. وللحزب حضور قوي بشكل خاص في بوغور بجاوة الغربية، في حرم معهد بوغور الزراعي، وفي يوغيكارا بوسط جاوة، وفي جاكرتا، ومكسار بجنوب سولاسي.

وتمكن حزب التحرير من حشد الالف المظاهرات تايدا لتطبيق للشريعة الإسلامية (مثلا، في مسيرات منفصلة في جاكرتا وكنداري في تشرين الاول 2002)، وضد الحرب الامريكية في العراق. لكن اعضاءه لم يشاركوا في عنف، رغم ان الحزب كان له ممثلون في المؤتمر التاسيسي لمجلس مجاهدي اندونيسيا الذي ضم بعض الممثلين عن الجماعات الإسلامية، التي اتهمت بتدبير التفجير في بالي في تشرين الاول 2002. كما كان للحزب حضور بارز في جماعة دعم ابو بكر باسير، زعيم الجماعة الإسلامية، عند بدء محاكمته في نيسان 2003، بذلك تحالف ثانية مع مجلس مجاهدي اندونيسيا.

وكامثاله في اماكن اخرى، يلتزم حزب التحرير (باندونيسيا) باستعادة الخلافة الإسلامية، لكن الكثير من حملاته تركز على مكاسب قصيرة المدى. ففي اجتماع

حضرته جماعة الازمة الدولية في اواخر عام 2002، عالج كيفية غرس معاني اخلاقية جديدة في المدارس الابتدائية، ولكن للحزب نظرة عالمية، مع اهتمام خاص بالسياسات الغريبة حول الشيشان وافغانستان والعراق. وهو شديد القلق بسبب اضطهاد اعضاء الحزب في اوزبكستان.

رغم ان يوسانتو يرفض مشاركة حزب التحرير في النظام السياسي كحزب - الواقع انه يرفض الديمقراطية باعتبارها نظاما سياسيا- يحافظ الحزب على علاقات طيبة مع تلك الاحزاب الاسلامية الملتزمة بتطبيق الشريعة الإسلامية. وبالنسبة لحزب التحرير في اندونيسيا، يبدو ان الوسيلة الرئيسية لتحقيق اهدافه هي تجنيد الاعضاء، يقول زعيمه: يمكن الاطاحة بسوهارتو بمائة الف شخص فقط، بينما كان في جاكرتا 11 مليوناً في ذلك الوقت. وعندما يصل عدد اعضائنا الملايين يمكننا ان نتحدث عن تغير اجتماعي وسياسي."

حتى الان، لم تفرض قيود على الحزب او على أي من نشاطاته. وهو يتمتع بحرية في عقد الاجتماعات الحاشدة ويحضرها اعداد كبيرة. وهذا الحزب، بالاضافة لجماعة التربية -التي هي امتداد للاخوان المسلمين والتي اصبحت تحمل اسم حزب العدالة، يعتبر بين اكثر حركتين اسلاميتين تطرفا في البلد.

باكستان:

بالمقارنة مع النمو السريع لحزب التحرير في اندونيسيا، نجد انه اقل نجاحا بكثير في باكستان، حيث تاريخه قصير، لانه بدأ نشاطه بشكل فاعل في تشرين الثاني 2000. ورغم ادعائه بوجود اعضاء له دائما في البلد، فان المؤسسين له كانوا في غالبهم من المغتربين الباكستانيين.

ومثل معظم فروع حزب التحرير، فهو في باكستان صغير ويعمل سرا. وياخذ تنظيمه الشكل الهرمي، ويقع الامير على قمة الجماعة الباكستانية للحزب، ولا تعرف

هوية هذا الامر. ولم يسمح بالكشف سوى عن اسم المتحدث الرسمي باسم الحزب، هو نافيد بوت .

ولكن حاجة حزب التحرير للظهور العلني قد دفعه الى عقد الاجتماعات العامة وتنظيم المظاهرات. ونتيجة هذه المظاهرات اصبح بعض الاعضاء يعرف بعضهم بعضا، لكن معظمهم يظلون تحت السطح، يمنعمهم قادنهم من المشاركة في أي حدث جماهيري. يقول نافيد بوت: 'غير مسموح لنا بالكشف عن هويتنا بسبب القمع الموجه لحزب التحرير على نطاق العالم'."

ان الاصرار على اقامة دولة اسلامية مطلقة، تطبق فيها الشريعة كاملة وفي الحال، يضع حزب التحرير في موضع منفصل عن الجماعات الإسلامية الباكستانية الاخرى، مثل عناصر مجال الامل المتحدة التي ترغب في التوصل الى حل وسط حول اقامة دولة اسلامية مقابل المشاركة في السلطة السياسية.

وبذلك، فان حزب التحرير (باكستان) يستخدم حتى الان الوسائل السلمية لنشر رسالته. وتشمل هذه الوسائل النشرات والمؤتمرات والندوات والدروس الدينية. ويقوم الاعضاء بالدعوة لايدولوجية الحزب بشكل منفرد، حيث يعملون في غالب الامر في المدن. ويستهدف الحزب عادة الطبقة المتوسطة المتعلمة من سكان المدن، متجاهلا المناطق الريفية التي تعتبر ذات فائدة قليلة لاهدافه السياسية. ويركز الحزب بشكل خاص على 'صناع الفكر' مثل الصحفيين والمعلمين والمحامين واعضاء النقابات، وعلماء الدين الذين يعتبرون قادرين على التأثير على الجمهور بشكل واسع.

وبناء على قول بعض اعضاء حزب التحرير، فان علاقته مع حكومة مشرف كانت ودية في بادئ الامر. والواضح ان الحزب وجد التشجيع من جانب بعض اجهزة الاستخبارات لفتح مكتب له بعد ان قرر اقامة وجود علني له في باكستان. ولكن الشرطة اغلقت المكتب في 26 تشرين الاول 2001 بعد مظاهرة عامة. وبعد عدة تجمعات عامة اعتقلت الشرطة عددا من الاعضاء، اطلق سراحهم جميعا فيا بعد. ولكن الحكومة لم تحظر

حزب التحرير رسميا وربما لا يشعر بحاجة للقيام باعمال اشد جراءة لانه فشل في القيام باعمال جريئة هامة.

يرى الصحافي احمد راشد الذي اجري دراسة عن الحركة بان حزب التحرير احرز تأثيرا ضئيلا في باكستان، وذلك لسببين: الاول لانه في آسيا الوسطى افاد من غياب المنافسة، اما في باكستان فهو يتنافس مع عدة احزاب عريقة، مثل الجماعة الإسلامية، على جمهور مستهدف واحد، وهو الطبقات المثقفة. والثاني، لوجود اقلية شيعية هامة وحازمة، ولان الاسلام في باكستان ذا طبيعة مذهبية، وهي ظاهرة غير موجودة في آسيا الوسطى. ولان حزب التحرير (باكستان) غير مذهبي في نظره، فمن المرجح الا ينجح هنا."

وربما كان اهم ما في الامر ان حزب التحرير يفتقر الى الجاذبية عند العسكر الباكستانيين الذين عمل دعمهم ورعايتهم على مساعدة احزاب مثل الجماعة الإسلامية وجمعية علماء الاسلام على رسوخ وتوسيع قاعدتهما السياسية. اما حزب التحرير فعنده القليل مما يمكن ان يقدمه للعسكر، مع وجود برنامجه احادي الفكرة في وحدة العالم الإسلامي. وعلى العكس من ذلك، فان هدفه في اقامة الخلافة، وبالتالي مناهضة حكم العسكر، قد عزله عن امكانية تحالفه مع الإسلاميين وحرمة من رعاية الجيش. ويبدو من المرجح ان يبقى على هامش الحياة السياسية في باكستان.

حزب التحرير في آسيا الوسطى

ان التجارب المختلفة لحزب التحرير على نطاق عالمي يوضح صورة ثنائية: فهو يكتسب قوة من وجود قاعدة ايدولوجية مركزية لديه، توفر له كذلك بعض الدعم التنظيمي، ولكن النجاح المحلي الاكبر يجيء من استجابة الزعماء المحليين لظروف معينة. وفي آسيا الوسطى، حافظ الحزب على عمل متوازن بين الايدولوجية المركزية وبين حاجته للاستجابة للاهتمامات المحلية لنيل الدعم.

نبت حزب التحرير من الطبيعة الهشة لاسلام آسيا الوسطى الذي ظهر بعد أن ضعفت السيطرة السوفيتية على الدين والسياسة في اواخر الثمانينات. وقد ظهر الاهتمام بالاسلام السياسي في بادئ الامر بفعل حركات مثل حزب النهضة الإسلامية في طاجكستان، وسلسلة من الجماعات التي استلهمت تعاليم الوهابية السعودية في اوزبكستان والتي اسس اعضاؤها فيما بعد حركة اوزبكستان الإسلامية المتشددة، الحليفة لطالبان في افغانستان.

وقد عمل اضطهاد الحكومة لهذه الجماعات، وبخاصة في اوزبكستان، على ظهور القليل من التعددية الدينية. وبدلاً من ذلك، تمهدت الطريق لجماعات ذات طبيعة تأمرية، وفي ذلك بيئة مثالية لحزب التحرير. وقد ظهرت اولى التقارير عن نشاطه في اوزبكستان في منتصف التسعينات. ويبدو ان النمو الاولي انتشر الى جنوب قرغستان، وبخاصة في اعقاب الاضطهاد الجماعي للاعضاء عام 1997. وفي عام 1998، ساند الاعضاء الاوزبك اقامة فرع في طاجكستان انتعش على مدى السنوات العديدة التالية. ومنذ عام 2000 ظهرت تقارير كذلك عن نشاطات في جنوب كازخستان. وظهرت كذلك تقارير من حين لآخر عن عمل حزب التحرير في سجون تركمستان.

وفي خلال عام 2002، احس الكثير من المراقبين بالمחסار في نشاط حزب التحرير. فقد ظهرت منشورات اقل، وادعى بعض الباحثين بان السبب في ذلك ربما كان يعود الى القيود التي فرضت بعد احداث 11 ايلول/ سبتمبر في الولايات المتحدة. ولكن يبدو ان الحرب في افغانستان والاعمال الحربية في العراق قد اسهمت كذلك في تطرف اراء بعض الاعضاء وفي ظهور لهجة اكثر حدة في منشورات الحزب.

أ- لماذا ينضم الناس للحزب:

يذكر اعضاء الحزب عدة اسباب للانضمام اليه، تتعلق بالبيئة التي يعيشون فيها، والتاريخ الشخصي للافراد وسياسة الحكومة. وليس هناك قضية واحدة ولكن توجد في

الغالب استجابة نفسية تتصل بفقدان المنزلة الاجتماعية، وضعف الإيمان بالمستقبل، والرغبة في عمل شيء ما حول تغيير المجتمع والتأثير العميق على حياة الناس.

وتعتبر الظروف الاجتماعية-الاقتصادية مناسبة للكثيرين من الذين ينضمون للحزب، ولكن الإشارة الى الفقر كدافع رئيس في تجنيد الناس للحزب ييسط الامور الى حد ما. فكرة ان الفقر هو الذي يدفع الناس للانضمام للحزب هي خرافة. انظر كم هي كبيرة اعداد المسلمين المتعلمين في الغرب الذين هم اعضاء (في الحزب). هناك اسباب اخرى للتطرف غير الفقر."

ربما يصدق هذا التاكيد على الغرب، لكن من الواضح ان العوامل الاجتماعية والاقتصادية تلعب دورا في آسيا الوسطى، حيث الكفاح من اجل البقاء المالي اليومي هو الاسمى في عقول معظم الناس. ويبدو ان بعض الاعضاء يتوقعون جزاء ماليا. ومع ذلك، ومع ان الكثيرين يشيرون الى المشاكل الاقتصادية التي يواجهونها عندما يشرحون السبب في الانضمام للحزب، لكن هناك شعورا مؤكدا في خلق ذريعة فيما يقولون.

عند السؤال عن سبب الانضمام، اجاب احد الاعضاء: انظر، نحن نعيش في فقر، ليست هذه حياة عادية. وتدخلت زوجته: ما الذي تحدث عنه؟ انا نبي ملحقا. وسوف نشترى شقة-شقة جميلة. انه يريد كل شيء..."

الكثير من الاعضاء، بالطبع، فقراء حقا، ولكن الاكثر اهمية هو ذلك الشعور الواسع في تلقي معاملة سيئة من المجتمع والدولة. لقد سدت الطريق امام طموحاتهم بطريقة ما، والتغير الاجتماعي الذي يشهدونه حولهم محبط ويهدد في غالب الامر مكانتهم في المجتمع او الاسرة.

ويعتقد الكثيرون في آسيا الوسطى بان الاعضاء ينضمون لحزب التحرير لانهم يتلقون مالا. تقول زوجة احد الاعضاء: الشباب العاطل عن العمل وحدهم الذين ينضمون... انهم يذهبون بسبب النقود... يروي بعض المحللين ان الاعضاء يتلقون ما بين

50-100 دولار مقابل توزيع المنشورات، ولكن لا يوجد دليل مؤكد على ذلك. وينكر جميع الاعضاء تلقي أي اموال مقابل عملهم. تحصل على نقود فقط عندما نبيع ادبيات، ثم نأخذ النقود ونوصلها [القيادة]، وعندما نجمع اجور الاعضاء-نوصلها كذلك. ولكن لا توجد نقود اخرى مطلقاً. ولكن تقارير المحاكم في طاجكستان توحى بان القادة يتلقون نقوداً، وبعضها يذهب لصغار الاعضاء، لكن معظمها ينفق على نشاط الحزب .

وحتى عندما يوجد دفع لبعض النقود للاعضاء، يبدو من المستبعد ان يشترك الكثيرون من اجل المنافع المادية وحسب. ويصعب الا نوافق احد اعضاء حزب التحرير الذي اجريت مقابلة معه في اوزبكستان.

"هناك شخص يعرفني ويتهمني بانني افعل هذا كله من اجل المال. قلت له: اذا اعطيتك مائة، هل تذهب وتوزع هذه المنشورات في السوق؟ اصيب بدهشة، ورفض ذلك بالطبع لن يفعل احد ذلك من اجل المال وحسب، لانه يعرف بانه ربما يقضي عشرين سنة في السجن او ما هو اسوأ، نتيجة لذلك".

والاهم من الفقر وامكانية اكتساب بعض المال، هناك عدد من القضايا النفسية. هناك سبب رئيسي وهو الافتقار الى شيء اخر يمكن عمله، اوضح احد الاعضاء كيف دخل في الحزب:

"كان الوقت يمضي مملاً بالنسبة لنا. جلسنا في الشارع. وكانوا [رجال حزب التحرير] يفعلون شيئاً. وبدأنا نتحدث معهم، وانضم اصدقائي لهم، وانضمت انا كذلك..."

هذا الافتقار الى رؤية مستقبلية امر شائع لدى الكثير من الاعضاء الشباب. والذين يتذكرون الاتحاد السوفيتي، يتذكرون الثقة والاستقرار الذي كان يوفره النظام، وقارنه مع عالم اليوم غير الامن. الشباب الذين يدركون بان طريقتهم في الحياة يعترضها النظام،

تسدها وتعرضها السلطات الفاسدة او عقبات اخرى، يستمعون لتفسير حزب التحرير البسيط للسبب الذي منعهم من تحقيق النجاح.

هذا الاعتراض وهذه العقبات امام طموحهم ربما يفسر لماذا ينضم للحزب عدد من المتعلمين والناجحين من الناس. ذلك ان طموحهم المحبط يشجعهم على ايقاع اللوم على النظام، والنظام نفسه، بفساده ومحسوبيته وعدم الاهتمام بالصلاح والخير، يشجع على تسييس المشكلات الشخصية.

يعكس هذا الوضع المشكلات السياسية والاقتصادية المتصلة بجهاز النظام الحاكم في دول آسيا الوسطى والتي لن يتم التغلب عليها بين عشية وضحاها. ولكن المثير من السياسات، ببساطة، كلية البصيرة. فنظام الحدود الصارم في اوزبكستان -الذي يجعل من المستحيل التجارة عبر الحدود- ترك الكثير من التجار بدون عمل ويشعرون بسخط شديد. ونظرا لان الكثير من اعضاء حزب التحرير يعملون في التجارة الخاصة، يبدو من المرجح ان هذه الخطوات يمكن لها فقط ان تزيد من قاعدة دعم الحزب. وتعتبر قضية الحدود امرا هاما، نظرا لان حزب التحرير يدعو لدولة اسلامية بدون حدود ولا قوميات. وتعتبر هذه الرؤية جذابة لكثير من الاقليات الاوزبكية، وبخاصة التي تعيش خارج الدولة الاوزبكية، لانها تعكس سخطها على وضعها في فترة ما بعد السوفيت، حيث فصلت عن ابناء جلدتها بحدود تزداد انغلاقا.

ويبدو الحل السياسي المقترح -حكم خليفة عادل وحكيم- مناسباً بشكل خاص للثقافة السياسية الاوزبكية، التي لاحظ الباحثون فيها تطلعا لحاكم ابوي، تكون مناقبه الشخصية (مثل العدل وصفاء السريرة) اكثر اهمية من أي ايدولوجية سياسية. ويدعو حزب التحرير لدولة تخلو من السياسات، نظام فيه الحكام يؤمنون بالقضاء والقدر، وسلطان يحكم باحكام الهية من عند الله.

هذه الاسباب النفسية للانضمام للحزب هي ايضا وثيقة الصلة في جنوب فرغستان، حيث الدور السياسي لحزب التحرير اقل اهمية بالنسبة لحكومة متحررة

نسيا. ومع ذلك، أصبحت الحكومتان الفاشستيتان في قرغيزستان وطاجكستان هدفا لدعاية حزب التحرير. ذلك ان رغبة الحزب في معالجة قضايا، تعتبر معظورة في وسائل الاعلام الجماهيرية، مثل المستوى العالي من الفساد، وفقدان بديل سياسي قابل للتطبيق، يساعد بشكل واضح على جذب عناصر معينة من الشباب الغاضب.

في اوزبكستان، يوجد لحزب التحرير بشكل خاص دور قوي باعتباره المعارضة السياسية الجادة الوحيدة لحكومة قمعية الى اقصى حدود القمع. ولا يسمح وجود احزاب علمانية معارضة في بيئة تنتشر فيها الكراهية للنظام الحاكم. ولذلك فان جانبا معيناً من التعاطف، ان لم يكن الدعم لحزب الله، يأتي من الذين يعارضون سياسيا السلطات الحاكمة، لا لانهم يؤيدون اهداف الحزب النهائية. واجرت جماعة الازمة الدولية مقابلات من وقت لآخر مع شباب اعربوا عن دعمهم للتوجه الإسلامي بدافع الكراهية للحكومة، لا بسبب أي رغبة معينة في حكومة اسلامية.

كما ان المشكلات الناجمة عن التغير الاجتماعي المتواصل توفر كذلك جمهوراً مستعداً يستمع لرسائل حزب التحرير. وكذلك فان تقييد الحزب لحرية المرأة يجد مساندة عند الكثير من الرجال الذين يرون بان المآسي الاجتماعية الضخمة للعقد الماضي قد حدثت من مكانتهم. فقد دفع الفقر الكثير من الشابات الى ممارسة الدعارة، وقد اثار هذه القضية كل عضو من حزب التحرير اجرت جماعة الازمة الدولية مقابلة معه. ان النظرة المحافظة عند الشباب الاوزبكي نحو الدعارة تجعل حزب التحرير يقدم التبرير السياسي والديني لاعادة تأكيد سيادة الرجل في المجتمع. ان السلوك الاجتماعي والشخصي غير المناسب يجد تفسيراً في التغيرات السياسية والاجتماعية الواسعة المفروضة على المجتمع من حكام يتلقون الاوامر من الغرب.

من الواضح ان للقمع الحكومي تأثير مزدوج في ابعاد اعضاء محتملين وكذلك في جذب اعضاء اخرين. وقد بين احد الاعضاء في اوزبكستان بانه لم يكن في الواقع راغباً في الانضمام لحزب التحرير حتى جرى اعتقال اخيه لانضمامه للحزب. عندها انضم هو

كذلك لتاثره من الطريقة التي عاملت بها الشرطة اخاه. وجرى اعتقال هو ذلك فيما بعد ولكن افرج عنه بموجب قرار عفو. واشترك الكثير من النساء في الحزب بسبب اعتقال ازواجهن او ابنائهن، وتولد عطف واسع عند المجتمع بسبب الروابط العائلية الوثيقة عند عائلات اوزبكستان التقليدية.

اعرب القليل من الذين اجريت معهم مقابلات عن تاثرهم بادبيات حزب التحرير في انضمامهم للحزب، ولكن من الواضح انها اثرت على بعضهم. اوضح احد الاعضاء ان تفسيرات الحزب العلمية للقضايا الدينية قد جذبت:

"انتسب لاسرة علمانية، لكنني اصبحت اهتم بالدين. ولكن لم يستطع احد الاجابة على تساؤلاتي، عن كيفية خلق الدنيا او الاشياء الماثلة. كان جدي متدينا، ولكنه كان يقول فقط: الله خلقها. ولكنه لم يستطع توضيح السبب في اختلاف ما يقوله العلم الذي نتعلمه في المدارس. وساعدني في حزب التحرير على فهم ما قاله العلم واجاب على استلتي بلغة افهمها."

تعتبر لغة الحزب الحديثة اكثر جاذبية للشبان، واكثر جاذبية للعلمانيين من الصيغ الدينية المعقدة لرجال الملائم التقليديين. وليس حزب التحرير كثير المطالب من حيث المعرفة الدينية، مثل الطوائف والمذاهب الدينية الإسلامية الاخرى: ليست هناك حاجة لتعلم اللغة العربية او الدراسة المتعمقة للكثير من كتب علماء الدين. وكل ما يحتاج العضو الى معرفته مدون في قائمة صغيرة من الكتب والنشرات مكتوبة بلغة سهلة.

ومثلما تبين من الامثلة السابقة، لا توجد اجابة سهلة عن السبب في الانضمام للحزب. ومعظم ما يجذب الشباب في آسيا الوسطى يمكن العثور عليه في خليط معقد من الدوافع النفسية والسياسية والاجتماعية. كما ان الرغبة في ان يكون المرء جزءا من جماعة وثيقة الترابط، تقدم الدعم المتبادل، نفسيا وربما ماليا، يلعب دورا في ذلك، ويناسب جيدا الانماط الاوزبكية الاجتماعية التقليدية، التي يشكل فيها الرجال في غالب الامر جماعات

مترابطة -سواء جمعتها او اصر القربى ام لا- تلتقي من وقت لآخر على الطعام او في مناسبات اجتماعية اخرى.

ان البحث عن عنصر اليقين في مجتمع متغير، على المستوى المصغر (الجماعة) وعلى المستوى الكبير (الايمان بنظام مستقبلي)، يعتبر عنصرا هاما في جاذبية حزب التحرير. كما ان سهولة النظام فيه وسهولة ايديولوجيته تشبه ما في الكثير من المذاهب الدينية الاخرى، والمنظور النفسي للعضو العادي ربما هي اقرب الى منظور عضو في طائفة دينية ذات اراء متطرفة، منها الى حزب سياسي متطرف.

ب-مدى الدعم

تدعي وسائل الاعلام بان لحزب التحرير انصارا وموالين يصل عددهم الى نحو مائة الف في آسيا الوسطى. ولكن يبدو ان في ذلك مبالغة. وتعتبر المبالغة في الدعم مفيدة لكل من اجهزة الامن (الحريصة على زيادة الميزانيات والنفوذ) ولحزب التحرير. والواقع ان الاعداد اقل مما يعترف به كلا الطرفين، رغم ان هذه الاعداد تظل هامة.

في اوزبكستان على الاقل 4000 من اعضاء حزب التحرير في السجن، ويرى معظم المراقبين بانهم يمثلون نسبة هامة من الاعداء. وبناء على احد المصادر، ادعى ذخر الدين حسني الدينوف في شباط 1999، وهو الان مستشار الرئيس للشؤون الدينية، وكان سابقا ضابطا في جهاز الامن الوطني، ادعى في مؤتمر مقصور على افراد قلائل ان في اوزبكستان ما بين 6500 و 7000 عضو. وفي غياب احصاءات اكثر موثوقية، يبدو هذا العدد واقعا، رغم انه ربما قد خفض قليلا وذلك لاغراض داخلية. ويبدو ان عدد الاعداء قد ازداد منذ عام 1999، لكن من المستحيل اعطاء رقم حتى بالتقريب. وقد ذكر عالم مطلع في طاجكستان بان الرقم يصل الى 15000 عضو، في عام 2003.

وفي قرغيزستان. ويدعي اخرون بان العدد اكبر بكثير، ولكن عدد ما بين الف والفين يلقي اكبر ترجيح. وقال ضابط كبير في الامن: يتظاهرون بوجود الكثير منهم

لتلقي التمويل. ولكن لا يوجد في الواقع نشاط خطير كبير هنا. وفي اواخر عام 2002 كان لدى الشرطة ملفات لاكثر من 600 شخص في اوش ولحو 680 ملفا في منطقة جلال اباد ممن يعتبرونهم اعضاء او متعاطفين. وبالطبع ربما يوجد اعضاء غير معروفين، لكن الشرطة تدعي خلال ذلك. وخارج هذه المناطق الجنوبية يوجد دعم محدود لحزب التحرير، رغم ورود اخبار من وقت لآخر عن نشاط في الشمال.

من الصعب معرفة اعداد موثوقة عن اعضاء الحزب في طاجكستان ولكن الاعتقالات عام 2000 توحى بان الاعداد في حدود الالف قليلة. وظهرت الدعاوى القضائية على قادة مزعومين لحزب التحرير في اذار 2002 بانهم جنّدوا اكثر من الف عضو. وفي كازخستان، يقدر الخبراء عدد الاعداء بمئات قليلة، وربما كانوا مجرد عشرات من الاشخاص.

من الصعب تصور وجود اكثر من عشرين الف عضو في آسيا الوسطى كلها. ونظرا للظروف السياسية التي يعملون في ظلها، وصعوبة انشاء أي حزب سياسيا في مجتمعات آسيا الوسطى، يظل هذا العدد هاما، ولكنه ادنى بكثير من بعض التقديرات.

ج- من هم اعضاء الحزب

1. المناطق والاعراق: يبدو ان غالبية اعضاء حزب التحرير هم من منطقة وادي فرغانا ربما في ذلك ولايتا اندجان وفرغانا في اوزبكستان، ومن ولاية سوغد في طاجكستان، ومن ولايتي اوش وجلال اباد في قرغيزستان). وقد ادى تركيز عمليات الاعتقال والاجراءات الصارمة في هذه المناطق الى تصاعد الاستياء عند هؤلاء السكان الذين كانوا يشعرون من قبل ذلك بالاضطهاد واستبعادهم عن مواقع السلطة على ايدي انظمة الحكم في آسيا الوسطى فيما بعد الحقبة السوفيتية. وشهد جنوب كازخستان كذلك تصاعدا في النشاط الموجود بشكل جزئي عند الاقلية العرقية الاوزبكية المحلية وبعض

الخزر، وربما تدعم وقوي هذا النشاط بوجود الاوزبك الذين عبروا الحدود من اوزبكستان الى كازخستان التي تتمتع بامان نسبي.

وفي اوزبكستان، يبدو أن الجزء الاكبر من نشاط حزب التحرير يقع في وادي فرغانا وطشقند. ويظهر تحليل جزئي للذين تم اعتقالهم بين سنتي 1997 و 2001، ان 23٪ كانوا من ولاية كانت من ولايات اخرى ومن وادي فرغانا -فرغانا نفسها وولاية منجانب. ولا يوجد ممثلون في العينة لولايتي كركبكستان الغربية ونافوي .

وفي طاجكستان، يتمثل المركز الرئيسي في ولاية سوغد في الشمال، وبخاصة في مدينة خود جند والمناطق المجاورة. وهناك تقارير عن أنشطة في دوشنبي، وبعض الأنشطة في مدن الجنوب، مثل كلوب. ولكن يعتقد عموما بان هذه الأنشطة هي من جهد مجموعات صغيرة او اشخاص، ولا تمثل تغيرا كبيرا في الصورة الجغرافية للحزب .

وفي قرغستان، يظل مركز النشاط في ولايتين جنوبيتين، هما اوش وجلال اباد. اما منطقة باتكن الجنوبية فقد شهدت نشاطا اقل بكثير، ربما لان بها عدد قليل من السكان الاوزبك. وتوحي الهجرة الجماعية من الجنوب الى بشكيك بانه ربما يوجد مجال للنمو في الشمالي، وهناك تقارير عن نشاط في بشكيك وتوكموك وايسكول. وعلى اية حال، يظل اعضاء حزب التحرير من الاوزبك في غالب الامر، بينما الجنوبيون الذين يهاجرون الى الشمال هم من القرغيز. ويظل من غير المؤكد اذا ما كان حزب التحرير سوف يشكل عامل جذب لهم.

يحاول حزب التحرير توسيع قاعدته العرقية. ولكن يبدو ان ذلك لاقى نجاحا محدودا، رغم ان المنشورات تصدر باللغتين القرغيزية والطاجيك. وفي طاجكستان، يقال ان عددا من القادة مثلوا امام المحاكم في اذار 2002، كانوا من الجنس الطاجيك، لكن سجلات المحاكم تبين بان معظم الاعضاء كانوا من الاوزبك .

في قرغيستان، تدعي المصادر الامنية بان اعضاء الحزب يتشكلون بنسبة 90٪ في المائة من الاوزبك، و 3-4 في المائة من القرغيز و 4-5 في المائة من الويغور. وتوحي المقابلات التي اجريت مع اعضاء ومع رجال الشرطة بان هذه الارقام دقيقة.

2. لحة عن العضوية" : عlisher في الثلاثين من العمر، يرتدي حلة انيقة وربطة عنق، وله سيارة ويحمل هاتفًا متنقلاً. كان يبدو بانه وجد البيئة التي كان يتحدث فيها مع 'جماعة الازمة الدولية'، في منزل متهدم، تثير القلق، لانه ربما كان معتادا على الرفاهية. كان يبدو كرجل اعمال ناجح، لكنه كان عضوا في حزب التحرير منذ نحو خمس سنوات.

ورغم ان معظم الاعضاء هم من العاطلين عن العمل، لكن هناك عنصرا قويا لما يمكن ان يسمى الطبقة الوسطى المتعلمة في الحزب، وبخاصة عند القيادة. ويعمل الكثير منهم في التجارة الخاصة، بطريقة ما ولدى البعض سند مالي معقول. ويجمع الكثير منهم من خلفيات علمانية، ولهم القليل من المظاهر الخارجية المتدنية الموجودة عند الوهايين، مثل اللحية والامتناع عن التدخين.

يبدو ان الكثير من افراد قيادة حزب التحرير في آسيا الوسطى كانوا على درجة عالية من التعليم. كان فرهد عثمانوف، الذي قتله الشرطة عام 1999، من بين القادة الاوائل، ويتنسب الى اسرة متدينة مشهورة في طشقند. ومن بين الذين اعتقلوا الكاتب الاوزبكي البارز أمير عثمان، الذي اودع بالسجن في شباط 2001 وتوفي بعد شهر من ذلك، والواضح ان ذلك كان بسبب التعذيب. ولكن التاكيد على ان حزب التحرير هو حركة من المثقفين امر بعد عن الحقيقة. ذلك ان غالبية الذين ينضمون له هم من الفقراء، ضعاف التعليم، عاطلون عن العمل، وبخاصة في قرغيستان. يقول شرطي في كارا-سو يعرفهم جيدا: أنهم يعملون في المقاهي او محلات الحلالة او محلات اصلاح الاحذية او في التجارة في السوق. وتدعي اجهزة الامن في جنوب قرغيستان بان 90 في المائة من الاعضاء عاطلون عن العمل، و90 في المائة لا يحظون بمستوى التعليم العالي او المتوسط المتخصص وان اكثر من 60 في المائة ياتون من خلفيات فقيرة. ومعظم الشباب (70٪)

من فئة 18-30 سنة من العمر، و 25 في المائة من فئة 30-40 عاما، و 5 في المائة فقط فوق الاربعين .

وفي اوزبكستان، يبدو ان للحزب قاعدة اكبر من المتعلمين، ربما لان الكثير من رجال القيادة كانوا اصلا يستقرون هناك. واتم 16 في المائة من العينة التي تمثل المعتقلين مستوى التعليم العالي، بينما 6 في المائة فقط لم تكمل المدرسة الثانوية. وعلى الرغم من ذلك، كان 56 في المائة منهم عاطلين عن العمل، بينما كان 8٪ من رجال الأعمال، يليهم عمال المزارع الجماعية (5٪)، والمعلمون (4٪) والطلاب (4٪). ولان الكثير من العاطلين عن العمل في اوزبكستان هم في الواقع من اصحاب المستوى الجيد من التعليم، فان هذه الارقام تبدو مضللة الى حد ما. ورغم ان المعتقلين تتراوح اعمارهم بين سن الخامسة عشر والستين، لكن 82٪ منهم ما بين سن الحادية والعشرين والسادسة والثلاثين، وذلك عام 2000 .

هذه لمحة عن عينة لحزب التحرير، ولكنها تظهر بانها ممثلة نسبيا بمجموعات عديدة من السكان على نطاق واسع، وان اعضاءه بشكل عام افضل تعليما، ولكن البطالة تنتشر بينهم بشكل اكبر مما عند غيرهم. ويبدو ان القيادة جاءوا من خلفية جيدة، على مستوى جيد من التعليم، يحظون بدعم مالي، ويكن معظم الاعضاء هم من العاطلين عن العمل وصغار التجار والمهنيين.

وفي طاجكستان، جاء الموالون لحزب التحرير في غالبيتهم من ولاية 'سوغد' (لينين اباد سابقا)، وهي المنطقة الاكثر تقدما من ناحية اقتصادية وتعليمية وعلمانية. قال احد القضاة: الكثيرون منهم من عائلات مرموقة -ليست هناك مصالح مادية هنا، بل عقائدية فقط. ومرة اخرى، نجد بان غالبية الاعضاء من الشباب العاطل عن العمل، رغم وجود عدد لا بأس به من الطلاب. ومن بين 118 عضوا في حزب التحرير الذين اعتقلتهم اجهزة الامن في ولاية 'سوغد'، 64 في المائة فيما بين سن 21 و 30 سنة، و 72 في المائة

عاطلون عن العمل، و 11 في المائة من الطلاب و 2 في المائة معلمون وواحد في المائة من علماء الدين المسلمين .

والاكثر اثاره للاهتمام، وكذلك للقلق، ان متقدي ومؤيدي الحزب على حد سواء يلاحظون بان سكان آسيا الوسطى ممن لديهم خلفية دينية او تربية دينية محدودة، اصبحوا من بين اتباع حزب التحرير. والواقع ان الذين يساندون الحزب ليسوا هم المحافظون المتدينون تقليديا، ولكن معظمهم من الشباب قليلي الاطلاع على الاسلام، الذين يقرأون النشرات والادبيات ويتعلمون بانفسهم حول الاسلام.

والسبب في ان حزب التحرير يشكل جاذبية للمسلمين الذين يتمون لخلفية علمانية، ربما كان صورة الحزب الحديثة وقدرته على استخدام لغتهم. فبينما نجد ان الامام التقليدي ربما يعرض اجزاء من القرآن (غالبا بالعربية)، ويقدم اجابات شعائرية للامثلة العلمانية، يتمتع حزب التحرير بقدرة افضل على الاجابة بطريقة تعكس وجه النظر العالمية التي تربي هؤلاء الشباب عليها.

وتظل الغالبية العظمى من اعضاء حزب التحرير من الذكور. وهو يدعو علانية النساء للانضمام لعضويته، ولكن تظل النساء تشكل نسبة ضئيلة، ربما 6 او 7 في المائة في جنوب قرغيزستان، بناء على مصادر امنية. ومعظم هؤلاء النساء من اقارب الاعضاء - زوجات او امهات - وليس من الواضح مدى مشاركتهن في توزيع النشرات، بعض الاعضاء يقولون انهن يقمن بذلك، ولكن اخرين ينكرون ذلك. لقد اصبحت المرأة نشيطة في اوزبكستان ولكن اساسيا في القيام بالمظاهرات دفاعا عن الاقارب المسجونين.

د- بنية الحزب

من الصعب اختراق بنية حزب التحرير. ذلك ان الذين تجرى معهم المقابلات يرفضون الاجابة عن القضايا التنظيمية، وغالبا هم لا يعرفون انفسهم عن تنظيم الحزب وبنيته. مع ذلك، يوحي ما يتم استنتاجه من الباحثين واجهزة الامن بان الهيكل التنظيمي،

متطابق في الحياء المنطق، نظريا على الاقل. فهو يعتمد على هيكل الخلية، المشابه للتنظيم الشيوعي في بدايته، مع وجود خضوع دقيق للاوامر تجنبيا لاختراقه وللمحافظة على الصفاء الايديولوجي.

وعلى ادنى المستويات، يتنظم الاعضاء في حلقات، الواحدة من خمسة اعضاء، في العادة. ويسمى رئيس الحلقة "المشرف" وهو الذي يوجه اعضاء الحلقة. وعلى مستوى المنطقة، او على رأس نحلة كبيرة، او اللجنة المحلية (على افتراض وجود عدة حلقات)، يسمى القائد مُساعدًا، وهو ينظم الانشطة من خلال عدة مساعدين يسمون نُقباءً. والممثل الاقليمي يسمى مُعتمدًا، ويعينه المجلس السياسي المركزي المسمى القيادة-قيادة الحزب الدولية، والتي يرأسها امير الحزب (وهو الفلسطيني عطا ابو الرشته، منذ ايار 200).

ومن الشواهد الضئيلة، يستتج بان الصلة بين الحزب الدولي والفروع المحلية تبدو متقطعة غير منتظمة. وهناك مدى واضح الفروع المحلية لكتابة منشوراتها الخاصة بها، واتخاذ قراراتها التكتيكية -مثلا متى واين يوزع النشرات. وياخذ بعض هؤلاء الاعضاء نصوص المنشورات عن موقع الانترنت ويترجمونها بمبادرة منهم. ويبدو من غير المحتمل ان تاتي التغيرات الايديولوجية من القاعدة، بل من القيادة المركزية.

وعلى المستوى المحلي، يقوم الاعضاء عادة بتشكيل خلايا (حلقات) جديدة، يجندون اعضاءها من الوسط المحلي، مثل الاقارب والاصهار. كما يستغلون العلاقات الوثيقة للاقليات الاوزبكية (في قرغستان وطاجكستان) لتوسيع الحزب بطرق امنة.

ويتمتع قائد الحلقة وحده بالاتصال بالحلقة التالية في البنية التنظيمية. والنتيجة هي وجود هيكل هرمي لا مركزي والاعضاء يعرفون القليل من الاعضاء الاخرين، ولذلك لا يستطيعون الافشاء سوى بمعلومات قليلة عن التنظيم.

ويبدو ان القيادة تظل مجهولة في بعض المناطق، ولا تستطيع اجهزة الامن سوى الاختراق على المستوى المحلي. ولكن يعتقد بان عددا كبيرا من اعضاء القيادة قد تم القاء

القبض عليهم في اوزبكستان، وربما في طاجكستان، بينما تدعي الشرطة في قرغستان بانها تخضعهم للمراقبة الدقيقة. ويدعي احد ضباط الشرطة: القادة؟ نحن نعرفهم جميعا."

يبدو مبدئيا بان فروع الحزب في اوزبكستان. وهناك شواهد مؤكدة على ان فرع طاجكستان بدأ بمبادرة من طقشند. ويبدو وجود صلات محدودة بين الاعضاء عبر الحدود، على المستوى الادنى والاطول، وربما يوجد تهريب للكتب والنشرات والاموال عبر الحدود. وقليل من الاعضاء لديه كثير من المعلومات عما يجري في بلدان اخرى، مما يوحي بان وجود أي شبكة لآسيا الوسطى محصور على القيادة، او على الارجح موجود على اساس غرض خاص.

وليس من الواضح اين تطبع المنشورات. في تشرين الثاني 2002، استولت الشرطة القرغيزية على سيارة تحمل خمسة الاف منشور دخلت من اوزبكستان بطريق غير مشروعة. ولكن معظم الباحثين يميلون الى الاعتقاد بان المنشورات تذهب في الاتجاه المعاكس، من جو اكثر انفتاحا في اوش وجلال اباد الى اوزبكستان. ويبدو ان الادبيات تتجه مبدئيا من اوزبكستان الى طاجكستان، ولكن الشرطة الطاجيك ادعت عام 2002 بانها اكتشفت مطبعة صغيرة كان يستخدمها الحزب، مما يوحي بان الاصدار يتم حيشما يتيسر الامر.

ويعتبر الالتزام بالانضباط الداخلي امرا حيويا لهذا النوع من الاحزاب، وهناك سلسلة من العقوبات توقع على الاعضاء الذين يخرقون القواعد، تصل الى الطرد. قال احد الاعضاء: اذا ارتكبت حراما ثلاث مرات، فان الاعضاء لا يتكلمون معك، ولا يقابلونك لمدة ثلاثة او اربعة اشهر. ولكن اذا واجهت مشكلات في تلك الفترة فانهم ياتون لمساعدتك. ويقول اخرون ان انواع العقاب على المخالفات التي لا تستدعي الطرد تشمل شراء دقيق للفقراء او القيام بالصيام.

ويتجه معظم العمليات من القمة الى القاعدة، وتنتظر الخلايا التعليمات قبل التصرف. ولكن يبدو ان هناك مجالا ما للعمل المستقل على مستوى الخلية. فقد اعترف

عضو في كراسو بأنه قام هو و أعضاء خليفته بالتوجه الى حجرات الاقتراع في الانتخابات وكتبوا على النشرات: سوف ننتخب خليفة فقط. وقال لقد قررنا ذلك من عند انفسنا، جماعتنا، ولم يأتنا امر بذلك من اعلى... وعلى الرغم من ذلك، كان لدى أعضاء اخرين افكار مشابهة. فقد قال واحد منهم في أرفان: في الانتخابات لم ننتخب احدا؛ وكتب شابنا في الاقتراع: نريد خليفة.

وليس من الضروري ان يكون جميع المشاركين في أنشطة حزب التحرير أعضاء كاملي العضوية. فهناك المؤيد، وهو ليس عضوا نشيطا، كما قال احد الأعضاء: "يستطيع المؤيدون المناقشة [نيابة عنا]، لكنهم لا يستطيعون شرح كل شيء. فهم يتحدثون الى الناس ثم يحضرونهم لنا. او يمكن ان نعطي درسا في منزل مؤيد، اذا استحال فعل ذلك في أي مكان. وهم يقدمون المال لنا ويساعدوننا بشكل عام، و احيانا يقومون بتوزيع منشوراتنا..."

ولكن هذه الهياكل التنظيمية تحد من مدى تطور حزب التحرير الى حركة جماهيرية. غير ان ذلك ليس بالضرورة هو هدفه - انه طليعة نخبة صغيرة فاعلة تهدف الى تحريك المجتمعات الإسلامية في اتجاه الدولة الإسلامية. وفي حالة وظروف اسيا الوسطى، ربما لا يكون عدد أعضاء العنصر الأكثر أهمية. قال احد الناشطين: نحن لا نطلب من الناس الانضمام الى الحزب الان، بل نشرح للناس ما يقوله القرآن، ما يجب ان نفعله. وليس اجباريا ان يكون كل مسلم عضوا في الحزب، والبعض ليسوا أعضاء، لكن الجميع يعرفون افكار الحزب. ولكن يجب ان ينفذوا اوامر الله... هناك الاعداد الكافية من أعضاء الحزب."

ويكلف كل هذا التنظيم والمنشورات المال، ولكن ربما لا يكلف اموالا ضخمة. غير ان المعلومات قليلة حول تمويل الحزب. وتعرف الشرطة القرغيزية القليل عن ذلك، لكنها تظن بان الكثير من التمويل يتم داخليا: من رسوم العضوية، رغم ان بعض الاموال ياتي من الخارج. قال ضابط رفيع المستوى: من المبالغة القول بانهم يتلقون تمويلا

من منظمات ارهابية عالمية. ويقول البعض انهم تلقوا تمويلا من رجال اعمال محليين، ولكن لا يوجد دليل مباشر يدعم هذا القول. وادعى ضابط كبير اخر: أنهم يسعون لنيل رعاية رجال اعمال محليين، وتتلقى قيادتهم المال. لكنهم يكتفون بذلك عن الاعضاء العاديين، وربما يقولون انهم ينفقون المال على تجنيد الاعضاء، لكن المال يظل في جيوبهم. "...

ويرى البعض بان لحزب التحرير صلة مع جماعات اجرامية ففي طاجكستان يدعي رجال الشرطة بانه متورط في نشاطات اجرامية بما في ذلك المخدرات وبيع الاسلحة وابتزاز الاموال. ولكن الشواهد قليلة على وجود أي من ذلك، ويبدو ان الاعضاء بعيدين عن هذا النوع من الاجرام، رغم ان بعض الشباب في اوزبكستان يقول ان حزب التحرير يتحول الى مافيا بديلة في بعض الاسواق.

ولا يتطلب نشاط حزب التحرير - المحدود بشكل اساسي في توزيع نشرات وكتيبات ذات نوعية زهيدة التكاليف - تمويلا ضخما.

ولذلك فان من المعقول بان جانبا كبيرا من المصروفات يمكن تمويله من رسوم عضوية الذين يعملون من الاعضاء. وربما تجيء دفعات غير منتظمة في المراحل الاولى من التنظيم الدولي، رغم ان زعماء المسلمين في بريطانيا يرون بان له مصادر في الخليج.

ونظرا لوجود غسيل الاموال الواسع وغير المشروع وتحويل رؤوس الاموال في اسيا الوسطى، فليس من الصعب ترتيب عمليات تحويل نقود داخل المنطقة، حتى بطرق مشروعة. ففي اثناء محاكمة في سوغد عام 2003، ادعت الشرطة بان زعيما في الحزب كان يتلقى دفعات مصرفية منتظمة قيمتها عدة الاف من الدولارات من الولايات المتحدة.

ولكن اصبح من الصعب ترتيب هذه التحويلات في السنة الاخيرة، او ربما اصبح تمويل الحزب المركزي بطيئا: وتوافق مصادر كثيرة على ان التمويل يبدو بانه تضاءل، كما

يتبين ذلك من قلة المنشورات المطبوعة وتدني نوعيتها. وبناء على مصادر الشرطة، يعترف الاعضاء بان التمويل اصبح اكثر صعوبة.

هـ-الانشطة:

1. الدعاية :

في آسيا الوسطى، يعمل حزب التحرير بشكل اساسي من خلال توزيع الادبيات. ومن الشائع ان يجد السكان في صناديق بريدهم منشورا من صفحة واحدة، اثناء الليل. ويبدو ان معظم المنشورات تطبع في آسيا الوسطى. ويوحى تدني نوعية الورق والطباعة بان الانتاج ربما يتم في اجهزة كومبيوتر ونسخ منزلية متدنية النوعية. ويمكن وزع المنشورات في السوق في بعض الاماكن -مثلا في قرغيستان- رغم ان التوزيع الليلي اكثر شيوعا، بعد عمليات الاعتقال واسعة النطاق.

كما تنتشر كتب حزب التحرير في المنطقة على نطاق واسع. ويعتقد بان هذه الكتب مستوردة. وقد انتج الحزب في الفترة الاخيرة اشربة فيديو، وتسجيلات، واقراص سي دي تحمل خطابات وندوات القادة. وهناك ميل للاعتقاد بان الكثير من هذه المواد يتم انتاجها في الشرق الاوسط او في اوروبا. وبعضها باللغة العربية، ولكن الكثير منها بلغات بلدان آسيا الوسطى. وقد تمت مصادرة اكثر من 300 شريط مسموع في قرغيستان .

ويعتبر الانترنت الاداة الرئيسة لحزب التحرير في نشر رسالته في الحاء العالم، وبعده لغات. ويعرب الحزب صراحة عن رغبته في استخدام التقنية الحديثة للدعوة للاسلام. وفي التسعينات عمدت اجهزة الامن الاوزبك الى زيادة رصد البريد الالكتروني وحجبت الوصول الى مواقع الحزب. وعلى الرغم من ذلك يتمكن الكثير من مستخدمي الكومبيوتر الوصول الى المواقع من خلال قنوات اخرى. ومن الصعب اعتراض الوصول الى البريد الالكتروني، رغم انه ربما يخضع للرصد الى حد معين.

ويبدو ان تكتيكات حزب التحرير اخذة في التغير نوعا ما. فيبدو ان هناك معارضة داخلية للاعتماد على توزيع المنشورات لان ذلك كشف اعضاء وعرضهم لمخاطر جسيمة. ويبدو ان عدد المنشورات ومستوى التوزيع قد انخفض كثيرا خلال عام 2002. وقال ناشط في جنوب قرغستان: نحن الان لا نوزع المنشورات. هناك طرق اخرى. لقد وجدنا طرقا اقوى من المنشورات. ان اهم طريقة هي التجول والحديث الى الناس... والواقع ان المنشورات ما تزال توزع بمعدل منشور جديد كل شهرين. ويبدو ان الحزب سيواصل العمل من خلال الحديث غير الرسمي، الامر الذي يعرض اعضاءه بشكل اقل لخطر الاعتقال، ويسمح لهم بعرض قضيتهم بشكل كامل على الناس.

2. المظاهرات :

هناك طريقة اخرى ابتكرها حزب التحرير، وهي القيام بالمظاهرات دفاعا عن المسجونين من اعضاءه. وتقوم النساء بالمظاهرات كلها على اساس ضعف احتمال لجم الشرطة الى اعتقال النساء او اساءة معاملتهن .

وقد وقعت كبرى الاحداث في اوزبكستان. ففي الثاني من تموز 2001، قام نحو 400 من امهات و اخوات وزوجات سجناء من حزب التحرير (مع بعض الاطفال) بالاحتجاج في طشقند وانديجان، وطالبن الحكومة بانهاء الاساءة للرجال. وقد جرى اعتقال وضرب نحو خمسين امراة في طشقند ونحو ثلاثين في انديجان. وتتضارب الاخبار حول صحة اطلاق سراح جميع النساء. وقد تواصلت مظاهرات مشابهة عامي 2002 و 2003. ففي 7 اذار 2003، حاولت النساء تسير مسيرات احتجاج منسقة في عدة مدن.

واحتجت كذلك نساء في طاجكستان وقرغستان حيث تعاملت الحكومة معهن بلين. ففي اذار 2001، تظاهرت 150 امراة في كاراوس بولاية اوس . وقد جرى استغلال محاكمات الاعضاء واطلاق سراهم للدعاية. وتعتبر المحاكمات مسرحا مفيدا. ففي بعض البلدان يطلق حزب التحرير بيانات تعتبر جزءا من ادبيات

الحزب. وقد حضر محاكمة احد الاعضاء اعداد اكبر من التي حضرت عند مولد ابنائه.
وحضر جنازة عضومات في السجن عدة مئات من الناس، ربما دعما او تضامنا.

3. العمل في السجن:

يعتبر العمل هاما لحزب التحرير، لمساعدة الذين في السجن ولتشجيع السجناء الاخرين على الدخول في الحزب. وفي قرغستان يتم ذلك بشكل شبه علني: أننا نساعد الذين في السجن، السجناء من افراد حزبنا والسجناء الاخرين. فنقدم نقودا ثمنا للسجائر مرة في الشهر، ونقدم هدايا مرة او مرتين سنويا. فمثلا: قدمنا في عيد الاضحى الماضي طبق بلوف (من الرز واللحم) لجميع السجناء؛ طبخنا 35 كيلو غراما. وفي عيد الاضحى الحالي، قدمنا كعكة لكل زنزانة. وارسلنا لافراد حزبنا حزما، مرة او مرتين في الشهر."

وفي اوزبكستان يصعب القيام بهذه الاعمال، ولكن يمكن استخدام شبكة دعم النساء للقيام بتسليم الهدايا. ويدعي الكثير من الاعضاء بانهم نجحوا داخل السجن في هداية المجرمين العاديين للاسلام، ولكن المعلومات الموثقة قليلة.

وهذا التوجه يبدو كذلك بانه المحراف الى حد ما عن الخط العام للحزب، الذي يدعي بانه يجب ان تكون هناك فقط جوائز معنوية للذين يعانون في سبيل القضية. ويعتبر الشعور بالتضامن الممثل بمساعدة السجناء جزءا هاما من الاسلوب الذي يجذب له الحزب الاعضاء الجدد، ويحافظ به على الاعضاء الموجودين في آسيا الوسطى، ولكنه يبدو قاصرا على المنطقة.

4. العنف؟

يعتبر مجال نشاط حزب التحرير في آسيا الوسطى محدودا بشكل عام. ونظرا لانه مجبر على العمل السري فانه يستطيع عمل القليل لمخاطبة الجمهور. والمنشورات تصل الى اعداد قليلة. ومن بعض الطرق، يشكل ذلك ميزة للحزب: فلو كان هناك نظام سياسي

مفتوح غير مقيد، فان احتمال الفشل في جذب الجماهير، مثلما يشاهد في جاكرتا، للقيام بمسيرات او مظاهرات، سيظهر بان هناك دعما جماهيريا محدودا لاراء الحزب وافكاره.

ولكنه بينما يظل سريرا، فانه يمكن ان يقنع نفسه بسهولة بان الخلافة قريبة النال.

ولكن من الواضح وجود خطر من تعاظم الاحباط داخل الحزب اذا لم يتمكن من التأثير على النظام السياسي. ويشير القادة الى انه رغم وجود الاضطهاد الشديد الذي واجهه الاعضاء، لم يحدث لجوء الى العنف. والواقع انه لم تقع حادثة مؤكدة لاشتراك حزب التحرير في أي عمل ارهابي او اعمال عنف في آسيا الوسطى، ولم تثبت صحة أي اتهام لمصادمات مسلحة او نشاط عنيف حتى الان. ويرى بعض المسؤولين في الحكومة بان ندرة وجود دليل مؤكد اشارة على الاستعداد للقيام بنشاطات مسلحة محلية. وقال مسؤول رفيع المستوى: لم تقع اعمال ارهابية بعد، لكن الحزب يخزن الاسلحة، هناك حقائق..."

ومن الصعب ان يوجد احد في الاجهزة الامنية يعتقد بحق بان حزب التحرير حركة مسلحة، رغم ان المسؤولين الحكوميين يسرعون دائما للاشارة اليه او الى حركة اوزبكستان الإسلامية، كلما وقع عمل اجرامي. ويوافق معظم مسؤولي الامن القرغيز الذين اجرت جماعة الازمة الدولية مقابلات معهم على انه لا ينطلق من الحزب أي خطر امني مباشر.

ومع ذلك، ونظرا لغموض الالتزام الايديولوجي لحزب التحرير بعدم اللجوء الى العنف، سيكون من الغريب عدم وجود معارضة عند بعض الاعضاء، ان معظمهم يسرون وفق خط الحزب في المقابلات، ويصرون على معارضتهم للعنف، وهناك سبب ضعيف للشك في صدقهم. ولكن يوجد احيانا شعور بان البعض محبط من سياسة عدم العنف. وقد تحدث احد اعضاء الحزب في اوش عن الشرطة البغيضة: الكل يقول اننا متطرفون. ولكن لو كنا متطرفيهم لاقدمنا على دفنهم (الشرطة) وهم احياء. وكان يبدو عليه الثقة وهو يتحدث.

كان عدم الرضا عن سياسة اللاعنف موجودا بالتأكيد عند بعض الاعضاء الذين هربوا الى افغانستان. من بين التوثيق الضخم الذي وجد في بقايا معسكر لحركة اوزبكستان الإسلامية، كانت توجد مذكرة قصيرة كتبها عضو سابق في حزب التحرير من اوزبكستان كان قد هرب عام 1999 وانتهى به الامر مع الحركة المذكورة. وقد نددت المذكرة بشدة بعدم لجوء حزب التحرير الى العنف، مدعية بان الحزب كان يُلقى في النار الكثير من الشباب المسلم الكفوؤ، والذي كان يمكن ان يكون كل واحد منه مقاتلا مخلصا وقديرا في سبيل الاسلام."

5. الشهادة:

في اعقاب جنازة لعضو من حزب التحرير في أوش، مات في السجن بسبب مرض السل، احتفلوا بموته كأنه شهيد. وحضر الاحتفال نحو 400 من الناس. وقال واحد منهم فيما بعد لا اشك في ان أي واحد منا على استعداد لبذل حياته ولو خيرت بين عقيدتي والحياة لاخترت عقيدتي. وقال اخر: أن الموت افضل من حياة على هذا الشكل".

ويبدو ان قضية الشهادة اصبحت تتمتع بمكانة عالية في صفوف حزب التحرير.

وقد عبر عن موقف متطرف حيال ذلك عضو في اوش بقوله:

"من الاجدى الذهاب الى فلسطين، اخذ قبلة وتفجيرها هناك. هكذا يجب العمل ضد اليهود. [سألت جماعة الازمة الدولية: هل تريد الذهاب الى فلسطين؟] نعم. اريد ان اصبغ شهيدا".

وليس لدى جميع الاعضاء هذه النظرة. فقد قال اخر: كيس ذلك صوابا، تفجير نفسك، مثلما في فلسطين، ان لدينا هدفا مختلفا. يعتبر هذا التشوش الفكري حول الشهادة امرا سلبيا في ايدولوجية الحزب، التي رغم انها تعارض هذه الاعمال نظريا، الا انها تتعاطف معها.

ورأى آخرون امكانات للشهادة في بلدانهم، ولكن بطريقة مختلفة: الله هو الذي ياخذ الحياة. هناك الان الكثير من الشهداء. ان حلمي هو ان اصبح شهيدا-انهم يقتلون اجسادنا في السجن. لكن الموت على ايدي الاعداء هو الحلم الاكبر". الكثير من هذا هو تظاهر محض بالشجاعة. ذلك ان معظم الاعضاء شديدو الحذر ولا يعترفون بعضويتهم امام الناس الذين لا يثقون فيهم. مع ذلك، هناك اخبار عن اعضاء يودون الاعتقال بالتوزيع العلني للمنشورات، او بالحديث دون حذر لزملائهم في العمل عن معتقداتهم. يقول علماني شهد اعتقال عضو في طشقند: شهدت في ايلول 2001 اعتقال شاب في الثانية والعشرين من العمر، في سوق تورشو بسبب توزيعه لمنشورات حزب الله. بدأت الشرطة تضربه امام الجمهور. وحذرت الشرطة أي شخص يتدخل بان يواجهه هو كذلك المتاعب ولكن المذهل ان الشاب ظل هادئا وظل يهتف باستمرار الله اكبر. وتمكن كذلك من الجهر بقول يبدو كأنما يرتله ترتيلا: أستيقظوا ايها الاخوان اخلعوا هذا اليهودي الكافر كريموف وانتخبوا خليفة من بينكم".

ويفسر الاعضاء في الحزب هذا النوع من السلوك على انه شكل من اشكال الشهادة، ولكن ليس من الواضح اذا ما كانت تلك سياسة محددة ام خيارا شخصيا. ولكن لم تقع حالات لانتحارين او اشكال اخرى من الشهادة عن طريق العنف بين اعضاء الحزب، وهناك احتمال ضئيل في ان يتحول الحزب لذلك التوجه نظرا لخلفيته الايديولوجية وسجله التاريخي.

و-ماذا يريد حزب التحرير:

يعكس برنامج حزب التحرير في آسيا الوسطى الاهداف والمنهجية العريضة لشبكة الحزب العالمية. وتعتبر ادبياته في المنطقة عن مطلبين رئيسيين: خلق مجتمع اسلامي واقامة دولة اسلامية، هي الخلافة. وتقوم فروع الحزب في آسيا الوسطى بالنسج على منوال برنامج الحزب المركزي، وتعيد باخلاص ترديد بياناته، بالاضافة للبيانات التي تصب في

مصلحة البلدان الاخرى. ولكنها كذلك تصدر منشوراتها الخاصة التي تعكس البرنامج المحدد للحزب في آسيا الوسطى.

وتصدر المنشورات باللغات القرغيزية والازبكية والطاجيكية. ومما يعتبر منشورا نموذجيا، ذلك المنشور الذي صدر عن فرع الكويت للحزب، ضد انتشار الجيش الامريكى في الخليج، ويحمل تاريخ كانون الثاني 2003. وتلا ذلك المزيد من المنشورات حول العراق، والتي يبدو انها ضربت على الوتر الحساس في آسيا الوسطى. وهناك موضوعات نموذجية اخرى تشتمل على الدعوة للدفاع عن فلسطين ضد المحتلين الاسرائيليين، والتقد الشديد للاحتلال الامريكى للعراق. وتصدر جميع هذه المنشورات كذلك على مواقع حزب التحرير في الانترنت، والتي تأخذها الجماعات المحلية عنها وترجمها.

تبدو بعض القضايا العالمية بعيدة عن اهتمامات المسلمين في آسيا الوسطى. فالقضية الفلسطينية، مثلا، تحظى برومانسية اقل مما في البلدان العربية. ولكن هذا التوجه يبدو انه تغير قليلا اثناء الحرب في العراق، عندما كان للمعارضة واسعة النطاق فرصة قليلة للتعبير. ففي اوزبكستان على وجه الخصوص، لم تسمح الحكومة للحرب بالتعبير عن أي نقد، على الرغم من معارضة الاغلبية الساحقة للاعمال العسكرية الامريكية. وفي ظل هذه الظروف من الرقابة على وسائل الاعلام، كانت أي جماعة تنشر مادة تنتقد الحرب تجردها مستعدا للاصغاء لها.

والفئة الثانية من المنشورات تربط بين الاهتمامات العالمية والاهتمامات الايديولوجية. وليس من الواضح كيفية اختيار موضوعات المنشورات، ولكن من الواضح انها تبرز بشكل طبيعي من المناقشات داخل القيادة في رد فعل على الاحداث المحلية. ويظهر القليل من هذه المنشورات بعد ذلك على واقع حزب التحرير في الانترنت، وليس من الواضح اذا ما كانت توجد عملية تشاور مع القيادة المركزية.

وتناقش المنشورات موضوعات الفقر والبطالة والظروف الاجتماعية الصعبة لسكان آسيا الوسطى. وهذه المحاولة لاستغلال السخط الشعبي على سياسات الحكومة هي جزء من الفلسفة العامة للحزب. وقد كتب تقي الدين النبهاني حول ذلك: أن لمجّاح أي حركة جماعية يقاس بقدرتها على اثاره الاستياء عند الجماهير ودفعها للتعبير عن استيائها في كل مرة يقدم فيها النظام الحاكم على تقويض او استغلال عقيدتها حسب مصالحه ونزواته "...

وفي اوزبكستان، ركز منشور صدر في تشرين الاول 2002 على سياسة الرئيس كريموف التي تقيد حرية تجار السوق، مما كان له اعمق الاثر على معظم السكان. وفي طاجكستان عالج منشور مؤخرا سلسلة من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، بما فيها مشكلات المهاجرين الى روسيا، والالغام الارضية على الحدود مع اوزبكستان، وامدادات الغاز والكهرباء، وفساد المسؤولين: أن جميع مسؤولي الحكومة، بدءا بالرئيس، يتنافسون مع بعضهم بعضا على بناء المنازل الفاخرة متعددة الادوار والمنازل الريفية، ويسافرون في احدث السيارات".

لهذا النوع من الشكوى الشائع بين الناس العاديين، والذي نادرا ما يظهر في وسائل الاعلام الخاضعة للرقابة الشديدة، تاثير اكبر من اي نداء عالمي او ايدولوجي. وقد اعترف زعيم ديني في طاجكستان معارض عموما للحزب التحرير، بقوله: ربما لا تحبهم [اعضاء حزب التحرير]، ولكنك لا تستطيع انكار انهم الوحيدون الذين يقولون الحقيقة حول طاجكستان".

ويعتبر الرئيس الاوزبكي كريموف هدفا متكررا. وتصف الرسائل حكمه على انه ظلم اليهود، وتطالب بازاحته باستمرار. وهاجم منشور مؤخرا كريموف واضطهاده للمسلمين معلنا بان اليهود يهيمنون على الاجهزة الامنية ويتعقبون اعضاء حزب التحرير ومنازلهم واقاربهم وجيرانهم وافراد اسرهم. ويتردد قول المنشورات بانه عندما تتم ازاحة كريموف والاطاحة به، سوف يكون المسلمون احرارا تحت عدالة الخلافة. يقول

احد المنشورات: ندعو الله العظيم بان يزيل جميع متاعبنا، ويحمينا ويدمر كرموف اليهودي ورفاقه في السلاح، وان يخرجنا جميعا من ظلام النفق الى النور، وان يوحدنا كلنا تحت علم الخلافة الإسلامية المقدسة. اننا نامل بهذا فقط".

ويندر ان تكون موضوعات المنشورات دينية محضة: جميع القضايا الدينية تتصل بمسائل سياسية هامة. وهناك موضوع شائع وهو خطأ عادات دينية وسط آسيوية، من وجهة النظر الإسلامية لحزب التحرير. ويتصل ذلك بعيد النيروز الذي يحتفل به الناس في بداية الربيع في افغانستان وايران وآسيا الوسطى، والذي يعتقد خطأ على نطاق واسع عند الكثيرين في آسيا الوسطى على انه عيد اسلامي. يقول منشور لحزب التحرير:

النيروز هو عيد الكفار والوثنيين...ايها المسلمون الى متى سيعزل حكامكم، عييد الكافرين، يجبرونكم على الاحتفال باعياد الكفار؟ وطبعاً، فان لهذا تاثير بسيط على المجتمع الذي يواصل الاحتفال باي عيد يمكنه الاحتفال به .

وقد ركزت دعاية محلية اخرى في قرغيزستان وازبكستان على القمع الذي تزاوله قوى الامن. فقد كرس منشور في شباط 2003 على وفاة عضو بحزب التحرير، هو عييد الله توختاسين، توفي في السجن في 31 كانون الثاني 2003، واعلن بانه شهيد. وفي اوزبكستان، يعلن حزب لتحرير عن حالات اعتقال اعضائه او يطلب من جماعات حقوق الانسان التدخل نيابة عن الاعضاء. وقد طلب الحزب من جماعات حقوق الانسان التحقيق في الاختفاء المريب لاثنتين من الاعضاء بعد اعتقالهما في 6 آب 2002. وفي الغالب تقوم جماعات حقوق الانسان بتقديم المساعدة في هذه الحالات، رغم ان نص نداء حزب التحرير يعبر عن بعض الشك: لماذا توجد [جماعات حقوق الانسان]؟ للدفاع عن جميع الناس بغض النظر عن دينهم وعرقهم وجنسياتهم، ام للدفاع عن حقوق كل شخص فيما عدا المسلمين؟ "

وقد اصبح الدفاع عن السجناء في اوزبكستان قضية دولية للحزب، الذي شن حملة في لندن عام 2003 للتركيز على اساءة حقوق الانسان هناك

ويوجد بالطبع، نطاق واسع من الادب النظري الذي يتبناه حزب التحرير، والذي ينشر الكثير منه باللغات المحلية، ولكن الواضح ان الاعضاء المحليين يقرأون القليل منه. ورغم ان الحزب يدعي العمل في عالم الفكر، لكن من الخطأ اعتباره حركة فكرية. صحيح ان الكثير من الاعضاء على مستوى جيد من التعليم، لكن الغالبية هم من البسطاء الذين لديهم ميل محدود لقراءة الاعمال الفكرية الكبرى حول المفاهيم الإسلامية. ذلك ان الكثير من التعليم الذي تلقاه الكثيرون جاء شفاهية من معلمهم، وتعتبر مناقشاتهم بسيطة، ضمن حدود ما قد تعلموه. ومن شان ذلك ان يجد من امكانية قيام حوار فكري مع حزب التحرير. والواقع ان معظم الاعضاء لا يدون اهتماما في المناقشة الحقيقية لافكارهم ويبدون في الغالب عاجزين عن التحرك الى ما وراء وجهة نظرهم الضيقة.

التأثير

من الصعب تقييم تأثير هذه الجماعة السياسية الصغيرة نسبيا على مجتمع واسع. يدعي حزب التحرير احراز نجاح واسع في نشر افكاره وفي تأثيره على المجتمع. ولكن يؤكد اخرون على ان تأثير الحزب ضئيل واخذ في التقلص.

وربما كان اعظم ما يلقاه اعضاء حزب التحرير هو العطف باعتبارهم ضحايا انظمة حكم قمعية. فقد تصاعد الغضب على حكومة اوزبكستان وتزايد التعاطف مع حزب التحرير. واحرزت محاولات السلطات في عزل اسر اعضاء الحزب بعض النجاح الاولي، ولكن يبدو ان تأثير هذا البند الاجتماعي قد تلاشى. وتذكر اقارب اعضاء الحزب فتوى دار الافتاء التي دعت الجيران الى تجنب التعامل معهم؛ ويقول والد احد الاعضاء: 'جاء وقت كان لذلك بعض التأثير، لكنهم الان يأتون ويقدمون لي العون عندما اواجه المشكلات.'

وهذا النوع من المساندة هو تعبير عن التضامن ضد نظام يواجه البغض على نطاق واسع، وبخاصة ضد الشرطة الوحشية المكروهة، والدلائل قليلة على انها تعكس دعماً سياسياً، رغم ان اعضاء الحزب يدعون احيانا خلاف ذلك.

كما ان الاراء متنوعة في قرغيستان حول مدى التأثير. من الطبيعي ان يدعي اعضاء الحزب وجود مساندة شعبية متنامية. قال احدهم: الكل ياخذ المنشورات بحرية هذه الايام. ومن النادر ان يعطي احد منشورا الى الشرطة- احيانا يشترونها مقابل زجاجة من الفودكا وادعى اخر: في السابق، كان الناس عندما يسمعون عن الخلافة، كانوا يخافون. ولكنهم الان يقولون: ليست الخلافة تاتي سريعا. وتنكر الشرطة وجود مساندة شعبية واسعة للحزب، رغم انها تواجه في الغالب مقاومة من الجيران والاقرباء عندما تحاول القيام بالقاء القبض على احد الاعضاء، وبخاصة في مجتمعات الاوزبك المحلية المتماسكة. وتواجه الشرطة مشكلات كبيرة في ايجاد شهود على استعداد للشهادة في المحكمة على اعضاء حزب التحرير. ومرة اخرى، ربما كان ذلك نتيجة للتضامن ضد عدو مشترك- الشرطة- اكثر منه دليلا على الالتزام الحقيقي.

وياتي بعض الدعم من السلطة التي يحظى بها بعض قادة حزب التحرير داخل المجتمع وبخاصة اذا كانوا يجمعون بين التقوى والتأثير المعنوي والتجارة. قال رجل شرطة: عندما جرى اعتقال ملوجانوف، قالوا لنا: لقد جاء هنا لكي يعيش، يسر العمل للكثير من الناس هنا، فتح مصنع بوظة ومطعما- الان لا يوجد مدمنو خمر هنا، ولم يعد الشباب يدخنون الحشيش، منح عملا لعشرين شخصا. وقال احد اقرباء عضو في اوش: لا اعرف شيئا عن حزب التحرير، لكنني اعرف اشخاصا كانوا مدمني مخدرات واصبحوا من الناس الصالحين."

هذا الانطباع عن الحزب كحركة تصلح المجتمع بالمساعدة على حل المشكلات الفردية يبدو محدودا على جزء صغير من السكان الذين مروا مباشرة بهذه التجربة وهذا الانطباع. ولا يشجع حزب التحرير على ذلك لانه يمتنق العمل الخيري او الاجتماعي

باعتباره يحول دون النضال السياسي. ويعتبر حزب التحرير عند معظم الناس، وبخاصة سكان جنوب قرغيستان، كمذهب ديني غريب بعيد عن حقائق الحياة اليومية، ليس له تأثير حقيقي على تفكيرهم.

ولا تبرهن حالات الدعم السليبي على تأييد هام لاهداف الحزب السياسية. فلا يوجد سوى دليل ضئيل على التزام شعبي بدولة اسلامية، بالمعنى الذي يدعوا اليه حزب التحرير، في أي بلد من بلدان اسيا الوسطى. وربما يوجد تايد محدود لبعض وجوه الشريعة في بعض المناطق المحافظة، لكن ذلك محدود في النقد القاسي لما يرون انه المخدر في الاخلاق، وفي الدعوة الى اصدار تشريع يبيح تعدد الزوجات، او التنسيق بين الشعائر التقليدية واحكام الدولة في قضايا مثل الزواج.

ويركز حزب التحرير في بلدان كثيرة على صناع الفكر في محاولة للتاثير على السياسة. وقد لاقى ذلك في آسيا الوسطى، على الاقل، نجاحا قليلا، ورغم ان اعضاء الحزب يحبون الادعاء بانهم نجحوا في الوصول الى مسؤولين ذوي مكانة عالية، لكن الحقيقة اقل ايجاء. قال احدهم: تحدثت [عن حزب التحرير] الى رئيس مجلس القرية، والى رئيس لجنة المحلة، والى مدير مدرستنا. عرفت شخصا هاما واذهب الان لرؤيته مرة في الشهر. واذا كان معه رجال. فانه يقول لهم: هل تريدون مقابلة حزب. هل رايتم من قبل حزبا؟ ثم اتحدث. ان له رأيا جيدا عن حزب التحرير. ويقول فقط، اننا نستعجل الامور..

ويولع الاعضاء بالادعاء بان لهم مؤيدين داخل اجهزة الامن. قال احدهم: قال لنا مدير السجن: انكم حقا تقولون الصواب، ولكن لماذا لا تقولون ذلك الى اكاييف؟ هل يعرف اكاييف عن ذلك؟ ويدعي اخر بان بعض الشرطة يرفضون اعتقال اعضاء الحزب. ويبدو بعض رجال الشركة اكثر تعاطفا، او على الاقل يحرصون على عدم اتخاذ اجراءات صارمة خشية رد فعل معاكس من المجتمع. قال احد رجال الشرطة لجماعة الازمة الدولية: يقولون لنا: اذا واصلمت اضطهادنا فلن يحضر جنازتكم احد عند موتكم، ذلك

يجلب العار لنا. اذا قسوت عليهم فلن يات الإمام الى بيتك. لكن معظم من اجرينا معهم مقابلات في قوى الامن يعاملون حزب التحرير بدرجة كبيرة من الاحتقار، وينظرون اليه على انه جماعة ذات اراء متطرفة تعيش على الهامش ولا تشكل خطرا. واعضاء الحزب انفسهم لا يحاولون التغلغل داخل اجهزة الدولة او في اجهزة الحكومة المحلية- في أي مكان يسري فيه القانون بقوة. ولذلك فان مصير حزب التحرير تحقيق تايثر محدود في اسيا الوسطى اذا ظل بدون سند حقيقي عند السلطات وظل تايثره محدودا على تفكير المجتمع. وربما يكمن السؤال الرئيسي في احتمال ان يفرخ حزب التحرير جماعات اخرى اشد عنفا، او ان يتحالف مع منظمات اسلامية مسلحة.

الحركة الاسلامية

أ- الخلافات داخل حزب التحرير:

على الرغم من البنية الصارمة لحزب التحرير، من الواضح ان خلافات ومنازعات تظهر من وقت لآخر داخل الحزب في اسيا الوسطى وقد دارت هذه الخلافات والمنازعات حول التكتيكات بشكل اساسي.

لم تكن جميع الخلافات بالضرورة حول تفضيل اعمال اكثر تطرفا فقد قام بايار باباجنوف باجراء بحث حول جماعة منشقة عن الحزب، تسمى الأكرمية، اسسها أكرم والداشيف عام 1996 في انديجان. ورغم انه احتفظ بالكثير من افكار حزب التحرير، بما في ذلك الالتزام بالكفاح الفكري بدلا من العنف، لكنه (ولدا شيف) حاول تبني تكتيكات واساليب تناسب ظروف اسيا الوسطى، وبخاصة منطقة وادي فرغانا. وقد اتبع فكرة تطوير مجتمع اسلامي صغير، يلتقي فيه الاعضاء على اقامة شركات صناعية او زراعية صغيرة. وتشكلت موارد مالية مشتركة وزعت على الاعضاء او المؤيدين المحتاجين. ويبدو ان هذا النوع من البرامج الاجتماعية-الاقتصادية كان فاعلا بشكل

خاص في الظروف الاقتصادية الصعبة لوادي فرغانا، وعكس رغبة الناس في إعادة تشكيل المجتمعات المحلية في حقبة من التغير الاجتماعي السريع.

ورأى البعض ان من الممكن ظهور جماعة اكثر تطرفا تتمخض عن حزب التحرير. ففي عام 1999، شكلت مجموعة هامة من فرع طشقند حزبا خاصا بها، هو حزب النصر. ليست التفاصيل واضحة عن هذا الحزب، ولكن يبدو انه لم يكن راضيا عن اسلوب دعاية النضال السياسي الذي ادى الى اعتقال جزء كبير من شباب حزب التحرير، ولكن الحزب الجديد ربما كان على استعداد لتبني اساليب اكثر عنفا.

ويبدو ان البعض يرى في توزيع المنشورات خطرا كبيرا، او غير ذي فائدة، قال احدهم: لم احاول مطلقا الاعتراض على القيادة... لماذا يعزلون انفسهم عن الشعب. لماذا يسمون انفسهم "حزبا؟ لماذا يوزعون المنشورات؟ ولكنهم عندها اوضحوا لي بان في القرآن اية تقول ما معناه: سوف تظهر من المسلمين أمة، تسمى نفسها كما تشاء، تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر".

ولكن يجب عدم المبالغة في امكانية حدوث انقسامات وجماعات منشقة. لان من المميزات الهامة لحزب التحرير ان القليلين من الاشخاص يتخلون عنه بعد الانضمام اليه. ويذكر معظم رجال الشرطة الذين اجريت معهم مقابلات حول هذا الامر، حالات نادرة من هذا القبيل. وقد اعترف احد الاعضاء بان بعض الناس تركوا الحزب او طردوا منه: الضعفاء فقط هم الذين يتركون حزب التحرير. واذا حث احد بقسمة فانهم يطردونه ولا يعطونه أي مهام. انهم لا يثقون به. ويتذكر عضو مضى عليه في الحزب خمس سنوات ثلاث حالات فقط من هذا القبيل: واحدا كان له اب مدمن على الخمر، كان يكرهنا... كلما كنا نصلي كان يطردنا خارج البيت، وكان يضغط على ابنه وذهب الى الشرطة. ولم يستطع الابن تحمل ضغط والده، وترك حزب التحرير. اما الثاني الذي ترك الحزب فقد اقنعت الشرطة بالخروج (من الحزب). والثالث اصابه الجنون في السجن

واصبح مخبراً...وعندما خرج من السجن ظل يتسكع قربنا، ولكنه بدأ يتعاطى المخدرات".

ويبدو ان مستوى الالتزام يعود جزئيا الى العامل الايديولوجي. ويوحى البعض بوجود عقوبات تفرض على الذين يتركون الحزب، ولكن لا توجد ادلة حقيقية على ذلك. والارجح ان علم النفس الجمعي يلعب دورا رئيسيا. ذلك ان الروابط القوية التي تتشكل وتقوى بين الاعضاء توفر مجتمعا بديلا للكثير من الاعضاء الذين يشعرون في غالب الامر بانهم فقدوا الروابط الوثيقة مع المجتمع بطريقة ما. ويبدو ان الاعضاء في كثير من الحالات يتعدون عن اصدقائهم السابقين، وحيانا عن اقربائهم. وربما كانت العودة الى المجتمع الواسع امرا بالغ الصعوبة. ويبدو ان مجموعات حزب التحرير تشجع هي نفسها على هذا الانفصال عن المجتمع على الاقل في المراحل الاولى من العضوية.

ويغض النظر عن الاسباب، فان هذا الارتباط بالمنظمة يعني استبعاد احتمال حدوث شرخ كبير في صفوف الحزب. ربما تنفصل مجموعات صغيرة، ولكن يبدو ان حدوث تغير خطير قد يطراً فقط على الاساليب ويأتي من القيادة، سوف يغبر توجهات الجماعة. ومن المستبعد ان يتلاشى حزب التحرير، رغم انه كذلك ربما ينمو قليلا. وربما يصبح راكدا، مع وجود مؤشرات الانسحار، مما يمكن ان يشجع بعض الاعضاء على اعادة النظر في اساليبه وتكتيكاته وتبني مواقف اكثر تطرفا.

ب-العلاقة بين حركة اوزبكستان الاسلامية، وحزب النهضة الاسلامية، وحزب التحرير:

ان احدى خيارات حزب التحرير في توسيع مجال نفوذه هي الانضمام الى جماعات اخرى لها اهداف مشابهة، ولكن الاساليب مختلفة. وكما لاحظنا سابقا، هناك تناقض في ايديولوجيته حول العمل مع جماعات اخرى، لكن الاحتمال قائم ويبرره المفهوم الغامض في طلب المساعدة الخارجية، او النصره ولكن الحزب رفض دائما الحركات الاسلامية

الآخري لانها لا تتبع نفس الاساليب. فقد كتب مؤسس الحزب، تقي الدين النهاني: لم توجد بنية صحيحة واحدة تهدف لآحياء الامة، اقيمت في أي من البلدان الاسلامية خلال القرن الماضي. ولكن ذلك لم يمنع التعارون في ظروف معينة، ونظرا للتأكيدات المتكررة الصادرة عن الحكومات في المنطقة بان حزب التحرير هو مجرد احد وجوه حركة اسلامية مسلحة، كان من الهام التحدي عن مدى وجود هذه الصلات واحتمالات تطورها.

تمثل الحركات الاسلامية الهامة الآخري والوحيدة في اسيا الوسطى في حزب النهضة الاسلامية في طاجكستان، وحركة اوزبكستان الاسلامية. تحول حزب النهضة من معارضة مسلحة اثناء حرب الطاجيك الاهلية الى حزب مشروع يشارك سلميا في العملية الدستورية. ولكن حركة اوزبكستان الاسلامية اصبحت بالتدرج جزءا من الحركة الاسلامية الدولية المتشددة ذات الصلة مع طالبان في افغانستان، واخذت تعمل مر: قواعد عسكرية، اولا في طاجكستان، وبعد ذلك في افغانستان.

وحظيت حركة اوزبكستان الاسلامية باكبر اهتمام دولي في السنوات الآخيرة. لاغاراتها العسكرية، رغم فشلها، على جنوب قرغيزستان في اب 1999 واب 2000، هزت المنطقة وعرت ضعف القوات العسكرية في اسيا الوسطى. وكانت الحركة حركة تشبه العصابات، لها نحو ثلاثة الاف مقاتل، وسعت لتحقيق اهداف دينية من خلال القوة. وقد تم تدمير قواعدها والكثير من تنظيمها اثناء التدخل العسكري بقيادة امريكا في افغانستان عام 2001.

والعلاقة بين حزب التحرير والجماعتين مختلفة تماما. فالحزب معاد لحزب النهضة الاسلامية الى حد كبير، ويتهمه بالخيانة بموافقتة على اتفاقية السلام وتولي مناصب في الحكومة. وقد لخص منشور ظهر مؤخرا موقف حزب التحرير، بقوله: رغم ان الاسلام لا يعقد سلاما مع كافر، فان زعيم حزب النهضة الاسلامية، نوري، الذي لا يحظى بمستوى مناسب من العلوم الدينية والسياسية، عقد سلاما مع حكومة طاجكستان مقابل

عدة مناصب [حكومية]. ونتيجة لذلك، شلت الحكومة هذه الحركة، واصبح الحزب دمية تعمل فقط لمصالح الحكومة."

وهذا التوتر بين حزب النهضة وحزب التحرير متبادل، وبخاصة على مستوى القيادة. غير ان بعض الاعضاء العاديين على مودة افضل ويعود السبب في ذلك جزئيا لانتقادهم لموقف حزب النهضة. ولكن لا تكاد توجد فرصة لاي تحالف بين الحزبين: فحزب النهضة مصمم على البقاء داخل النظام السياسي الطاجيكي غير المتسامح، ويتجنب أي دلالة ممكنة على علاقات مع حركات اكثر تطرفا.

وتعتبر العلاقة مع حركة اوزبكستان الاسلامية مختلفة واكثر اثارا. وقد ظهرت عدة تقارير غير مؤكدة عن لقاءات بين قادة حزب التحرير وقادة حركة اوزبكستان الاسلامية وطالبان. لكن محتوى هذه اللقاءات غير مؤكدة. يدعي زعيم حزب التحرير في اندونيسيا، اسماعيل يوسانتو، بان الحزب ناقش مع زعيم طالبان، الملا عمر، فكرة قيادته للحركة من اجل الوصول الى الخلافة، لكنه لم يكن مهتما سوى بافغانستان.

من الصعب تأكيد اذا ما كان التقارب يمكن ان يقود الى بعض التعاون لو لم يحدث تدخل امريكي في افغانستان. ولاحظ مثل في لندن ان الاحتمال كان ضعيفا لو دعيت حركة اوزبكستان الاسلامية لتقديم المساعدة لانها لم تكن تملك قدرات عسكرية هامة. وبعد الاخفاق التام لتدخل الحركة العسكري في قرغيزستان، يبدو ان حزب التحرير استتج بانه سيجني القليل ويخسر الكثير من تحالفه مع قوة عسكرية عاجزة.

كما توجد خلافات دينية كبيرة بين حزب التحرير وبين الفلسفة الوهابية الجديدة التي يشترك فيها طالبان والقاعدة والجماعات المشابهة. ولا يوجد ود بين الوهابيين في اسيا الوسطى وحزب التحرير. فهما يرفضان بعضهما البعض باعتبار الطرف الثاني على خطأ كبير ف المسائل الدينية الرئيسية، وبخاصة حول القبول باحاديث نبوية معينة. ويدير الوهابيون موقع الانترنت الرئيسي المعادي لحزب التحرير، ويمتدح طالبان، ويرفض حزب التحرير باعتباره 'عصري علماني'.

وعلى الرغم من ذلك، فإن القاعدة الايديولوجية لحركة اوزبكستان الاسلامية، التي هي في الظاهر جزء من القوات الطالبانية، لم تكن دائما واضحة، وتظهر وثائقها تعاطفا كبيرا مع حزب التحرير واعجابا به، رغم وجود شواهد على الامتناع من رفضه حمل السلاح ضد الحكومة. ولا تحتوي وثائق الحركة على نقد هام لحزب التحرير، رغم ان المسؤولين في الحركة، في ابداء ملاحظاتهم على أنشطة الحزب، يبدون احيانا اعتراضهم على اساليبه السلمية، مؤكدين بان علينا التحدث مع الحكومة باللغة الوحيدة التي تفهمها".

اما اتجاهات اعضاء حزب التحرير في اسيا الوسطى نحو حركة اوزبكستان الاسلامية فهي مثيرة للاهتمام وتبدو غامضة الى حد ما، حيث اوضح احد اعضاء الحزب في مقابلة مع جماعة الازمة الدولية:

سؤال: ما هو رايك في حركة اوزبكستان الاسلامية؟

جواب: انهم اخواننا

س: هل تدعمهم؟

ج: نعم، انني ادعم أي شخص يكون مع الله.

ي: انهم يريدون الاطاحة بالحكومة

ج: اه، انني لا اؤيد ذلك...

وقال عضو اخر بالحزب مضى على عضويته زمن طويل: "الناس يريدون اقامة الاسلام في كل مكان. حركة اوزبكستان الاسلامية... انني اعتبرهم ذلك اخواننا، والطالبان والوهابيون هم كذلك اخواننا... ولكن ليس لديهم برنامج."

وكان اعضاء اخرون ضد الحركة بشكل اوضح: كيس لدينا شيء مشترك معهم، اننا نندد بهم... انهم يقرأون القرآن كذلك، لكن لهم اراء مختلفة. نحن بحاجة لاعداد الناس

للخلافة. ولكن من الهام الاشارة الى انه ليس لدى معظم الاعضاء معرفة كافية عن الحركة الاسلامية العامة. فعندما سئل عضو عن رايه في الحركة الوهابية، اعترف بانها قرأ عنها فقط في دائرة معارف.

وتبدو الخلافات في الاساليب والتكتيكات اعظم من امكانية التغلب عليها على مستوى القاعدة، مع عدم وجود براعة ايدولوجية كافية لدى القيادة الانتقالية. ونظرا للضرر الخطير الذي لحق بحركة اوزبكستان الاسلامية نتيجة للتدخل الامريكى في افغانستان، يبدو من غير المحتمل قيام تحالف جاد يكون مفيدا لحزب التحرير. ذلك لان الحزب يصر على ان أي عمل عسكري يجب القيام به فقط عند وجود فرصة للنجاح، كما يبدو ان معارضته العامة للارهاب امر حقيقي. ولكن يبدو من المحتمل ان يستجيب على الاقل جزء من حزب التحرير، وبخاصة في اوزبكستان، الى دعوة قد تصدر لانتخاذ اجراءات اكثر تطرفا، ولكن يبدو حاليا في مثل هذه الخطوة ضرر اكثر من المنفعة.

وعموما، لا يبدو هناك ما يدل على وجود علاقات تنظيمية او عقائدية مع حركة اوزبكستان الاسلامية، فيما عدا ربما بعض الاتصالات المتقطعة اثناء فترة طالبان في افغانستان. اما مدى ما يمكن ان يوجد في المستقبل من تحالفات مع جماعات اخرى، فان ذلك يمكن ان يعتمد على ما قد يظهر في المستقبل ويتمخض عن صفوف الحركة، وعن جماعات ساخطة اخرى داخل مجتمع اسيا الوسطى.

ردود فعل الدول

المجتمع الدولي وحزب التحرير

للمجتمع الدولي دور صعب يمكن ان يلعبه في محاربة حزب التحرير. فهو من جهة يواجه تهديدا عالميا للارهاب من جماعات اسلامية، وهناك ضغط كبير على الحكومات الغربية لزيادة التاكيد على التعاون الامني في دول آسيا الوسطى على حساب التاكيد التقليدي على حقوق الانسان والاصلاح. ومن جهة اخرى فان مساندة

حكومات قمعية في سياساتها ازاء جماعات مثل حزب التحرير، لن تكون فقط ذات نتائج عكسية، ربما باشعال التطرف عند الاعضاء، بل سوف يؤكد كذلك قناعات الكثير من الاعضاء (وبخاصة المسلمين) بان دور الغرب في اسيا الوسطى هو دور داعم للانظمة الاستبدادية، بهدف اخماد أي اثر للنشاط الاسلامي.

أ-المشاعر المعادية للغرب:

لا شك ان التدخلات العسكرية بقيادة الولايات المتحدة في افغانستان والعراق قد عززت المشاعر المعادية للغرب في اسيا الوسطى، ليس عند المسلمين المتطرفين فحسب، ولكن كذلك عند المجتمع بأسره. والثقة قليلة في الدوافع الغربية، ويتضح هذا بجلاء في مواقف حزب التحرير من المنظمات الدولية والدول الغربية.

وكما اشرنا سابقا، تعبر ادبيات الحزب دائما عن الشك والكرهية العميقتين تجاه الغرب. وقد ركز الكثير منها على اسرائيل والاختضاع الاوروبي للاراضي العربية، وما ينظر اليه على انه النظام الغربي الاقتصادي والسياسي غير الاخلاقي. واحتوت النشرات الاخيرة على الكثير منالخطاب ضد الولايات المتحدة. ومن شان ذلك ان قوى النقد الموجه للعلاقة بين الغرب وانظمة الحكم في اسيا الوسطى: اتهم منشور ظهر مؤخرا في اوزبكستان الولايات المتحدة بالنشاط المساند للاضطهاد الذي يمارسه نظام كريموف ضد المسلمين المتدينين. يقول المنشور: مع توجه كريموف اليهودي لطلب خدمة امريكا، تبدي [امريكا] له الدعم المادي والمعنوي الحقيقي في حربه مع الاسلام والمسلمين. ولهذا السبب فان امريكا، التي هي الان مركز تفكير كريموف، تواجه لاوزبكستان، من خلال اليابان والبنك الدولي، ملايين الدولارات، وتعلمه [كريموف] بهذه الطريقة كيف يشهد حربا بشكل افضل".

هذا العداء لامريكا ليس جديدا، ويعكس شككا عميقا بالحوافز الغربية في اسيا الوسطى. ولكن يبدو ان الحرب في العراق قد ابرزت وحركت خطاب حزب التحرير

ضد الغرب. ويعكس الكثير منه المعارضة الشعبية العامة لسياسة امريكا الخارجية، ولكنه من وقت لآخر يعبر عن المزيد من التطرف: أن امريكا وسياستها هي العدو رقم واحد. يجب ان يكون لامريكا وجود .

ويتناغم هذا الموقف الجيوسياسي مع شعور اوسع معاداة للغرب والذي تزداد حدته بشكل خاص عند اعضاء حزب التحرير، رغم ان مشاعرهم يمكن وجودها كذلك عند اجزاء اخرى من السكان. ويعارض الحزب بشدة تدخل المنظمات الدولية في اسيا الوسطى واصدر نقدا حادا لانشطتها.

يدعي حزب التحرير في منشور ظهر في طاجكستان: يُجري الصليب الاحمر واطباء بلا حدود تجارب على السكان بنشر مختلف الامراض المعدية. ونتيجة لذلك يموت الاطفال والشيوخ بشكل رئيسي. وهذا النوع من المعلومات الخاطئة يزداد بفعل ارتياب قديم بمنظمات خارجية، بعضها كان يجيء من انماط سوفيتية .

هذا النوع من كره الاجانب والمعلومات الخاطئة واسع الانتشار بين اعضاء حزب التحرير. قال احدهم في جلال اباد: نحن نعرف الامم المتحدة جيدا يجب ان يكون اما الاسلام او الامم المتحدة. انهما لا ينسجمان. اذا قامت الخلافة فلن توجد الامم المتحدة، ولا يوجد انقسام بين مختلف البلدان، ان الامم المتحدة تعمل كجاسوس. انهم لا يعتقلون الشيوعيين او الديمقراطيين، لكنهم يعتقلوننا. ليس العيب في عكايف، لان الامم المتحدة تجبره على فعل ذلك "...

هناك مؤسسة لا تحظى بالشعبية عند اعضاء الحزب في قرغيستان لسبب ما، وهي المؤسسة الدولية فردريخ البرت ستفتنغ ذات الصلة بالحزب الديمقراطي الاشتراكي في المانيا التي تعقد ندوات حول تنظيم الاسرة. تساءل احد الاعضاء: لماذا تحشى البرت من وجوه الكثير من الاطفال عند المسلمين؟ يقولون في اوزبكستان ان النساء تجبر على تثبيت لوالب".

ان الكثير من الشعور المعادي للغرب الذي يجد سبيلا للتعبير عنه، هو في الغالب قد غمي تثيره صور الغرب الذي تنتشر فيه الدعارة والادب الاباحي واللوط. هذه موضوعات يوردها اعضاء من الحزب، رغم انهم ليسوا جميعا بمثل هذا العداء الذي ابداه عضو في جلال اباد: أسوا ما في الامر ان الاولاد والبنات يدرسون معا، وهكذا يبدأ كل شيء. يجب ان توجد حفلات منفصلة للرجال وللنساء، وكذلك المساجد والمدارس. لقد اصبح الرجال الان مثل النساء والنساء مثل الرجال... هل تعلن ان هناك مواخير في جلال اباد الان؟ كيف يمكن لي السير مع ابنائي قرب هذه البيوت؟ هذه هي الديمقراطية. في امريكا لم يعودوا اميين، انهم قد تحولوا الى حيوانات، ونحن نسير في نفس الاتجاه..."

مثل بعض هذه الاراء يستحيل مواجهتها بالديمقراطية او بوسائل اخرى. انها تقوم على تحامل غير قابل للتعديل بالحوار. ولكن أي جهد لاضعاف موقفهم يستحق العناء وله تاثير ايجابي على بقية الناس. ان اضعاف الثقة بافكار حزب التحرير حول الحقائق الغربية سيكون خطوة مفيدة لاضعاف شعبية الحزب.

1- حظر حزب التحرير؟

مهما كانت طبيعة ايدولوجية حزب التحرير المرئية، يجب التفريق بين المنظمات الارهابية والجماعات المسلحة من جهة، وبين المنظمات من امثال حزب التحرير التي لا تقوم باعمال عنف. ان وجود حزب التحرير يؤكد على الحاجة الى توجه مختلف لفهم المنظمات الاسلامية، حتى لو كانت متطرفة. ذلك لان وضعها كلها في كفة واحدة مع جماعات العنف، مثل القاعدة، يضعف من الحملة المضادة للارهاب ويعطي سلاحا للمتطرفين الذين يدعون بان الغرب يعمل ضد حرية الرأي وضد الاسلام بشكل عام.

لقد مارست اوزبكستان بشكل خاص ضغطا قويا على الحكومات الغربية لحظر نشاط حزب التحرير، مدعية بانه منظمة ارهابية ويهدد الامن العالمي. حتى الان قاومت

الولايات المتحدة الدعوة لاضافة الحزب لقائمتها اتي تضم المنظمات الارهابية العالمية. ومن الاهمية بمكان ان تقاوم الدول الغربية الاخرى هذه المطالب: ان الحظر الذي مارسته المانيا عام 2002 لم يفعل شيئا من شأنه تحسين امن المواطنين الالمان ولكنه اضاف وقودا لمقولات المتشددين في اوزبكستان. ومن المتوقع ان يؤدي دفع حزب التحرير للعمل السري الى تطرفه وان يصبح من الصعب توقع ما يقوم به من افعال.

هناك، بالطبع حاجة الى اجراء رصد دقيق لانشطة حزب التحرير في الدول الغربية. ولكن على قدر مساو من الاهمية دفع حكومات اسيا الوسطى للتراجع عن اعمالها القمعية ضد اعضاء الحزب. ولا تؤدي هذه الاعمال الى مجرد تطرف اعضاء الحزب في اسيا الوسطى، ولكنها كذلك تخدعهم كذريعة للقيام بحملة كبرى في الغرب. كما ان ارتباط الولايات المتحدة الوثيق بالانظمة القمعية في اسيا الوسطى يشكل حجة رئيسية لتجنيد اعضاء للحزب في الغرب.

2- حقوق الانسان وحرية الاعتقاد:

لقد عملت السفارة الامريكية مثلما فعلت أي سفارة اخرى في طشقند لتعزيز مراقبة حقوق الانسان، على اساس حالة فحالة، لاعضاء حزب التحرير -مؤكدا اكثر مما فعلته معظم السفارات الاوروبية. ولكن لا يحظى سوى القليل من هذا العمل لحقوق الانسان بتغطية هامة. فهناك نرة واسعة النطاق عند سكان اسيا الوسطى، الذين في الحكومة والمعارضة، بان موقف الولايات المتحدى من حقوق الانسان يثير الشك الى حد كبير.

يشير المسؤولون الامريكيون الى الموقف الناقد الذي تتخذه الولايات المتحدة في تقاريرها السنوية حوق حقوق الانسان. ولكن نادرا ما تؤخذ هذه التقارير بجدية من جانب حكومات المنطقة. غير ان بيانات المسؤولين الامريكيين حول اساءات محددة لحقوق الانسان قليلة وهناك شعور في الخارج بفصل قضايا حقوق الانسان عن السياسات العليا الخاصة بالمصالح الامنية والاقتصادية. ربما كان ذلك صحيحا وربما لم

يكن كذلك، ولكنه مؤكدا لاحساس لدى الكثير من السكان، وهو يوفر مصداقية معينة لاقوال جماعات مثل حزب التحرير.

وليست المناقشات الخاصة مع الوزراء بديلا عن البيانات العلنية التي تعبر عن الفلق والتي تضمن تفريق الناس بين حكومة الولايات المتحدة وبين السياسات القمعية في المنطقة. ربما يزعم ذلك بعض الحكومات المحلية، ولكن البديل للغرب اسوأ بكثير، وربما يتضاءل الى ادنى حد التأثير الجيوسياسي للولايات المتحدة. ولن يغلق الرئيس كريفوف قاعدة عسكرية امريكية بسبب اقدام وفد زائر على اصدار بيان علني حول ضعف حرية التدين في البلد.

وينبغي على الدول الاخرى اتخاذ موقف اقوى من الحكومات القمعية في المنطقة. وتعتبر حكومات اوروبا اقل نشاطا بشكل عام من الولايات المتحدة حول قضايا حقوق الانسان.

3- قضايا واسعة النطاق:

ان المجتمع الدولي بحاجة كذلك الى مضاعفة الجهود لتحريك الحكومات نحو الاصلاح في نطاق واسع من القضايا.

4- الانظمة السياسية المغلقة:

ينمو حزب التحرير في الانظمة السياسية المغلقة، حيث يوجد بديل محدود للمشاركة الحرة في السياسة. ففي اوزبكستان، تدعو الحاجة الى ادخال بعض الحريات الاساسية، مع اصدار تشريع بتشكيل الاحزاب السياسية العلمانية واجراء انتخابات حرة. وفي طاجكستان يجب على النخبة الصغيرة الحاكمة القبول بحقيقة الاحزاب المعارضة وحقها في المشاركة في عملية سياسية حقيقية، وكذلك وضع حد لاستمرار مضايقة حزب النهضة الاسلامية. وفي فرغيستان، سوف تقود النخبة السياسية المغلقة الى

احباط الذين ابعدوا خارج النظام والى المساهمة في زعزعة اكبر، وفي ذلك بيثه يستطيع حزب التحرير وحده استغلالها لصالحه.

5- حرية التعبير:

يكتسب حزب التحرير بالتأكيد نفوذا معينا بنقده القوي للحكومات وللقيادة، ولا يظهر شيء من هذا النقد في الصحافة الاقليمية. لكن فتح وسائل الاعلام لمزيد من النقد امر حيوي في اوزبكستان التي تواصل فرض رقابة واسعة على المطبوعات. والوضع على حال افضل في قرغيزستان، لكن هناك ضغطا متواصلا على الصحافة المستقلة. والتلفزيون الحكومي والوسائل الاعلامية الرسمية الاخرى بحاجة الى قدر كبير من الاصلاح. وفي طاجكستان حدث بعض التقدم في حرية الاعلام، ولكن تظل موضوعات كثيرة جدا محرم الخوض فيها...فيما عدا منشورات حزب التحرير.

6- الفشل الاقتصادي:

ليس الاصلاح الاقتصادي هو الداء الشافي لكافة الامراض والصالح لضعاف التطرف. ربما كان التغيير السريع المقترن بالفساد الخطير، والارتفاع السريع في تفاوت الثروة عند الناس، قد اسهم في تدهور الحركات الاسلامية في بلدان مثل مصر وايران. ولكن من غير المتوقع في آسيا الوسطى ان يكون للاصلاح هذا التأثير الجانبي؛ ذلك ان جميع هذه المظاهر السلبية للاصلاح موجودة من قبل، بدون ظهور أي من الفوائد الايجابية. ولذلك فان اصلاح البيئة الاجتماعية-السياسية امر حيوي وهام، ولكن يجب مواجهة ما هو اكبر من حاجات نمو الناتج الاجمالي العام. فيجب كذلك معالجة قضايا واسعة من التعليم والاستخدام والحكم، وذلك لتحقيق تأثير على الطموحات المحبطة لكثير من الشباب. ويجب استبدال الضغط السياسي في اوزبكستان بتحرير نظام الحدود: لان السخط لدى طبقات التجار يتحول بسهولة الى دعم لحركات المعارضة السياسية المتطرفة.

7- اصلاح قطاع الامن:

تسهم افعال قوى الشرطة في آسيا الوسطى كذلك لصالح التطرف. ولا بد من ان تكون حقوق الانسان على قمة البرنامج مع استمرار تركيز الاهتمام على تعذيب السجناء والاساءة اليهم. ويحتاج ذلك لان يكون جزءا مركزيا من السياسة الدولية، لا ان يكون جزءا جانبيا يضاف الى العلاقات الامنية الثنائية. ولا بد من الربط بين دعم اجهزة الامن وبين النصح المقدم للقوى الملتزمة بالتغيير. ومن الهام بشكل خاص مساعدة قوى الشرطة على اكتساب مساندة المجتمعات المحلية.

8- جمع الاستخبارات:

يعتبر عمل الاستخبارات امرا هاما بطبيعة الحال باعتباره جزءا من الانذار المبكر، كما ان المزيد من البحوث والرصد لجماعات مثل حزب التحرير امر هام بالنسبة للغرب. غير ان الاعتماد الزائد حاليا على اجهزة الامن في اسيا الوسطى يبدو بانه يقود الى جمع ضعيف للمعلومات. ذلك ان اجهزة الامن في اوزبكستان، الاقوى في المنطقة، تعمل من منظور سياسي ضيق، وهي محدودة بشكل كبير في قدرتها على تحليل المعلومات بشكل موضوعي. ومن شان تطوير موارد مستقلة وزيادة البحوث المفتوحة في هذا الشأن ان يساعد على الخروج بسياسة افضل.

تظل اسئلة كثيرة حول حزب التحرير بدون اجابة عنها-على مستوى عالمي، وعلى مستوى اسيا الوسطى. فمن غير الواضح تمويله وعمق الدعم الدولي والمحلي له. وما تزال برامجه واساليه غامضة في احسن الاحوال، والتزامه بعدم العنف مشروط وغير مطلق. وينبغي عدم التقليل من اهميته: صحيح ان اتباعه يشكلون حجما صغيرا ولكنه هام في دول اربعة من اسيا الوسطى، ولكن هناك مساندة شعبية حقيقية قليلة لهدفه بعيد المدى والجوهرى في بناء دولة اسلامية.

ولا يمكن الفصل بين صعود حزب التحرير وبين البيئة التي ينعش فيها. وسيكون من السفة الربط بين صعود الوجدان الاسلامي والفقر واسع الانتشار، بشكل مباشر، لان الوضع اكثر تعقيدا. لكن مؤسس الحزب، النبهاني، فهم تماما ما الذي سوف يعترض نمو حركته: الحركات [المتطرفة] لا تظف عندما يسود الغنى والوفرة، وتنامن الحقوق الطبيعية، وتنامن الرفاهية، ويتم اختيار الناس لاحتلال المراكز الهامة بناء على الكفاءة. والذين يستجيبون لحزب التحرير لا بد لهم من اخذ كلام النبهاني حرفيا. والوفرة والحقوق ووضع حد للفساد، يجب ان تكون في قلب السياسة لاضعاف دعم الحركات الاسلامية المتطرفة في المنطقة.

اما الانحسار الحاد في الحرية السياسية، واستمرار تدهور الظروف الاجتماعية والاقتصادية، الذي يميز دول آسيا الوسطى، فانه يهيى الظروف الخلفية لحزب التحرير لنيل الدعم ولتعزيز برنامجه المضاد للعلمانية والمعادي للغرب والمعادي للفساد.

وهناك دور لقوى الامن، لكنها يجب الا تكون الجهة الوحيدة المسؤولة عن السياسة الخاصة بجماعات مثل حزب التحرير. ان القمع الشديد في اوزبكستان لم يوقف انشطة الحزب، وتوحي كافة الدلائل على انه اصبح اكثر تطرفا وان القمع الحكومي قد صدر في بعض الحالات النشطاء الاسلاميين الى الدول المجاورة.

ان حزب التحرير يشكل تحديا خطيرا لالتزامات المجتمع الدولي بحرية التعبير وحقوق الانسان. كما ان اراءه تناهض الاجماع التحرري والديمقراطي الكامن في جوهر معظم المنظمات والانفاقيات الدولية. وهو يلعب دورا سلبيا في المجتمعات الغربية، يدفع الشباب الاسلامي الى التطرف، وينقل القليل منهم الى جماعات اشد تطرفا وربما ينتهي بهم الامر الى المشاركة في العنف. ولكن حظر نشاطه سوف يلبي هدفا محدود الجدوى ويعمل فقط على تحوله الى جماعة اكثر سرية وتأمرية للضغط للامتناع عن المواقف الاكث تطرفا.

لم يتمكن المجتمع الدولي من جانبه من رعاية وتعزيز بيئة للتحرر السياسي والديني في اسيا الوسطى. لقد اكدت الولايات المتحدة والاتحاد الاوروبي، من جهة على الحاجة للالتزام بالمعايير الدولية لحقوق الانسان. ولكن من جهة اخرى، قادت السياسة الامريكية الى قيام علاقات وثيقة مع الحكومات التي ابدت دليلا ضئيلا على الالتزام الجاد بالتسامح الديني والتعددية السياسية.

لقد اكتسب حزب التحرير شعبية لانه يقوم بديلا لحقيقة مروعة في بعض الاحيان. ربما لا يمكن تحقيق خلافة مثالية، ولكن فكرة وجود نظام عادل في دولة ذات حدود مفتوحة واقتصاد جيد، قد جذبت الالاف من المؤيدين. ولن تقهر ايديولوجية الحزب بالقوة وحدها، بل لا بد من اجراء اصلاحات حقيقية عبر الحدود لاضعاف تاييده. صحيح ان التحسن الحقيقي في الوضع الاجتماعي والاقتصادي سوف يستغرق زمنا، ولكن المتوقع ان يعمل التحرر على اسعاف منزلة حزب التحرير بدلا من زيادة الدعم له. اما السياسات الحالية للدول، وبخاصة في اوزبكستان، فهي قريبة جدا من خلق الظروف التي يتعش فيها التطرف بدلا من اقتلاع جذوره.

توصيات:

الى حكومة ازبكستان:

- 1- ان يتولى، بمشاركة متخصصين في الاسلام وخبراء مستقلين، القيام بعملية مراجعة هامة لسياساتها ازاء الجماعات الدينية والمعارضة السياسية.
- 2- اعطاء شرعية لجماعات المعارضة العلمانية، مثل نيرليك، والسماح للجماعات السياسية الاخرى بالعمل بحرية، وبخاصة تلك الجماعات التي تعترف بالنظام الدستوري القائم.
- 3- السماح للقنوات القانونية بالتعبير عن سخط بفتح وسائل الاعلام لمناقشة القضايا الدينية والسياسية والسماح بنقد الحكومة وقوى الامن.

4- الغاء القوانين التي تقيد التجارة عبر الحدود والتجارة الصغيرة، والتي اثارت غضبا شعبيا واسعا وحرضت على تقديم المزيد من التأييد للمعارضة المتطرفة للدولة.

5- اعطاء رجال الافتاء والائمة الحرة في تعليم الدين الإسلامي والسماح بظهور شخصيات موثوقة ممن يقدرتون على تحدي افكار حزب التحرير الإسلامية.

6- وضع اجراءات جادة لاصلاح قطاع الامن، والحد من سلطة الشرطة وتعزيز استقلال القضاء.

7- تنفيذ توصيات مقرر اللجنة الخاصة الدولية حول التعذيب لانهاء التعذيب النمطي وقتل السجناء، هذه الأعمال التي تزيد من التعاطف مع حزب التحرير وتساعد على تطرف السجناء.

الى حكومة طاجكستان:

8- انفتاح النظام السياسي بالسماح لاحزاب المعارضة بالعمل بمزيد من الحرية، والسماح بالمزيد من حرية التعبير في وسائل الاعلام، وانهاء مضايقة حزب النهضة الإسلامية التي من المرجح ان تدفع مؤيدي الاسلام السياسي لايجاد بدائل اكثر تطرفا.

9- تجنب الاعتماد الزائد عن الحد على قوى الامن في التعامل مع حزب التحرير، وتطوير ادراك اكبر للقضية عند القادة المتدينين، والجماعات التابعة للمنظمات غير الحكومية، وتشجيعها على العمل بين الشباب المعرض للخطر.

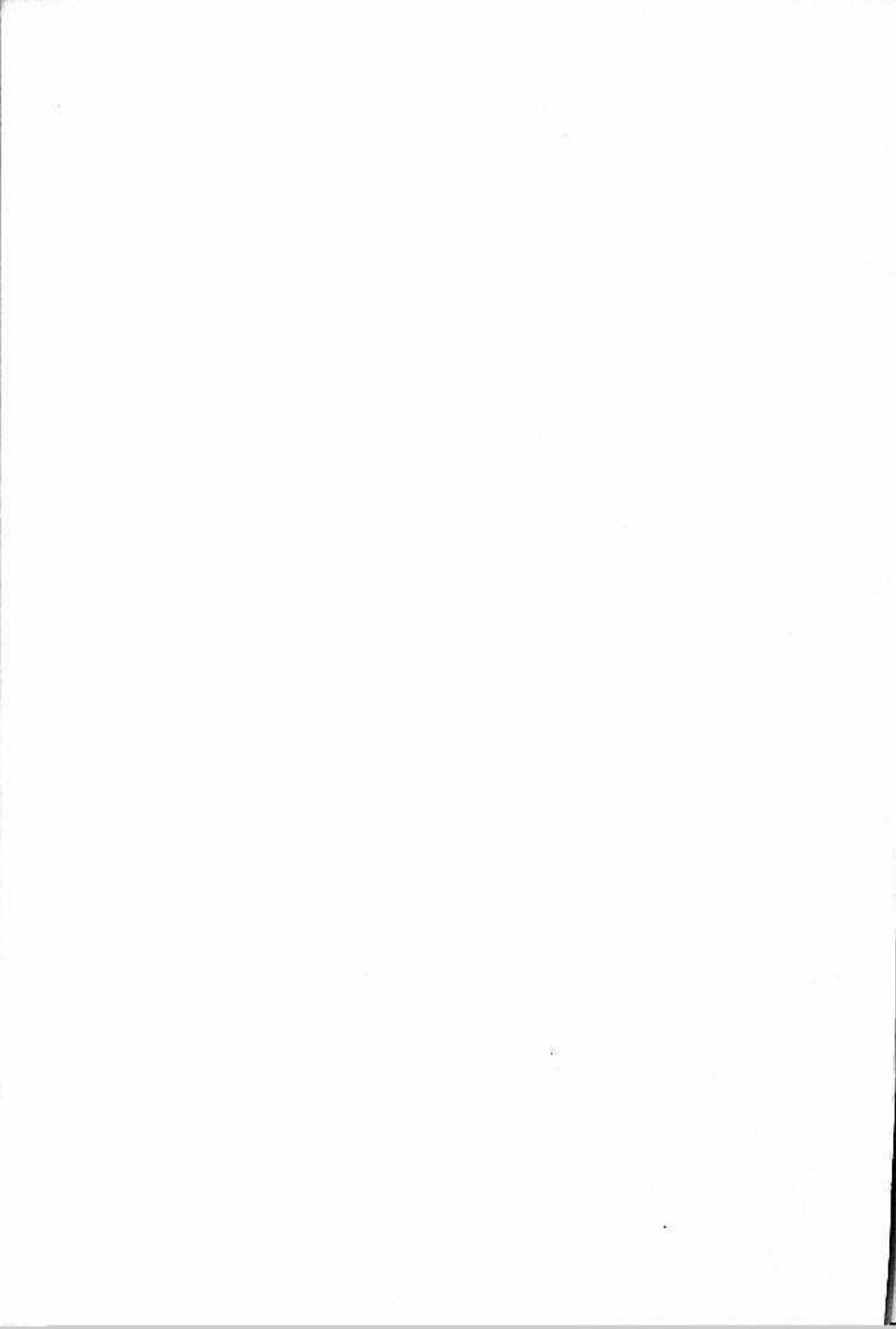
الى حكومة قرغيزستان:

10- رفض الدعوات المناهية بالمزيد من الاجراءات القاسية ضد حزب التحرير، والتي لن تؤدي سوى للمزيد من تطرف اعضائه واكسابهم التعاطف.

- 11- إيقاف الانزلاق نحو الاستبداد والفاشية مثلما هو عليه الحال في الستين الاخيرتين، وانهاء السياسة الرامية الى الحد من نفوذ احزاب المعارضة العلمانية.
- 12- اتخاذ اجراءات نشطة لاصلاح هياكل تطبيق القانون، بما في ذلك المزيد من التوازن العرقي في التجنيد، وزيادة تعليم الامور الدينية للشرطة والمسؤولين.

للولايات المتحدة وأعضاء المجتمع الدولي:

- 13- تجنب الارتباط الوثيق بالسياسات القمعية لانظمة الحكم في آسيا الوسطى ضد المسلمين، واتخاذ موقف حازم ضد الاساءة لحقوق الانسان والتعذيب والعمليات القضائية غير العادلة فيما يتعلق باعضاء حزب التحرير.
- 14- اعطاء الاولوية لحقوق الانسان والحرية الدينية وحرية الاختلاف مع سياسات حكومات آسيا الوسطى التي تقوض الاستقرار بعيد المدى وكذلك مستويات المعيشة.
- 15- الضغط على حكومات المنطقة للقيام باجراءات نشطة لانفتاح النظام السياسي، والقيام بالمزيد من الاصلاح الاقتصادي وتحرير التجارة عبر الحدود، ومحاربة الفساد داخل صفوف النخبة.
- تحسين سبل جمع المعلومات حول حزب التحرير.
- 17- مقاومة الدعوة لخطر حزب التحرير في البلدان الغربية، والتي سوف تعزز السياسات القمعية في آسيا الوسطى ودفع الحزب الى العمل السري ولااتخاذ مواقف اكثر تطرفا.



الفصل الخامس عشر

التأثير الأيديولوجي للروس على مسلمي وسط آسيا والقوقاز



الفصل الخامس عشر

التأثير الأيديولوجي للروس على مسلمي وسط آسيا والقوقاز

إن مسألة الدين والقومية في الاتحاد السوفيتي كانت وما زالت تمثل الاتجاه الأيديولوجي للشيوعية الروسية، والتي أثبتت فشلها طوال الأعوام الماضية، فإن الشيوعية لم تستطع فرض الوحدة الأيديولوجية حتى على الشعوب والقوميات الصغيرة، فما زالت لتلك القوميات لغة ودين، والفكر الخاص بها ولقومياتها، فكيف كانت تتوقع السلطات الشيوعية أن تنجح في البلدان الآسيوية الكبيرة وذات التاريخ والحضارة والمدنية العظمى مثل بلدان تركستان، وقد تنبه المفكرون الروس لتلك الحقيقة، ولمسوا حقيقة مهمة وهي: لكي تغدو للشيوعية أيديولوجية ناجحة بالإضافة إلى نظام سياسي، فإن عليها أن تبدل من صفتها، وتزيد من مبادرتها الروحية، أو عليها أن تسمو إلى ذروة التعاليم الدينية لبلدان آسيا. وقد بدأ تنفيذ هذا الاتجاه بإقرار مبادئ تسمى بأخلاق الشيوعية التي تدرس في المدارس الروسية، والتي تضع تأكيداً كبيراً على الصدق والشرف والاستقامة كأخلاق حسنة لضمان سير الآلة الحزبية، ويكون منافساً للكتب الدينية، ولكن كان لابد للشيوعية أن تخسر هذا المجال الروحي رغم ربحها في المجال المادي، ومن هنا تكمن نقطة الضعف الأساسية في الجهاز الشيوعي السياسي والأيديولوجي كله، وفي سياسته الخاصة بالدين والقوميات.

وهنا نرى أنه طالما أن الدين باقٍ جنباً إلى جنب مع القومية، فإن ذلك يعطي دلالة كاملة على أن التأثير الأيديولوجي للشيوعية لا وجود له في نفوس شعوب آسيا الوسطى، وهذا هو الحكم الأعم والأشمل، ولكن توجد بعض الاستثناءات على هذا الحكم، فنجد بعض الأشخاص ممن يحملون الدين الإسلامي والقومية الخاصة به يندمج مع النظام الشيوعي وفكره من أجل تحقيق مصالح شخصية ومادية وإن كانت هذه

الحالات تعد في نظر القومية خيانة عظمى، فإنها أمام التاريخ تعد حالات فردية لا تعبر عن نجاح الأيديولوجية الشيوعية في بلدان آسيا الوسطى.

ولكن لا بد للباحث في هذا الصدد من أن يفرق من الناحية التاريخية والجغرافية والثقافية بين الشعوب التي دخلت الإسلام مبكرًا، وتلك التي دخلته في عهد قريب.

فنجد أن الإسلام ظل قويًا على مر التاريخ في نفوس أبنائه في المناطق التي دخلها مبكرًا وكذلك في المناطق الحضرية مثل أوزبكستان وطاجيكستان وغيرها.

في حين نجد أن قوة اختراق الإسلام للثقافات المحلية ليست عالية في قازاقستان وقيرغيزيا، وهي المناطق التي كانت تسكنها قبائل بدوية كان تأثير الإسلام عليها ضعيفًا، ومع ذلك ظل الإسلام محافظًا على أهم خصائصه، وهي الثبات والاستمرارية في نفوس شعوب آسيا الوسطى الإسلامية، بل اقتصرت الكتابات عن الإسلام بوجه عام، وعن أحوال المسلمين هناك، ولم تتطرق الكتابات للتعرف على كيفية تفاعل الإسلام كدين وثقافة مع المحاولات الجادة من قبل السلطات السوفيتية لإحلال ثقافة شيوعية اشتراكية أساسًا لمشروع بناء الاتحاد السوفيتي، وتقويض الثقافات التقليدية ذات الطابع الديني، والتي شكلت عائقًا أمام ذلك المشروع، وكانت بمثابة الوعاء للنزاعات المحافظة على التمييز القومي، ومقاومة الاندماج في المجتمع السوفيتي، وقد توصلت تلك الدراسات إلى نتيجة واحدة تمثلت في الاعتراف بقدرة الإسلام على الاستمرارية بالرغم من قوة، وكثافة الحملات الروسية، والرسمية المعادية.

ورغم قوة وقسوة النظام الشيوعي إلا أن الدلائل المادية على استمرارية الإسلام في تلك المناطق كانت واضحة في ثلاثة أمور، كانت وما زالت كما هي منذ الفتح الإسلامي، وحتى استقلال تلك الدول، وهي تمثل العادات والتقاليد والتعاليم الإسلامية، وتلك الأمور هي:

- استمرار مزاولة الختان للطفل المسلم.

- استمرار إتمام الزواج على الطريقة الإسلامية (يتم العقد بمشاركة إمام المسجد، وتقرأ آيات من القرآن الكريم) .

- استمرار مراسم دفن الموتى من المسلمين (غسل- كفن- جنازة- تلحيد- دعاء) .

كل هذه الأمور والطقوس الدينية تدل دلالة كافية على ثبات الإسلام واستمراريته عند شعوب آسيا الوسطى، خاصة وأنها تتم في بيئة معادية.

واليوم، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وبمجرد الإحساس بملامح الحرية في روسيا الشيوعية، سارع المسلمون إلى بناء المساجد وتعميرها من جديد، واندفع الناس، وخاصة الشباب إلى داخل المساجد رغم عدم معرفتهم بالصلاة، فبرغم بعدهم عنه، فإن قلوبهم عامرة بالإسلام فيعودون إليه بحماس شديد رغم محاولات السلطات السوفيتية طمس الثقافة الإسلامية، وإبعاد المسلمين عن روح الحياة الإسلامية، وقد ساعدتها القوانين الشيوعية التي حاصرت التعليم الإسلامي، ومنعت نشر الكتب الإسلامية، خاصة ما يتعلق منها بالتراث والأدب الإسلامي، وكانت السلطات الشيوعية قد خصصت لذلك جماعات لا دينية تقوم على الأيديولوجية الشيوعية لمحاربة الأديان، ومنع نشر كتبها، وفي نفس الوقت تشجع نشر الكتب ذات الفكر الإلحادي، ومع كل ذلك بقيت جذوة الدين موقدة في قلوب المسلمين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ وَأَكْثَرُ أَلْبَابِ لَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

وعندما نسوق بعض الأدلة المادية التي تعبر عن الحالة الفكرية، والأيديولوجية لمسلمي وسط آسيا، نلاحظ أن الإسلام كان كامناً في النفوس، وحين رأى بارقة نور أطلق عنانه للخروج، وللتعبير عن مكونات نفسه المؤمنة، وهذا ينطبق بالطبع على شتى بقاع الاتحاد السوفيتي في جمهورياته المسلمة المستقلة، فمثلاً في منطقة قازان، وعندما صعد المؤذن منارة المسجد ليرفع الأذان في عاصمة التتار (تاتارستان) بعد ظلم وقهر دام أكثر من سبعين عاماً، وقف الناس في سعادة غامرة، وكبروا وهللوا بعد ظلم إيفان الرهيب

الذي منع الأذان والتدين، وقتل العلماء، وشرد المسلمين، ومثل بزعمائهم، وذلك في منطقة القرم، والتي شهدت تحويل المساجد إلى مسارح وكباريهات ونوادٍ ليلية للرقص، بعد أن خصصوا مساحة المسجد للراقصات، إهانة للمسجد وللمسلمين ومشاعرهم، ولكن شاءت إرادة الله أن ينقش الظلم، ويعود الإسلام إلى عزته ومجده بنصر من الله.

وكذلك الحال في داغستان وطشقند وأذربيجان، ووادي فرغانة، وغيرها من البقاع المسلمة التي شهدت ميلاد العلماء، وكانت مراكز إشعاع للحضارة الإسلامية، فما هي تعود اليوم لمجدها، وتاريخها الذي توقفت حركته عشرات السنين، والذي كان يعد الدافع القوي والخفي في نفوس المسلمين لمحاربة البرنامج الشيوعي، والذي كان يهدف لترويس المسلمين، أي إلى تحويلهم إلى روس بالتغيير في الأسماء والعادات والتقاليد وبعدهم عن دينهم، وعدم الاعتداء به في شؤون حياتهم، وتربية النشء على ذلك لتغيير منهج التفكير عندهم، ومع كل ذلك لم يتأثر الفكر الإسلامي بالأيدولوجية الشيوعية، وظل الإسلام على خصوصيته من الثبات والاستمرارية في نفوس المسلمين ظاهراً وباطناً، وكانت الأيدولوجية الشيوعية تسيطر على الفكر المسلم بالعبث في المسائل الدينية، وتشويشها من جانب، ثم تقوم بتقديم الأفكار الماركسية في صور متعددة، أحياناً في شكل فنون، وتارة في شكل أعمال أدبية، وأحياناً أخرى في صورة مضاهاة للدين، وأفكاره ومعتقداته البالية من وجهة النظر الماركسية، وكان مليئاً بالمغالطات المتعمدة والهدلية، وذلك واضح تماماً من ترجمة كراتشكوفسكي للقرآن الكريم الذي تعمد فيه بث المغالطات والغموض، بل لقد تضمنت بعض أجزاء من ترجمته إسباغ الكذب على كل ما هو صادق في القرآن، وتحويل الصلاح إلى فساد، وهكذا انتهج كراتشكوفسكي منهجه عن قصد تنفيذاً لطلبات السلطات السوفيتية التي علقت آمالها عليه في زرع الكراهية في نفوس الناس من ناحية الدين الإسلامي.

وعلى هذا جاءت الترجمة تحمل نصوصاً للقرآن مبهمه، وغامضة، وثقيلة المعنى والإدراك، حتى إن من يطالعها لا يفهمها، وتنفر منها نفسه، وهذا هو المقصود من

الترجمة، وقد لمجح كراتشكوفسكي في تحقيق الخطة الماكرة التي وضعتها السلطات الشيوعية لخلق جو هادئ ومهيا لنشر الفكر الماركسي الإلحادي.

ولإحكام تنفيذ هذه الخطة بإتقان تام، فإن أنصار الفكر الشيوعي رحبوا بهذه الترجمة، ووصفونها بأنها حدث تاريخي علمي لم يسبق له مثيل في علم الاستشراق، وزعموا أن من لا يفهم هذه الترجمة جاهل بشؤون الدين الإسلامي.

رغم أن هذه الأخطاء شملت القرآن الكريم كله، وفي مختلف سورته، ولسوف نسوق مثالا واحداً على ذلك:

في سورة الناس جاءت ترجمته الحرفية إله الناس الذي يجتنب من شر الوسواس أيعقل هذا؟ أيعقل أن الله سبحانه وتعالى يخاف ويخشى من مخلوق له ذنوب، بل ويجتنب منه.

وعلى هذا المنوال كانت ترجمة كراتشكوفسكي لكل سور القرآن الكريم، فقد ظهرت حقيقة فكره، وشر مقصده، وتعمده لإرضاء السلطات الشيوعية، وبالرجوع إلى تاريخ الاستشراق الروسي نجد أن أول ترجمة تمت من النص العربي قام بها المستشرق سابلوكوف من مدينة قازان، وتم نشرها عام 1878م، ثم طبعت مرتين عام 1894م و1907م، وظلت هذه الترجمة متداولة في الأوساط العلمية، وبين جمهور القراء على مدى قرن تقريباً، ولكنها مع مرور الوقت أصبحت نادرة، ثم ظهرت عام 1963م ترجمة المستشرق كراتشكوفسكي، وهي آخر ترجمة، وأصبحت هي المعمول بها.

وبمراجعة تاريخ الترجمة، نجد أن الترجمة الأولى للمستشرق سابلوكوف كانت في العهد القيصري، وقبل العهد الشيوعي الإلحادي، وأصبحت نادرة، ولم تقم السلطات الشيوعية بإعادة طبعتها، لكونها ترجمة صغيرة وصحيحة لمعاني القرآن الكريم، ويستطيع أي إنسان أن يفهم ما يريد رغم الأخطاء غير المؤثرة في المعنى العام للترجمة، فهي في النهاية ترجمة صغيرة ولكنها مفيدة، ولذا عمدت السلطات الشيوعية إلى إخفائها، واستعاضت عنها بترجمة كراتشكوفسكي بما تحويه من مقاصد شريرة ومفاسد مقصودة

تهدف في النهاية للنفور من الدين الإسلامي، والبعد عنه، وهو ما خططت له السلطات الشيوعية لإجلاء الساحة الفكرية، تمهيداً لبث الفكر الماركسي من خلال أيديولوجية شيوعية منظمة تهدف إلى نشر الفكر الإلحادي، وتحارب الإسلام والمسلمين في دينهم وعقيدتهم.

ومن هذا المنطلق، تجدر بالباحث الإشارة إلى وثيقة سرية عن المخطط الشيوعي السوفيتي ضد الإسلام، ونشرته مجلة العلم والدين الروسية، في عددها الصادر أول يناير سنة 1964م، ما نصه:

رغم مرور خمسين عاماً على الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، وبرغم الضربات العنيفة التي وجهتها أضخم قوة اشتراكية في العالم الإسلامي، فإن الرفاق الذين يراقبون حركة الدين في الاتحاد السوفيتي صرحوا: إننا نواجه في الاتحاد السوفيتي تحديات داخلية في المناطق الإسلامية، وكان مبادئ كينين لم تتشربها دماء المسلمين، وبرغم القوى اليقظة التي تحارب الدين، فإن الإسلام ما يزال يرسل إشعاعاً، وما زال يتفجر بالقوة، بدليل أن ملايين من الجيل الجديد في المناطق الإسلامية يعتقدون الإسلام، ويجاهرون بتعاليمه، مع أن قادة الحزب ومفكري الثقافة السوفيتية، وصفته على حقيقته بأنه أخطر الأديان المرجعية، ويذل أقصى جهده ليكون في خدمة المستغلين والإقطاعيين والرأسماليين، ويناهض الحركات التحررية.

وتركز الوثيقة في موضع آخر على المخطط الشيوعي لهدم الإسلام، ومن هذا المخطط أن تتخذ من الإسلام نفسه أداة لهدم الإسلام، وقد تقرر ما يلي:

- 1- مهادنة الإسلام لتم الغلبة عليه، ولتجذب الشعوب الإسلامية للاشتراكية.
- 2- تشويه سمعة رجال الدين والحكام المتدينين، واتهامهم بالعمالة للاستعمار والصهيونية.

3- تعميم دراسة الاشتراكية في جميع المعاهد والكليات والمدارس في جميع مراحل التعليم، ومزاومة الإسلام ومحاصرته حتى لا يصبح قوة تهدد الاشتراكية.

4- الحيلولة دون قيام حركات دينية في البلاد مهما يكن شأنها ضعيفاً، والعمل اليقظ الدائم لمحو أي انبعاث ديني.

5- لا يغيب عنا أن للدين دوره الخطير في بناء المجتمعات، ولذا يجب أن نحاصره من كل الجهات، وفي كل مكان، والصاق التهم به، وتنفير الناس منه بالأسلوب الذي لا ينم عن معاداة الإسلام.

6- تشجيع الكتاب الملحدين، وإعطائهم الحرية الكاملة في مهاجمة الدين، والشعر الديني، والضمير الديني، والعبقرية الدينية، والتركيز في الأذهان على أن الدين انتهى عصره.

7- قطع الروابط الدينية بين الشعوب قطعاً تاماً، وإحلال الرابطة الاشتراكية محل الرابطة الإسلامية التي هي أكبر خطر على اشتراكيتنا العالمية.

8- إن فصل روابط الدين ومحو الدين لا يتمان بهدم المساجد والكنائس؛ لأن الدين يكمن في الضمير. والمساجد والمعابد مظهر من مظاهر الدين الخارجية، والمطلوب هو هدم الضمير الديني، ولم يصبح ذلك صعباً بعد أن نجحنا في جعل السيطرة والحكم والسيادة للاشتراكية، ونجحنا في تعميم ما يهدم الدين من خلال القصص والمسرحيات والمحاضرات والصحف والأخبار والمؤلفات التي تروج الأخبار، وتهزأ بالدين ورجاله، وتدعو إلى العلم وحده، وجعله الإله المسيطر.

9- مزاومة الوعي الديني وطرده بالوعي العلمي.

10- خداع الجماهير بأن نزعهم بأن المسيح اشتراكي، فهو فقير وأتباعه فقراء، وهكذا بالنسبة لمحمد، فهو إمام الاشتراكيين، وحارب الأغنياء والمحتكرين، وعلى هذا

النحو نصور الأنبياء والرسل، ونبعد المقدسات الروحية والوحي والمعجزات عنهم بقدر الإمكان، لنجعلهم بشرًا عاديين، حتى يسهل علينا القضاء على الهالة التي أوجدوها لأنفسهم، وأوجدوها لأتباعهم المهوسين.

11- في القرآن والثورة والإنجيل قصص، ولثلا نصدم الشعور الديني للجماهير ونثيرهم على الاشتراكية، يجب أن نتقبل هذه القصص ونفسرها تفسيرًا اشتراكيًا ماديًا، فقصّة يوسف في القرآن مثلاً، يمكن تفسيرها تفسيرًا ماديًا تاريخيًا، وما فيها من جزئيات يمكن أن نستفيد منها في تعبئة الشعور العام ضد الرأسمالية والإقطاعيين والنساء الشريفات والحكام الرجعيين.

12- إخضاع جميع القوى الدينية للنظام الاشتراكي، وتجريد هذه القوى تدريجيًا من روحها... إلخ.

13- إشغال الجماهير بالشعارات الاشتراكية، والأناشيد الحماسية، والوطنية والأغاني الوطنية والعسكرية والتنظيمات الحزبية، والمحاضرات المذهبية، والوعود المستمرة برفع الإنتاج، ومستوى المعيشة، وإلقاء مسؤولية التأخير، والانهيار الاقتصادي والجوع، والفقر، والمرض على الرجعية، والاستعمار والصهيونية والإقطاع ورجال الدين.

14- تحطيم القيم الدينية والروحية بإظهار ما فيها من خلل وعيوب، وتحذير القوى المناهضة.

15- اهتاف الدائم ليل نهار بالثورة، وأنها المنقذ الوحيد للشعوب من حكامها الرجعيين، واهتاف للاشتراكية بأنها هي الجئة والفردوس المنتظر للجماهير الكادحة.

16- نشر الأفكار الإلحادية، وكل فكرة تضعف الشعور الديني، والعقيدة الدينية، وزعزعة الثقة برجال الدين في كل قطر إسلامي.

17- لا بأس من استخدام الدين لهدم الدين، ولا بأس من أداء الزعماء الاشتراكيين بعض الفرائض الدينية الجماعية (صلاة الجمعة- الحج) للتضليل والخداع على الا يطول زمن ذلك، فالثورة قبل كل شيء هدم للقديم والمواريث الدينية جميعاً.

18- إعلان أن الاشتراكيين يؤمنون بالدين الصحيح لا بالدين الزائف الذي يعتنقه الناس لجهلهم، والدين الصحيح الذي يتلاقى مع الاشتراكية هو الاشتراكية، والدين الزائف هو الأفيون المخدر، وإلصاق كل عيوب الدراويش وخطايا رجال الدين بالدين نفسه.

19- تنشئة الإنسان الذي تريده الاشتراكية لبلوغ مآربها، وتحقيق غاياتها بالدين الصحيح، والدين الثوري، والدين المتطور، ودين المستقبل حتى يتم تجريد الإسلام الذي جاء به محمد من خصائصه ومعالمه، والاحتفاظ فيه بالاسم فقط.

20- أخذنا بتعاليم لينين، ووصيته بأن يكون الحزب الاشتراكي خصماً عينداً للدين ومحارب فكرته عن الآخرة، وما يتظر بعد الموت بالفردوس الذي تحققه الاشتراكية العلمية، والتي تحقق العدالة الاجتماعية التي هي الفردوس، وإذا وجد أنه من الضروري مهادنة الدين وتأييده، وجب أن تكون المهادنة لأجل التأييد بحذر، على أن يستخدم التأييد والمهادنة لمحو الدين.

21- الاهتمام بالإسلام مقصود منه أولاً: استخدام الإسلام في تحطيم الإسلام، وثانياً: استخدام الإسلام للدخول في شعوب العالم الإسلامي.

22- وباسم تصحيح المفاهيم الإسلامية وتنقيتها من الشوائب، وتحت ستار الإسلام يتم القضاء عليه بأن تستبدل به الاشتراكية.

النحو تصور الأنبياء والرسل، ونبعد المقدسات الروحية والوحي والمعجزات عنهم بقدر الإمكان، لنجعلهم بشرًا عاديين، حتى يسهل علينا القضاء على الهالة التي أوجدوها لأنفسهم، وأوجدوها لأتباعهم المهوسين.

11- في القرآن والتوراة والإنجيل قصص، ولثلا نصدم الشعور الديني للجماهير ونثيرهم على الاشتراكية، يجب أن نتقبل هذه القصص ونفسرها تفسيرًا اشتراكيًا ماديًا، فقصّة يوسف في القرآن مثلاً، يمكن تفسيرها تفسيرًا ماديًا تاريخيًا، وما فيها من جزئيات يمكن أن نستفيد منها في تعبئة الشعور العام ضد الرأسمالية والإقطاعيين والنساء الشريقات والحكام الرجعيين.

12- إخضاع جميع القوى الدينية للنظام الاشتراكي، وتجرید هذه القوى تدريجيًا من روحها... إلخ.

13- إشغال الجماهير بالشعارات الاشتراكية، والأناشيد الحماسية، والوطنية والأغاني الوطنية والعسكرية والتنظيمات الحزبية، والمحاضرات المذهبية، والوعود المستمرة برفع الإنتاج، ومستوى المعيشة، وإلقاء مسؤولية التأخير، والانهيار الاقتصادي والجوع، والفقر، والمرض على الرجعية، والاستعمار والصهيونية والإقطاع ورجال الدين.

14- تخطيم القيم الدينية والروحية بإظهار ما فيها من خلل وعيوب، وتحذير القوى المناهضة.

15- اهتاف الدائم ليل نهار بالثورة، وأنها المنقذ الوحيد للشعوب من حكامها الرجعيين، والاهتاف للاشتراكية بأنها هي الجنة والفردوس المنتظر للجماهير الكادحة.

16- نشر الأفكار الإلحادية، وكل فكرة تضعف الشعور الديني، والعقيدة الدينية، وزعزعة الثقة برجال الدين في كل قطر إسلامي.

17- لا بأس من استخدام الدين لهدم الدين، ولا بأس من أداء الزعماء الاشتراكيين بعض الفرائض الدينية الجماعية (صلاة الجمعة- الحج) للتضليل والخداع على الا يطول زمن ذلك، فالثورة قبل كل شيء هدم للقديم والمورث الدينية جميعاً.

18- إعلان أن الاشتراكيين يؤمنون بالدين الصحيح لا بالدين الزائف الذي يعتقه الناس لجهلهم، والدين الصحيح الذي يتلاقى مع الاشتراكية هو الاشتراكية، والدين الزائف هو الأفيون المخدر، وإصااق كل عيوب الدراويش وخطايا رجال الدين بالدين نفسه.

19- تنشئة الإنسان الذي تريده الاشتراكية لبلوغ مآربها، وتحقيق غاياتها بالدين الصحيح، والدين الثوري، والدين المتطور، ودين المستقبل حتى يتم تجريد الإسلام الذي جاء به محمد من خصائصه ومعائه، والاحتفاظ فيه بالاسم فقط.

20- أخذنا بتعاليم لينين، ووصيته بأن يكون الحزب الاشتراكي خصماً عنيداً للدين ويجاب فكرته عن الآخرة، وما يتظر بعد الموت بالفردوس الذي تحققه الاشتراكية العلمية، والتي تحقق العدالة الاجتماعية التي هي الفردوس، وإذا وجد أنه من الضروري مهادنة الدين وتأييده، وجب أن تكون المهادنة لأجل التأييد بحذر، على أن يستخدم التأييد والمهادنة لمحو الدين.

21- الاهتمام بالإسلام مقصود منه أولاً: استخدام الإسلام في تحطيم الإسلام، وثانياً: استخدام الإسلام للدخول في شعوب العالم الإسلامي.

22- وباسم تصحيح المفاهيم الإسلامية وتنقيتها من الشوائب، ونحت ستار الإسلام يتم القضاء عليه بأن تستبدل به الاشتراكية.

23- ستظل الاشتراكية في نزاع دائم مع العقيدة الدينية، ولن يستقر التحويل الاشتراكي الصحيح إلا بسيادة الاشتراكية على الدين، أي الاشتراكية الماركسية.

ويسرد هذه التعليمات ومحاولة قراءة متأنية للسطور وما بينها، نجد أن المخطط الشيوعي كان يهدف إلى بث الفكر الماركسي الإلحادي بشتى الطرق، فرسم مخطظه على محورين أساسيين هما:

أولاً: هدم الدين بكل الوسائل المتاحة الظاهرة منها والباطنة والشريفة منها وغير الشريفة.

ثانياً: استحداث النظام الاشتراكي باعتباره بديلاً للدين، وقادراً على إسعاد الشعوب، وتحقيق التكافل، والعدالة الاجتماعية.

ولكن تباً لهذا الفكر المريض، فالإسلام جزء من المكون الرئيسي للمسلم، فالإيمان يسير في دمه، ويمتزج بوجوده، ويكون عقيدته حتى أصبح جزءاً من هويته الذاتية التي لا انفصام عنها.

ومن ثم يمكن القول بوجود بعض مظاهر للتأثير الأيديولوجي للروس على بعض فئات مسلمي وسط آسيا والقوقاز دون الكل، فالإسلام في تلك البلدان يمتزج بالسلوك الاجتماعي للشعوب هناك حتى يمكن أن يطلق عليه الإسلام الشعبي، لأن الإسلام كدين وتقاليد وعادات وعبادات ومعاملات ما زال قوياً، ويؤلف جزءاً أساسياً من الحياة الاجتماعية للناس دون ضعف أو تراجع، فالمساجد أعيد بناؤها، وأصبحت تمتلئ بالمصلين، وخاصة في صلاة الجمعة، والطرق الصوفية متشعبة، وزيارة مزارات الأولياء الصالحين أصبحت تقليداً دينياً اجتماعياً، وبخاصة في الأرياف، وما زال قوياً، والعادات والتقاليد الإسلامية ما زالت تتبع وتحترم وتقدس.

وقوة الإسلام الظاهرة في حياة الناس ذاتية التأثير، وكذا التغييرات التي تحدث في بقية العالم الإسلامي. وإن نهوض الإسلام وتحديد اتجاهاته بصير التكهن به عسيراً، نظراً لامتزاج الإسلام بالقومية.

ولكن لا نغفل نقطة مهمة في هذا الموضوع، وهي أن معظم رؤساء الدول الإسلامية بوسط آسيا هم جميعاً شيوعيون سابقون سارعوا إلى ركوب موجة الاستقلال والقومية، بعد أن سقطت المركز نهائياً، وانهار الاتحاد السوفيتي، وإن كانت اتجاهاتهم في النهاية ستسير في اتجاه رغبة شعوبهم التي تتطلع لمزيد من الحرية الدينية، والرجوع لأصولهم الإسلامية التي حافظوا عليها طوال فترة الاحتلال القيصري والشيوعي والنظام الماركسي الإلخادي المنهار، بعد أن استخدم الشيوعيون كل الوسائل الثقافية والفكرية من أجل تشكيل الإنسان الذي يريدونه بعيداً عن الدين والقيم الكلية للأخلاق.

خلاصة القول: من الواضح أن هناك دوراً فعالاً ومؤثراً قد لعبته الفرق الدينية والطرق الصوفية في انتشار وتثبيت الهوية الإسلامية، والحفاظ على التقاليد والتعاليم والموروثات الإسلامية في نشأة مسلمي وسط آسيا من خلال عدة محاور، منها:

ترسيخ المفاهيم الإسلامية الحققة في نفوس الشعوب التي كانت حديثة العهد بالإسلام، كما أدى تمسك المسلمين بهدفهم أمام الضغوط والتغيرات التي كانت حولهم، وهذه الطرق المختلفة قد شكلت فيما بينها سداً مانعاً في نفوس المسلمين، وأمام الغزو الفكري الشيوعي وأيديولوجياته الإلخادية الهدامة.

كذلك يمكن القول بأن التأثير الأيديولوجي للروس في المجتمعات الإسلامية بوسط آسيا لا بد وأن يراعي فئتين خضعتا للتأثير، وهما:

أولاً: الفئة الأولى - التأثير على عامة الشعب بما فيهم رجال الدين.

ثانياً: الفئة الثانية - التأثير على النخبة الحاكمة.

فبالنسبة للتأثير على رجال الدين وعامة الشعب، فقد سبق الإشارة إليه بأن الدين الإسلامي هو المكون الرئيس للشخصية التركستانية، بل هو القاسم المشترك في حياتهم الاجتماعية والفكرية، ومن ثم فإن التأثير العقائدي للأيدولوجية الشيوعية له وجود في عقل بعض فئات المسلمين بوسط آسيا، وإن كان الرجوع لممارسة الدين وشعائره بقوة وثبات سيحتاج لمزيد من الوقت يستعيد فيه المسلم توازنه وشخصيته وماضيه وهويته.

ويمكن القول في النهاية: إنه قد حدث تأثير أيديولوجي روسي على بعض فئات مسلمي وسط آسيا وخاصة الشباب.

أما بالنسبة للتأثير على النخبة الحاكمة وصانعي القرار السياسي، فالأمر هنا يختلف تمامًا فهذه النخبة الحاكمة هي ذاتها النخبة التي كانت تجلس على كرسي الحزب الشيوعي في بلدها، وتعتنق أفكاره، ومنفذة لسياسة السلطات الحزبية الشيوعية والمالية لها قلبًا وقالبًا، ثم أصبح كل منهم فجأة وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي رئيسًا لبلده الحر المستقل، ومطالبًا من شعبه بالسير في الاتجاه الإسلامي، في حين أن عقله متشبع بالفكر الاشتراكي الماركسي، فكانت النتيجة اتجاه معظم هؤلاء الزعماء، أي النخب الحاكمة، لجمهوريات وسط آسيا الإسلامية، متجهة إلى العلمانية التركية كنموذج للتطبيق، ورغم هذا لا ضرر من ذلك، فالأيام كفيلة في خلق جيل واع وقادر على إعادة الروح الإسلامية لسابق عهدها في تلك البلدان، ويكفي الآن أن تسمع نداء الحق في كل وقت ومكان بلا خوف ولا وجل.. الله أكبر الله أكبر والله الحمد.

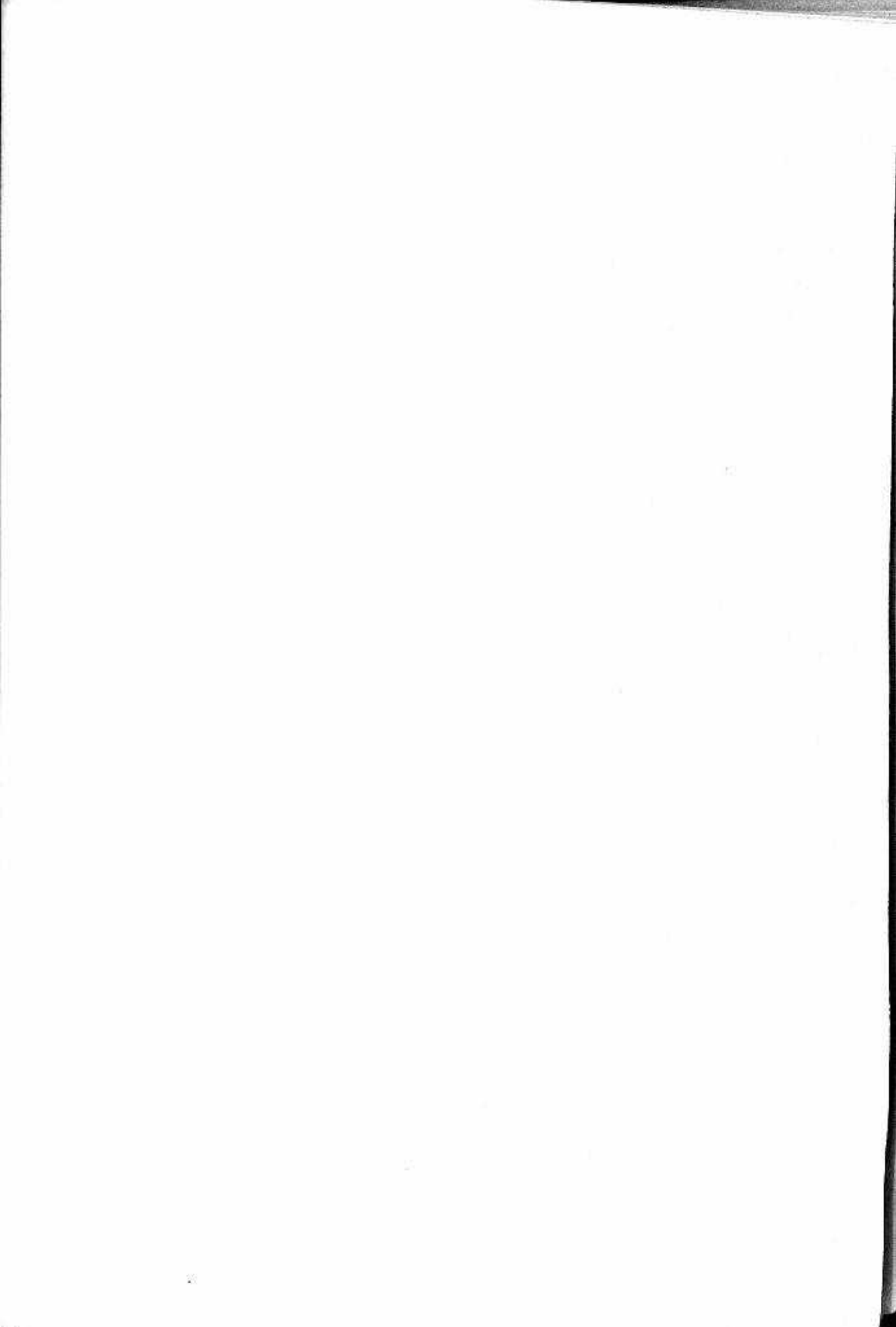
الهوامش

- (1) أحمد رائف، شمس الإسلام، ص 135.
- (2) بارتولد، ص 20.
- (3) عبد المنعم النمر، ص 117.
- (4) بطروشوفسكي، الإسلام في إيران، ترجمة د/ السباعي محمد السباعي، القاهرة، كمبيوجرافيك، سنة 1994م، ص 299.
- (5) نقشبند: كلمة فارسية، تعني مهنة النقش على المعادن، وكانت هذه المهنة هي حرفة شيخ الطريقة.
- (6) هدى درويش، ص 34.
- (7) بطروشوفسكي، مرجع سابق، ص 335.
- (8) المرجع السابق، ص 337.
- (9) هدى درويش، ص 35.
- (10) أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي، مرجع سابق، ص 73.
- (11) هدى درويش، ص 35.
- (12) بطروشوفسكي، مرجع سابق، ص 138.
- (13) بطروشوفسكي، مرجع سابق، ص 230.
- (14) المرجع السابق، ص 36.
- (15) المرجع السابق، ص 36.
- (16) هويدا محمد فهمي، الأقليات المسلمة والصراعات العرقية، جامعة القاهرة، مركز الدراسات الشرقية سنة 2000، ص 59.
- (17) سلوى عبد الحمد لطفي، ص 35.
- (18) هدى درويش، ص 37.
- (19) المرجع السابق، ص 38.
- (20) سلوى عبد الحميد لطفي، مؤتمر المسلمين في آسيا الوسطى، مرجع سابق، ص 35.
- (21) المرجع السابق، ص 37.
- (22) المرجع السابق، ص 38.
- (23) ويلتر كولارز، ص 132.
- (24) المرجع السابق، ص 313.

- (25) فوزي محمد طایل، آثار تفكك الاتحاد السوفيتي، ص 131.
- (26) صالح الختلان، ندوة الوطن العربي كومنولث الدول المستقلة، القاهرة، جامعة الدول العربية، سنة 1994م، ص 119.
- (27) المرجع السابق، ص 120.
- (28) فوزي محمد طایل، ص 142.
- (29) أحمد رائف، مرجع سابق.
- (30) أحمد رائف، مصدر سابق، ص 65.
- (31) المرجع السابق، ص 58.
- (32) أحمد رائف، شمس الإسلام، العدد التجريبي، ص 56.
- (33) أحمد رائف، مستقبل الإسلام في روسيا وما وراء النهر، ص 136.
- (34) المرجع السابق، ص 158.
- (35) عبد المنعم النمر، ص 128.
- (36) عبد المنعم النمر، ص 128.
- (37) المصدر السابق، ص 129.
- (38) المصدر السابق، ص 130.
- (39) المصدر السابق، ص 132.

الفصل السادس عشر

آسيا الوسطى والقوقاز تحت الاستعمار الروسي



الفصل السادس عشر

آسيا الوسطى والقوقاز تحت الاستعمار الروسي

الاستعمار الروسي

واعتباراً من القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي تعرّض العالم الإسلامي عموماً بقيادة الخلافة العثمانية، وروسيا، وأوروبا، وإيران، لمتغيرات هائلة، كان لها أثرها المباشر على علاقات الخلافة العثمانية مع مناطق آسيا الوسطى بعد سقوط القرم وقفقاسيا حتى بحر قزوين في يد الروس، ويأتي على رأس هذه المتغيرات ضعف الخلافة العثمانية، وتقسيم أملاكها إلى مناطق حماية بين الدول الاستعمارية، وانفتاح الطريق أمام الروس لاحتلال ممالك آسيا الوسطى الإسلامية. [1]

فقد بدأت روسيا القيصرية في التكاكب على المسلمين في هذه المناطق، لما ضعفت الخلافة العثمانية، وخاضت معهم حروب إبادة جماعية، بدءاً من عهد إيفان الثالث (885هـ = 1480م) الذي نكّل بالمسلمين، وقاد حملة كبيرة أخرج فيها المسلمين التار من موسكو بعد أن دامت في أيديهم قرابة 240 عاماً، ثم جاء عهد فاسيلي الثالث ابن إيفان الثالث، فطلب منه البابا أن يعجل بطرد المسلمين إلى سيبيريا وتشيتهم، واعداء إياه بملكوت السماء بالقسطنطينية التي فتحها محمد الفاتح العثماني عام 857هـ لكن أخطر هؤلاء القياصرة كان إيفان الرابع أو الرهيب كما أطلق عليه المسلمون هذا الاسم؛ وذلك بسبب حرب الإبادة الشاملة التي شنها ضدهم؛ فقد فرض عليهم أن يتنصروا أو يتركوا أوطانهم ويهاجروا مثلما فعل الأسبان بمسلمي الأندلس.

كما فعل الروس ذلك مع التار المسلمين على ضفاف نهر الفولجا ومع البشكير، وقد تحوّل كثير من البشكير والتار إلى النصرانية؛ خوفاً على أنفسهم وأولادهم، محافظين

على إسلامهم سرّاً مدى ثلاثة قرون، حتى أتيحت الحريّات الدينيّة عام
(1323هـ=1905م)، فأظهروا إسلامهم [2]

روسيا القيصرية تفرض التنصير على المسلمين

وبعد إيفان الرهيب جاء بطرس العظيم، فكانت سياسته كسلفه، ففرض التنصير
على المسلمين بالقوّة أو الفُزار من أراضيهم وأوطانهم، وقد بدأ بطرس العظيم (1092 -
1138هـ = 1682 - 1725م) بالاتّجاه جنوباً إلى شمال البحر الأسود في منطقة أزوف
واحتملها عام (1108هـ - 1696م)، ولكن الخلافة العثمانيّة استعادتها سنة (1112هـ -
1700م)، ولم يتمكّن من الاستيلاء على القوقاز سنة (1135هـ - 1722م)؛ بسبب
المواجهة الشرسة التي واجهها من مسلميها الأشداء بقيادة رجال الطريقة النقشبندية
الصوفيّة.

وقد سارت الإمبراطورة الروسيّة حناً (1151 - 1169هـ = 1738 - 1755م) على
نهج إيفان الرهيب، ففرضت التنصير على المجري الأوسط لنهر الفولجا، وصادرت
الأوقاف، وأغلقت المدارس، وقد أصدرت أمراً بإعفاء المرتدّين عن الإسلام إلى
النصرايّة من الضرائب والخدمة العسكريّة، ومعاملتهم معاملة حسنة، وقد مُنِع المسلمون
في عهدها من إقامة شعائرهم الدينيّة، وأغلقت جميع مدارسهم ومساجدهم، حتى إن
أطفالهم الصغار كانوا يُخطفون ويُوضعون في المدارس التبشيريّة، حتى ينشئوا على
النصرايّة الأرثوذكسيّة.

وفي عهد كاترين (1176 - 1211هـ = 1762 - 1796م) تمّت أضخم عمليّات
التوسّع على حساب أرض المسلمين، ففي فترة حكمها قامت بمصادرة مئات الألوف من
أخصب أراضي تيار القرم، رغم السياسة المتسامحة التي أبدتها مع المسلمين، ومنحهم
الحريّة الدينيّة سنة (1187هـ - 1773م)، ومن بعدها لم يسر القياصرة الروس على نهجها
في التسامح مع المسلمين؛ فنجد نيقولا الأوّل يلجأ إلى سياسة الكبت والضغط على

المسلمين، فلا يسمح ببناء المساجد، بل ويُصادر كثيراً من أراضيهم، وتحتل جيوشه إقليم طشقند عاصمة إقليم الشاش، وسمرقند عاصمة تيمورلنك.[3]

الإمام منصور رافع راية الجهاد

والذي يمكن تسجيله هنا هو أن المقاومة الإسلامية لم تُعَدَم في أي من عصور القياصرة السابقين ولا غيرهم، وقد ظهرت في أبهى صورها في عهد كاترين، حيث ظهرت شخصية إسلامية قوقازية حملت على عاتقها راية الجهاد، تمثلت في الإمام منصور، الذي استطاع أن يُلجق الهزائم المتتالية للروس في كُلِّ من الشيشان والداغستان، لكنه هُزِمَ سنة 1785م في معركة تارتوب، ولكنها لم تكن هزيمة كاملة؛ لأن الإمام منصور انسحب من المعركة بعد أن شعر بأنه سيخسر نتيجة التفوق العددي الكبير للروس، وعاد لمسقط رأسه في الشيشان.

وعندما بدأت بؤادر الحرب الروسية التركية في عام 1787م استنجد الأتراك بالإمام منصور فلبى النداء، وبدأ بمهاجمة القوات الروسية من الخلف في الذكرى السنوية لمعركة تارتوب، فانصر الإمام منصور، واستطاع بمعاونة ثلاثة أفواج من قوازيق الدون في إبادة الروس وهزيمتهم، إلا أن الروس استطاعوا أن ينالوا من الإمام منصور في قلعة أنابا على ساحل البحر الأسود، فخرَّ البطل شهيداً في سبيل الله في عام 1794م بعد جهاد ضد القيصرية الروسية دام ما يقرب من عشر سنين.[4]

عوامل التوسع الروسي في القوقاز

والحقيقة أنه كانت هناك عدَّة عوامل ساعدت على التوسع الروسي في آسيا الوسطى والقوقاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نلخصها في عاملين:[5]

عامل داخلي: حيث ركَّز القيصر نيقولا الأول (1825 - 1855م) جهوده للسيطرة على منطقة القوقاز، ولتحقيق هذا الغرض تمَّ بناء خطٍّ من الحصون لمحاصرة هذه القبائل والقضاء على مقاومتها، وبانتهاء حرب القرم [6] عام 1856م تمَّ تكثيف الحملات

على إسلامهم سرّاً مدى ثلاثة قرون، حتى أُتِيحت الحُرِّيَّات الدينيَّة عام (1323هـ=1905م)، فأظهروا إسلامهم [2].

روسيا القيصرية تفرض التنصير على المسلمين

وبعد إيفان الرهيب جاء بطرس العظيم، فكانت سياسته كسلفه، ففرض التنصير على المسلمين بالقوَّة أو الفِرَار من أراضيهم وأوطانهم، وقد بدأ بطرس العظيم (1092 - 1138هـ = 1682 - 1725م) بالاتِّجاه جنوباً إلى شمال البحر الأسود في منطقة أزوف واحتلَّها عام (1108هـ - 1696م)، ولكن الخلافة العثمانيَّة استعادتها سنة (1112هـ - 1700م)، ولم يتمكَّن من الاستيلاء على القوقاز سنة (1135هـ - 1722م)؛ بسبب المواجهة الشرسة التي واجهها من مسلميها الأشداء بقيادة رجال الطريقة النقشبندية الصوفيَّة.

وقد سارت الإمبراطورة الروسيَّة حناً (1151 - 1169هـ = 1738 - 1755م) على نهج إيفان الرهيب، ففرضت التنصير على المجري الأوسط لنهر الفولجا، وصادرت الأوقاف، وأغلقت المدارس، وقد أصدرت أمراً بإعفاء المرتدِّين عن الإسلام إلى النصرانيَّة من الضرائب والخدمة العسكريَّة، ومعاملتهم معاملة حسنة، وقد مُنِعَ المسلمون في عهدها من إقامة شعائرهم الدينيَّة، وأغلقت جميع مدارسهم ومساجدهم، حتى إن أطفالهم الصغار كانوا يُخطفون ويُوضعون في المدارس التبشيريَّة، حتى يَنشئوا على النصرانيَّة الأرثوذكسيَّة.

وفي عهد كاترين (1176 - 1211هـ = 1762 - 1796م) تمَّت أضخم عمليَّات التوسُّع على حساب أرض المسلمين، ففي فترة حكمها قامت بمصادرة مئات الألوف من أخصب أراضي تار القرم، رغم السياسة المتسامحة التي أبدتها مع المسلمين، ومنحهم الحرِّيَّة الدينيَّة سنة (1187هـ - 1773م)، ومن بعدها لم يسر القياصرة الروس على نهجها في التسامح مع المسلمين؛ فنجد نيقولا الأوَّل يلجأ إلى سياسة الكبت والضغط على

المسلمين، فلا يسمح ببناء المساجد، بل ويُصادر كثيرًا من أراضيهم، وتحتل جيوشه إقليم طشقند عاصمة إقليم الشاش، وسمرقند عاصمة تيمورلنك.[3]

الإمام منصور رافع راية الجهاد

والذي يمكن تسجيله هنا هو أن المقاومة الإسلامية لم تُغدَم في أي من عصور القياصرة السابقين ولا غيرهم، وقد ظهرت في أبهى صورها في عهد كاترين، حيث ظهرت شخصية إسلامية قوقازية حملت على عاتقها راية الجهاد، تمثلت في الإمام منصور، الذي استطاع أن يُلحق الهزائم المتتالية للروس في كُلِّ من الشيشان والداغستان، لكنه هُزِمَ سنة 1785م في معركة تارتوب، ولكنها لم تكن هزيمة كاملة؛ لأن الإمام منصور انسحب من المعركة بعد أن شعر بأنه سيخسر نتيجة التفوق العددي الكبير للروس، وعاد لمسقط رأسه في الشيشان.

وعندما بدأت بوادر الحرب الروسية التركية في عام 1787م استنجد الأتراك بالإمام منصور فلبى النداء، وبدأ بمهاجمة القوات الروسية من الخلف في الذكرى السنوية لمعركة تارتوب، فانتصر الإمام منصور، واستطاع بمعاونة ثلاثة أفواج من قوازيق الدون في إبادة الروس وهزيمتهم، إلا أن الروس استطاعوا أن ينالوا من الإمام منصور في قلعة أنابا على ساحل البحر الأسود، فخرَّ البطل شهيدًا في سبيل الله في عام 1794م بعد جهاد ضدَّ القيصرية الروسية دام ما يقرب من عشر سنين.[4]

عوامل التوسع الروسي في القوقاز

والحقيقة أنه كانت هناك عدَّة عوامل ساعدت على التوسع الروسي في آسيا الوسطى والقوقاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نلخصها في عاملين:[5]

عامل داخلي: حيث ركَّز القيصر نيقولا الأول (1825 - 1855م) جهوده للسيطرة على منطقة القوقاز، ولتحقيق هذا الغرض تمَّ بناء خطٍّ من الحصون محاصرة هذه القبائل والقضاء على مقاومتها، وبانتهاء حرب القرم[6] عام 1856م تمَّ تكثيف الحملات



العسكرية ضد الشيخ شامل، [7] حتى اضطر للاستسلام في عام 1859م، وكان القضاء على الشيخ شامل وثورته تأمينا للوضع العسكري في المنطقة، وتمهيدا للتقدم الروسي في خانات آسيا الوسطى التي كانت مجهولة تماما بالنسبة للدول الأوروبية والعالم الغربي.

ثم إن روسيا أرادت بعد هزيمتها في

حرب القرم من قبل فرنسا وبريطانيا أن تُعيد تحقيق الأجداد العسكرية، والانتصارات الروسية، ولذلك عمل ألكسندر الثاني (1855-1881م) على تقوية وتحديث الجيش الروسي، فأصدر في عام 1874م قانون الخدمة العسكرية.

وهذا فضلا عن رغبة الروس في نشر مذهبهم الأرثوذكسي، ومحاربة الخانات الإسلامية، وزعزعة العقيدة الإسلامية، وتأمين الحدود الجنوبية؛ حيث أدرك قياصرة الروس خطر الإسلام، وأنهم هم الورثة الحقيقيون للدولة البيزنطية، وحمّة المذهب الأرثوذكسي ودعائه!

(ب) ظروف دولية :

حيث كانت حرب القرم التي انهزمت فيها روسيا من أهم الأسباب التي قادتها إلى التوسع الجغرافي والعقائدي في وسط آسيا، وذلك أنها قضت على هبة روسيا دوليا ولفترة طويلة، وقضت لفترة على التوسع الروسي غربا، وبسببها تخلت روسيا مؤقتا عن فكرة تقسيم الخلافة العثمانية، ومن ثم نشطت للتوسع في آسيا الوسطى.

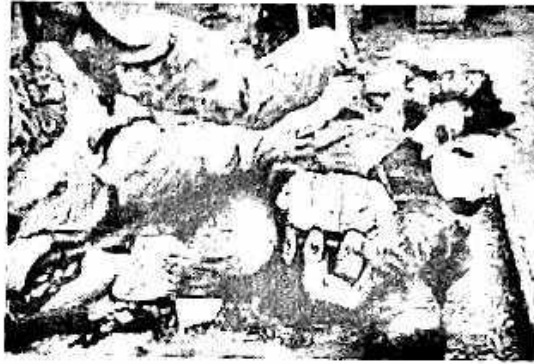
التدخل الروسي في شؤون الدولة العثمانية

على أن هذا الاتجاه قد قوّيَ بعد انتهاء الحرب الروسية التركية، والتي كانت قد نشبت بسبب انتهاز روسيا لنشوب ثورة في البوسنة والمهرسك ضد الحكم العثماني، فتدخلت لصالح الثوار، وعمّلت على إثارة رُوح العداة بين الطرفين، ثم دخلت الصرب والجبل الأسود في صراع مع الخلافة العثمانية في سنة 1876م، وانتهزت روسيا الفرصة وأعلنت ضرورة تدخلها لحماية مسيحي الخلافة العثمانية، وأثارت العواصم الأوروبية لذلك، فوجهت الدول الأوروبية عام 1877م إنذاراً جماعياً إلى الخلافة العثمانية، طالبت فيه بعقد صلح مع الجبل الأسود، وهو ما رفضته، فاشتعلت الحرب بينها وبين روسيا، انتهت بهزيمة الخلافة العثمانية عام 1877م؛ حيث عجزت عن مقاومة الجيوش الروسية، واضطر السلطان عبد الحميد الأول إلى قبول معاهدة سان ستيفانو سنة 1878م، [8] ولكنها قوبلت باعتراض الدول الأوروبية، فتم عقد مؤتمر برلين عام 1878م، الذي أبقى النفوذ الروسي في شرقي البلقان، مع وجود نمساوي في غربي البلقان.

وكان معنى تحديد النفوذ الروسي في شرق البلقان أن الطريق أصبح مغلقاً أمام الروس في البلقان لوجود النمسا في غربه، مما ساعد تزايد اتجاه روسيا نحو آسيا الوسطى.

ومن المهم هنا ألا نغفل أن فترة التوسع الروسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جاءت مواكبة لاتساع ونمو الاستعمار الأوروبي واتجاه الدول الأوروبية إلى التوسع في قارتي آسيا وأفريقيا، متذرعين بالمبادئ الإنسانية في آسيا وأفريقيا، ومتخذيين منها ستاراً لإخفاء دوافعهم، وهو ما لجأت إليه روسيا أيضاً؛ حيث أكد المسئولون الروس أن هدفهم من التوسع في آسيا الوسطى هو إدخال الحضارة المدنية إلى الشعوب الإسلامية!

وما كان من أمر فقد حقق الروس أهدافهم من التوسع، وتم إضافة مساحات كبيرة من الأراضي ومن الشعوب دخلت في نطاق الإمبراطورية الروسية، وقد أفادت روسيا كثيرًا من الثروات الاقتصادية لهذه المناطق، كما سيطرت على المراكز التجارية



المهمة مثل سمرقند وطشقند، ولجأت إلى نحو هوية مناطق الخانات، فقسّمت بعضهم إلى عدد من الوحدات الإدارية، وادّجت البعض الآخر، وأصبحت إدارة وسط آسيا تابعة لوزارة الحرب التي عيّنت حاكمًا عامًا عليها. [9]

وما يمكن تسجيله هنا أيضًا هو أن روسيا واجهت مقاومة إسلامية عنيفة من قبل حكام الخانات، كانت أقواها وأعنفها مقاومة التركمان في خيوة؛ حيث أدركت هذه الخانات خطورة الغزو الروسي، كما أدركت أن هذا التحدي ليس تحديًا عسكريًا فحسب، وإنما هو تحدٍ أخطر من ذلك بكثير، فهو تحدٍ حضاريّ هدفه القضاء على الحضارة الإسلامية وإحلال الحضارة الروسية محلّها، ومن ثمّ واجه الروس مقاومة عنيفة، لم يسعهم إلا التعبير عنها وعن زعمائها وقادتها بلفظ البرابرة. [10]

على أن الروس تمكنوا بفضل قوتهم العسكرية من إخضاع المنطقة، وقد لجئوا إلى استخدام القسوة من قتل وإرهاب وغيره، وخصّوا حركة التوسع أشخاصًا عرفوا بالمقدرة العسكرية، أمثال: بيرونسكي، وشوبيليف، ولوماكين، ممن يؤمنون بسياسة استخدام القوة العسكرية لتحقيق أحلام وأطماع روسيا التوسعية، وقد سعى هؤلاء الضباط لتحقيق أمجاد شخصية لهم، فسعوا لضمّ المزيد من الأراضي، وحثوا حكومتهم من خلال تقاريرهم العديدة على الغزو والتوسع. [11]

السياسات الروسية عقب الاحتلال

- هذا وقد انتهجت السياسة الروسية في آسيا الوسطى بعد احتلالها (1890 - 1917م) مجموعة من السياسات الاستعمارية، نُجْمِلُهَا فيما يلي: [12]
- 1) حركة استعمار واستيطان روسية بدأت بنزع الأراضي من أصحابها وإعطائها لأكثر من مليون ونصف المليون من المعدمين الروس.
 - 2) استيلاء البنوك الروسية على ما تبقى من أراضي الفلاحين في التركستان، بسبب عدم قدرتهم على سداد ما اقترضوه من البنوك.
 - 3) نُشر روسيا لثقافتها على الشعوب المحتلة؛ وذلك للقضاء على الوجود الإسلامي في دول آسيا الوسطى.
 - 4) إغلاق المدارس الوطنية وفتح المدارس الروسية، وفرض التدريس باللغة الروسية.
 - 5) إصدار بعض الصحف الدعائية التي تشيد بحكمهم، وكان من بينها صحيفة ولاية تركستان التي كان يقوم على تحريرها سترومون. [13]
 - 6) التبشير بالديانة المسيحية الأرثوذكسية على نطاق واسع؛ لتحويل المسلمين عن دينهم. [14]

الهوامش

- [1] المصدر السابق ص 128، 129.
- [2] محمود محروس قشقة: الاحتلال الروسي للجمهوريات الإسلامية، مؤتمر المسلمون في آسيا والقوقاز، جامعة الأزهر 28-30 سبتمبر 1993، المجلد الثاني ص 125، ومصطفى دسوقي كسبة: المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز ص 130، 131.
- [3] راجع في ذلك مصطفى دسوقي كسبة: المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز ص 131-133.
- [4] مصطفى دسوقي كسبة: الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين ص 78-81، ومحمود عبد الرحمن: تاريخ القوقاز ص 56-60.
- [5] انظر إلهام محمد ذهني: التوسع الروسي في خانات آسيا الوسطى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مؤتمر المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، المجلد الثاني ص 144.
- [6] حرب القرم هي حرب قامت بين روسيا والسلطنة العثمانية في 28 مارس عام 1853م، واستمرت حتى 1856م. ودخلت بريطانيا وفرنسا الحرب إلى جانب الخلافة العثمانية في 1854، فهزمت روسيا وعقدت معاهدة باريس في مارس عام 1856م التي أقرت روسيا على جزء من أراضيها لدولة مولدافيا، وفرض حياد البحر الأسود، وحرية الملاحة في نهر الدانوب.
- [7] الإمام المجاهد شامل وُلِدَ في 21/8/1797، وحمل شعلة الجهاد ضدّ الروس في منطقة الشيشان والقوقاز في القرن التاسع عشر، لكنه بعد حركة نشطة للجهاد، اضطر للاستسلام عام 1859م.
- [8] بمقتضى المعاهدة استولت روسيا على فارس وباخوم وأرضروم وأردهان بايزيد في آسيا وفي أوروبا بسارابيا ومصبّ الدانوب، ووضعت روسيا نظامًا جديدًا لمرور السفن في البسفور والدردنيل، رُويَ فيه تحقيق مصالحها التجاريّة والحربيّة، وفرضت غرامة كبيرة على الخلافة العثمانية، كذلك أدت هذه المعاهدة إلى استقلال الجبل الأسود مع استقلال رومانيا والصرب، ووضع البوسنة والهرسك تحت مراقبة روسيا والنمسا، كما أدت هذه المعاهدة إلى ظهور دولة بلغارية أكبر من اللازم، وكانت هذه الدولة ميّخَبَ قَطْرَ لروسيا، فتعاوننا معًا على الإجهاز على الخلافة العثمانية؛ لتصبح تحت التوجيه الروسي، فيصبح التوازن الدولي في المنطقة لصالح روسيا

بشكل حاد، وهو ما رفضته دول أوروبا. انظر مصطفى دسوقي كسبة: المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، هامش ص 141.

[9] راجع مصطفى دسوقي كسبة: المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز ص 133 - 144.

[10] المصدر السابق ص 144.

[11] إلهام محمد ذهني: التوسع الروسي في خانات آسيا الوسطى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مؤتمر المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، المجلد الثاني ص 167، 168.

[12] انظر كمال السعيد: الإسلام في آسيا الوسطى ورقة تاريخية ص 43، 44.

[13] تلميذ المستشرق الروسي المعروف ألكسكي.

[14] انظر مصطفى دسوقي كسبة: المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز ص 148، 149.





الفصل السابع عشر

آسيا الوسطى والاستعمار الروسي



الفصل السابع عشر

آسيا الوسطى والاستعمار الروسي

وضع الروس المنطقة تحت إشراف إدارة عسكرية تخضع لها حكومة عموم تركستان، على حين بقيت إمارة بخاري، وخانية خيوة تتمتعان باستقلال ذاتي، وأعفوا السكان من الخدمة العسكرية الإلزامية، وتركوهم يخضعون لتشريعاتهم وقوانينهم الخاصة. كما حاولوا عدم صهر السكان بالمجتمع الروسي، وعملوا على عزل تركستان وحمايتها من تأثير تثار الفولغا.

وكان وضع المنطقة يبدو عليه صفة الاستعمار من حيث التمييز ومحاولة استغلال السكان وأرضهم دون تقديم أية خدمات لهم، ولذا فقد بقي أصحاب النفوذ محافظين على عاداتهم وتقاليده وكرههم للروس، وتمسكهم بالإسلام.

وتأسس في طاشقند عام 1335هـ (1917م) حزب الشورى الإسلامية، ويدعو إلى الإسلام والانفصال عن روسيا، كما كان حزب الشباب البخاريين منذ عام 1327هـ (1909م) ويدعو إلى كره الروس وأمير بخاري الذي يرضى بحماية الروس، ويقتصر نشاط هذا الحزب على إمارة بخاري.

كانت الأحزاب ضعيفة التنظيم ولكنها مرتبطة بالإسلام على حين كانت برامجها الاجتماعية اشتراكية، الأمر الذي يدل على عدم الوعي الكامل بالإسلام.

وعندما قامت الثورة الشيوعية مع مطلع عام 1336هـ (1917م) سيطر الشيوعيون على الحكم في طاشقند، وساعدهم في ذلك المستوطنون الروس، جميعاً بصفتهم نصارى، فهم ضد المسلمين الذي يؤلفون غالبية سكان تركستان، وأبعد المسلمون نهائياً عن السلطة، وبعد شهر واحد عقد المسلمون مجلساً شعبياً في (خوقند)، وأعلنوا استقلال تركستان بينما بقيت طاشقند بيد الشيوعيين، وبعد أقل من ثلاثة أشهر تمكن الشيوعيون

من دخول خوقند، فهدموها، وعملوا بأهلها قتلاً، وبعد شهر آخر شن الشيوعيون هجوماً على أمير بخاري، ولكنهم فشلوا في هجومهم هذا رغم دعم حزب الشباب البخاريين لهم.

وحدثت حركة في وادي فرغانة، وانضم إليها أنور باشا، وزير خارجية تركية السابق، و (زكي والدي طوقان) أحد زعماء باشكيريا، ولقيت هذه الحركة دعماً من قبائل القيرغيز، والأوزبك، والترجمان، وعرفت هذه الحركة باسم البصمجية، وهو اسم أطلقتة الروس على هؤلاء المسلمين، ويعني اللصوص، واستطاع الجيش الأحمر دخول مدينة بخاري في مطلع عام 1339هـ (1920م) وقضى على الحركة بعد عامين، وقتل أنور باشا يوم عيد الأضحى عام 1340.

وقسم الروس المنطقة إلى الجمهوريات التالية:

1- جمهورية أوزبكستان:

وتأسست في مطلع ربيع الأول عام 1343هـ (1924م)، ثم ضمت إليها بخاري، وخوارزم، وفصلت عنها بلاد الطاجيك، وألحقت بها جمهورية كاراكولبايا. تبلغ مساحة هذه الجمهورية 408.000 كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها 15.391.000 نسمة حسب إحصاء عام 1399هـ (1979م)، وعاصمتها مدينة طاشقند التي بلغ عدد سكانها 1.785.000 نسمة، وتعد رابع مدينة سكاناً في الإمبراطورية كلها بعد موسكو، لينغراد، وكيف.

ويتألف السكان من المجموعات التالية:

الأوزبك	ويبلغ عددهم	10.569.000	ويشكلون نسبة	68.7% من السكان
التتار	ويبلغ عددهم	649.000	ويشكلون نسبة	4.3% من السكان
القالزاق	ويبلغ عددهم	620.000	ويشكلون نسبة	4.0% من السكان

الطاجيك	ويبلغ عددهم	95.000	ويشكلون نسبة	3.9٪ من السكان
الكاراكلباك	ويبلغ عددهم	298.000	ويشكلون نسبة	1.9٪ من السكان
القرغيز	ويبلغ عددهم	142.000	ويشكلون نسبة	0.9٪ من السكان
التركمان	ويبلغ عددهم	92.000	ويشكلون نسبة	0.6٪ من السكان
مجموعات أخرى	ويبلغ عددهم	381.000	ويشكلون نسبة	2.6٪ من السكان
	ويبلغ عددهم	13.526.000	ويشكلون نسبة	86.8٪

وهم من المسلمين السنة، وتوجد بينهم مجموعة من الشيعة، يقدر عددها بمائة ألف، ويعيش أتباعها في كل من سمرقند، وطاشقند، وبخاري. ويقسم الأوزبك عادة في الريف.

أما الباقي فهم من المستعمرين النصارى إضافة إلى الكوريين، ويقومون عادة في المدن ويتوزعون كما يلي:

الروس	ويبلغ عددهم	1.666.000	ويشكلون نسبة	10.8٪ من السكان
الأوكرانيون	ويبلغ عددهم	163.000	ويشكلون نسبة	1.1٪ من السكان
الكوريون	ويبلغ عددهم	114.000	ويشكلون نسبة	0.7٪ من السكان
		1943.000		12.6٪

ثم يوجد اليهود ويبلغ عددهم 100.000 ويشكلون نسبة 0.6٪. ويتكلم الأوزبك اللغة الأوزبكية، وهي من المجموعة التركية، وكانت تكتب بالحرف العربي، ثم استبدل به الحرف اللاتيني عام 1346هـ (1928م).

وتتبع أوبكستان جمهورية (كاراكلباكيا) ذات الاستقلال الذاتي والتي تبلغ مساحتها 165.000 كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها حسب إحصاء عام 1399هـ (1979م) ما يقدر بمليون تقريباً (905.000)، ويشكل المسلمون بينهم 95٪، بينما يشكل الروس 2.3، وعاصمتها مدينة (نوخوس) التي تقع على نهر جيحون عند بداية تفرعه قبل مصبه في بحيرة خوارزم.

2- جمهورية طاجيكستان:

وتأسست في 12 ربيع الأول عام 1343هـ (1924م)، ثم أضيف إليها قسم من هضبة بامير، وهو إقليم (باداخشان) ذو الحكم الذاتي. تبلغ مساحة الجمهورية 143.000 كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها 3.806.000 حسب إحصاء 1399هـ (1979م)، وعاصمتها مدينة (دوشامبي) التي بلغ عدد سكانها في العالم نفسه 493.000، ويتألف سكان الجمهورية من المجموعات التالية:

الطاجيك	ويبلغ عددهم	2.237.000	ويشكلون نسبة	58.5٪ من السكان
الأوزبك	ويبلغ عددهم	873.000	ويشكلون نسبة	23.0٪ من السكان
التتار	ويبلغ عددهم	80.000	ويشكلون نسبة	2.2٪ من السكان
القرغيز	ويبلغ عددهم	48.000	ويشكلون نسبة	1.2٪ من السكان
التركمان	ويبلغ عددهم	14.000	ويشكلون نسبة	0.3٪ من السكان
		<hr/>		
		3.252.000		85.2٪

وهم من المسلمين السنة، وتوجد جماعات من الشيعة أكثرها من عنصر الطاجيك، ويكثرون في العاصمة (دوشامبي)، وبعض المدن، كما توجد جماعة من الإسماعيلية الزارية من أتباع آغا خان، ويسكنون إقليم (باداخشان) في بامير.

أما النصارى فهم المستعمرون الدخلاء وهم:

الروس	ويبلغ عددهم	395.000	ويشكلون نسبة	10.5٪ من السكان
الأوكرانيون	ويبلغ عددهم	36.000	ويشكلون نسبة	1.0٪ من السكان
		<hr/>		
		431.000	<hr/>	
			11.5٪	

ويوجد عدد من اليهود يبلغ عددهم 15.000 ويشكلون نسبة 0.4٪ من السكان. أما اللغة الطاجيكية فهي فارسية، وكانت بالحرف العربي حتى عام 1358هـ (1939م)، وبعدها أصبحت تكتب بالحرف الكيريلي. ولكن شعوب البامير يتكلمون لغة إيرانية. ويتبع طاجيكستان منطقة باداخشان ذات الحكم الذاتي، وتبلغ مساحتها 63.700 كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها 127.000 حسب إحصاء 1399هـ (1939م)، ويتألف السكان من المجموعات التالية:

115.000 من الطاجيك، و 8.500 من القيرغيز، و 1.780 من الروس، وفيها الإسماعيلي التزاريون.

3- جمهورية قيرغيزيا:

وأصبحت جمهورية اتحادية منذ عام 1355هـ (1936م)، وكانت من قبل جزءاً من جمهورية روسيا الاتحادية أي مرتبطة بموسكو، ثم منطقة ذات حكم ذاتي، تبلغ مساحتها 197.000 كيلو متر مربع ويبلغ عدد سكانها 3.529.000 نسمة حسب إحصاء 1399هـ (1979م)، ويتألف السكان من المجموعات التالية:

القيرغيز	ويبلغ عددهم	1.687.000	ويشكلون نسبة	47.9٪ من السكان
الأوزبك	ويبلغ عددهم	912.000	ويشكلون نسبة	25.9٪ من السكان
التتار	ويبلغ عددهم	72.000	ويشكلون نسبة	2.0٪ من السكان

الأويغور	ويبلغ عددهم	30.000	ويشكلون نسبة	0.8% من السكان
القاзақ	ويبلغ عددهم	27.000	ويشكلون نسبة	0.8% من السكان
الطاجيك	ويبلغ عددهم	23.000	ويشكلون نسبة	0.7% من السكان
<hr/>				
				77.4% من السكان
				2.728.000

أما النصارى وهم من المستعمرين الدخلاء وهم:

الروس	ويبلغ عددهم	712.000	ويشكلون نسبة	20.3% من السكان
الأوكرانيون	ويبلغ عددهم	89.000	ويشكلون نسبة	2.3% من السكان
<hr/>				
				801.000

وعاصمة البلاد هي مدينة (فرونزي).

4- جمهورية تركمانستان:

يتسمى التركمان إلى قبيلة الأوغوز التركية، وهم شعب محارب، قاتلوا دولة إيران الشيعية مدة قرن من الزمن، ووقفوا في وجه خانية خوارزم، وصارعوا الروس ودمروا في قلعة (كوب تيب) عام 1297هـ (1897م)، وبعد هزيمتهم أمام الروس تعرضوا لمجازر رهيبية عام 1299هـ (1881م).

اشترك التركمان في حركة البصمجية 1335-1340هـ (1917-1922م)، وتمردوا هم ضد الروس من 1345-1350هـ (1927-1932م). ويشترك التركمان في طريقة عيش واحدة، وكلمة مسلم تستعمل عندهم للدلالة عليهم، فهناك مزج بين الدين والعنصر.

الفصل الثامن عشر

المرأة ومظاهر الحياة العامة في آسيا الوسطى



الفصل الثامن عشر

المرأة ومظاهر الحياة العامة في آسيا الوسطى

شاركت المرأة في آسيا الوسطى في الحياة الاجتماعية العامة، فهي جزء لا يتجزأ من المجتمع، سواء كانت من نساء قصر الملك، أو من النساء العاديات في المجتمع، وقد قامت بدور بارز فيما امتلكت من ثروات وأموال، وعقل متفتح، وفكر صائب.. وهكذا.

مجالس الوعظ:

كثرت مجالس الوعظ في آسيا الوسطى، إذ انتشرت في كافة المناطق بها، فالواعظ يقوم بشرح وتفسير آيات من القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وكافة المسائل الدينية العامة، ويعظ الناس في شئونهم العامة.

ولما كان من الضروري منع الرجال من الاختلاط بالنساء في المجالس، حتى لا يؤدي وجودهم إلى الفتنة، وانشغال النساء عما يقال من مسائل دينية، لذا انفردت النساء بمجالس للوعظ خاصة بهن، اتخذت طابعاً خاصاً بأن تكون الواعظة سيدة متفهمة زاهدة صالحة متدينة، والملبس محتشماً، لذا خصصت لنساء القصور مجالس كن يعقدنها في أماكن خاصة بهن، فلم يكن يمر يوم دون عقد هذه المجالس، فكان هناك مجالس وعظ قامت بها نساء عدة، أمثال: السيدة أم كلثوم بنت إبراهيم بن هزاز، في مدينة جرجان، والسيدة ميمونة بنت علي بن عبد الله الواعظة الشاهجانية، والسيدة فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن فضلون الرازي، وأيضاً السيدة جليلة بنت علي بن الحسن بن علي الشحري، التي كان لها طابع خاص في وعظها.

مجالس الغناء:

لقد اكتسبت المرأة شهرة كبيرة في ضروب الطرب والغناء، حتى صار الغناء ضرورة من ضروريات الحياة لا يعيشن بدونها، سواء في قصور الحكام، أو في خانات اللهو والمجون، وكانت المرأة تهتم بملابسها، وترتدي أبهى حللها في هذه المجالس، ولم تقتصر حفلات الغناء والمرح على إقامة الأفراح، وحفلات الزفاف، بل تعدتها إلى استقبال السلاطين والرسل على أبواب العاصمة، وللتعبير عن مدى أهمية الغناء، فقد استعملوه في الحروب، فكانوا يضعون المغنيات خلف جيوشهم، للإعلان عن فرحة النصر بالغناء، ومن عادة أهل هذه البلاد في أفراحهم أن تعقد مجالس الغناء، حيث يأتي المغنون يغنون بالدفوف والطبول، وتقوم النساء بالرقص بين يدي الزوجين، كذلك شغفت بعض نساء القصور بالغناء والموسيقى، فكانت تركان خاتون تعقد مجالس الأدب والموسيقى في قصرها الخاص، مما أثر على رواج سوق الغناء والطرب رواجًا كبيرًا، وقد وقع العديد من الأغنياء في غرام المغنيات، لما تتمتع به من صوت رخيم، وجمال الشكل، ولذا بذلوا لها الكثير من الممتلكات والأراضي الزراعية.

وبناء على ذلك، فقد رأى بعض الفقهاء في هذه العصور ضرورة القضاء على خانات الغناء والرقص، وإغلاق مواخير الشرب، حتى لا تنتشر الرذيلة، ويتفشى الزنا، ولما يتج عنها من مفاسد وفتن وهو وعريضة، وغيرها من الموبقات الاجتماعية.

المآتم ومجالس العزاء:

شاركت المرأة في نوع آخر من أنواع المناسبات الاجتماعية، وهو المآتم والعزاء في المتوفى ذكرًا كان أم أنثى، فلم تقتصر هذه المجالس على الرجال وحدهم، بل تعدته إلى مشاركة النساء، وقد كانت كلمة 'يُوغ' هي المصطلح القديم، ومعناه ذكرى المتوفى، وكانت العادة المتبعة في كثير من الأحزان، أنه عند وفاة شخص عزيز أن تتبعه النساء، وتقمّن

بالنواح خلف الجنازة، ويلطمن الحدود حتى مكان المقابر، ويرفعن صوتهن بالنواح، تتقدمهن سيدة عجوزة تسمى نائحة، تقوم بهذه الأفعال، وتردد باقي النساء مثل ما تقول.

ومن العادات المعروفة في المآتم، أن تقدم بعض السيدات الأطعمة لأسرة المتوفى، ويسمى هذا واجب العزاء، وكثيراً ما شارك قصر الخلافة في هذا الواجب؛ نظراً لمكانة المتوفى ومنزلة عائلته، وهناك مجتمع آخر من مجتمعات آسيا الوسطى يختلف فيه حزن المرأة، فهي تعيش في حداد تام، ومآتم قائمة، فليس لها الحق أن تتزوج بعد أن يموت زوجها، فإما أن تبقى أرملة طول حياتها، وإما أن تحرق نفسها، وهو أفضل حال، لأنها تبقى في عذاب مدة عمرها، كذلك جرت العادة عندهم عند وفاة أحد الملوك، أو كبار القوم، أن تدفن مع المتوفى إحدى نسائه أو جواريه، بشرط أن تدفن على قيد الحياة، ولهم طقوس خاصة في عملية الدفن هذه.

المرأة والمنشآت المعمارية:

لم يقتصر بناء القصور الفخمة والمنشآت الخيرية التعليمية كالمدارس والكتاتيب والمساجد على الرجال من الحكام والسلاطين فحسب، بل شيدت النساء في آسيا على مدى القرون عدة مبان كانت مضرب المثل في الروعة والجمال، وحرصن على أن تحاكي المباني والمنشآت التي أقامها أندادهم من الرجال، سواء من حيث فخامة البناء، أو مساحة المبنى، أو تزيينه بنفس الرسوم الزخرفية، وتأسيسه بأفخر المفروشات، وكذلك خصصوا النفقات العالية لإقامة الأربطة المختلفة، ومن العادة أنه إذا تكاملت عمارة مبنى، أو مؤسسة جديدة تفرش بالفرش الجديدة، والأثاث الرائع، وتستدعي صاحبة البناء مقرئ القرآن والفقهاء والمتصوفة لتلاوة القرآن الكريم على مدى ثلاثة أيام متتالية؛ للتبرك بالذكر الحكيم، وابتهاجاً بالمبنى الجديد، هذا بالإضافة إلى مد الأسطة والولائم طوال هذه الفترة.

وصفوة القول، فإن المرأة في آسيا الوسطى لعبت دورًا بارزًا، وشاركت مشاركة فعالة في الحياة العامة والاجتماعية، سواء أكانت من سيدات القصور، أم من النساء العاديات، وظهر دورها بصورة واضحة كمغنية في مجالس الغناء والرقص، وكمثدينة في مجالس الوعظ والإرشاد، أو سيدة مكلومة في المآتم والحداد، أو سيدة إنتاج في المنشآت المعمارية.

الفصل التاسع عشر

"إسرائيل" ودول آسيا الوسطى مصالح متبادلة أم استغلال صهيوني



الفصل التاسع عشر

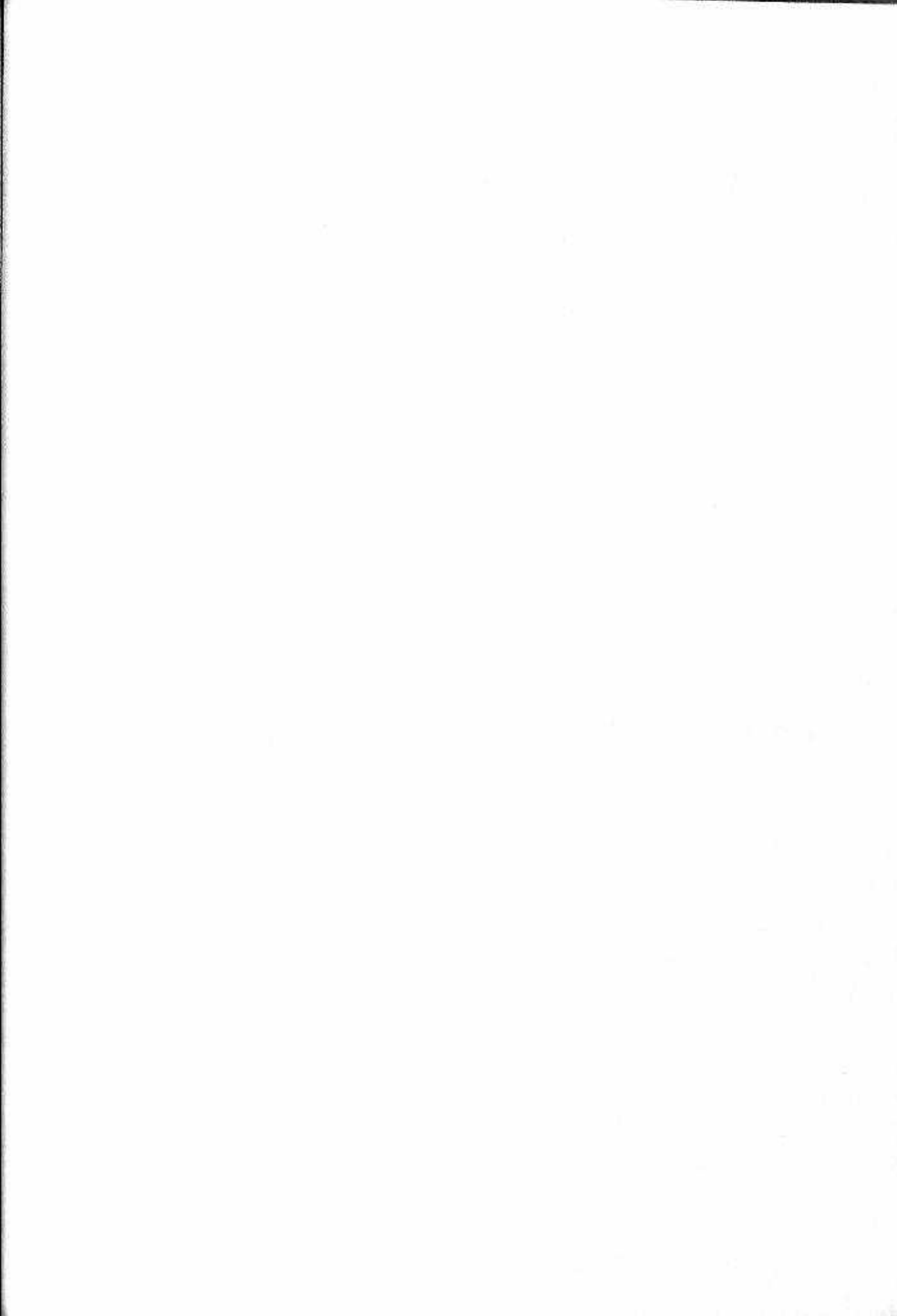
"إسرائيل" ودول آسيا الوسطى مصالح متبادلة أم استغلال صهيوني

تتمتع منطقة آسيا الوسطى المكونة من: كازاخستان، أوزبكستان، طاجيكستان، تركمانستان، قرغيزستان بأهمية استراتيجية وجيوسياسية كبيرة، وخاصة للمنطقة العربية؛ إذ تعد المنطقة امتدادًا طبيعيًا للأمن القومي العربي، فضلاً عن ثرواتها الثمينة، سواء فيما يتعلق بإنتاجها من النفط أو المنتجات الزراعية.

ورغم هذه الأهمية إلا أن مستوى العلاقات بين المنطقة والمحيط العربي مازال ضعيفًا، والحضور العربي هناك باهت جدًا، ولم يخرج عن إطار دبلوماسي في بعض البلدان هناك، وحتى التمثيل الدبلوماسي هناك لا يقوم بدور التقارب، وتعميق العلاقات بالقدر المطلوب.

ولم يتضح بعد لماذا هذا الحضور العربي الباهت في منطقة لها علاقات تاريخية وثقافية متشابهة ومترابطة، ومنطقة أمدت هذا العالم بكنوز حضارية وثقافية لم تتكرر تاريخيًا، بل وأمدته أيضًا بكوكبة من العلماء كان لهم دور كبير في تأصيل العلوم المختلفة من حديث وطب وفلك وأدب... إلخ.

ومن الأمور الخارجية التي تعمل على إبعاد المستثمر العربي، أو تحجم تواجده هناك السياسات الغربية والإسرائيلية في المنطقة، والتي تنحصر في التواجد الأمريكي المبكر، والسعي الإسرائيلي لتثبيت الأقدام هناك بمساعدة أمريكية معروفة مهدت الطريق للشركات الإسرائيلية، وعقدت الاتفاقيات بين هذه الدول، وعلى رأسها إسرائيل، وبين المنطقة فجر استقلالها، بسبق معروف وملحوظ للحضور العربي؛ ما جعل المنطقة، آسيا الوسطى، ترتبط أكثر وتتقرب إلى إسرائيل التي ساعدتها - من وجهة نظرها - اقتصاديًا في بدايات الاستقلال.



الفصل التاسع عشر

"إسرائيل" ودول آسيا الوسطى مصالح متبادلة أم استغلال صهيوني

تتمتع منطقة آسيا الوسطى المكونة من: كازاخستان، أوزبكستان، طاجيكستان، تركمانستان، قرغيزستان بأهمية استراتيجية وجيوسياسية كبيرة، وخاصة للمنطقة العربية؛ إذ تعد المنطقة امتدادًا طبيعيًا للأمن القومي العربي، فضلًا عن ثرواتها الثمينة، سواء فيما يتعلق بإنتاجها من النفط أو المنتجات الزراعية.

ورغم هذه الأهمية إلا أن مستوى العلاقات بين المنطقة والمحيط العربي مازال ضعيفًا، والحضور العربي هناك باهت جدًا، ولم يخرج عن إطار دبلوماسي في بعض البلدان هناك، وحتى التمثيل الدبلوماسي هناك لا يقوم بدور التقارب، وتعميق العلاقات بالقدر المطلوب.

ولم يتضح بعد لماذا هذا الحضور العربي الباهت في منطقة لها علاقات تاريخية وثقافية متشابهة ومرتبطة، ومنطقة أمدت هذا العالم بكنوز حضارية وثقافية لم تتكرر تاريخيًا، بل وأمدته أيضًا بكوكبة من العلماء كان لهم دور كبير في تأصيل العلوم المختلفة من حديث وطب وفلك وأدب... إلخ.

ومن الأمور الخارجية التي تعمل على إبعاد المستثمر العربي، أو تحجم تواجده هناك السياسات الغربية والإسرائيلية في المنطقة، والتي تنحصر في التواجد الأمريكي المبكر، والسعي الإسرائيلي لتثبيت الأقدام هناك بمساعدة أمريكية معروفة مهدت الطريق للشركات الإسرائيلية، وعقدت الاتفاقيات بين هذه الدول، وعلى رأسها إسرائيل، وبين المنطقة فجر استقلالها، بسبق معروف وملحوظ للحضور العربي، ما جعل المنطقة، آسيا الوسطى، ترتبط أكثر وتقترب إلى إسرائيل التي ساعدتها - من وجهة نظرها - اقتصاديًا في بدايات الاستقلال.

إسرائيل.. حضور دائم وقوي

أدى هذا الغياب العربي عن هذه المنطقة الهامة، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي إلى فتح الباب على مصراعيه لإسرائيل، في اختراق المنطقة من خلال إقامة مشروعات عملاقة، وتقديم مساعدات اقتصادية وعسكرية، وتكثيف الزيارات الرسمية في سباق مع الزمن لتثبيت أقدامها في مشروعات استثمارية قوية وصلت لحد الهيمنة في أهم المجالات مثل: الطاقة النفط والغاز الطبيعي، خاصة أن هذه المنطقة غنية جداً بمصادر الطاقة، ولها تصنيفات عالمية في استخراج النفط والغاز الطبيعي.

ولم تكف إسرائيل بمجرد تواجد استثماري يشمل عدة شركات، لكنها سعت جاهدة إلى تواجد حقيقي ورسمي يسمح لها بتنفيذ أجنحتها فيما بعد على كافة المستويات، ولتثبيت هذا التواجد أخذت حكومتها بعض الإجراءات، ومنها:

1- تنظيم هجرات يهودية من بعض تلك الجمهوريات إلى إسرائيل لاستغلال الموروث الديني في بناء جسور من العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

2- تبادلت إسرائيل العلاقات على المستوى الرسمي، والتي بدأت بقيام الوفود الحكومية في إسرائيل بزيارات لتلك الدول، وتوقيع الاتفاقيات الاقتصادية معها لتفتح الطريق أمام الشركات الإسرائيلية لغزو تلك الجمهوريات.

3- ولم تكن هذه الاتفاقيات مجرد أوراق تنسى مع الزمن كعادة الوضع العربي، لكنها- الحكومة الإسرائيلية- أنشأت غرفة للتجارة والصناعة، خاصة فقط بالعلاقات مع دول آسيا الوسطى.

4- بل وأنشأت بنك المعلومات الاقتصادية، ودليلاً للمجالات التي يستطيع الإسرائيليون الاستثمار فيها.

5- سنت قوانين حماية تلك الاستثمارات، والإعفاءات الجمركية، والازدواج الضريبي وغيرها.

كل هذا عمل على جذب الشركات الإسرائيلية ومعها- طبعًا- الأفراد اليهود من دول كثيرة لتلك الجمهوريات، واستطاع رجال الأعمال هؤلاء فتح مؤسسات ومكاتب تجارية تشتري وتبيع وتستثمر في كل مجال تطله أيادها، وتركز هذه الشركات أعمالها في مجالات هامة وحيوية- كما ذكرنا- ومن أهمها: الطاقة (النفط والغاز الطبيعي)، المعادن والثروة الباطنية، والزراعة والثروة الحيوانية، والصناعة، والاتصالات، والبنوك والأنظمة المالية والمصرفية، والإدارة والتنمية البشرية، والطب والرعاية الصحية، والفضاء والأبحاث العلمية وغيرها، وخلال سنوات قليلة جدًا ارتفع حجم التبادل التجاري بين تلك الدول وإسرائيل، وظل هكذا في ازدياد حتى اليوم، وأصبح هناك تناسب طردي كلما انسحب المستثمر العربي تواجد نظيره الإسرائيلي بقوة وباستراتيجية مستقبلية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد الاقتصادي فقط، لكن تم تنفيذ الأجنحة الصهيونية المعروفة الأهداف والاستراتيجيات، فهي لم تأت من أجل حفنة بترول ومعادن، بل الدور الأساسي الذي يساعد فيه جميع اليهود هو البعد العسكري الذي يصاحبه بعدًا استخباراتيًا، لاسيما وأن المنطقة قريبة من إيران العدو التاريخي لإسرائيل.

وساعد على هذا التواجد الاستخباراتي والعسكري ما قامت به الإدارة الأمريكية من حروب ضد ما أسمته الإرهاب أو الأصولية الإسلامية، ما عمل على توفير مظلة جديدة لإطلاق يد الكيان الصهيوني في نشاط عسكري استخباري محموم في آسيا الوسطى، في وقت بدأت فيه واشنطن بتأسيس قواعد عسكرية في أوزبكستان وغيرها من هذه الدول ضمن استراتيجية تستهدف توسيع الهيمنة الأمريكية في آسيا وبسط نفوذها، واستكمال حلقات السيطرة والهيمنة العالمية.

استراتيجية التغلغل.. أوزبكستان نموذجًا

كما لاحظنا أن إسرائيل اهتمت منذ وقت مبكر باختراق دول آسيا الوسطى بأكملها، وكانت لديها استراتيجية متكاملة، لذلك تعتمد على التركيز في المرحلة الأولى على التغلغل الاقتصادي من خلال رجال الأعمال الصهاينة من شتى الجنسيات من جهة، وتقديم إسرائيل نفسها كوسيط نشيط لجذب رؤوس الأموال الغربية والأمريكية إلى تلك البلدان، وفتح أبواب واشنطن وغيرها من العواصم الغربية أمامها من جهة أخرى.

والتاريخ يثبت ذلك، فمثلاً: بعد أقل من ثلاثة أشهر على انهيار الاتحاد السوفيتي كانت إسرائيل قد نظمت في العاصمة الأوزبكية طشقند أول مؤتمر اقتصادي مشترك بينها وبين دول آسيا الوسطى في مارس 1992؛ لبحث احتياجات تلك الدول من المشروعات والمساعدات الاقتصادية، والدور الذي يمكن أن تقوم به الدولة الصهيونية في تليتها، وخلال الشهور والأعوام التالية كانت هذه المشروعات قد بدأ يجري تنفيذها بالفعل، وبالنسبة لأوزبكستان، فقد قام رئيسها، إسلام كريموف، بزيارة إلى إسرائيل في أكتوبر عام 1992، وقد تم الاتفاق على تطوير التعاون بين البلدين في شتى المجالات، وشملت المشروعات المشتركة في المجالات الحيوية التي ذكرناها سابقاً، وساهم فيها رجال الأعمال الجدد من يهود أوزبكستان.

وتم افتتاح فرع للوكالة اليهودية (سحتوت) في العاصمة الأوزبكية طشقند لتنظيم هجرة اليهود الأوزبك إلى إسرائيل، وكان عدد هؤلاء يبلغ نحو (120) ألفاً، وتم بالفعل تهجير أكثر من سبعين ألفاً منهم، كما تم افتتاح مركز ثقافي صهيوني في طشقند يعمل بنشاط على الترويج للثقافة والأفكار الصهيونية بين اليهود وغيرهم من مواطني أوزبكستان، فضلاً عن تعليم اللغة العبرية.

وهكذا كانت إسرائيل تحقق تغلغلاً سياسياً واقتصادياً وثقافياً متزايد الاتساع والعمق في أوزبكستان طوال التسعينيات، وضع أساساً قوياً لقيام تعاون أمني واسع النطاق في النصف الثاني من العقد المنصرم وبرعاية أمريكية، غير أن الكثير من جوانب

هذه العلاقات ظل طي الكتمان إلى أن بدأت تتكشف في الآونة الأخيرة، والحقيقة لا نلوم على هذه الدول بقدر ما نلوم على السياسات العربية في تعاملها، وتعاطيه مع مثل هذا التواجد الصهيوني في منطقة تعتبر امتدادًا تاريخيًا وثقافيًا للعالم العربي الإسلامي.

عوامل ساعدت على التغفل

وقد كانت هناك العديد من العوامل التي سهلت من مهمة إسرائيل في اختراق اقتصاديات مجموعة دول آسيا الوسطى، ولجمل هذه العوامل في:

- مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية، وترحيبها بالدور الصهيوني في آسيا الوسطى، وتدعيمه سياسيًا وماديًا؛ لأن هذا الدور يخدم مصالحها، في الهيمنة على المنطقة كخلفية من خلفيات الاستراتيجية الأمريكية الهادفة لمحاولة الهيمنة على العالم.

- عدم وجود عداة تاريخي بين إسرائيل ومنطقة آسيا الوسطى، ما يجعل إمكانات التعاون المشترك بين المنطقتين ممكنًا جدًا، ولا غبار عليه.

- غياب الدور العربي، والإسلامي عن المنطقة، ما جعلها فريسة سائفة للمستثمر والسياسي الصهيوني، خاصة أن هذا الغياب مازال مستمرًا وحتى الحضور هو باهت جدًا، كما أسلفنا.

- ضعف الهيكل الأمني والسياسي والاقتصادي للمنطقة، ما شكل الفرصة الذهبية السالحة أمام إسرائيل في زيادة تقاربها مع الدول، سواء من حيث التعاون العسكري أو الاستثمارات الاقتصادية، أو تزويدها بالمعونة الفنية التي هي في أمس الحاجة إليها، كما أن البعثات التدريبية يمكن أن تساهم في وجود صهيوني في المنطقة؛ لأن هذه الدول تحتاج إلى متخصصين في الاقتصاد والقانون والإدارة المالية وغيرها من المجالات، ويمكن لهذه البعثات أن تكون خير سفير لدولة الكيان في منطقة القوقاز وآسيا الوسطى.

- التقارب الإسرائيلي - التركي الذي مهد الطريق لدخول تل أبيب بقوة إلى الساحة الآسيوية، خاصة أن أنقرة لديها علاقات قوية مع هذه الدول، إذ تقوم الدولة العبرية ببيع منتجاتها العسكرية التي يتم تصنيعها وتجميعها في تركيا إلى جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية السابقة ودول جنوب القوقاز (أذربيجان وجورجيا)، وكذلك أرمينيا.

وشكل هذا التقارب أيضاً التمهيد الأول الواضح والصريح لإسرائيل في تلك المنطقة، وخاصة في كازاخستان التي تمتلك ما يقارب ربع احتياطي العالم من اليورانيوم الخام، مما دفع إسرائيل إلى النظر لهذه الثروة على أنها من الثروات المهددة نووياً في ظل وجود دول وتيارات إسلامية في تلك المنطقة، فسعت إسرائيل مباشرة إلى شراء مجمع لمعالجة اليورانيوم في كازاخستان، والذي يُعدّ من أكبر مجمعات اليورانيوم في العالم.

- الفراغ الذي أحدثه الانهيار المفاجئ للاتحاد السوفيتي، وسارعت إلى الاعتراف بدول آسيا الوسطى، وركزت خلال المرحلة الأولى من تاريخ علاقاتها بتلك الدول على الجانب الاقتصادي، وسعت إلى السيطرة على مقومات دول آسيا الوسطى الاقتصادية كمرحلة أولى، ثم ربط اقتصادياتها بالاقتصاد الإسرائيلي، مما يجعل انفصاله عنه صعباً للغاية إن لم يكن مستحيلاً، لذلك لا توفر إسرائيل أي فرصة للالتفاف الاقتصادي على تلك الدول.

تأثير الثورات على التواجد الإسرائيلي

ومؤخراً اندلعت موجة ثورات عربية أسقطت أنظمة، ومنها ما هو ما زال قائماً في الشارع، ولا شك أن هذه الثورات بزخمها الموجود أثرت على السياسة الإسرائيلية على الأقل في الشرق الأوسط، ولكن هل يمكن لهذا التأثير أن يمتد إلى علاقات إسرائيل الدولية بالمناطق الأخرى البعيدة عن العالم العربي، ومنها علاقاتها بآسيا الوسطى.

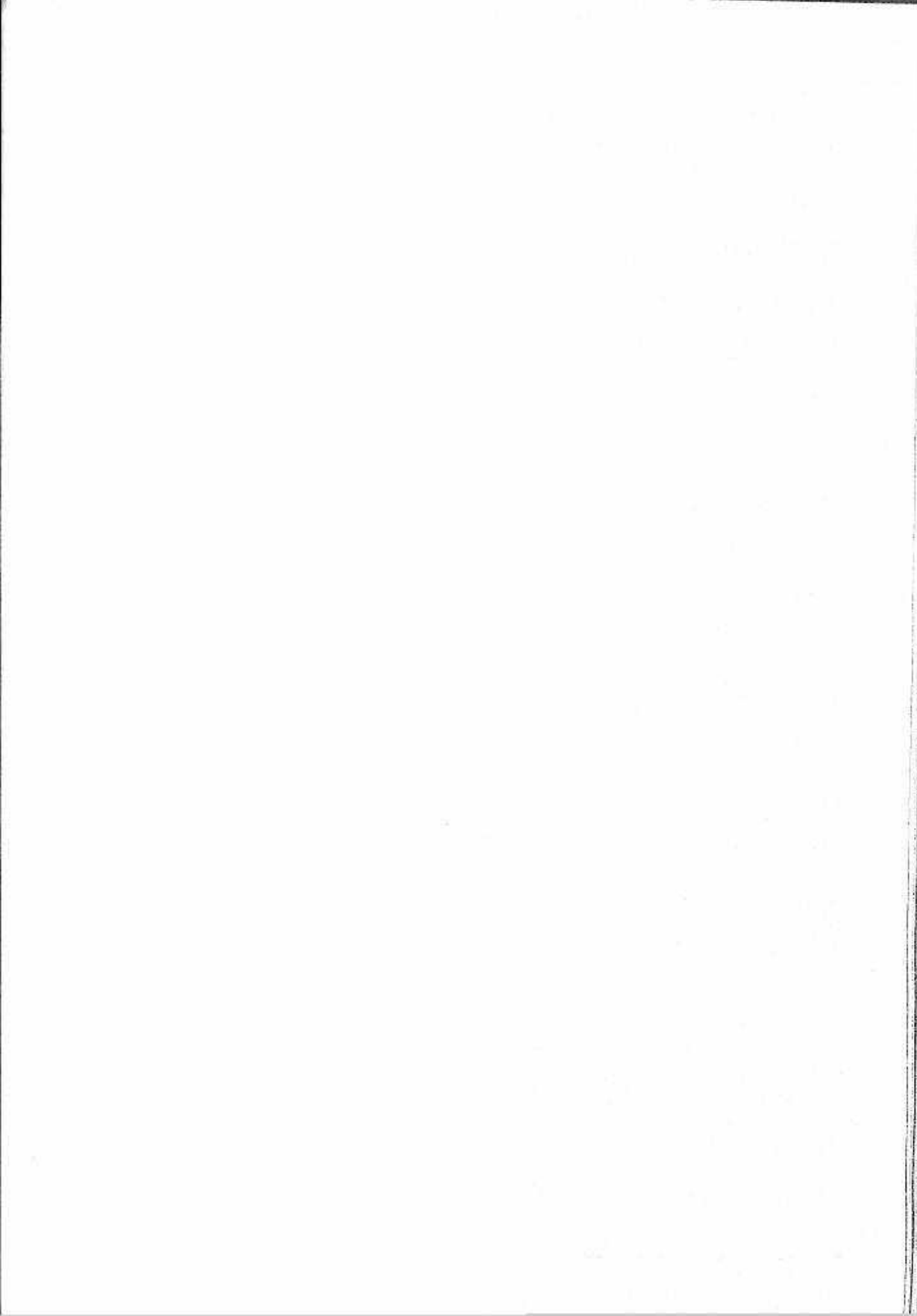
أرى أن هذه الثورات ستؤثر على علاقات إسرائيل بآسيا الوسطى على الأقل على المستوى السياسي لانشغال إسرائيلي بقراءة جديدة لتاريخ المنطقة العربية بعد الثورات، وإسقاط أنظمة كانت حليفة لتل أبيب، وطالما مكنت لمشروعاتها على أرضها، ما يجعله تغض الطرف بعض الوقت عن منطقة كآسيا الوسطى ليس لها أهمية بالنسبة لإسرائيل كما هي المنطقة العربية، أما على الجانب الاقتصادي لا أظن ستؤثر مثل هذه الثورات على التواجد الاستثماري هناك لانفصال رجال الأعمال- نوعاً ما- عن الأجندة السياسية، وتغليب البراجماتية عن الإشكاليات السياسية.

لكن يمكن أن تتأثر العلاقات، بل وتقطع أيضاً على كافة تنوعاتها السياسية والاقتصادية إذا اندلعت ثورات في منطقة آسيا الوسطى على أيدي الإسلاميين الذين تتفق أيديولوجياتهم جميعاً على كراهية إسرائيل، واعتبارها كياناً غاصباً يجب إبعاده من المنطقة، وهنا لا تستطيع إسرائيل فرض نفسها كعادتها حتى لو ساعدتها الإدارة الأمريكية؛ لأن السلطة وقتها ستكون مع الشعب الذي يدين أغليته بالإسلام.

وخلاصة القول: إنه لولا الغياب العربي البائن ما استطاع اللوبي الصهيوني أن يمد نفوذه في هذه المنطقة، ما يؤكد ضرورة التحرك على المستويين العربي والإسلامي لإنقاذ هذه المنطقة من تمدد السرطان الإسرائيلي الذي يتذرع بالعلاقات الاقتصادية.

لذلك، فإنه من أجل مواجهة ذلك المخطط الصهيوني الخاص بالسيطرة على دول آسيا الوسطى وغيرها من بلدان العالم الإسلامي، ميتعين على الدول العربية مجتمعة إيجاد استراتيجية أمن قومي، أو مشروع قومي عربي، باعتبار أن وجود مثل ذلك المشروع الآن يمثل ضرورة وجود وبقاء.

فهذا التغلغل الصهيوني لا يقصد من علاقاته هذه نهب الثروات فقط، بل يسعى لقتل الهوية القومية والإسلامية في نفوس أبناء هذه الدول، ولا بد للدور العربي أيضاً ألا يتوقف عند حد الحماسة والعاطفة فحسب، بل لا بد أن تكون هناك تحركات مدروسة ومخططة لتوثيق العلاقات مع هذه الدول، وخاصة الاقتصادية والاستثمارية.



الفصل العشرون

الحكايات الملحمية في آسيا الوسطى





الفصل العشرون

الحكايات الملحمية في آسيا الوسطى

لقد ارتبطت شعوب آسيا الوسطى الناطقة بالتركية الأوزبك الكازاخ الكاراكلباك، القرغيز التركمان بوحدة اللغة، والاتصال الموسع، والتداول الثقافي والعرقى والتطور التاريخي المتشابه، فالبدو ذوو الأصل التركي، أو اللغة التركية، انتشروا فوق منطقة واسعة من سهوب آسيا الوسطى، وكانوا يمتزجون بشكل مستمر من داخل اندماج القبائل المنفصلة بمجموعات وطنية أكبر، مشكلين اتحادات سياسية غير مستقرة وقصيرة الحياة، وفقاً للأنظمة القبلية والإقطاعية المبكرة، وهم غالباً ما كانوا يمتصون المجموعات المتفرقة من القبائل الكبرى التي وصلت أسماؤها على أنها أسماء، أو أسماء عرفية انتشرت في المنطقة.

التدخل الواسع بين الشعوب التركية في مجال الفن الملحمي سببه العملية المستمرة لتفكك القبائل البدوية في آسيا الوسطى، واتحادها حول مركز ما معاصر ومستقر وفعال مدعم بتطور علاقات إقطاعية، وروابط ثقافية واقتصادية أقرب للدول الصاعدة في وقت لاحق.

حكاية الباميش:

وهكذا وجدت الحكاية الملحمية الباميش في كامل المنطقة التي تقطنها الشعوب التركية اعتباراً من الألتاي في آسيا الوسطى إلى الفولجا وجبال الأزرال من ناحية أولى، وحتى ما وراء القوقاز وآسيا الصغرى من ناحية أخرى، وفي الوقت نفسه تعد واحدة من أقدم الحكايات الملحمية العظيمة لهذه الشعوب.

أجزاء الملحمة:

كملحمة شعرية عظيمة سجلت الباميش بأشكال أوزبكية متعددة أفضلها فنيًا نسخة المغنى الشعبي فاضل أولدا شيف.

الجزء الأول من الباميش هو قصة خطبة بطولية، إذ يذهب البطل إلى بلاد الكالموك، حيث استقرت عائلة خطيبته، ويشارك في مباراة زفافية مع منافسه الكالموك في سباق الخيل والرماية والمصارعة، ويؤخذ الباميش في الجزء الثاني من الملحمة، سجينًا من قبل الكالموك ويقضي سبع سنوات في زنزانة الشاه الكالموكي، وتقع ابنة الشاه في حب الباميش وتحمره، وبعد أن تنقذه الأميرة يرجع إلى الوطن في اليوم الذي ستزوج فيه زوجته من المغتصب، فيقتل المغتصب، ويسترد قوته وحقوقه الزوجية، وهذه الحكبة عودة الباميش يوم زفاف زوجته شائعة في الملحمة والحكايات الشعبية، وتشابه كثيرًا من القصص.

ويشكل عام ومتشابه، فإن الحكايات الملحمية يقضي العديد من الأبطال للحكايات الملحمية البطولية في آسيا الوسطى، حكام المستقبل لشعوبهم، طفولتهم فواحدهم أما أن يولد لأب راع أو تبناه عائلة ثم يكبرون ويرعون القطعان بأنفسهم كما أن صداقة ابن الخان مع الناس العاديين يجب توضيحها من حيث حبه لهم وعنايته بهم، فهذا يحدد الماهية الديمقراطية والأبوية لحكم الملك الجيد، والملحمة تريد أن تجدد في البطل رجل الشعب، يشاركونهم قدرتهم وحياتهم، كذلك يكون لنسب البطل صفة أسطورية أيضًا.

ملحمة كودوغلو:

هذه الملحمة أو هذه الحكاية الملحمية لها أصولها التي تعود لأزمنة أكثر حداثة، لقد عرف بأشكال مختلفة عبر القوقاز في أذربيجان، أرمينيا، وجوجيا، وعند الأكراد، وفي بعض أجزاء القوقاز الشمالية، في الشرق الأدنى والأوسط، في تركيا وإيران الشمالية

جنوب أذربيجان وخراسان، وفي آسيا الوسطى عند التركمانين والأوزبكيين والكازاخيين والكارالبك والطاجيكين وعرب آسيا الوسطى، فلا الحدود الوطنية والعرقية، ولا حتى الاختلافات في الدين واللغة كانت حاجزاً لانتشار هذه القصة، لقد أصبحت شخصية هذا البطل الذي ابتدعه التقليد الملحمي بسبب الظلم الاقطاعي، تعبيراً عن الاحتجاج الأولى للناس ضد ظالمهم، وقد اكتسب أولاً ميزات الشاعر، والانتقام لشعبه، واكتسب بعد ذلك ميزات الحاكم الديمقراطي الخيالي صديق أتباعه وحاميهم.

كتاب جدى كوركوت:

التسجيل الأول الوحيد المدون عن الملاحم التركية في العصور الوسطى هو سلسلة الغز في القرن الخامس عشر المعروفة بكتاب جدى كوركوت يضم الكتاب مقدمة واثني عشرة حكاية ملحمة نثرية مع إدخالات شعرية، ولكل حكاية حيكها الخاصة، لكن الشخصيات هي نفسها جزئياً، الأبطال هم بكوات الغز، أتباع الحاكم البطولي للغز، والأعلى مقاماً بينهم وهو كازان بيك، ثم شخصية أخرى معروفة للجميع هي الجد كوركوت، وهو رجل مسن ذو لحية بيضاء، إنه المعلم الحكيم للخان، للبكوات، وللشعب بأكمله، يتخذ كوركوت دوراً في حدث الحكاية، لكنه هو أيضاً مؤلفها وراويها، وهو الذي يترجم بالأعمال البطولية الممجدة للخان ورفاقه، وفي المقدمة نجد عدداً من الأمثلة المنسوبة إلى كوركوت.

يوضح التراث الملحمي للشعوب التركية في آسيا الوسطى، وعلى نحو متنوع جميع المراحل المتعاقبة لتطور السرد الملحمي، كما تقدمه الحكاية الشعبية البطولية والقصائد البطولية التقليدية قبلية، أو إقطاعية كانت.

الروايات الشعبية تحمل عمل الملاحم البطولية:

في الشرق الأدنى، حلت عمليات الروايات الشعبية المنتشرة جداً في تركمانيا، أذربيجان وتركيا عمل الملاحم البطولية القديمة، وهذه غالباً ما تستمد موضوعاتها م

حكاية قصيرة ومن موضوعات الحب الرومانسية، وجزئيًا من الحياة المنزلية، فتلك الموضوعات الخرافية والبطولية تراجعت لصالح الوجدانيات والمشاعر الإنسانية أمثال طاهر وزهرة، العاشق غريب، أسلي وكريم، غول وبلبل، وسواها، لكن ما تتميز به هذه الروايات الشعبية هي أنها تحكي على شكل نثر ممزوج بأغان ذات صفة غنائية تعبر عن مشاعر الشخصيات.

المراجع العربية

- ملاحم آسيا الوسطى الشفوية، ترجمة/ رباب ناصف، ونوراك تشادويك.
 - تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد.
 - المعجم الوسيط.
 - المرأة المسلمة في آسيا الوسطى، د/ نعمة على مرسى.
 - الكامل في التاريخ، لابن الأثير.
 - تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد.
 - المنتظم في التاريخ، لابن الجوزي.
 - فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية في آسيا الوسطى، د/ محمود أحمد محمد سيد قمر.
 - موسوعة حضارة العالم لأحمد محمد عوف.
 - أندريه كاراطائف مقدمة الماكروديناميكا الاجتماعية. الدورات المثوية والتيارات
- الالفية ISBN 5-484-00559-0
- آسيا في التاريخ الحديث والمعاصر / رأفت غنيمي الشيخ، محمد رفعت عبد العزيز. القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1997.
 - تاريخ بخارى منذ أقدم العصور، أرمينوس فامبري.
 - تاريخ بخاري، أبو بكر النرشخي.
 - بلاد ما وراء النهر، الساداتي.
 - مجلة المسلمون في الشرق السوفيتي، العدد 4: 15.
 - وطبقاً لإحصائية سنة 1991م المنشورة في مجلة آفاق الإسلام العدد الاول آذار 1993م
 - بلغ عدد السكان في تارستان 5678000 نسمة.
 - مجلة التوحيد العدد 5 موضوع الإسلام في الاتحاد السوفيتي، الدكتورة س. أكينز.

• نسبة إلى نهر الفولغا، وهو نهر في روسيا 3690 كم أطول نهر في اوربا ينبع في آسيا الوسطى (جبال ألتاي) ويمر في فولغو غراد - ستالين غراد سابقاً - واستراخان ويصب في بحر قزوين - محور حركة الملاحة في روسيا - حيث تقع جمهورية التتر في المجرى الاوسط من نهر الفولغا ورافده نهر كاما. (المنجد في الاعلام).

• موسوعة المورد 9: 177.

• مجلة الفكر الجديد، العدد الخامس، المسلمون في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) واتحاد الجمهوريات المستقلة: 146.

• التوحيد: العدد 5، موضوع الاسلام في الاتحاد السوفيتي، س. اكينر: 101.

• سينغيانغ: إحدى المقاطعات الواقعة في شمال غرب الصين، سكانها الاصليون كلهم مسلمون، يبلغ عددهم اليوم ما يقرب من 8075000 نسمة، ومساحتها 1646800 كم²، وعاصمتها أورستي. كانت أصلاً جزءاً من تركستان المسلمة، وتسمى أيضاً تركستان الصينية، احتلتها الصين بالقوة وتطلق عليها اليوم «مقاطعة يونان» لتتسببها أصلها. وكان أباطرة الصين ورؤساؤها يضطهدون مسلمي هذه المنطقة. غير أن أشد اضطهاد حلّ بهم كان منذ بداية عهد ماوتسي تونغ تطبيقاً للعقيدة الشيوعية في محاربة الاسلام والقضاء عليه، وقد لجأت السلطات الشيوعية الصينية إلى جلب الملايين من الصينيين الشيوعيين أسكتهم بينهم ونقلت الملايين منهم إلى مناطق صينية بعيدة، لتبعثرهم وتسيهم دينهم. عن مجلة الفكر الجديد، العدد الخامس: 147، 153.

• مجلة الفكر الجديد، العدد الخامس، المسلمون في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) واتحاد الجمهوريات المستقلة: 147.

• مجلة التوحيد: العدد 5: 101 (الاسلام في الاتحاد السوفيتي) الدكتورة س. اكينر.

• دولة مسكوفيا القديمة، وكانت تقتصر على امارة موسكو فقط. وتجدر الاشارة إلى أن مساحة الاتحاد السوفيتي المنحلّ ككل كانت تبلغ 22400000 كم². ولم تكن الاراضي الروسية منها تتجاوز مليوني كيلو متر مربع، أي أن أكثر من عشرين

مليون كم2 هي أقاليم إسلامية أصلاً حين بدأ الروس غزوها منذ عام 1552مواخضاعها للسيطرة الروسية ودمجها بأراضيها وإضاعة كيانات السكان المسلمين الدينية والقومية بقوة السلاح والارهاب والابادة.

• إن هذه الاقاليم الاسلامية الواسعة - الجمهوريات المستقلة حديثاً - التي كانت تشكل جزءاً من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، لم تكن في الحقيقة غير مستعمرات روسية احتلت منذ عام 1552م.

• المسلمون في الاتحاد السوفيتي، بينفسن - لمرسيه، تعريب الدكتور إحسان حقي: 23.
• الكرياشن: تعني بالتركية (المُعَمَد) وهم أحفاد إمارة قازان الذين ارتدوا إلى المسيحية الارثوذكسية على موجتين، في النصف الثاني من القرن السادس عشر والنصف الثاني من القرن الثامن عشر، وُسَمِيَ الاولون «ستاروكرياشن» أو المرتدون القدماء ومايزالون مسيحيين حتى اليوم ويبلغ عددهم قرابة 100000 نسمة، والآخرين «نونوكرياشن» أو المرتدون الجدد الذين عاد معظمهم إلى الاسلام بعد عام 1905م ويقدر عددهم اليوم حوالي 150000 نسمة.

• المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي، ألكسندر، لوميرية: 18.
• مجلة التوحيد، العدد 5: 105.

• ن. آشرون، تطوّر الاسلام في الاتحاد السوفيتي: 65.

• المسلمون المنسيون، ترجمة عبد القادر ظللي: 33.

• جريدة كيهان العربي: العدد 2804، تارستان تتطلع إلى علاقات مساواة مع روسيا.

• نسبة إلى نهر الفولغا، وهو نهر في روسيا 3690 كم أطول نهر في اوربا ينبع في آسيا الوسطى (جبال التايي) ويمر في فولغو غراد - ستالين غراد سابقاً - واستراخان ويصب في بحر قزوين - محور حركة الملاحة في روسيا - حيث تقع جمهورية التتر في الجرى الاوسط من نهر الفولغا ورافده نهر كاما. (المنجد في الاعلام).

• موسوعة المورد 9: 177.

• مجلة الفكر الجديد، العدد الخامس، المسلمون في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) واتحاد الجمهوريات المستقلة: 146.

• التوحيد: العدد 5، موضوع الاسلام في الاتحاد السوفيتي، س. اكينر: 101.

• سينغيانغ: إحدى المقاطعات الواقعة في شمال غرب الصين، سكانها الاصليون كلهم مسلمون، يبلغ عددهم اليوم ما يقرب من 8075000 نسمة، ومساحتها 1646800 كم²، وعاصمتها أورستي. كانت أصلاً جزءاً من تركستان المسلمة، وتسمى أيضاً تركستان الصينية، احتلتها الصين بالقوة وتطلق عليها اليوم «مقاطعة يونان» لتنسبها أصلها. وكان أباطرة الصين ورؤساؤها يضطهدون مسلمي هذه المنطقة. غير أن أشد اضطهاد حلّ بهم كان منذ بداية عهد ماوتسي تونغ تطبيقاً للعقيدة الشيوعية في محاربة الاسلام والقضاء عليه، وقد لجأت السلطات الشيوعية الصينية إلى جلب الملايين من الصينيين الشيوعيين أسكتهم بينهم ونقلت الملايين منهم إلى مناطق صينية بعيدة، لتبعثرهم وتنسيبهم دينهم. عن مجلة الفكر الجديد، العدد الخامس: 147، 153.

• مجلة الفكر الجديد، العدد الخامس، المسلمون في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) واتحاد الجمهوريات المستقلة: 147.

• مجلة التوحيد: العدد 5: 101 (الاسلام في الاتحاد السوفيتي) الدكتورة س. اكينر.

• دولة مسكوفيا القديمة، وكانت تقتصر على امارة موسكو فقط. وتجدر الاشارة إلى أن مساحة الاتحاد السوفيتي المنحلّ ككل كانت تبلغ 22400000 كم². ولم تكن الاراضي الروسية منها تتجاوز مليوني كيلو متر مربع، أي أن أكثر من عشرين

مليون كم2 هي أقاليم إسلامية أصلاً حين بدأ الروس غزوها منذ عام 1552 مواضعها للسيطرة الروسية ودمجها بأراضيها وإضاعة كيانات السكان المسلمين الدينية والقومية بقوة السلاح والارهاب والابادة.

• إن هذه الاقاليم الاسلامية الواسعة - الجمهوريات المستقلة حديثاً - التي كانت تشكل جزءاً من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، لم تكن في الحقيقة غير مستعمرات روسية احتلت منذ عام 1552م.

• المسلمون في الاتحاد السوفيتي، بينغسن - لمسييه، تعريب الدكتور إحسان حقي: 23.

• الكرياشن: تعني بالترية (المعمد) وهم أحفاد إمارة قازان الذين ارتدوا إلى المسيحية الارثوذكسية على موجتين، في النصف الثاني من القرن السادس عشر والنصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويسمى الاولون «ستاروكرياشن» أو المرتدون القدماء ومايزالون مسيحيين حتى اليوم ويبلغ عددهم قرابة 100000 نسمة، والآخرين «نونوكرياشن» أو المرتدون الجدد الذين عاد معظمهم إلى الاسلام بعد عام 1905م ويقدر عددهم اليوم حوالي 150000 نسمة.

• المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي، الكسندر، لوميرية: 18.

• مجلة التوحيد، العدد 5: 105.

• ن. آشرون، تطوّر الاسلام في الاتحاد السوفيتي: 65.

• المسلمون المنسيون، ترجمة عبد القادر ظللي: 33.

• جريدة كيهان العربي: العدد 2804، تارستان تتطلع إلى علاقات مساواة مع روسيا.